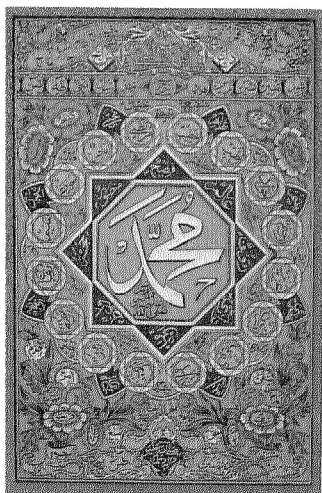


الشيخ عبد الله لعلايلي

مَشَاهِدُ وَقَصَصُ

مِنْ أَيَّامِ النَّبُوَّةِ




دار الجديد _____

الشيخ عبد الله عيسى

مِنْ أَيَّامِ النَّبُوَّةِ مَشَاهِدٌ وَقَصَصٌ

دار الجدي

© دار الجديد، طبعة ثانية مُنقَّحة، ١٩٩٣

٣٤٣٧٥٢ - :  : ٥٢٢٢ / ١١ - نصّ النّص: علي حمدان - صَبَطَه بالشّكل على
أُصوله: محمود عشاف - خطّ الخطوط: علي عاصي - رَسَم الغلاف: محمد شمس الدين -
L'Islam nelle Stampe, BE-MA Editrice, Milano, 1988 صورة الغلاف مُقتبسة من:

مَنْبَهَةٌ... لهذه الطبعة

أَبَتْ هَذِهِ الدَّارُ الْكَرِيمَةُ إِلَّا أَنْ تَجْعَلَ مِنْ بَعْضِ قَدِيمِي جَدِيداً
كَاسِمِهَا، فَأَخَذْتُ بِأَسْبَابِ نَشْرِ هَذَا الْكِتَابِ، بِخِلَّةِ قَشِيَّةٍ فِي
حَوَاشِيهَا إِغْرَاءً، شَأْنَهَا فِيمَا تَنْشُرُ.

وَأَقْشَرْتُ عَلَيْهَا أَنْ يَمَثَلَ لِلنَّاسِ هَذِهِ الْمَرَّةَ بِعُتْوَانِ جَدِيدٍ،
كَوَلِيدِ تَقْمِصٍ فِي يَوْمِهِ غَيْرِ ثَوْبِ أَمْسِهِ... أَوْ تَنَاسَخٍ فِي خَلْقِهِ
خَلْقُهُ الْبَدِيءُ، وَأَنْتَظَمْتُهُ أَمْشَاجُ تَكْوِينِهِ الْأَوَّلِ. فَأَكْبَرُ فُصُولِ
الْكِتَابِ تَدَوُّرُ عَلَى أَسْمِهِ هَذَا الْمُسْتَحْدَثِ: مِنْ أَيَّامِ النَّبُوَّةِ - مَشَاهِدُ
وَقَصَصُ، بَعْدَ أَنْ كُنْتُ دَفَعْتُهُ إِلَى الْقَارِيءِ مِنْ قَبْلِ سَنَةِ ١٩٤٧ عَنْ
دَارِ الْعِلْمِ لِلْمَلَايِينِ أَيَّامَ يَفَاعِيهَا وَحَبْوِهَا، إِبَانَةً كَانَتْ تَتَأَقَّلُ بَيْنَ
الْحُبُورَةِ وَالْحَبْوَةِ، وَتَتَشَنَّى بَيْنَ الْخَطْوَةِ وَالْخُطْوَةِ، بِأَسْمِ: أَيَّامِ
الْحُسَيْنِ.

وَلَمْ أَنْبَغُ بِالتَّسْمِيَةِ الْخَاصِرَةِ الْعَتِيدَةِ عَنْ تِلْكَ الْقَدِيمَةِ
الْعَهِيدَةِ، فَالْحُسَيْنُ (ع)، فِي جَوْهَرِهِ وَحَقِيقَتِهِ، يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ النَّبُوَّةِ،
وَهَذَا أَكْبَرُ لَهُ وَأَزْحَبُ وَأَعْنَى وَأَحَبُّ.

وَجَاءَ اقْتِرَاحُ الدَّارِ، دَارِ الْجَدِيدِ، عَلَيَّ، بَعْدَ إِبْلَالِي مِمَّا أَلَمَّ بِي
وَأَدْخَلَنِي الْمُسْتَشْفَى. وَاتَّفَقَ لِي لِلْأَوْنَةِ أَنْ رَأَيْتُ الَّذِينَ
بَلَوْتُهُمْ مُنْذُ سَنَةِ ١٩٣٥، أَعَانِيهِمْ وَأَعَانِي مَعَهُمْ إِلَى أَعْوَامِي هَذِهِ
الْأَخِيرَةِ، عَلَى حَقَائِقِهِمْ. فَكَانَتْ حَصِيلَةُ بِيَادِرِي مِنْهُمْ، فِي أَكْبَرِ
شَأْنِهَا، زُؤَانًا إِلَّا بَقِيَّةً هِيَ الْكَرَائِمُ مِنَ الْحَبِّ وَاللُّبَابِ، شَفَعَتْ بِمَا
كَانَ اجْتَمَعَ عِنْدِي مِنَ أَكْدَاسٍ «غَرَابِيبِ سُود».

فَكَانَ فِي مُقَدِّمَةِ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ الْكَرِيمِ الَّذِينَ ذَكَرُونِي أَيَّامَ
تَفَطَّرْتُ أَلْمَا حُزْبَائِي وَسُوَيْدَاءُ نَفْسِي، مِنْ أَصْحَابِ السَّمَاخَةِ الشَّيْخِ
مُحَمَّدٍ مَهْدِي شَمْسِ الدِّينِ الَّذِي قَالَ، وَلَمْ يَتَوَرَّغْ، عَلَى مَسْمَعِ
وَمَرَأَى، وَلَكِنْ بِتَغْيِيرٍ يَتَضَمَّنُ مَغْنَاهُ: مَا اتَّفَقَ لِي وَشَهِدْتُ ظُلُمًا مِنْ
ذَوِيهِ كَالْعَلَايِلِيِّ، وَلَا رَأَيْتُ ظُلُومًا كَقَوْمِهِ، وَالشَّيْخِ الصَّدِيقِ ابْنِ
الشَّيْخِ الصَّدِيقِ مُحَمَّدٍ رَشِيدٍ رَاغِبٍ أَلْقَابِي أَلْقَائِمٍ بِأَعْبَاءِ
أَلْفَتَوَى... وَمِنْ أَصْحَابِ الدَّوْلَةِ سَلِيمِ الْخَصِّ وَرَشِيدِ الصَّلْحِ
وَشَفِيقِ الْوَزَانِ... وَمِنْ أَصْحَابِ أَلْعَالِي مِشَالِ إِدَهْ، وَمِنْ سُوْرِيَّةِ
تَفْضَلِ بَمَنْ نَابَ عَنْهُ أَلْدُّكُورِ عَبْدِ أَلرَّوُوفِ أَلْكُسمِ حَامِلًا بَاقَةَ زَهْرٍ.
وَحَصَصْتُهَا بِأَلذِّكْرِ إِذْ كَانَ لِي فِيهَا أَيَّامٌ وَأَيَّامٌ فِي الْأَرْبَعِينَاتِ
وَالْخَمْسِينَاتِ، وَلَا سِيَّما يَوْمَ أَلْمِهْرَجَانِ أَلتَّأْيِينِيِّ أَلأَوَّلِ لِعَدْنَانِ
أَلْمَالِكِيِّ وَكَانَ غَرَبِيًّا جَامِعًا، يَوْمَ ٥ آبِ سَنَةِ ١٩٥٥. وَأَكْتَفِي
لِتَعْرِفَ مَا كَانَ مِنْ وَقْعِي عَلَى النَّاسِ أَنْ تُرَاجَعَ الصَّحَافَةُ فِيهَا
يَوْمَ ذَاكَ، وَبِخَاصَّةِ مَجَلَّةِ أَلْجَيْشِ أَلسُّورِيِّ نَفْسِهِ. وَلَكِنِّي أَتَعَزَّى بِمَا
قَالَ ابْنُ الْمَقْرِيِّ صَاحِبُ نَفْحِ الطَّيِّبِ:

سُبْحَانَ مَنْ قَسَمَ الْخُطُوطَ فَلَا عِتَابَ وَلَا مَلَامَةَ
أَعْمَى، وَأَعشى، ثُمَّ ذُو بَصَرٍ وَرَزَقَاءُ الْيَمَامَةِ
وتَوَجَّ عيادتي، أَنَّهُ أَقْبَلَ مُهْزُولاً صَاحِبُ الْفَخَامَةِ رَئِيسُ
الْجُمْهُورِيَّةِ، وَلَا تَظُنُّهُ مَنْ قَدْ يَتَبَادَرُ إِلَى ذِهْنِكَ أَوْ مَنْ تَعْرِفُ، بَلْ
هُوَ الْأَرْفَعُ وَالْأَكْرَمُ وَالْأَحَبُّ، إِنَّهُ فَخَامَةُ رَئِيسِ جُمْهُورِيَّةٍ عَبَقَرُ،
الإِبْدَاعِي سَعِيدُ عَقْلٍ.

وَلَا تَأْسَ أَوْ تَبْتَئِسْ مِنْ قِلَّةِ الرِّعْيَةِ فِي جُمْهُورِيَّتِكَ، فَقَدِيمَا
قَالَ رَصِيفُكَ السَّمَوَالُ:

تَعَيَّرْنَا أَنَا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا فَقُلْتُ لَهَا: إِنَّ الْكِرَامَ قَلِيلٌ

وَكَانَ سَبَقَ دُخُولِي الْمُسْتَشْفَى، بِادِرَةِ مُوَاسِيَةٍ عَلَى غَيْرِ
أَنْتِظَارٍ، بَلْ عَلَى تَيْفَةٍ، أَيْ عَلَى حِينِ بَغْتَةٍ، مِنْ الْقِيَمَةِ الْمَشْرِفَةِ عَلَى
مَسَاعِ إِنْسَانِيَّةٍ فِي صَيْدَا، أَخْتَصَّصْتَنِي بِدِرْعِ مُؤَسَّسَاتِهَا، وَلَأَنَّهَا بَاتَتْ
الآنَ فِي مَكَانٍ مَسْئُولِيَّةٍ أَتَجَاوَزُ وَأَطْوِي الْأَسْمَ، لِئَلَّا تَنْقَلِبَ كَلِمَةُ
الشُّكْرِ كَلِمَةً زُلْفَى... وَأَنَا مَا تَعَوَّدْتُهَا وَأَنَا بَعْدُ فَتَى، فَكَيْفَ بِي وَأَنَا
الْثَمَانِيْنِي...

فَكَانَ هَؤُلَاءِ «مِجَنِّي دُونَ مَنْ كُنْتُ أَتَّقِي»، وَهُمْ عَلَى أَيْ
حَالٍ أَهْمٌ وَأَجَلٌ مِنْ مِجَنِّ ابْنِ أَبِي رَبِيعَةَ «ثَلَاثُ شُخُوصٍ كَاعِبَانِ
وَمُغْصَرُونَ».

وَالْغَرِيبُ أَنَّهُ فِي شَرِيطِ هَذِهِ التَّرَاثِيَاَتِ، تَبَدَّى لِي حَامِلُ قَلَمٍ
كَانَتْ كَلِمَتِي فِي رِثَاءِ أَبِيهِ وَخَدَهَا شَافِعَةً لِيَذْكُر... وَحِينَ أَنْوَّهُ

بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ أَشِيرُ إِلَى أَنَّهَا كَلِمَةٌ^(١) كَانَ يَحْفَظُ وَيُرَدِّدُ أَكْثَرَ

(١) أثبت نصها الكامل هنا لتلا يذهب بها دهر الدهاير، وتلصقها ذؤامة الأعاصير كأكثر ما كنت كتبت. فلم تُنشر إلا في جريدة الحياة لصاحبها المحرم كامل مروة، وذلك بتاريخ ٢١/٢/١٩٤٧ عدد ٤٩٦ وهذا نصها:

وَأَيُّهَا الْفَقِيدُ الْكَبِيرُ: هُنَيْيَةً وَتَغَضُّبًا كَانَ لِي مِنْ غَمْرِكَ، يَوْمَ مَشَى الْقَدَرُ عِنْدِي بِحَظِّ سَعِيدٍ، فَعَرَفْتُكَ وَمَا كَانَ طَوِيلًا وَلَقَيْتُكَ وَمَا كَانَ كَثِيرًا.

وَفِي حَسِّ الْقَلْبِ، أَيُّ شَأْنٍ لِلزَّمَنِ الَّذِي يُخْتَصِرُ بِجَبَرُوتِهِ عِنْدَ عَتَبَتِهِ، فَقَدْ آنَقَلَبْتُ وَكَأَنَّ أَمْسِي مَا أَتَسَعُ إِلَّا لَكَ، وَكَأَنَّ يَوْمِي لَيْسَ بَعْدِي إِلَّا ذِكْرُكَ.

هِيَ هُنَيْيَةً، وَلَكِنْ مِمَّا تَرَكْتُ فِي حَسِّ نَفْسِي بِكَ أَشْعُرُ لَكَأَنَّهَا هِيَ غَمْرِي كُلُّهَا جَاءَ فِي بِقَدَارٍ هُنَيْيَةً.

عَرَفْتُكَ إِنْسَانًا، وَلَا أَرِيدُكَ، بِصِفَاتِ أَنتَ قَبْلِكَ أَكْرَمَهَا، فَلَيْسَ قَلِيلًا فِي دُنْيَايَ وَدُنْيَاكَ، أَنْ تَعْرِفَ إِنْسَانًا يَعْشُقُ حَقًّا بِقَلْبِهِ، بِكِبَرِيَاءِ قَلْبِهِ؛ إِنْسَانًا يَعْشُقُ بِحَقَائِقِهِ؛ بِغُرْيِ حَقَائِقِهِ؛ إِنْسَانًا يَعْشُقُ بِبُيُوتِهِ، بِوُغْيِ لَيْعِهِ فِي نَاسٍ، دَعِ الْغَفَى الْإِنْسَانِي، ثُمَّ قُلْ: إِنَّهُمْ يَعْشُقُونَ بِمَا تَشَاءُ أَنْ تَقُولَ، وَلَا أَحَارُوكَ، بَلْ لَعَلِّي أَجَارِيكَ.

قَرَأْتُكَ فَحَبَبْتُكَ إِلَيَّ مَا قَرَأْتُ، ثُمَّ عَرَفْتُكَ فَأَحْسَنْتُ مَا قَرَأْتُ لَكَ حَيَاةً، فَاحْزَنُفْ مَا كَانَ يُنْخَدِرُ عَنْ قَلْبِكَ، إِلَّا بِحَرْفٍ مِثْلِهِ أَنْحَدَرَ إِلَيْهِ مِنْ مَغْنَاكَ.

فَمَا أَكْثَرْتُ مِنْكَ وَلَا غَيْرَكَ عِنْدِي، بَلْ لَكَأَنِّي يَوْمَ عَرَفْتُكَ أَقْرَأَكَ أَيْضًا، وَلَكِنْ فِي نَبْرَةٍ هِيَ أَكْثَرُ أَشْيَاعًا، وَمَا كَانَ لِهَذَا أَلَوْزِي أَنْ يَنْهَضَ بِكُلِّ حَرَاظَتِهَا.

فَكُنْتُ، فِيمَا تَحْطُ وَتَقُولُ، تَتَقَدَّمُ إِلَى هَيْكَلِ هَذَا الْوَطَنِ بِدُورِكَ وَقَرَابِيِّكَ... كَالَّذِي يُضَلِّي، وَمَعْنَى اللَّهِ فِي صَلَاتِهِ أَكْبَرُ صَلَاتِهِ، فَوْقَ آخَرِينَ أَكْبَرُ مَعْنَى اللَّهِ فِي أَنْفُسِهِمْ حَظُّ الْفُسَيْهِمْ، لَصَلَاتِهِمْ فِي مَعْبَدِ الْوَطَنِ رَجَسٌ، وَصَلَاتُكَ فِي مَعْبَدِ الْوَطَنِ قُدْسٌ...

وَلَيْسَ فِي هَذِهِ الْزُفْرَةِ آتِي أَنْطَوْتُ عَلَيْهَا هَذِهِ الْكَلِمَةُ، حُرُوفُ اسْتَوَتْ فِي الْفَاطِ، وَمِثْلَمَا تَمَوَّدَ أَنْ يَجِدَ آتَاكَ فِي كَلِمَاتِ دُمُوعِهِمْ وَأَفَانِي دُمُوعِهِمْ... وَأَمَّا هِيَ حَشَاةُ أَرْطَشَتْ قَطْرَاتِهَا، وَجَرَتْ فِي حُرُوفِ رَسْمَتِهَا، ثُمَّ جَمَدَتْ فِيهَا.

مَقَاطِعِهَا، وَلَعَلَّكَ تَسْتَغْرِبُ وَلَا تُصَدِّقُ، أَمِينُ نَخْلَةِ الَّذِي كَانَ، فِي
الْعَرَبِيَّةِ، الْأَدَبِ، الْأَدَبِ الدَّمَقَسِ الْحَرِيرِ.

وَأَرَدْتُ مَعَ شَاعِرِنَا الْعَرَبِيِّ الْقَدِيمِ لَبِيدِ قَوْلُهُ:

ذَهَبَ الَّذِينَ يَعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَيَقِيتُ فِي خَلْفِ كَجِلْدِ الْأَجْرِبِ

وَقَوْلِ الْآخَرِ الْعَبَّاسِيِّ:

قُمْ فَاسْقِيتِي بِالْكَبِيرِ وَغَشِي ذَهَبَ الَّذِينَ يَعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ

وَالْأَعْرَبُ الْأَعْرَبُ فِي هَذَا الزَّمَنِ، الزَّمَنِ ذِي التَّعَاجِبِ، أَنْ
الْقَدَرُ بِكُلِّ مَا فِيهِ مِنْ أَسْرَارِ الْغَيْبِ، كَأَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْ سَيِّدًا مِنَ الْجِلَّةِ
الْعَلِيَّةِ الَّذِي اخْتَفَى فَجَاءَهُ، إِلَّا قَنْطَرَةٌ غُبُورٍ لِشَيْءٍ لَا أَذْرِي مَا أَسْمُهُ،
لِيُضْبَحَ وَخَدَهُ الدُّنْيَا، كُلُّ الدُّنْيَا، وَبِكُلِّ حَذَافِيرِهَا أَيْضًا...

وَيَنْقَطِعُ عَجَبِي كُلُّهُ، أَنَّنِي فِي مِضْمَارٍ عَرِضٍ بَعْضٍ مِنْ أَيَّامِ
الثَّبُوءِ، وَسَبَقْتُ بِأَنْ أَحْسِنَ مِنْ أَكْبَرِ أَيَّامِهَا، فَلَا بَدْعَ أَنْ أَبْلِسَ

وَأَنَا، عَلِمَ اللَّهُ، مَا كُنْتُ لِأَجْرِي خَافًا عَلَى قِرْطَاسٍ، لَوْ أَنَّ مِنْ أَكْثَبِ عَنْهُ يَقْرَأُنِي، أَوْ يَقْرَأُ لِي
يُؤْمِرُهُ عَنْ أَمْسِهِ.

وَلَكِنْ هِيَ ذِكْرَاهُ الَّتِي أَفَلْتُ عَلَيَّ، يَوْمَ بَاثَ أَخْبَرَ مِنْ حُدُودِ اللَّحْمِ وَالْدَّمِ، وَأَوْسَعَ مِنْ وَاقِعِهَا
فِي الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ.

أَيُّهَا الزَّاجِلُ الْكَرِيمُ: لَقَدْ أَبْثَلْتُ شَأْنَ النَّاسِ هُنَا، فَاتَزَتْ الْغُرْبَةُ، وَلَكِنْ مَنْ كَانَ يَذْرِي أَنَّكَ
سَطَوِيهَا غُرْبَةً إِلَى غُرْبَةٍ، هِيَ قَرِينَةٌ حَتَّى لَكَأَنَّهَا عِنْدَ مُنْخَدَرٍ يَدُكَ، وَبَعِيدَةٌ حَتَّى لَكَأَنَّهَا وَرَاءَ
مُنْخَدَرِ الشَّمْسِ.

فَيَا أَيُّهَا الْقَرِيبُ الْبَعِيدُ لَنْ نَفْقِدَكَ، فَأَنْتَ يَوْمًا ذَهَبْتَ تَهْدِيهِمْ وَتَبِي، وَهَذَا مِرَائِكَ.

وَأَنْتَ أَلْيَوْمَ بُبَارِكُ وَتُشِيرُ، وَهَذَا هَمْسُكَ هَمْسُ ذِكْرَاكَ...».

بُرْحَاءَ بَلَوَايَ بِالْعِظَائِمِ مِنْ بُرْحَاءِ بَلَوَاهُ الَّتِي تَحْمِلُ فِي ثَنَائِهَا
الْعِزَاءَ، لِبَاطِفَةِ الْمُعَذِّبِينَ، وَالطَّمَأْنِينَةَ كُلَّ الطَّمَأْنِينَةِ لِلْمَفْجُوعِينَ
الْمَكْرُوبِينَ، مِنْ دَهْرِهِمْ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ...

عَلَى أَنِّي أَتَأَسَّى بِقَوْلَيْنِ لَشَاعِرَيْنِ سَبَقَا فِي أَدَبِنَا الزَّاهِرِ،
أَحَدُهُمَا أَبُو أَحْسَنِ الْجُزْجَانِيِّ يَوْمَ أَخَذَ عَلَيْهِ النَّاسُ غَزَلَتَهُ فَأَجَابَ
مُتَعَلِّيًا:

يَقُولُونَ لِي: فَيْكَ أَلْقِبَاضٌ وَإِنَّمَا رَأَوَا رَجُلًا عَنْ مَنْزِلِ الدَّلِّ أَحْجَمًا
إِلَى أَنْ رَفَعَ عَقِيرَتَهُ مُتَلَوِّمًا:
أَأَشْقَى بِهِ غَرْسًا وَأَجْنِيهِ ذِلَّةٌ إِذَا فَاتَّبَاعُ الْجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحْزَمًا
ثُمَّ أَخَذْتُ نَفْسِي بِمَا أَخَذَ بِهِ صَاحِبُنَا أَبُو ذُوَيْبٍ الْهَذَلِي الَّذِي
رَاضَ مُيُولَ هَوَاهُ، وَكَبَّحَ جَمَاحَ صَبَوَاتِهِ فِي قَدَرٍ وَحَدٍّ:
وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغِبَتْهَا وَإِذَا تَرَدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَفْتَنُ
وَكَانَ عُقْبَى كُلِّ أَوْلَيْكَ أَنِّي سَعِدْتُ سَعَادَةً بَوَذَا بِمَعْنَى لَقْبِهِ
فِي السَّنْسِكْرِيتِيَّةِ: الْمُسْتَنِيرِ.

أَيْسَتْ بِوُخْدَتِي وَرَضِيَتْ بُغْدِي فَطَابَ الْجَوْ لِي وَدَنَا السُّرُورُ
وَأَحْكَمَنِي الزُّمَانُ، فَلَا أَبَالِي ... أَسَارَ الْجَيْشِ أَمْ رَكِبَ الْأُمِيرُ

الفاتحة

هذه فُصولٌ من حياةٍ تَمَجَّدَتْ فيها أُحْلَامُ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَاتَّصَلَتْ
فِي الْوَاقِعِ بِقَدْرِ غَيْرِ مَحْدُودٍ مِنْ رَوْعَةِ الْأُحْلَامِ...

فَلَمْ تَعُدْ تَحْمِلُ اسْمَهَا التَّقْلِيدِيَّ «الْأُحْلَامُ النَّائِيَّةُ» الَّذِي أَعْطَاهُ أَقْدَمُ
نَاطِقِي الشُّعْرِ، مُنْذُ فَجَّرَ الْإِنْسَانِيَّةَ، يَوْمَ غَدَتْ وَاقِعاً حَيّاً لِكَاثِرِينَ حَيٍّ...

*

وَكَانَ هَذَا الْفَجْرُ قَدْ أَنْبَتَ فِي الْغَابِ، وَاتَّصَلَ بِأُلَايِهِ فِي الْمَغَاوِرِ
وَالْكُھُوفِ، حَيْثُ أَطْلَأَ الْإِنْسَانُ، لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، إِلَى الْأَفْقِ مُتَأَمِّلاً، وَشَعَرَ
بِوُجُودِهِ...

وَلَكِنْ لَمْ يَسْقُطْ مِنْ وُجُودِهِ إِلَّا عَلَى أَشْبَاحٍ وَرُؤُوسٍ، ثُمَّ لَمْ يَفْهَمْ...

*

اتَّصَلَتْ حَيْزَةُ الْإِنْسَانِ بِكُنْهِهِ إِنْسَانِيَّتِهِ فِي مَرَاكِحِ النُّشُوءِ الْعَقْلِيِّ، وَمَدَّ
الْخَيَالَ فِي مَعْنَى الْحَيْزَةِ...

ولم يزل يلجج، مَعْصُوبَ الْعَيْنَيْنِ، هَيْكَلَ الْوُجُودِ الْأَصَمِّ، حَيْثُ لَا
يَكُونُ لِلصَّوْتِ رَجْعٌ وَلَا صَدَى، إِلَّا حَفِيفاً خَافِئاً وَلَغْطاً يَنْبَعِثُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ،
يَبْدَأُ أَنَّهُ مُبْهَمٌ كَنُغْمَةِ الْوَتْرِ الْمَقْطُوعِ، أَوْ رَجْفَةِ الْحَنَنِ الشَّارِدَةِ الدَّائِيَةِ...

*

يَمُرُّ شَرِيطُ الْوُجُودِ سَرِيعاً كَاللُّمَحَةِ الْمُضْمَحِلَّةِ. وَمَا يَنْبُثُ مِنْهُ إِلَّا
رُؤْيًى يَمُدُّهَا الشَّرَابُ وَالْآلُ، كَتَلِكِ الرُّؤْيِ الَّتِي تَتَرَاقَصُ عَلَى الْقِمَمِ فِي عَيْنِ
الْفَجْرِ وَأَعْتِمَاضِ الْغُرُوبِ...

إِنَّ إِنْسَانَ الْيَوْمِ، حِينَ يَلْتَقِي، فِي بَعْضِ مُنْحَدَرَاتِ (*) الطَّرِيقِ، بِإِنْسَانِ
التَّارِيخِ الْبَعِيدِ، لَنْ يَجِدَ لَدَيْهِ، بَعْدَ رِحْلَةِ الزَّمَنِ الطَّوِيلَةِ بِهِ، مَا يُخْبِرُهُ عَنْهُ...

*

وَأخيراً ثَبَتَ فِي طَبَعِ الْإِنْسَانِ أَنَّ بَحْثَ الْوُجُودِ يَحُولُ دُونَ تَذَوُّقِهِ،
فَأَنْكَفَأَ عَلَيْهِ، وَتَسَجَّ أَخْلَامُهُ عَنِ السَّعَادَةِ وَالْخَيْرِ وَالْجَمَالِ...

وَكثيراً مَا كَانَ يَمُرُّ بَيْنَ حَيْنٍ وَآخَرَ، فِي جَوْ الْإِنْسَانِ، كَوَاكِبُ
مُلْتَمِعَةٍ تُضِيءُ جَوَانِبَ هَذَا الْوُجُودِ، وَهِيَ تُجَنِّحُ أَحْيَاناً وَتَذْهَبُ صُبْعاً أَحْيَاناً،
لِتَنْقُلَ الْبَشَرَ مِنَ الْحَيْرَةِ إِلَى التَّأَمُّلِ، مَأْخُودِينَ بِنَشْوَةِ خَفِيفَةٍ تَظَلُّ الذِّكْرَى تُشْيِعُهَا
أَبْداً...

وإلى هذه الذِّكْرَى، الَّتِي تَحْمِلُ مَعْنَى أَرْلِيَّاءَ، قَصَدْنَا فِي عَرَضٍ ذِكْرَى

(*) كِنَايَةٌ عَنِ الْقَبْرِ.

النُّبُوَّةُ التَّارِكَةُ أَلْوَانَهَا الْمِثَالِيَّةَ تُشِيرُ إِلَى الْخُلُودِ، وَتُنَسِّدُ بِشَفَقِهَا الْمُشِيعَ عَلَى
الْبَقَاءِ...

مُقدِّمة

لم أقصِدْ في هذه المَشْهَدِيَّاتِ إلى التاريخ، إلا فيما يَدْخُلُ في حَدِّ تَصْحيحِ الرِّوَايَةِ أوِ الحَبْرِ، وأما ما وَرَاءَ ذَلِكَ فَقَدْ أَوْسَعْتُ تَحْقِيقَهُ وَدَرَسَهُ فِي تَارِيخِ الْحُسَيْنِ: نَقْدَ وَتَحْلِيلَ الَّذِي خَصَّصْتُهُ بِالْوَجْهِ التَّارِيخِيِّ الْمَخْصُصِ، وما يَدْخُلُهُ مِنْ قُرْبٍ أَوْ بُعْدٍ، لَكِنِّي يَتَسَنَّى لِلْمُطَّلِعِ أَنْ يَتَّصِلَ بِالشَّخْصِيَّةِ، الَّتِي يَدُورُ الْبَحْثُ عَلَيْهَا، اتِّصَالاً تَاماً يُحَوِّلُهُ أَنْ يُصْدِرَ حُكْماً، بِسَلْبٍ أَوْ إِجَابٍ.

وحاولنا، هناك، أَنْ نَتَفَهَّمْ حَرَكَاتِ الثُّبُوتِ وَالنَّبْيِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى عَوَامِلِ الْعَصْرِ الَّتِي لَا بُدَّ أَنْ تُقَيَّدَ مَجَارِي التَّارِيخِ، إِنَّ لِلْجَمَاعَةِ أَوْ لِلْأَفْرَادِ.

وهذه العواملُ، الَّتِي هِيَ مَصْدَرُ أَلْوَانِ الزَّمَنِ، نُسَمِّيها تَارِيخاً حِينَمَا تَقَعُ فِي الْمَكَانِ، وَتُحَرِّكُ الْجُمُوعَ عَلَى مَا آسَتْتَتْ مِنْ أَتْجَاهَاتٍ وَحَدَّدَتْ مِنْ مَذَاهِبٍ. وَبَدُونِهَا لَا نَفْهَمُ مِنَ التَّارِيخِ إِلَّا أَنَّهُ تَكَرَّرَ لِحَرَكَاتٍ مُبْهَمَةٍ لَا تُعْبَرُ لَنَا عَنْ شَيْءٍ يَدْخُلُ فِي حَدِّ فَايِدَتِنَا.

وَيَكُونُ الْغَرَضُ مِنَ التَّارِيخِ قَدْ ضَاعَ، حِينَ لَا يَتَسَنَّى لَنَا أَنْ نَصِلَ الْجَانِبَ الْوَاقِعِي مِنَ الْحَيَاةِ الَّتِي نَعِيشُهَا بِالْجَانِبِ التَّارِيخِيِّ، فَإِنَّ الْحَيَاةَ كَلِمَةٌ مُؤَلَّفَةٌ مِنَ الْوَاقِعِ وَالتَّارِيخِ جَمِيعاً، وَإِنَّ الْجُزْءَ الْأَهَمَّ فِينَا، جَمَاعَاتُ كُنَّا أَوْ أَفْرَاداً، تَارِيخِي مَخْصُصٌ. وَمَا دُمْنَا لَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نَصِلَ مَا آسَتْوَى فِينَا مِنَ الْوَاقِعِيَّةِ بِمَا آسَتْوَى فِينَا مِنَ التَّارِيخِيَّةِ،

فلنْ تَكُونْ لَنَا فَايْدَةٌ مِنَ التَّارِيخِ.

يَبْدَأُنَا نَشْعُرُ بِالْحَاجَةِ إِلَى التَّارِيخِ. حَتَّى لِيَخَيَّلُ إِلَيْنَا أَنَّ لَدَى الْإِنْسَانِ، طِفْلاً وَشَيْخاً، حَاسَةً سَادِسَةً تَارِيخِيَّةً تُلَخِّصُ فِيهِ بِحَاجَتِهَا، وَتُشَيِّعُ فِي دَخِيلَتِهِ أَطْمِئْنَاناً مَشْفُوعاً بِنَلْبَسٍ لِلْقِصَّةِ، كَأَنَّمَا هُوَ يَسْمَعُ حِكَايَةَ نَفْسِهِ، أَوْ كَأَنَّمَا آتَتْ قَلْبَهُ، عَجَزَ الزَّمَنِ، إِلَى حَيْثُ يَكُونُ الزَّمَانُ الْمُؤَهَّمُ، وَتَقُومُ وَقَائِعُ الْمَاضِي.

وَهَذَا الْمِثْلُ فِي الْإِنْسَانِ يَرْجِعُ، عِنْدِي، إِلَى مَا آسَتْوَى فِي مِزَاجِ النَّفْسِ وَوَحَدَتِهَا مِنَ الْجُزْءِ التَّارِيخِيِّ، فَإِذَا صَادَفَ مَا يَبْعَثُهُ تَحْرُكٌ بِقُوَّتِهِ، وَأَخْضَعَ الْمَشَاعِرَ لِيَدِهِ فِي نَوْعٍ مِنَ الْهَيْامِ وَالْحَنِينِ، وَفِي نَوْعٍ مِنَ الْإِحْسَاسِ الْعَمِيقِ بِأَنَّهُ شَيْءٌ يَتَّصِلُ بِهِ آتِصَالاً ذَاتِيّاً، كَأَنَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مُنْذُ بَعِيدٍ.

وَهَذَا يُبَيِّحُ لَنَا أَنْ نَسْتَنْتِجَ أَنَّ الْإِنْسَانَ الْفُطْرِيَّ - أَوْ بِعِبَارَةٍ أَشْمَلٍ، الْإِنْسَانَ الَّذِي لَمْ يُكُونْ لَهُ تَارِيخاً - يَفْقِدُ هَذَا الْجُزْءَ، وَلِذَلِكَ هُوَ لَا يَتَحَسَّسُ بِهَذَا الْمِثْلِ أَوْ التَّزْوِجِ.

وَعَلَيْهِ فَفَقَرُ الْقِصَّةِ، أَوْ عَدَمُهَا، فِي آدَبِ أُمَّةٍ مَا، يَرْجِعُ إِلَى ضَعْفِ هَذَا التَّزْوِجِ، إِلَى عَدَمِ تَوَافِي الْجُزْءِ التَّارِيخِيِّ فِيهَا وَآسْتِوَائِهِ. وَهَذَا ظَاهِرٌ لَدَى عَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ الَّذِينَ لَمْ تَكُنِ الْقِصَّةُ تَسْتَهْوِيهِمْ آسْتِهْوَاءً يَجِيءُ فِي دَرَجَةِ شَهَوَاتِ النَّفْسِ أَوْ الْجَسَدِ الْآخَرَى؛ بَيْنَمَا نَجِدُ الْقِصَّةَ بَدَأَتْ تَبْرُزُ فِي آدَبِ الْعَرَبِ الَّذِينَ آسْتَقَرُّوا وَكُونُوا لَهُمْ تَارِيخاً نَوْعاً مَا، كَالْحَبَشِيِّينَ فِي عَهْدِ الْمَنَاذِرَةِ، وَالشَّامِيِّينَ فِي عَهْدِ الْعَسَاسِيَّةِ، فَتَوَلَّدَ لَدَيْهِمُ الْمِثْلُ إِلَى قَصَصِ التَّارِيخِ. وَلَعَلَّ فِي الظَّاهِرَةِ الْآتِيَةِ مَا يَقْطَعُ كُلَّ رَيْبٍ فِي صِحَّةِ هَذَا الرَّأْيِ، وَهِيَ أَنَّ الْقِصَّةَ الْمُرَكَّزَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا حَيْثُ يَكُونُ لِلْأُمَّةِ تَارِيخٌ مُنَوَّعٌ.

فَالْعَرَبُ عَادُوا، بَعْدَ التَّارِيخِ، إِلَى تَذْوِيقِ الْقِصَّةِ، لِأَنَّهُ تَوَافَرَتْ فِيهِمْ لَذَّةُ

الاستماع التي يَتَعَنُّها الجزء التاريخي في النفس، وقد قَوِيَتْ هذه اللَّذَّةُ دِراكاً مع التاريخ، وتَقَوَّى كذلك في كُلِّ أُمَّةٍ وَقَبِيلٍ.

ونحنُ نَلْمُسُ، في عَصْرِنَا الحَالِي، مَيْلاً أَشَدَّ إِلَى الْقِصَّةِ، حَتَّى كَادَتْ تَتَمَيَّزُ بِأَسْمِ الْأَدَبِ وَتَسْتَبْدُّ بِهِ عَمَّا سِوَاهَا، وَلَقَدْ قَالَ بَعْضُ التَّاقِدِينَ: إِنَّ الْأَدَبَ هُوَ الْقِصَّةُ فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ.

وَأَمَّا الشُّعُورُ بِكُلِّيَّةِ الْحَيَاةِ، والشُّعُورُ بِأَنَّ التَّارِيخَ وَالْقَصَصَ يُعْبِرَانِ عَنْ مَعَانٍ مُشْتَرَكَةٍ، هُمَا اللَّذَانِ يُعْلَلُ بِهِمَا، عَادَةً، الْمَيْلُ إِلَى الْقِصَّةِ، فَقَدْ تَوَلَّدَا، بِلا رَيْبٍ، بَعْدَ التَّارِيخِ. فَإِنَّ هَذَيْنِ الشُّعُورَيْنِ نَتِيجَةُ تَجَرُّبَاتٍ وَمُقَارَنَاتٍ قَامَ الْإِنْسَانُ بِهَا بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ الْمَاضِيْنَ، وَأَدْرَكَ هَذِهِ الصَّلَةَ وَتَحَقَّقَ مِنْ كُلِّيَّةِ الْحَيَاةِ بَعْدَهَا. فَتَغْلِيْلُ الْمَيْلِ إِلَى التَّارِيخِ وَالْقَصَصِ، بِهَذَا الشُّعُورِ التَّجْرِيدِيِّ الْكُلِّيِّ، تَغْلِيْلٌ بِالسَّبَبِ الْمُتَّفَعِّلِ دُونَ السَّبَبِ الْفَاعِلِ الْحَقِيقِيِّ.

وهذا الرَّأْيُ، الَّذِي نُعْطِيهِ مِنْ بَوَاعِثِ الْقِصَّةِ وَلَذَّتِهَا وَتَعَلَّقِي الْجُمْهُورِ بِهَا، حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى دَرَجَةِ أَنْ تُصْبَغَ الْأَدَبُ وَتُسَيِّطَرَ عَلَيْهِ بِصِبْغَتِهَا، حَقِيقَتِي جَدًّا... وَأَنَا أَشْعُرُ بِحَاجَةٍ إِلَى الزِّيَادَةِ مِنْ إِضْصَاحِهِ، لِأَنَّهُ يُصَحِّحُ جُمْلَةَ الْأَوْهَامِ، وَطَائِفَةَ الْأَخْطَاءِ الشَّائِعَةِ فِي الْمَوْضُوعِ.

لَا رَيْبَ فِي أَنَّ الْإِنْسَانَ، الَّذِي أَسْلَمَهُ التَّارِيخُ إِلَى الْعُصُورِ، يَمْتَنِّزُ بِحَاسَّةٍ تَارِيخِيَّةٍ خَاصَّةٍ، تَفْصِلُهُ عَنِ الْإِنْسَانِ الَّذِي أَسْلَمَتْهُ الطَّبِيعَةُ الْأُولَى، وَالَّذِي آتَبَتْهُ مِنْ يَدِ اللَّهِ. وَهَذِهِ الْحَاسَّةُ تَزْدَادُ عَمَلًا فِي الْإِنْسَانِ بِأَزْدِيَادٍ عَمَلِ التَّارِيخِ فِيهِ، وَتَنْبُؤُهُ الْعُصُورِ فِي أَعْمَاقِهِ. وَالْمَيْلُ إِلَى التَّارِيخِ أَوْ الْقَصَصِ وَلِيْدُ وُجُودِ الْحَاسَّةِ الْمَذْكُورَةِ وَتَوَافُرِهَا، وَهُوَ - أَيُّ الْمَيْلِ - يَتَفَاوَتْ عَلَى مِقْدَارِ تَفَاوُتِ الْجُزْءِ التَّارِيخِيِّ فِي الْكَائِنِ الْبَشَرِيِّ. وَمِنْ الْخَطَأِ الظَّنُّ بِأَنَّ مَيْلَ الْإِنْسَانِ إِلَى الْقَصَصِ فِطْرِيٌّ أَوْ غَفَوِيٌّ، بَلْ هُوَ نَتِيجَةُ تَلَبُّدِ أَجْيَالٍ مِنَ التَّارِيخِ فِي جَوْهَرِهِ التَّفْسِيِّيِّ وَمَدِّهِ بِإِيحَائِهَا. وَهَذِهِ الْحَاسَّةُ

التاريخية الحية تَتَطَلَّبُ غِذاءَهَا، وتَكُونُ في بَعْضِ مِنَ الشُّعُوبِ نَهْمَةً، وَنَهْمَةً إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ، وَلَكِنَّ هَذَا النَّهْمَ لَيْسَ مَثْرُوكاً لِلْعَفْوِ وَالطَّبِيعَةِ الْعَرَقِيَّةِ، بَلْ هُوَ خَاضِعٌ لِسُنَّةِ نُسُوبِيَّةٍ خَالِصَةٍ، مَا دَامَتِ الْأُمَّةُ قَدْ اتَّصَلَتْ بِالتَّارِيخِ وَاتَّخَذَتْ خُطُوبَاتِهَا فِيهِ.

وهذا الرَّأْيُ يَنْتَهِي بنا إِلَى تَفْسِيرٍ: لِمَاذَا كَانَ أَدَبُ الْيُونَانِ فَقِيراً مِنَ الْقِصَّةِ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ؟

ولِمَاذَا أَثَّرُوا بِالْقِصَّةِ بَعْدَ التَّارِيخِ؟

ولِمَاذَا كَانَ أَدَبُ الْعَرَبِ كَأَدَبِ الْيُونَانِ فَقِيراً مِنْهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، ثُمَّ أَثَّرَ بِهَا بَعْدَ التَّارِيخِ، حَتَّى بَلَغَتْ قِمَّتَهَا فِي أَلْفِ لَيْلَةٍ؟

ولِمَاذَا بَلَغَ نَهْمُ الْحَاسَةِ التَّارِيخِيَّةِ، بَعْدَ ذَلِكَ، فِي الْجُمْهُورِ الْعَرَبِيِّ إِلَى دَرَجَةٍ لَمْ يَثْبُتْ أَمَامَهَا نَحْوُ مِنَ الْأَدَبِ وَالْفَنِّ، كَمَا تَشْهَدُ بِهَذَا قِصَّةُ مُحَبِّ عَلِيِّ بْنِ آدَمَ، وَالبَحْلَاءُ لِلجَاحِظِ، وَرِسَالَةُ الْغُرَّانِ لِلْمَعَرِّيِّ، وَالتَّوَابِعُ وَالزَّوَابِعُ لِأَبْنِ شُهَيْدٍ، وَحَيِّ أَبْنُ يَقْظَانَ لِأَبْنِ طُفَيْلٍ، وَالْمَقَامَاتُ لِلحَرِيرِيِّ، وَأَحَادِيثُ أَبْنِ دُرَيْدٍ الْأَرْبَعُونَ، وَمَصَارِغُ الْعُشَاقِ لِأَبْنِ الْمُرَّاجِ، وَأَعْطَتْ عُصُورُ النَّهْمِ قَصَصَ عَنَتَرَةَ، وَأَبْنِ زَيْدٍ الْهَلَالِيِّ، وَالْمَلِكِ سَيْفٍ؟

ولِمَاذَا زَادَ الْمَيْلُ إِلَى الْقِصَّةِ، فِي الْأَدَبِ الْأُورُوبِيِّ الْحَدِيثِ، عَنْهُ فِي الْقُرُونِ الْوُسْطَى؟

وَنَحْنُ إِنَّمَا نَخْصُرُ نَظَرَنَا فِي الْأَدَبِ، دُونَ أَنْ نَلْتَمِسَ أَنْحَاءَ أُخْرَى، لِأَنَّ الْأَدَبَ أَكْثَرَ أَشْتِجَابَةً إِلَى رَغَبَاتِ الْجُمْهُورِ وَتَطَلُّعِ الْحَيْطِ، وَهُوَ، إِلَى ذَلِكَ، يَتَلَوَّنُ بِمُخْتَلَفِ الْأَلْوَانِ، وَيَحْفَظُ بِتَلَوْنِهِ تَرَاوُخَ الْعَوَامِلِ الَّتِي أَثَّرَتْ فِيهِ.

فَعَدَمُ وُجُودِ أَدَبِ الْقِصَّةِ، فِي أَدَبِ الْعَرَبِ الْجَاهِلِيِّ، مَعْنَاهُ عَدَمُ مَيْلِ الْجُمْهُورِ إِلَيْهَا، أَوْ ضَعْفُ هَذَا الْمَيْلِ عِنْدَهُ، التَّابِعُ لَضَعْفِ الْجُزْءِ التَّارِيخِيِّ فِي مِزَاجِ النَّفْسِ

وَوَحَدَتِهَا.

فَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ إِذَا مُؤَرِّخُو الْآدَابِ، مِنْ إِسْنَادِ خَصَائِصَ وَاسْتِعْدَادَاتٍ مِزَاجِيَّةٍ لِبَعْضِ الشُّعُوبِ دُونَ بَعْضٍ أَفْتَضَّتْ ذَلِكَ، خَطَأً مَحْضً؛ نَاهِيكَ أَنَّ تَعْلِيلَ غَارِقٍ بـ «أَوْهَامِ الْكَهْفِ وَالسُّوقِ»^(١) عَلَى مَا يُسَمَّى ذَلِكَ يَكُونُ فِي مَنْطِقِهِ الْجَدِيدِ، كَمَا أَنَّهُ تَعْلِيلٌ يُعْطِي فِي كُلِّ مِثَالٍ^(٢) رَأْيًا، وَلَا يَقُومُ فِي قَانُونٍ يُبَيِّنُ الْعِلَاقَةَ الْمُوَحَّدَةَ بَيْنَ حَادِثِ السَّبَبِ وَحَادِثِ الْأَثَرِ.

وَالْقِصَّةُ، عَلَى أَيِّ حَالٍ وَبِإِطْلَاقٍ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَنْشَأَ إِلَّا فِي أُمَّةٍ أَجْتَمَعَ لَهَا تَارِيخٌ مُنَوَّعٌ، وَمَرَّ بِهَا زَمَنٌ كَانَ كَفِيلًا بِتَرْوِيدِ الْأَفْرَادِ بِحَاسَةِ تَارِيخِيَّةٍ تَجَعِّلُهُمْ يَتَنَدَّقُونَهَا، وَيَمِيلُونَ إِلَيْهَا.

وَهَذَا الرَّأْيُ الَّذِي تُقَرِّضُهُ يَكْشِفُ، عِذَا الْخَطَأَ الْمَذْكُورَ، عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَوْهَامِ التَّرْبُويَّةِ الَّتِي جَنَحَتْ إِلَى الْقِصَّةِ، كَأَسْلُوبٍ لِلْأَطْفَالِ بِتَعْمِيمِ خَاطِيءٍ. بَلْ لَا بُدَّ لِسَلَامَةِ التَّطْبِيقِ مِنْ مُرَاعَاةِ مُرُورِ الزَّمَنِ، وَقِيَمَةِ هَذَا الزَّمَنِ فِي تَوْفِيرِ الْحَاسَةِ التَّارِيخِيَّةِ فِي الْوَسْطِ الْمَشْتَرِكِ لِلطُّفْلِ وَتَفَاوُثِهَا. وَقَدْ يَنْتَهِي بِنَا هَذَا الرَّأْيُ إِلَى إِخْضَاعِ الْأُسْلُوبِ التَّرْبُويِّ لِلْقِصَّةِ لِمَنْ هُمْ فَوْقَ الطُّفُولَةِ، إِذَا كَانَتِ الْحَاسَةُ فِيهِمْ أَكْثَرَ تَحْكَمًا وَاقْتِيَادًا.

كَمَا يَدُلُّنَا عَلَى السَّبَبِ الصَّحِيحِ لِإِخْفَاقِ أَدَبِ الْقِصَّةِ لَدَى بَعْضِ الشُّعُوبِ، وَالسَّبَبِ فِي عَدِّهَا نَسِيجًا أَعْلَى عِنْدَ بَعْضِ الشُّعُوبِ الْأُخْرَى، وَأَيْضًا يَدُلُّنَا عَلَى أَنَّ

(١) يَعْنِي بِالْكَهْفِ شَخْصِيَّةَ الْفَرْدِ الَّتِي تُكَوِّنُهَا الطَّبِيعَةُ وَالْبَيْئَةُ وَالثَّقَلِيَّةُ وَالتَّرْبِيَّةُ. وَلَمَّا كَانَتْ تِلْكَ الْعَوَالِمُ مُخْتَلِفَةً بِاخْتِلَافِ الْأَفْرَادِ كَانَ لِكُلِّ إِنْسَانٍ نَزْعُهُ الْحَاسَةُ وَأَخْطَاؤُهُ الْحَاسَةُ. وَيَعْنِي بِالسُّوقِ عَقْلِيَّةَ الْوَسْطِ، وَلَهَا أَوْهَامٌ تَنْحَلُّ فِي نَفْسِهِمُ الْأَفْرَادِ وَتَعْقِلُهُمْ.

(٢) مِنْ مِثْلِ قَفْرِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ يَعْدَمُ اسْتِعْدَادُ الْعَرَبِ الطَّبِيعِيِّ لَهَا، وَتَقْلِيلُ الْقَصَصِ عِنْدَ بَعْضِ الْأَدْبَاءِ الْعَرَبِ فِي الْعَهْدِ الْعَبَّاسِيِّ بِالنَّأْثَرِ الْأَدَبِيِّ وَالْدُّنْيَوِيِّ، وَتَقْلِيلُ ظُهُورِ أَلْفِ لَيْلَةٍ بِالمِزَاجِ الْأَدَبِيِّ الْحَلِيقِ، وَتَقْلِيلُ الْقُوَّةِ وَالضَّغَبِ فِي الْقِصَّةِ عِنْدَ الْأُمَمِ الْمُسْتَعْمِلَةِ لَهَا، فِي مَزْعَمِهِمْ، بِتَعَالِيلَ شَتَّى لَا تَسْتَعِيدُ إِلَى تَقْلِيلِ يَقُومُ عَلَى مُؤَثِّرٍ وَاجِدٍ.

العناصر، التي تَلَزَمُ لِتَذَوُّقِ القِصَّةِ، تَتَفَاوَتْ بِتَفَاوُتِ الحَاسَّةِ المَذْكُورَةِ. والقِصَّةُ، في نَظَرِي، لا فَنٌّ لَهَا ولا عَنَاصِرَ قَاعِيدِيَّةٍ إِلَّا نِسْبِيَّةٌ فَقَطْ، فَهِيَ مَحْدُودَةٌ بِالزَّمَانِ وَالْمَكَانِ وَالْكَائِنِ. والمُحَاكَاةُ أَوْ الِاخْتِذَاءُ وَهَمٌّ وَبُعْدٌ عَن فَهْمٍ مَا ثَبَتَ فِي جَوْهَرِ النَّفْسِ الْمُتَحَوِّلِ، الَّذِي يَمَسِّحُ الْفَنَّ بِتَهَاوِيلِهِ، وَيُمَدُّ الْأَدَبَ بِالْحَيَاةِ وَالرُّوحِ.

فَالدَّاعِيَةُ الْخَفِيَّةُ فِينَا إِلَى التَّارِيخِ وَالْقَصَصِ الَّتِي نُحِسُّ بِهَا ظَامِئَةً عَلَى الدَّوَامِ، مُتَطَلِّعَةً عَلَى الدَّوَامِ، هِيَ وَلِيدَةٌ مَا أَسْتَحَالُ فِي جَوْهَرِ النَّفْسِ مِنْ أَشْيَاءِ الْمَاضِي الْمُتَلَبِّدِ، وَتَمَدَّدُ فِي بَنَائِهِ كَهَلَامِيَّاتٍ عَامِلَةٍ حَيَّةٍ. وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ فِينَا جَانِبًا تَارِيخِيًّا، فَلَا مُتَقَلِّبَ لَنَا عَنِ أَنَّ نَفَقَهُمْ وَقَائِعَ الْمَاضِي كِتَابِيخِ، وَأَنْ نَتَّصِلَ بِالشَّاعِرِ الَّتِي سَيَطَّرَتْ فِيهِ كَعَرُضٍ وَقَصَصٍ، وَبِذَلِكَ يَظَلُّ التَّارِيخُ مَادَّةً حَيَّةً شَاعِرَةً.

وَأَسْتَوَاءُ الْحَيَاةِ فِي الْحَاضِرِ إِمَّا يَقُومُ عَلَى دَوَائِعِ الْمَاضِي وَجَوَازِبِ الْمُسْتَقْبَلِ، فَلَا جَزَمَ إِنْ كَانَتْ بِنَا حَاجَةً إِلَى التَّارِيخِ التَّعْلِيلِيِّ مِنْ حَيْثُ نَتَّصِلُ بِالمُؤَثَّرَاتِ الْحَقِيقِيَّةِ، وَدَاعِيَّةً إِلَى التَّارِيخِ الوَصْفِيِّ، مِنْ حَيْثُ نَرَى الصُّورَ الْمُخْتَلِفَةَ الَّتِي طَفَّتْ عَلَى سَطْحِ الْحَيَاةِ الْمُحْتَجِبَةِ.

وَنَحْنُ، هُنَا، نُحَاوِلُ عَرُوضَ مَا أَتَّصَلُ بِالنُّبُوَّةِ بِشَيْءٍ مِنَ الْقَصَصِ الْوَاقِعِيِّ، الَّذِي لَا بُدَّ أَنْ يُنَبِّئَ فِينَا كَامِنَ الْحِسِّ بِمَا يَبْثُ مِنَ الْإِيحَاءِ الصَّامِتِ، وَيُهِيمُ جَوْهَرِ النَّفْسِ لِمَا سَمَّاهُ تُولَسْتُوِي «عَدْوَى الشُّعُورِ»، وَهُوَ ذُو أَثَرٍ بَعِيدٍ، فَعَالٍ فِي تَكْوِينِ الشَّخْصِيَّةِ الْمُتَنَازَةِ.

وَقِصَّةُ عَضْرِ النُّبُوَّةِ لَا تَدْعُنَا نَخْرُجُ بِتَأْمُلٍ سَلْبِيِّ تَخْتَلِطُ فِيهِ الدَّهْشَةُ بِالْإِعْجَابِ فَقَطْ، بَلْ تُزَوِّدُنَا بِمَا يَدْعُونَهُ «الِاشْتِرَاكُ فِي الْوَعْيِ» أَيْ، بِتَأْمُلٍ إِيْجَابِيِّ، يَجْعَلُ فِينَا أَشْتِرَاكًا فِي الصِّفَةِ الشُّعُورِيَّةِ.

وَكذَلِكَ تَسْتَحِيلُ النَّفْسُ الْإِنْسَانِيَّةُ اسْتِحَالَةَ أُخْرَى بِمَا أَسْمِيهِ «عَدْوَى التَّارِيخِ». فَعَلَيْنَا لِذَلِكَ أَنْ نَعْرِفَ كَيْفَ نَسْتَمِيرُ التَّارِيخَ مِثْلَ قُوَّةٍ تَنْصَبُ فِي شَرَابِينَا وَغُرُوقِنَا، وَكَيْفَ نَحْوِلُ تَيَارَهُ الْمُبَغْتَرُ فِي اللَّجِّ الْبَاهِتِ لِيَرِيدَ حَيَاتِنَا حَرَكََةً، وَحَاضِرِنَا

آندفاعاً ومضاء.

وتابع النبوة شخصية إيمان ومبادئ، وشخصية دعة وسلام. فهو يُربنا في كُلِّ جانبٍ من جوانب الحياة ألوانا وألوانا.

فَيَكُونُ جُزءٌ من تاريخه عقيدة، والجزء الآخر جهاداً، فَيُكْتَبُ الخلود له، وَيُكْتَبُ عَلَيْنَا أَنْ نَأْتَمَّ بِهِ لِنُجَرِّبَ إيماننا في الجهاد، وجهادنا في الإيمان.

وَأَيُّهُ شَخْصِيَّةٌ هِيَ أَحْفَلُ مِنْ شَخْصِيَّتِنَا الَّتِي نُدِيرُ الْحَدِيثَ عَلَيْهَا، بِمَعْنَوِيَّاتِهَا وَفَعَالِيَّاتِهَا، وَأَيُّهَا أَحْطَى بِآثَارِهَا، فَلَمْ يَكُنْ لَنَا مَعْدِلٌ عَنْ أَنْ نَتَوَخَّأَهَا وَنَسْتَفِيدَ مِنْهَا فِي الذِّكْرِ، كَمَا اسْتَفَدْنَا مِنْهَا فِي الْحَيَاةِ.

وَلَسْتُ أَزْعُمُ لِنَفْسِي شَيْئاً مِنَ الْفَضْلِ، وَإِنْ جَهِدْتُ فِي تَفْهَمِ الْمُسْلِمِ الْحَمِيدِ زَمَناً غَيْرَ يَسِيرٍ، فَإِنِّي كَلَّمَا أَوْغَلْتُ فِيهَا رَأْيِي أَخَوَجَ مَا أَكُونُ إِلَى آتِيَاءِ دَرْسِهَا مَرَّةً أُخْرَى بِمَعْنَى جَدِيدٍ. وَكَذَلِكَ سَتَظَلُّ يَنْبُوْعاً يَرْدُّهُ الصَّادِي، وَهُوَ يَجِدُ فِي كُلِّ رَشْفَةٍ مَعْنَى وَلَدَةً وَنَكْهَةً، ثُمَّ لَا يَحُورُ مَغْنَاهَا وَلَذَّتْهَا وَنَكْهَتُهَا فِي مَذْهَبِ إِحْسَاسِهِ وَشُعُورِهِ.

يوم المدينة

كُنْتُ تَرَى النَّاسَ فِي الْمَدِينَةِ يَرُوحُونَ أَفْوَاجاً وَيَغْدُونَ أَفْوَاجاً، وَالْغِبْطَةُ تَمْلَأُ
جَوَانِحَهُمْ بِهَذَا الْحَدَثِ الْحَبِيدِ. وَهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَنْصُبُوا «قَوْسَ النَّصْرِ» حَقّاً، فَقَدْ كَانَ
مَعْنَاهُ فِي قُلُوبِهِمِ الطَّافِحَةُ بِكِبْرِيَاءِ الْعَقِيدَةِ وَكِبْرِيَاءِ الْمَعْنَى، وَفِي عَزَائِمِهِمِ الطَّافِحَةُ
بِكِبْرِيَاءِ الذَّاتِيَّةِ وَكِبْرِيَاءِ الْمَجْدِ. وَكَانَ النَّاسُ يَخْتَلِطُونَ وَيَتَحَلَّقُونَ فِي كُلِّ مَكَانٍ،
وَعَلَى أَفْوَاهِهِمْ كَلِمَاتٌ ضَاحِكَةٌ بِسِرِّ الْمَرْحِ الْمُنْشُورِ، فَقَدْ كَانَ هَذَا الْيَوْمُ يَوْمَ الظَّفَرِ
يَتَذَرُ^(١).

عَدَّتِ الْمَدِينَةُ، مُنْذُ هَذَا الْيَوْمِ، بَلَدَ الدَّوْلَةِ، بَعْدَ أَنْ لَبِثَتْ زَمَناً وَهِيَ بَلَدُ
الْعَقِيدَةِ، وَفَازَتْ بِتَجْرِبَتِهَا الرَّائِعَةِ، وَخَطَّتْ أَنْهَى سَطَرٍ فِي مَجْدِ الْعَرَبِ وَمَجْدِ
الْإِنْسَانِيَّةِ جَمِيعاً. فَلَمْ يَكُنْ هَذَا النَّصْرُ تَشْجِيعاً لِهَزِيمَةِ فَرِيقٍ وَظَفَرٍ آخَرَ، بَلْ كَانَ
تَشْجِيعاً لَظَفَرِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْجَدِيدَةِ الْمُحَرَّرَةِ عَلَى الْإِنْسَانِيَّةِ الرَّجْعِيَّةِ الْعَتِيقَةِ، الْإِنْسَانِيَّةِ
الْأَعْلَالِ وَالْقُيُودِ، وَالْإِنْسَانِيَّةِ الْأَسْتِعْبَادِ الْوَحْشِيِّ الْمُنْكَرِ.

كَانَ هَذَا الظَّفَرُ، فِي حَقِيقَتِهِ، ظَفَرُ الْفِكْرَةِ الْجَدِيدَةِ وَالْعَقْلِيَّةِ الْمُتَطَلِّعَةِ، وَظَفَرُ
الْمِثَالِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِ عَلَى الْمَادِّيَّةِ الصَّارِمَةِ وَالْإِبَاحِيَّةِ الْجَامِحَةِ، وَكَانَ يَوْمَ تَحْرِيرِ الْإِنْسَانِ

(١) الْمَغْرَكَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ الْكُبْرَى ضِدَّ الْمُشْرِكِينَ.

من سَتَى العُبودِيَّاتِ الدِّينِيَّةِ والاجتماعية، ويومَ تَجْدِيدِ الإنسانِ وإنشائه آخر.
عَدَتِ المدينةُ، في أُبْهَاتِهَا وأَمْجَادِهَا الحَفِيلَةِ، بَلَدًا جَدِيدًا، فلمْ تُعَدِّ «يُثْرِبَ
الْقَدِيمَةِ» الَّتِي كَانَتْ، كَغَيْرِهَا، وَكُرًّا مِنْ أَوْكَارِ الْفِكْرِ الْبَالِي والعقليةِ الجامِدةِ، الَّتِي لَا
لَوْنَ لَهَا سِوَى ذَلِكَ اللَّوْنِ الْقَاتِمِ، وَكَانَ يَشْبَعُ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَمْ تُعَدِّ أَلْبَنَةً، بَعْدَ
الْيَوْمِ، مَرْكَزًا لِلنَّظَامِ الاجتماعيِّ الْمُتَأَخِّرِ الْمُوروثِ مِنْ شَرَائِعِ الْغَابِ، وَفِيهِ الطَّبِيعَةُ
الْبُورِيَّةُ، وَكَانَ يَشْبَعُ بِسَتَى مَظَاهِرِهِ فِي كُلِّ الْعَالَمِ الْقَدِيمِ. فَالشَّعْبُ ضَحِيَّةُ
الطَّبَقَاتِ، وَهَؤُلَاءِ جَمِيعًا ضَحَايَا فَرْذٍ مُسْتَبَدٍّ يَلَاشِي كِيَانَ الْأُمَّةِ فِي كِيَانِهِ، وَيُحَوِّلُ
تِيَّازَ النَّشَاطِ فِي الشَّعْبِ إِلَى مَا يُعْذِي أَطْمَاعَهُ وَيُشْبَعُ مُيُولُهُ وَرَغْبَاتِهِ.

عَدَتِ المدينةُ، مِنْذُ هَذَا الْيَوْمِ، مَرْكَزَ الْفِكْرِ النَّاهِضِ الْمَشِيعِ، وَالنَّظَامِ
الإصلاحِيِّ فِي كُلِّ حَقْلٍ مِنْ حُقُولِ الاجْتِمَاعِ، وَمَرْكَزَ الدَّوْلَةِ الْحَيَّةِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي
بَدَأَتْ تَنْزِعُ الْأَغْلَالَ السَّابِغَةَ عَنْ كُلِّ إِنْسَانٍ فِي كُلِّ مَكَانٍ. وَكَذَلِكَ آمَنَتْ
وَأَنْطَلَقَتْ، كَمَا يَمْتَدُّ وَيَنْطَلِقُ خَيْطُ التَّوَرِ سَرِيعًا سَرِيعًا، حَتَّى أَنْتَظَمَتْ مُعْظَمَ الْعَالَمِ
الْقَدِيمِ.

لَبِثَتِ الْمَدِينَةُ أَيَّامًا مَدِيدَةً وَهِيَ غَارِقَةٌ بِبَهْجَاتِهَا، مُنْتَشِيتَةٌ بِمَا أَحْرَزَتْ مِنْ نَجَاحٍ،
فَقَدْ حَمَلَتْ شُعْلَةَ الْإِصْلَاحِ، وَغَدَتْ رَسُولَ الْمَدَائِنِ وَالْأَمْصَارِ، وَهِيَ لَنْ تَتَنَاوَلَ عَنْ
رِسَالَتِهَا إِلَى الْعَالَمِ مَهْمَا كَلَّفَهَا تَبْلِيغُ هَذِهِ الرِّسَالَةِ مِنْ تَضَحِيَّاتٍ دَامِيَّةٍ وَوُثْبَاتٍ
حُمْرَاءَ.

إِخْتَصَصَتِ الْمَدِينَةُ عَقِيدَةً خَالِدَةً وَنِظَامًا إِصْلَاحِيًّا خَالِدًا، ثُمَّ أَلْفَتْ جِزْبًا
خَلَاقًا، فَدَوْلَةً مُحَرَّرَةً. وَكَانَ مِنْ حَظِّ يَلَادِ الْعَرَبِ أَنَّهَا شَهِدَتْ، لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، تَجَرُّبَةً
نِظَامٍ مُحَمَّدٍ الاجتماعيِّ، وَقَدْ نَجَحَتْ فِي حُدُودِهَا وَنَجَحَتْ خَارِجَ حُدُودِهَا، وَفِيهَا
الْقُدْرَةُ عَلَى النُّجَاحِ دَائِمًا.

كَانَ فِي أَقْوَاهِ النَّاسِ حَدِيثٌ وَاجِدٌ كُلُّهُ إِعْجَابٌ، مُنْذُ تَسَنَّى لِفَيْفَةٍ قَلِيلَةٍ
مُؤْمِنَةٍ أَنْ تُحْطَمَ حَمَلَةٌ كَامِلَةٌ جَهَزَتْهَا مَكَّةُ وَتَمَزَّقَتْ شِعَاعاً. وَخُطُورُهُ النَّصْرِ تَرْجِعُ إِلَى
أَنَّ الْمَعْرَكَةَ لَمْ تَكُنْ مِنْ نَوْعِ الْمَعَارِكِ الَّتِي تَحْدُثُ كَثِيراً وَتَقَعُ كَثِيراً، وَأَمَّا كَانَتْ
صِرَاعاً بَيْنَ مَبْدَأَيْنِ وَعَقْلِيَّتَيْنِ وَحَيَاتَيْنِ، وَقَدْ آتَتْهُيْ بَعْلَبَةِ الْأَصْلَحِ مِنْهُمَا فِي كُلِّ
أَوَّلِكَ جَمِيعاً، فَشَاعَ فِي النَّاسِ كَافَتِهِمْ نَوْعٌ مِنَ الْفَرَحِ الْعَقْلِيِّ كَالَّذِي يُحْسِنُ بِهِ
رَجُلُ الْفِكْرِ، وَهُوَ يَجْهَدُ جُهْدَهُ بِسَبِيلِ الْمَعْرِفَةِ، وَنَوْعٌ مِنَ الْفَرَحِ النَّفْسِيِّ كَالَّذِي
يَسْتَحِفُّ الْمَكَافِخَ الظَّافِرَ وَالْأَمَلَ الْوَاجِدَ.

وَكَانَ يَمُزُّ بَيْنَ جُمُوعِ النَّاسِ رَجُلَانِ يَهُودِيَّانِ مُطْرِقَيْنِ فِي تَأْمَلٍ، فِي أَكْثَرِ
تَطَوُّفِهِمَا، وَأَحْيَاناً يَأْخُذَانِ بِأَطْرَافِ الْحَدِيثِ الْخَفِيفِ الْهَامِسِ، وَهُمَا: مُخَيَّرِيٌّ^(٢)
وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ.

قَالَ مُخَيَّرِيٌّ: لَشَدَّ مَا يُدْهِشُنِي وَيَرُوعُنِي هَذَا الظَّفَرُ الَّذِي أَحْزَرَهُ مُحَمَّدٌ
وَجِزْبُهُ، فَقَدْ كَانَ ظَفَراً سَرِيعاً وَنَاجِحاً، وَلَا يَنْشَبُ أَنْ يَنْخَطِى حُدُودَهُ الصَّبِيْقَةَ،
وَيَسْتَمَلَّ الْجَزِيرَةَ كُلَّهَا بِنِظَامِهِ الْإِصْلَاحِيِّ الْقَوِيْمِ، وَتَعَالِيْمِهِ الْوَاعِيَةِ الْأَخَادِقَةِ، حَتَّى لَقَدْ
بَلَغَ مِنْ مَدَى فَاعِلِيَّتِهَا أَنَّهَا تُحَقِّقُ لِنَفْسِهَا الْإِنْتِشَارَ السَّرِيعَ دُونَ مَا دِعَايَةٍ وَتَبْشِيرِ.

قَالَ آبْنُ سَلَامٍ: لَكَأَنَّكَ - يَا مُخَيَّرِيٌّ - تُحْسِنُ بِمَا فِي نَفْسِي وَتَنْطِقُ عَنْ
لِسَانِي، فَإِنِّي دَهِشْتُ كَدَهْشَتِكَ وَمَرُوعٌ كَارَتِيَاعِكَ، وَمَا أَحْسَبُ مُحَمَّدًا إِلَّا مُفْضِيًّا
إِلَى مُنْتَهَى عَظِيمِ جَلَالٍ، وَكُلُّ مَا يَتَدَوَّلِي يُنْذِرُنِي بِهَذَا الْمُنْتَهَى، إِنْ لَمْ يَكُنْ أَقْلٌ مَا
سَيَبْلُغُ إِلَيْهِ.

(٢) هُوَ مُخَيَّرِيٌّ النَّصْرِيُّ الْإِسْرَائِيلِيُّ. قِيلَ مِنْ بَنِي قَيْسِقَاعَ، وَقِيلَ مِنْ بَنِي الْفَيْطُولِ. وَذَكَرَ الْوَادِدِيُّ وَالْبَلَاذِرِيُّ
أَنَّهُ كَانَ عَالِماً وَأَسْلَمَ. قَالَ لِلْيَهُودِ يَوْمَ أُحُدٍ: أَلَا تَنْظُرُونَ مُحَمَّدًا؟ وَاللَّهِ إِنَّكُمْ لَتَقْلَمُونَ أَنْ تُصْرَتَهُ حَقٌّ عَلَيْكُمْ
بِقُتْلَتِي الْمَعَاهِدَةِ. فَقَالُوا: الْيَوْمَ يَوْمُ الشَّبَبِ. فَقَالَ: لَا سَبْتَ. وَأَخَذَ سَيْفَهُ وَلَحِقَ بِالتِّي فَجَرِحَ جِرَاحاً قَاتِلَةً،
فَلَمَّا حَضَرَ الْمَوْتُ قَالَ: أُمُوَالِي إِلَى مُحَمَّدٍ يَصْنَعُهَا حَيْثُ شَاءَ. رَاجِعِ الْإِصَابَةَ لِآبْنِ حَجَرٍ الْقِسْقَلَانِيِّ، ج ٦،

ومحمّد وإئق كاشدّ ما يكون، فقد أوجد مادّة حيّة، وصحّحها تصحيحاً مغنويّاً، وولّد فيها قوى لا حدّ لها، وغدّاها بتعاليم تفاعلت مع نفسيّات العرب تفاعلاً يكفي أن يكون بينهم وحدة في الصّفة العقليّة والشّعوريّة، كما غرس في قلوبهم طبيعة الإيمان الصّحيح الذي يزدي هبة العاصفات، وحرّز أفيدتهم من الأساطير والأوهام، وبلور عليهم الفكر، وعوّدهم النّظام، وألزمهم الطّاعة وكلمة التّقوى، فكانوا أحقّ بها وأهلها. وليس يخطئني ظني في أنه لن تقوم لشريعته شريعة، ولن يثبت لقومه قوم.

قال مخيرق: هيّجت، وإئم الله، في نفسي حديثاً طاماً كنت أدوده عن لساني زياداً، حتّى لا يجري به، ولا أراني إلّا مفضياً به إليك:

نظرت في شرائع العالم ونظمه، على اختلاف ألوانها، وقلبتّها على ستي وجوهها، فانتهيّت إلى أنّها تتناصر على سحق قوى الأفراد والجماعات واستغلالهم استغلالاً أنانياً صارماً. وهذه الشرائع والنظم متعاونة فيما بينها، من أجل هذه الغاية التي لا تتفق بحال والحرية الدائنة للبشر، فسبيلها القضاء على الكيفيات والقابليات التي هي عنوان امتياز الإنسان، ليحولوا دون أن يقيم النشوء دورته، وبذلك يستسلم لهم القطيع.

ولقد بات المجموع البشري، من تأثير هذه الأدوار، في روجية جدّ مريضة، وأنكفات الجماعات تهوي في أتون التنازع الساجي، حتّى لكأنّ البشرية في دور اختصار، لا تلبث معه طويلاً أن تنقلب هامة لا حراك فيها.

فلم يعد في الأديان ما يزوي ظمأ النفوس، بل على العكس، غدت الأديان مادّة الظمأ، كطالِب الرّي بالحنظل، فإنّه لا يزوي، ولكنّه يزيد شعوراً بالحاجة إلى الرّي. فالأديان الدّاية الكسيفة، والهوّطات المستطيرة، والأوضاع الاجتماعيّة الفاسدة، والنظم الاقتصاديّة التي أدكت نضال الطبقات بشريّة المفطعة، والتداعي

الأخلاقي، ونقطة الإيجابية الطامسية، كل ذلك أعد العالم، بقصد، ودون قصد، إلى انتظار كلمة البناء العالمي. ولا أظن محمداً إلا ذلك البناء العالمي الأعظم، ولا أظن دولته الصغيرة، في حدود المدينة، إلا نواة تلك الدولة العالمية العائمة التي ستصهر في بوتفتها الفوارق الملية، وتشتغل على الأجناس والشيع، فالإسلام عقيدة ودولة وأنيائية.

عرف محمد سلسلة الأرباب المترابطة في نسق، وعرف أن البشرية لن تتحرر من هذه العبوديات المركبة المتداخلة، التي تؤلف خطراً على الفكر البشري، وبوازي الامتياز الإنساني، وتغل النشاط الحيوي بما تزج به ككابوس ضاغط وجاثوم مروع إلا بعمل عنيف، وعرف أن حجز الأساس في بنية العبوديات الشامخة هي الطبقة الروحية التي تسوق الجموع طائعة بما تسيطر به على مناطق اللاوعي ومراكز اللاشعور. فأعمل مغوله الأقدس في بنية العبوديات الراسخة، التي شهدت، من نوع تلك العواصف، شيئاً كثيراً، فمزقت رايحها المتناوذة الممزجة، وتبيت في محلها شامخة راسخة. لكن محمداً عرف سير نباتها فسدد ضربته الأولى الماضية إلى هذه الطبقة وربوبيتها^(٣)، وتحداه في نوع من الشخيرة والاستفزاز المثير، وما هو إلا أن تزلزل حجز الأساس، وتحث صروح الربوبيات، التي سخرت بالزمن مذكورة، متناثرة في حالتي تبغث وتراكم.

ثم وقف محمداً فوق أطلالها شامخاً، يعلل خربة الإنسان^(٤) وحقوقه في

(٣) قال تعالى: «وَقَالُوا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِن دُونِ اللَّهِ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» (آل عمران ٤: ٦٤).

(٤) قال تعالى: «وَحَسْبُ قُنَادَى، فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى، فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى» (الذاريات ٧٩: ٢٥). وقال: «فَأَسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ» (الزخرف ٤٣: ٥٤). وقال «لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِضَظِيرَةٍ» (الغاشية ٨٨: ٢٢). وقال: «رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا الشَّيْطَانُ» (الأحزاب ٣٣: ٦٧).

الاستقلال^(٥)، الذاتِي، ويُعلِنُ حُرِّيَّةَ^(٦) العمل والإنتاج والجُهد، ويُقرِّرُ مَبْدَأَ^(٧) المَسْئُولِيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ فِي الْحُقُوقِ وَالْجَزَاءِ وَنَظَرِيَّةَ الْجَزَاءِ لِلْحَقِّ الْعَامِّ^(٨)، وَيَنْزِعُ أَغْلَالَ الْفِكْرِ. فَمَحَمَّدٌ حَارَبَ الرُّبُوبِيَّةَ فِي شَخْصِ الْأَوْتَانِ الْجَامِدَةِ، وَحَارَبَ الرُّبُوبِيَّةَ فِي شَخْصِ الْأَوْتَانِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْحَيَّةِ، وَبِذَلِكَ حَرَّرَ الْفِكْرَ وَحَرَّرَ الْمُجْتَمَعَ.

والمُدْهَشُ - يَا أَبْنَ سَلَامٍ - فِي مَنَهِجِ مُحَمَّدٍ الْإِصْلَاحِيِّ أَنَّهُ قَامَ عَلَى الزَّلْزَلَةِ الْفِكْرِيَّةِ، لِيُعِدَّ النَّفْسَ الَّتِي خَلَصَتْ^(٩) مِنْ وَرَائِهَا إِلَى آغْتِنَاقِ كُلِّ مَبْدَأٍ صَالِحٍ، مَهْمَا بَدَأَ نَائِباً وَالمَبَادِيءَ السَّائِدَةَ، وَيَفْسَحَ لِلْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ سَبِيلَ التَّفَكُّيرِ الْمُطَبَّقِيِّ الْهَادِيءِ الْخَالِي مِنْ شَوَائِبِ الْأَفْكَارِ الْأُولَى وَنَزَغَاتِهَا. وَكَذَلِكَ لَمْ يَغْمِذْ إِلَى تَصْصِيحِ الْأَوْضَاعِ الْقَائِمَةِ وَتَغْيِيرِهَا فَقَطْ، كَمَا عَمَدَ الْمُصْلِحُونَ مِنْ قَبْلُ، بَلْ قَصَدَ إِلَى تَصْصِيحِ فِكْرَةِ الْحَيَاةِ أَوَّلًا، لِيُضْمَنَ رُوحِيَّةً جَدِيدَةً يَتَوَقَّى مَعَهَا الرَّدَّةُ وَالْإِنْتِكَاسُ اللَّاشْعُورِيِّينَ، وَكَانَا آفَةً كُلِّ إِصْلَاحٍ خَرَجَ عَنْ يَدِ الْمُصْلِحِينَ السَّالِفِينَ.

أُولَئِكَ كَانُوا يُصَحِّحُونَ الْأَوْضَاعَ وَيُشِيعُونَهَا فِي الْمُجْتَمَعِ، وَرُوحِيَّةَ الْجَمَاعَةِ لَمْ تَزَلْ غَارِقَةً فِي الْأَوْحَالِ وَالْأَمْرَاضِ، وَلَمْ تَزَلْ تَالِفَةً أَشَدَّ مَا يَكُونُ التَّلَفُ. فَلَا تَلَبُّثُ

(٥) قَالَ تَعَالَى: «لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ» (البقرة ٢: ٢٨٦). وَيَتَبَنَّى أَنْ يَلَاخِظَ أَنَّ الْقَانُونَ الْعَامَّ يَخْضَعُ لِلْقَانُونِ الْأَدْبِيِّ.

(٦) قَالَ تَعَالَى: «وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى، وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَى، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى» (النجم ٥٣: ٢٩، ٤٠، ٤١).

(٧) قَالَ تَعَالَى: «وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عَقِبِهِ» (سورة الإسراء ١٧: ١٣). وَقَالَ: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» (الإسراء ١٧: ١٥).

(٨) قَالَ تَعَالَى: «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (سورة البقرة ٢: ١٧٩).

(٩) قَالَ تَعَالَى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَفْقَهُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ» (البقرة ٢: ١٧). وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ تَحْرِيرٌ لِلْعَقْلِ مِنَ الْوَرِاثَاتِ، وَدَعْوَةٌ إِلَى تَقْدِيرِهَا عَلَى ضَرْوِ الْمُنْطِقِ وَالْفِكْرِ الْمَجْرُودِ، وَبِذَلِكَ قَضَى الْقُرْآنُ عَلَى الْوَرِاثَاتِ كَأَسَاسٍ لِلْفِكْرِ وَحَكْمَ الْعَقْلِ بِهَا، فَلَمْ يَشْجِبِ الْقَدِيمَ الْمُورِثَ مَرَّةً وَاحِدَةً، بَلِ الْقَدِيمُ الَّذِي يَصْطَلِحُ بِالْمُنْطِقِ فِي سُنَنِ النَّشْوءِ، وَجَاءَ تَحْرِيرُهُ لِلْعَقْلِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ قَضَى عَلَيْهَا كَأَسَاسٍ لِلْفِكْرِ.

الأوضاع أن تفسد بفساد روجية الجموع ويقع الانتكاس في المجتمع وتعاودة الحمى، ويكون المصلح لم يزد عن أنه نجم التمتع فجأة، ثم ابتلعه خضم الليل الحالك... ولكن محمداً لم يكن من طراز هؤلاء، فقد صحح فكرة الحياة وروحية الجماعة أولاً، ثم صحح الظلم والأوضاع، وبذلك ضمن سلامة المجتمع أبداً، ووقى الكائن الاجتماعي من الانتكاس والحمى.

فمحمداً لم يصنع أمة في عداد الأمم، بل صنع أمة في عداد الرسل إلى كل الأمم، وأكبر ظني أن أمة ستنتقل في جسم العالم المتداعي، كما تنتقل العصاره، وفيها الحرارة والحياة والحركة. فهذا اليوم - يا آبن سلام - بدءاً دنيا جديدة، وأول يوم من تاريخ عالم جديد، فقد استدار الزمان وبدأ يخط دورة أخرى كما أراد محمداً أن تكون، وكذلك يفرض المصلح نفسه على الزمن.

قال آبن سلام: أراك - يا مخيرئ - تتكلم بكلام من استهوته رسالة محمداً، وما أبرئك، ومع ذلك فإني أنصفك بأنك لم تجاوز المنطق في دائرة أولها الفكر وأخرها الحس. ولقد شئت لي الظروف أن أجمع ببعض من أتباعه، وهو وإن لم يكن له بجلاء منطقك، ودقة تحليلك، فقد غمرني روجيته ولعبت بي تياراتها، وما أحسب نفسي أقل أنجذاباً منك.

وأذكر أنني سمعت آية^(١) تدعو إلى الإيمان العقلي من قرآن محمداً، وما هي إلا أن تمددت في قلبي وعقلي جميعاً. فتمددت لها نفسي وأخذت طريقها إلى ما وراء القوى الواعية، ومضت تفعل فعلها، تارة في الفكر، وتارة في مذاهب الشعور، حتى انتهت بتوكيز فلسفتها علي وتركيزي عليها، وإذا بي أحس إحساساً وجدانياً بأنها فلسفة، ينبغي أن أعهد لها في أول ما أعهد من قضايا العقل، وإذا بي أحس إحساساً عقلياً بأنها كل المنطق، حتى لم يعد لي مغدل عن أن تكون مقدمة

(١٠) قال تعالى: «قل هدو سبيلي اذعروا إلى الله على بعبيرة أنا ومن آتبعني» (يوسف : ١٢ : ١٠٨).

الفكر.

والعجب - يا مُحْخِرِيْقُ - أَنَّ مُحَمَّدًا عَالَجَ قَضَايَا الدِّينِ والعقلِ والحياةِ والاجتماعِ، وأعطى حلولاً هي ما ظَلَّتِ الإنسانيةُ تَائِهَةً عنها وَعَبَثًا تَنْشُدُهَا. ولعلَّ أعْظَمَ ما يَسْتَوْفِقُنِي ويُغْرِبُنِي حَلُّهُ لِمُعْضَلَةِ الأَدْيَانِ، فهو لم يَنْقُضْهَا بَلْ صَحَّحَهَا مِنْ الطُّفِيلِيَّاتِ العَالِقَةِ عَلَيْهَا، فَإِنَّ فِي كُلِّ دِينٍ قَضَايَا الْحَقِّ الْأُولَى، وقد تَنَاوَلَهَا كُلُّ قَبِيلٍ بنوعِ عَقْلِيَّتِهِ، وما ثَبَتَ فِيهَا، فَلَوَّهَا بِلَوْنِهِ، وما زَالَ يُلْبِسُهَا، وَيُضِيفُ إِلَيْهَا، وَيَحْمِلُ عَلَيْهَا، حَتَّى آخَتَتْ قَضَايَا الْحَقِّ وراءَ أَسْتَارِ صَفِيْقَةٍ، وَغَدَتْ كَاللُّبَابِ تَحْجُبُهُ قُشُورٌ قَاسِيَةٌ. وَالَّذِي يَثْبُتُ فِي عَقْلِ الْجَمَاعَةِ مَظَاهِرُ الْأَشْيَاءِ دُونَ حَقَائِقِهَا الْحُجُوبِيَّةِ، فَوَقَفَ إِيمَانُ الْجُمُوعِ عِنْدَ حَدِّ الْمَظَاهِرِ، وَعَمِلَ التَّارِيخُ عَمَلَهُ فِي هَذَا الْإِيمَانِ فَتَحَجَّرَ عَلَيْهَا، بِرُغْمِ أَنَّ هَذِهِ الْمَظَاهِرَ وَالْأَشْكَالَ لَيْسَتْ سِوَى آنِعْكَاسٍ مِنْ وَرَاثَاتِ الْقَبِيلِ.

ولكنَّ مُحَمَّدًا اسْتِطَاعَ، بِإِعْجَابٍ، أَنْ يَكْشِفَ قَضَايَا الْحَقِّ الْأُولَى، وَأَنْ يُبَصِّرَ مَكَانَهَا فِي كُلِّ دِينٍ، رُغْمَ كُلِّ الْأَسْتَارِ الصَّفِيْقَةِ، فَأَعْلَنَ لِلنَّاسِ، عَلَى اخْتِلَافِهِمْ، وَخِدَّةِ الْأَدْيَانِ، وَأَنَّ قَضَايَا الْحَقِّ الْأُولَى وَاحِدَةٌ فِي كُلِّ دِينٍ، وَهِيَ لَا تَتَغَيَّرُ إِلَّا إِذَا تَسَنَّى لِنَامُوسِ الطَّبِيعَةِ أَنْ يَتَغَيَّرَ، وَأَعْلَنَ أَنَّ مَا يَتَوَهَّمُهُ النَّاسُ لُبَاباً هُوَ قُشُورٌ فَقَطْ، وَبِضَرْبَةِ حَظِّمَهَا، وَأَعْطَى تَحْدِيدَهُ الدَّقِيقَ لِلدِّينِ الْجَدِيدِ. فَكَانَ عَمَلُهُ وَجْهَادُهُ فَقَطْ فِي تَجْرِيدِ قَضَايَا الْحَقِّ مِمَّا رَانَ عَلَيْهَا وَعَلِقَ بِهَا، أَوْ رَدَّ النَّاسِ إِلَى حَقَائِقِ دِيَانَاتِهِمُ الَّتِي أَفْسَدَهَا النُّضَالُ الطَّبِيقِيُّ وَالْقَوْمِيُّ، وَأَفْسَدَ كُلُّ مَجْتَمَعٍ مِنْ وَرَائِهَا، رُغْمَ أَنَّ الْأَدْيَانَ مَا جَاءَتْ إِلَّا لِيَمْحُوَ هَذَا النُّضَالُ.

وكما قُلْتُ - يا مُحْخِرِيْقُ - لَيْسَ مِنَ الْمُكِنِّ لِلْمُضْلِحِ، إِذَا أَرَادَ الْبِنَاءَ الْمَكِينِ، أَنْ يَنْتَجِعَ إِلَى الْعَقْلِ الْمَلُوثِ الْمُتَحَرِّفِ، وَالْفِكْرِ الْغَارِقِ بِالْأَوْهَامِ، وَيُحْمَلُهُ رِسَالَتُهُ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ مُهَاجِمَةِ هَذَا الْعَقْلِ، وَهَذَا الْفِكْرِ، حَتَّى إِذَا تَطَهَّرَا آتَجَّاهُ إِلَيْهِمَا مِنْ جَدِيدٍ وَذَهَبَ يَتْنِي، وَبِعِبَارَةٍ أَصَحَّ، ذَهَبَ يَخْلُقُ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ مُحَمَّدٌ، وَكَانَ لَهُ مِيزَةٌ عَلَى

المُصلِحِينَ، وَيُتَبَغْنِي أَنْ نَعْرِفَ أَنَّ مُحَمَّداً لَمْ يَكُنْ مُغَامِراً يَتَسَتَّرُ بِخُطَّةِ الإِصْلَاحِ، وَأَمَّا كَانَ مُضْلِحاً دَفَعَ الْمُغَامَرَةَ فِي طَرِيقِ الإِصْلَاحِ. وَبَيْنَهُمَا أَنَّ أَوْلَهُمَا أَنَا نِيَّ بَلَحْمِهِ وَدَمِهِ، يُطْلِقُ الْعَاصِفَةَ كَعَمَلَايَ وَيَدْفَعُ الْجُمُوعَ إِلَى التَّوَاتُبِ فَوْقَ الْقِمَمِ، وَزَلَّةً فِي الْعَاصِفَةِ تَتْرُكُ الْجُمُوعَ فِي فُضَاءِ الْهَارِيَةِ طُيُوراً تَحُومُ فِي الْمُنْحَدِرِ السَّرِيعِ السَّحِيقِ، وَدَائِماً يَنْتَهِي بِالتَّهْدِيمِ لِيَقِفَ، مِنْ بَعْدُ، عَلَى أَطْلَالِ الْأَشْيَاءِ مِسْحاً جَاحِظاً مُتَقَلِّصاً؛ وَثَانِيَهُمَا غَيْرِيَّ فِي شُعُورِهِ وَضَمِيرِهِ، يَضْبُطُ الْعَاصِفَةَ وَيَصْرِفُ مَخْزُونَهَا فِيمَا يَعُودُ عَلَى الْمَجْتَمَعِ بِالْإِنْشَاءِ وَتَوْفِيرِ الْقَوَى وَالطَّاقَاتِ، وَدَائِماً يَنْتَهِي بِالْبِنَاءِ لِيَقِفَ، وَاتِّبَاعُهُ مِنْ بَعْدُ، عَلَى الْقِمَمِ.

قَالَ مُخَيَّرِي: لِلَّهِ كَمْ تَفْعَلُ الْعَقِيدَةُ فِي التُّفُوسِ، فَإِنَّهَا تَصْنَعُ مِنَ الضَّعْفِ قُوَّةً، وَقُوَّةً لَا حَدَّ لَهَا. أَلَا تَرَى أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ كَيْفَ غَدَّوْا، بِفَضْلِ الْعَقِيدَةِ الْخَلَاقَةِ، قُوَّةً لَا تَنْصِلُ بِالضَّعْفِ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا ضَعْفاً لَا يَتَّصِلُ بِالْقُوَّةِ... وَهَذَا صَحِيحٌ، فَإِنَّ الْفِكْرَةَ تَصْنَعُ الْحَيَاةَ، وَالْحَيَاةُ تَصْنَعُ الْقُوَّةَ، فَلَا قُوَّةَ بَدُونِ فِكْرَةٍ تَقْذِفُ الطَّاقَةَ وَالْحَيَاةَ جَمِيعاً.

بَلَّغْنِي، وَأَنَا يَمَّا بَلَّغْنِي فِي عَجَبٍ، إِخَالُكَ تَعْرِفُ فَتَى قَرِيشٍ، وَطَالَمَا شَاهَدْتُهُ هُنَا فِي الْمَدِينَةِ، وَهُوَ مَنْ يُنْعَتُونَهُ بِحَامِي الْإِسْلَامِ، عَلِيٌّ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ، بَلَّغْنِي أَنَّهُ كَانَ مِنْ أَشْيَبَسَالِهِ، وَتَفَانِيهِ فِي نَصْرَةِ مَبَادِيءِ هَذَا الدِّينِ الْجَدِيدِ، مَا جَعَلَهُ، فِي بَذْرِ الْكُبْرَى، أُمَّةً مِنَ الْأَبْطَالِ كَأَنَّهَا تَنْطَلِقُ فِي كُلِّ مَجَالٍ إِذَا أَنْطَلَقَ، فِيمَنْ كُلِّ وَجْهِ عَلِيٍّ، وَمِنْ كُلِّ صَوْبٍ عَلِيٍّ نَفْسُهُ، حَتَّى لَا يَجِدَ عَلَى كُلِّ لِسَانٍ: إِنَّ فَتَى قُرَيْشٍ هَزَمَ الْجُمُوعَ مِنْ قُرَيْشٍ.

قَالَ ابْنُ سَلَامٍ: أَذْكُرُ أَنِّي أَعْرِفُهُ، وَأَذْكُرُ أَنَّ لَهُ سِيَمَاءَ نَاطِقَةً بِالصَّلَاةِ وَالْعَزَمِ الْقَصِيِّ، وَرُغْمَ حَدَائِثِهِ فَقَدْ قَذَفَ فِي رُوعِي مِنَ التَّجَلَّةِ، وَأَنْوَاعاً مِنَ الْأُسْرِ، حَتَّى لَأَحْسَبُنِي بِتِّ مَأْخُوداً عَنْ نَفْسِي سَاعَةً بِشَيْءٍ لَا أَفْهَمُ كُنْهَهُ، وَهُوَ مَا يُسَمُّونَهُ سِحْرَ

الشَّخصية.

وأذكرُ أنّ حديثه اليومَ على كلِّ لسانٍ، وهم يشفَعُونَهُ بإعجابٍ طائِفٍ ممدودٍ: «أليسَ الَّذي فَعَلَ الأفاعيلَ بِقريشٍ»، هذه عبارَتُهُم الَّتِي لا تَكَادُ تَسْقُطُ من حديثٍ أَحَدٍ عَنْهُ، حتَّى غَدَتْ تقليديَّةً وطبيعيَّةً. قالَ هذا، وسَكَتَ مُطَرِّقاً، ويَدُهُ تُدَاعِبُ جَبْهَتَهُ كالَّذي يُريدُ أنْ يَتَذَكَّرَ شيئاً قَدَرَ أَنَّهُ خطيرٌ، وعلى فُجاءَةٍ نَفَرَ جَبْهَتُهُ نُقْرَةً شاعَ سُروُرها في مُقلَّتَيْهِ وأَسارِيرِهِ.

قال: يا مُخيرِيقُ سأُخْبِرُكَ خَبَرَ قَتَى قريشٍ، يومَ تَزُولُ في فراشٍ محمَّدٍ، ليلةَ الهَجْرَةِ، إِيهاماً عَنْهُ... قال مُخيرِيقُ: أَذْكَرُ أَنِّي سَمِعْتُ شيئاً من ذلكَ... وَمَضَى آبُنُ سَلَامٍ في حديثِهِ: إِنَّهَا مُغامَرَةٌ يَظُنُّهَا البُسْطاءُ دونَ اسْتِيسالِهِ في معركةٍ بَدْرٍ، لَكِنَّهَا عِنْدِي، من وَجْهَةِ العقيدةِ، أَعْظَمُ شَأْناً وقد لا يَغْدِلُهَا مَوْقِفٌ. فَإِنَّ الاستِسْمالَ قد تَوَلَّدَهُ حماسَةُ المَشْهَدِ، وأصْواتُ الجُمُوعِ المائِجَةِ، وقد تَوَلَّدَهُ خَيْلاءُ الدَّائِيَّةِ في مَوْقِفٍ لا مَفَرٍّ من الظُّهورِ فِيهِ، وكثيراً ما بَدَلْتُ هذه المِشَاهِدَ نَفْسِيَّةَ الجَبانِ، كما لا تَدُلُّ على أَثَرِ العقيدةِ دائماً.

ولكنَّ تلكَ، هي مُغامَرَةُ العقيدةِ المُجَسِّمَةِ، فقد كانتَ تَغْرِيضاً للنَفْسِ دونَ تَذَرُّعٍ بِأسبابِ الدِّفاعِ، وبِكُلِّ هُدُوءٍ، فليسَ فِيهَا آنْفِعالٌ عَنِيفٌ يُنْسِي المَرْءَ ذَاتَهُ، وَيَذْفَعُهُ إلى عَدَمِ المَبالَاةِ دَفْعاً قَسْرِيّاً، وهي مُغامَرَةٌ، إِنْ كانتَ تُعَبِّرُ عن شيءٍ فَإِنَّمَا تُعَبِّرُ عن نِسيانِ الذَّاتِ على كُلِّ حالٍ، بِفاعِلِيَّةِ العقيدةِ وَحْدَها، الَّتِي طَعَتْ على كُلِّ المِشاعِرِ وَأَسْتَبَدَّتْ بِها. إِنَّ التَّضْجِيَّةَ رَهيبَةً، يا مُخيرِيقُ، دائماً، وَلَكِنَّها أَرْهَبُ ما تَكُونُ في المواقِفِ الهادِئَةِ الَّتِي لا تُثِيرُ الأعْصابَ بِشُعُورٍ غيرِ عاديٍّ.

إِنَّ مُحَمَّدًا عَرَفَ كَيْفَ يَجْعَلُ النَفْسَ العربيَّةَ مُؤمِنَةً ذاتَ آفاقٍ في الإيمانِ، فَكانَتْ بِذلكَ قوِيَّةً ذاتَ آفاقٍ في القُوَّةِ. خُصوصاً وإيمانُ مُحَمَّدٍ يَجْعَلُ المَرْءَ لا يَرى شيئاً في مَحْذُودِ الإيمانِ، وَيَرى الإيمانَ في مَحْذُودِ كُلِّ شيءٍ، كَتَلْكَ الفَراشَةُ الَّتِي

أَسَلَمَهَا الْمِصْبَاحَ إِلَيْهِ، فَهِيَ لَا تَحُولُ عَنْهُ، وَإِنْ كَانَ فِي ذَلِكَ أَنَّهَا تَحُولُ عَنِ الْحَيَاةِ. وَبِهَذَا صَغُرَتِ الدُّنْيَا وَالْحَيَاةُ، وَفِكْرَةُ مَتَاعِهِمَا، فِي قَلْبِ أَصْحَابِهِ، لِأَنَّ عَقْلَهُمْ لَمْ يَغْدُ يُتَّبِعُ مِنْ حُدُودِ غَرَائِزِهِمْ بَلْ مِنْ حُدُودِ تَعَالِيهِمْ. وَالْاِعْتِقَادُ نَفْسُهُ غَرِيزَةٌ طَبِيعِيَّةٌ، وَبَيْنَ الْغَرَائِزِ، كَمَا بَيْنَ سَائِرِ الْأَشْيَاءِ، تَنَاحَرُ عَلَى الظُّهُورِ وَالْبُرُوزِ، وَأَكْثَرُ مَا تَنِمُّ الْعَلَبَةُ لِلْغَرَائِزِ الدُّنْيَا لِأَنَّهَا أَدْخَلُ، غَضَبِيًّا، فِي تَرْكِيبِ الْكَائِنِ الْحَيِّ، وَلَا تَنِمُّ الْعَلَبَةُ لِهَذِهِ الْغَرَائِزِ أَلْبَسَةً، إِلَّا وَتَشُدُّ إِلَيْهَا الْعَقْلَ وَالْقَلْبَ، فَيَفْسُدُ الْعَقْلُ، وَيَنْحَطُّ الْقَلْبُ.

فَعَمَلُ الْمُصْلِحِ يَنْحَصِرُ فِي تَنْشِيطِ غَرِيزَةِ الْاِعْتِقَادِ، لِكَيْ تُسَيِّطِرَ بِرُوحِ الْإِيمَانِ الْجَدِيدِ، وَهِيَ تَشُدُّ الْعَقْلَ وَالْقَلْبَ إِلَيْهَا، فَيَصْلُحُ الْعَقْلُ وَيَسْمُو الْقَلْبُ، حَتَّى الْغَرَائِزِ الدُّنْيَا تُصْبِحُ دُنْيَا، بِمَعْنَى جَدِيدٍ. فَهِيَ لَا تَتَّبِعُ فِي شَهْوَةِ الْجَسَدِ، بَلْ فِي شَهْوَةِ الرُّوحِ الْمُرَكَّزَةِ بِالْإِيمَانِ، وَإِنَّ شَهْوَةَ الرُّوحِ الشُّعُورُ بِذَاتِيَّتِهَا الْعُلْيَا فِي الْفِطْرَةِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْاجْتِمَاعِ، وَلَا يَزَالُ الْإِيمَانُ يَفْعَلُ عَمَلَهُ، حَتَّى يَجْعَلَ فِي الْغَرَائِزِ عَقْلًا، وَفِي الشَّهَوَاتِ إِرَادَةً وَأَخْلَاقًا. فَمُحَمَّدٌ صَحَّحَ نَفُوسًا، وَأَوْجَدَ مَادَّةً مُؤَمَّنَةً، تَنْطَلِقُ، كَمَا يَنْطَلِقُ الْقَدَرُ الْوَاقِعُ، إِلَى مَصِيرِهَا وَغَايَتِهَا، وَهِيَ بِهَذَا الشُّعُورِ مُجْتَمِعَةٌ كَمِثْلِهَا مُتَّفَرِّقَةٌ، فَقَلْبُ الْجَمَاعَةِ شُعُورٌ مُتَجَاوِثٌ بَيْنَ قَلْبٍ وَقَلْبٍ.

وَيُعْجِبُنِي فِي فَتَى قُرَيْشٍ أَنَّهُ يَمْلِكُهُ إِيْمَانُهُ، حَتَّى فِي أَخْرَجٍ مَا تَكُونُ رَهْبَةً النَّفُوسِ، وَقَلِيلٌ هُمْ الْأَفْرَادُ الَّذِينَ يَمْلِكُهُمُ الْإِيمَانُ، وَهَذِهِ مِيزَةُ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ، بَيْنَمَا الْآخَرُونَ يُحَاوِلُونَ أَنْ يَمْلِكُوا الْإِيمَانَ، وَفَاتَهُمْ أَنَّ الْإِيمَانَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ كُلُّ شَيْءٍ فِي النَّفْسِ، وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُونَ شَيْئًا فِيهَا، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا كَالْفَرْقِ بَيْنَ مَنْ يُصَرِّفُهُ الْإِيمَانُ، وَبَيْنَ مَنْ يَتَصَرَّفُ بِهِ.

قَالَ مُخِيرِيٌّ: لَشَدَّ مَا تَفْعَلُ الْعَقِيدَةُ فِي النَّفُوسِ، وَلِلَّهِ أَنْتَ يَا مُحَمَّدٌ كَمْ هِيَ أَخَذَاةُ تَعَالِيكَ... قَالَ هَذَا، وَسَكَتَ يُفَكِّرُ فِي أَمْرِ يَبْدُو مُهِمًّا، وَلَبَسَتْ طَوِيلًا يُحَاوِلُ أَنْ يَجِدَ النُّقْطَةَ الَّتِي يَبْتَدِئُ مِنْهَا الْحَدِيثَ، فَاطْرَدَ مُمِغْنًا، يَقُولُ:

يَسْرُنِي أَنَّا مُتَّفِقَانِ فِي الْفِكْرَةِ وَالْمَيْلِ، وَلَكِنْ مَا الَّذِي يَحُولُ بِالْيَهُودِ عَنْ مُحَمَّدٍ، عَلَى رُغْمِ مَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ سَيَعْمُرُهُمْ لَا مَحَالَةَ؟ فَإِذَا طَاوَلُوهُ كَانَ لَهُمْ مِنْهُ يَوْمٌ كِيَوْمِ بَحْتَنْصَر... وَكَانَ مُجَرَّدُ ذِكْرِ بَحْتَنْصَرِ كَافِيًا لِيُبْعِثَ آلَامِهِ الْقَوْمِيَّةَ الدِّفِينَةَ، فَتَعَشَّتُهُ سَحَابَةُ حُزْنٍ، وَلَكِنَّهُ وَاصَلَ حَدِيثَهُ:

أَعْرِفُ أَنَّ قَوْمَنَا سُردُوا مَرَاتٍ، وَأَضْطُهِدُوا كَرَاتٍ، وَمِنْ شُعُوبٍ مُخْتَلَفَةٍ، فَحَقَدُوا عَلَى كُلِّ أُمَّةٍ وَتَأَمَرُوا بِكُلِّ مُجْتَمَعٍ، وَبُثُوا رُوحَ الْإِنْتِقَامِ فِي كُلِّ تَصَارُيفِهِمْ، مُتَّخِذِينَ كُلَّ شَعْبٍ هَدَفًا، غَيْرَ مُفَرِّقِينَ بَيْنَ قَبِيلٍ وَقَبِيلٍ، وَبِذَلِكَ أَخْطَأُوا فِي عَدَمِ تَحْدِيدِ النَّبِيعَةِ، الَّذِي أَكْسَبَ نَفْسَهُمْ صِفَةَ الْغُلِّ السَّحِيقِ، وَأَفْقَدَهُمْ رَغْبَةَ التَّعَاوُنِ مَعَ الْآخَرِينَ، وَصِفَةَ التَّبَادُلِ الْخَالِصِ، حَتَّى مَعَ قَوْمٍ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ إِلَّا الْإِحْسَانُ إِلَيْهِمْ، كَهَوْلَاءِ الْعَرَبِ الَّذِينَ اخْتَضَنُوا بَيْنَهُمْ، وَأَحْلَوْا مَحَلَّ أَنْفُسِهِمْ، وَاخْتَضَنُوا بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْعَطْفِ، فِي هَجْرَتِنَا الْأُولَى^(١١) وَالثَّانِيَةِ إِلَى جَزِيرَتِهِمْ.

قَالَ أَبُو سَلَامٍ: إِنَّ مَا ذَكَرْتَهُ سَبَبٌ، وَلَكِنْ وَرَاءَهُ أَشْبَابٌ أَكْثَرُ فَاعِلِيَّةٌ فِيمَا أَغْنَيْدُ، حَتَّى لَقَدْ جَعَلْتُ رُوحِيَّةَ الْيَهُودِ، مِنْ سُوءِ أَثَرِهَا الْبَارِزِ فِي كُلِّ دَوْرٍ، مُغْضِلَةً أَجْتِمَاعِيَّةً، وَعَنَاصِرُ هَذِهِ الرُّوحِيَّةِ كَمَا أَحْسَنُ:

أ - الْمَادِّيَّةُ: الَّتِي آسَتْهُوَتْهُمْ آسَتْهُوَاءَ فَطِيعًا، وَتَحَلَّلَتْ مَعْنَوِيَّتُهُمْ إِلَى دَرَجَةٍ جَعَلَتْهُمْ لَا يَتَوَرَّعُونَ عَنِ اسْتِخْدَامِ أَسْمَى مِثَالِيَّاتِهِمْ وَمِثَالِيَّاتِ مَنْ يَحِلُّونَ بَيْنَهُمْ بِسَبِيلِ الْمَطَامِعِ، وَلَا يَعُوقُهُمْ وَيُنْأَى بِهِمْ عَنْهَا أَنَّهَا دَنِيَّةٌ أحيانًا. فَكَانَ لِهَذَا أَثَرٌ فِي تَوَلِيدِ صِفَةِ الْجَشْعِ وَالسُّرْرِهِ وَالْإِفْتِرَاصِ، وَحِينَ تَكُونُ الْمَادِّيَّةُ هِيَ مِثَالِيَّةَ الْأُمَّةِ فَقَدْ بَانَتْ خَطَرًا، وَشَكَلَتْ مُغْضِلَةً دَائِمًا.

ب - طَبِيعَةُ التَّطَفُّلِ: حَقٌّ لِلْفَرْدِ أَنْ يَجْنِيَ ثَرْوَةً كَدْحِهِ، وَحَقٌّ لِلْجَمَاعَةِ أَنْ

(١١) راجع كتاب 'تاريخ اليهود في جزيرة العرب'، للدكتور ولفنسترون.

تَجْنِي ثَمَرَاتِ جُهِودِهَا، وَأَمَّا أَنْ يَجْنِيَ الْمَوْءُ ثَمَرَةَ جُهِدِ الْآخَرِينَ فَهَذَا عُذْوَانٌ مُنْكَرٌ.
والحياة قائمة على الجُهدِ، فَمَنْ لَا يَجْهَدُ لَا يَخِيَا. هذا مَنْطِقُ الطَّبِيعَةِ، وَخَفَّفَ
المُصْلِحُونَ مِنْ جِدَّتِهِ بِالتَّعَاوُنِ الَّذِي يَحْفَظُ تَوَازُنَ الطَّبَقَاتِ، عَلَى شَكْلِ مَا تَرَى فِي
تَعْلِيمِ مُحَمَّدٍ الْجَدِيدِ، فِي نِظَامِ الزَّكَاةِ وَالصَّدَقَاتِ وَالْكَفَّارَاتِ. وَالْيَهُودِيُّ، مِنْ
طَبِيعَتِهِ أَنَّهُ لَا يَتَذَلُّ جُهِدًا يُوَازِي الْفَائِدَةَ، بَلْ يَسْعَى إِلَى أَنْ يَسْتَحْوِذَ عَلَى أَكْثَرِ فَائِدَةٍ
بِأَقَلِّ مَجْهُودٍ. وَهَذَا لَا يَأْتِي إِلَّا عَنْ طَرِيقِ التَّطَفُّلِ عَلَى جُهِدِ الْآخَرِينَ وَاسْتِغْلَالِهِمْ.
فَتَوَلَّدَتْ بَيْنَهُمْ طَبَقَاتُ الْمُرَابِينَ وَالْمُضَارِبِينَ وَمَا شَاكَلَهُمْ، وَهَؤُلَاءِ جَمِيعًا يُشْكِلُونَ،
فِي النَّظَرِ الاجتماعيِّ، بَيَّةً طَفِيلِيَّةً شَدِيدَةً لَخَطَرِ عَلَى سَلَامَةِ أَيِّ مُجْتَمَعٍ كَانَ.

فَالْيَهُودُ طَفِيلِيُونَ يَمْتَصُّونَ الْمُجْتَمَعَ بِشَتَّى الطَّرِيقِ وَالْوَسَائِلِ، كَالِهَوَامِ الَّتِي تَطْلُبُ
حَيَاتَهَا عَلَى جِشِمِ حَيٍّ، وَلَدَّ لَهُمْ هَذَا الطَّرِيقُ الْهَيِّنُ فَأَلْفَوْهُ وَافْتَتَوْا فِي أَشْكَالِهِ
مُسْتَقْبِدِينَ مِنَ الْوَسَائِلِ الْخَاصَّةِ بِكُلِّ عَصْرٍ.

ج - الْقَوُضِيَّةُ: عَرَفَ الْيَهُودُ أَنَّ وَسَائِلَهُمْ لِلْاِمْتِصَاصِ لَا بُدَّ أَنْ تَنْكَشِفَ مَا دَامَ
الْمُجْتَمَعُ فِي حَالَةٍ مِنَ الْهُدُوءِ، فَأَخَذُوا أَنْفُسَهُمْ بِإِيجَادِ أَسْبَابِ الاضطرابِ
وَالْقَوُضَى، تَارَةً بِاخْتِرَاعِ مَذَاهِبٍ دِينِيَّةٍ وَمَحَافِلَ سِرِّيَّةٍ، وَأَوْنَةً يَبْتَغِي مَبَادِيءَ أَجْتِمَاعِيَّةٍ
حَدِيثَةٍ، وَأُخْرَى بِتَزْيِينِ الْحُرُوبِ. وَتَبَيَّنَتْ هَذِهِ الْقَوُضِيَّةُ فِيهِمْ طَبِيعَةً حَتَّى غَدَوْا مَادَّةَ
الْقَوُضَى وَالتَّوَارِثِ فِي كُلِّ مُجْتَمَعٍ.

مِنْ هَذِهِ الْعَنَاصِرِ تَأَلَّفَتِ الزَّوْجِيَّةُ الْيَهُودِيَّةُ.

وَالْيَهُودِيُّ قَدْ يَصْلُحُ إِذَا آرْتَدَّ إِلَى الْأَرْضِ، وَفَارَقَ صِفَةَ التَّجَوُّبِ الَّتِي تَجْعَلُهُ
لَا يُخْلِصُ لِأُمَّةٍ مَهْمَا عَاشَ بَيْنَهَا، وَاسْتَرَدَّ مِثَالِيَّتَهُ الصَّائِعَةَ. أَلَسَتْ تِلْكَ تِلْكَ مَعِيَ أَنْ
بَنِي قُرَيْظَةَ الْمُرَارِعِينَ أَكْثَرُ مِثْلًا لِلتَّعَاوُنِ مَعَ مُحَمَّدٍ وَدَوْلَتِهِ الْجَدِيدَةِ مِنْ بَنِي قَيْنُقَاعِ
الْمُرَابِينَ؟

قَالَ مُخَيَّرِي: بلى نعم ما تلاحظ... وَمَضَى آئِنُ سَلَامٍ فِي حَدِيثِهِ: وَلَسْتُ
أَتَرَدُّ أَلْبَتَّةَ فِي أَنَّ هَذِهِ الرُّوحِيَّةَ الْبَغِيضَةَ هِيَ الَّتِي تَحُولُ بَيْنَ الْيَهُودِ وَمُحَمَّدٍ الَّذِي
حَارَبَ هَذَا الْخَلِيطَ الْمُتَكَرِّرَ فِي رُوحِيَّتِهِمْ.

قَالَ مُخَيَّرِي: أَلَا تُجِيبُنِي إِلَى أَفْرَقَ قَدْ يُحَقِّقُ فِكْرَةَ إِنْقَاذِ الشَّعْبِ الْيَهُودِيِّ النَّاتِيهِ،
وَأَنْتِشَالِهِ مِنْ أَوْحَالِ الْمَادِّيَّةِ الصَّارِمَةِ الَّتِي لَا تَلْبَثُ أَنْ تَقْضِي عَلَيْهِ وَتُحَطِّمَهُ؟ فَانْتَ
خَبِرَ الْيَهُودَ وَلَكَ مَحَلُّكَ وَمَقَامُكَ، وَلِي مَنَزَلِي وَمَكَانِي، فَتَنْصَمْ وَأَنْصَمْ إِلَى حِزْبِ
مُحَمَّدٍ، فَتَضَعُضْ مِنْ قُوَّةِ مَوْقِفِهِمُ السَّلْبِيِّ تَجَاهَ الْحَرَكَاتِ التَّخْرِيرِيَّةِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَلَا بُدَّ أَنْ
نَثْرَكَ بَيْنَهُمْ أَثَرًا يَكْفُلُ لَنَا عَدَدًا، إِنْ لَمْ يَكُنْ أَكْبَرَ عَدَدٍ، خُصُوصًا وَنَفْسِيَّةُ الْجَمَاعَةِ
سَرِيعَةُ التَّرَدُّدِ سَرِيعَةُ الْاسْتِثْلَامِ.

قَالَ آئِنُ سَلَامٍ: هَذَا مَا فَكَّرْتُ فِيهِ، وَعَقَّدْتُ الْعَزَمَ عَلَيْهِ، وَكَأَنَّ الْقَدَرَ سَاقَلَكَ
لِتَشْجِعِي...

وَعَلَى ذَلِكَ أَفْتَرَقَا... فَمَضَى مُخَيَّرِي فِي الطَّرِيقِ الْمُؤَدِّي إِلَى الْمَسْجِدِ، مَوْكِرِ
الدَّعْوَةِ وَالذُّوْلَةِ... وَتَمَهَّلَ آئِنُ سَلَامٍ حَتَّى يَجْعَلَ لِدُخُولِهِ صَدَى أَوْسَعِ أَنْتِشَارًا وَأَشَدَّ
وَقَعًا. وَلَكِنَّهُ ظَلَّ شَاخِصًا فِي إِكْبَارِ لَتَضْمِيمِ مُخَيَّرِي الَّذِي هُوَ دَلِيلُ النَّفْسِ الْكَبِيرَةِ،
وَفِي إِعْجَابٍ بِمَنْطِقِهِ الدَّقِيقِ الَّذِي هُوَ دَلِيلُ الْفِكْرِ التَّابِعِ...

*

الْإِسْلَامُ عَقِيدَةٌ وَعَمَلٌ وَحَيَاةٌ وَنِظَامٌ...
وَلَهُ فِي الْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ تَفَاعُلَاتٌ عَلَى أَنْحَاءِ أَرْبَعَةٍ:
تَتَفَاعَلُ الْعَقِيدَةُ فِيهِ مَعَ الْأَوْهَامِ الْعَالِقَةِ بِالْفِكْرِ، فَيَعْدُو فِكْرًا جَدِيدًا بِمَنْطِقِ
جَدِيدٍ...

وَيَتَفَاعَلُ الْعَمَلُ فِيهِ مَعَ الْجُهْدِ الْمُبْدَدِ، فَيَعْدُو جُهْدًا مُنْتِجًا...

وَتَتَفَاعَلُ الْحَيَاةُ فِيهِ مَعَ الْحَيَاةِ الْمُخَلَّلَةِ الْكَاسِفَةِ، فَتَعْدُو طَلَقَةً شَامِيحَةً...
وَيَتَفَاعَلُ النُّظَامُ فِيهِ مَعَ التَّرَائِبِ الْمَحْمُومِ، فَيَعْدُو إِنْسَانِيًّا صَحِيحًا...
وَالْإِسْلَامُ، بَعْدَ ذَلِكَ، فِكْرَةٌ وَإِعْدَادُ،
وَيَبْنِيهِمَا تَتَوَلَّدُ، عَلَى الدَّوَامِ، الْأُمَّةُ وَالِدَوْلَةُ وَالْمَجْتَمَعُ...

* * *

يوم القِران

مَضَى، بَيْنَ يَوْمِ الْمَدِينَةِ وَهَذَا اللَّيْلِ الَّذِي آسْتَقِظُ فِيهِ النَّبِيُّ عَلَى ذِكْرِ نَاعِمَةٍ كَرَجَجِ الْحَنِينِ، وَمُنْعَشَةٍ كَلَمَسَةِ الْحُبِّ، وَشَائِقَةٍ كَوَقْعِ الْأَمَلِ، أَيَّامٌ إِنْ شِئْتَ تَحْسُبُهَا بِأَسَابِيعَ^(١) فَذَاكَ، وَإِنْ شِئْتَ تَحْسُبُهَا بِأَشْهُرٍ فَقَدْ تُصِيبُ.

إِنْجَرَدَ النَّبِيُّ مِنَ اللَّيْلِ، وَيَدُهُ تَمْسُحُ النَّوْمَ عَنْ جُفُونِهِ الَّتِي أَخَذَهَا رُقَاذُ هَنِيءٍ رَافَةٍ بِأَخْلَامِ الْعَدِ، وَكَانَتْ نَفْسُهُ تَجِيشُ بِذِكْرِ مُحَبِّبَةٍ إِلَيْهِ، قَرِينَةٍ مِنْهُ، حَتَّى لَكَأَنَّهَا تَرْجِعُ إِلَى أَمْسِ النَّهَارِ الَّذِي لَمْ يَفْصِلْ عَنْهُ يَوْمٌ وَعَدَدٌ.

وَهِيَ ذِكْرَى مَا كَانَتْ تُمْرُّ فِي خَاطِرِهِ إِلَّا وَتَجِيشُ بِهَا نَفْسُهُ، وَيَشْمَلُهَا أَطْمِئْنَانٌ وَرِضًا، عَلَى أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ تُعْبِرُ مَجَازَهَا فِي خَيَالِهِ إِلَّا وَتَتْرُكُ عَلَى مُقْلَتَيْهِ دَمْعَةً مُتَبَخَّرَةً، وَأُخْرَى تَذُوبُ فِي خَفَقَةِ رَقِيقَةٍ، وَزَفْرَةٍ غَيْرِ طَوِيلَةٍ. ذِكْرَى يُحَرِّكُهَا عِنْدَهُ طَئِيفُ أَبِي طَالِبٍ الَّذِي كَانَ يَتَرَاوَى لَهُ، وَيُلْمُ بِهِ أَخْيَانًا، وَعَدَا، بَعْدَ يَوْمِ الْمَدِينَةِ، كَثِيرًا مَا يُرَاوِحُهُ. وَكَانَ الطَّيْفُ يَتَدَوَّرُ، بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ، مُزْدَهِيًا تَلْقَاهُ مِنْ نَوَاحِيهِ نَشَوَاتٍ، وَمُتَلَفَعًا بِإِشْرَاقَةٍ تَشِيغُ عَلَيْهِ مِنْ أَقْطَارِهِ، وَهِيَ تُعْبِرُ عَنْ زَهْرِ الْمَكَافِيحِ الْمَيِّتِ بِمَجْدِ الْمَكَافِيحِ الْحَيِّ.

كَانَتْ تُمْرُّ عَلَيْهِ، فِي طَئِيفِ أَبِي طَالِبٍ، صُورَةٌ مُتَحَرِّكَةٌ سَرِيعَةً، تَتَّصِلُ بِغَارِ

(١) سَكَنَتِ الرُّوَايَاتُ عَنْ تَقْدِيرِ الْمُدَّةِ بَيْنَ وَقْفَةٍ بَذَرٍ وَأَقْبِرَانِ عَلَمِي بِغَاطِمَةٍ.

خرقاء، ومكّة، ودار الإغداد والدّعوة (بيت الأرقم) فيحسّ بالخنين العميق.
وتمرّ به صوّر الأوثان المتصدّة التي تحدّاه في شحريّة، وهاجمها في تحطيم،
فيحرق الأرم.

وتمرّ به صوّر ما لاقى من عنّت إجماعي، وهو ماضٍ في كفافه لا يخفّل
ولا يتنّسّى ولا يتردّد، معتقداً الظفر رُغم الجموع، والنجاح رُغم تأشّب الباطل
وسؤريته. وكذلك المصلح الحقّ يتقطّع الفكر بينه وبين العقبات، ليقول كلمته
ويستمع صداها، ودائماً يكون مُزلاً مُزعجاً.

ويتدو أبو طالب، من ورائه، يدفع عنه، ويشدّ أزره، ويحمي حماه، فيشمّله
رضاً بأنه أذى رسالته وشهد نجاحها في الخلق والإنشاء.

وتمرّ به خديجة في هالة الحبّ الزوجي الأقدس، وفي صورة من مقام المرأة
وأثرها في حركات البعث والانقلاب، فيغروه حزن صامت، وتقدير خفي، وإكبار
يظهر أثرهما في موكب المرأة من التشريع الخالد... وتزوي تلك الصوّر وتثبت هذه
الحقيقة:

نجاح الحركات الخلافة بدعائم ثلاث: رجل المبادئ الذي يعمل بقواه
المعنويّة والفكريّة مُجمعة، والمرأة التي تعمل بروحيّتها المشعّة وعواطفها الواعية،
ورجل الدفاع الذي يعمل بكلّ وسائله بإخلاص...

وتنتقل به الذكرى ولا تنقطع، إلى الهجرة، فيمرّ به عليّ وتضحيتُه الرهيبة
في التزمّل عنه، فيزّنون في دهشة مكبرة.

ويمرّ به غاز أبي ثور، وصاحبه الباسل أبو بكر، والطريق المروّع، وهما يتهبان
الأرض نهباً، فيشعّر بأسى، ويتكشّش على خاطير أن يغدو صانغ الحجد، طريد المهّد.
وتمرّ به يثرب وجهوده في تثبيت العقيدة واستثمارها في بناء قواعد الدّولة

الجديدة، فيتَغَرُّ في آتِسَامَةِ عَرِيضَةِ هَادِثَةٍ.

وَتَمُرُّ به سِلْسِلَةُ المَعَارِكِ الَّتِي كَانَ أَهْمُهَا يَدْرُ، وَيَرَى الجَمْعَيْنِ وَقَدْ تَصَافَا
لِلْقِتَالِ، وَيَرَى أَبْطَالَهُ عَلَى دَرَجَاتِهِمْ، وَيَرَى عَلِيّاً، صَاعِقَتَهُ المُدْخِرَةَ، تَنْقُضُ فِي كُلِّ
مَجَالٍ، وَيَشْهَدُ النِّهَايَةَ الطَّافِرَةَ، فَيَهْزُهُ فِي مَظْهَرِهِ الوَقُورِ سُورُورٍ بَعِيدٍ الغُورِ... وَتَزُوي
تِلْكَ الصُّورُ أَيْضاً، وَتَثْبُثُ هَذِهِ الحَقِيقَةُ:

إِنَّ أبا طَالِبٍ كَانَ أَسَدَ مُحَمَّدٍ، وَرِسَالَتُهُ فِي دَوْرِ التَّاسِيسِ، وَلَمْ يَنْقُضْ يَدَهُ
مِنْ الحَيَاةِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ قَدَّمَ، فِي فَتَاهُ عَلِيٍّ، أَسَدَ مُحَمَّدٍ وَرِسَالَتُهُ فِي دَوْرِ التَّشْيِيدِ
وَالِإِعْلَاءِ...

قَامَ النَّبِيُّ، وَقَدْ عَزَمَ عَلَى أَمْرِ أَرْضِي بِهِ ضَمِيرُهُ وَحُبُّهُ مَعاً، وَخَرَجَ وَهُوَ يَشْعُرُ
أَنَّهُ أَدَّى حَقّاً. وَمَرَّتْ به فَاطِمَةُ، وَهِيَ تَحْطُرُ لِبَعْضِ شَأْنِهَا، فَقَبَّلَهَا قُبْلَةً اجْتَمَعَ فِيهَا
شُعُورٌ جَدِيدٌ أَحْسَتْ مَغْنَاهُ غَايِضاً مُبْهِمًا، وَلَكِنَّهُ اسْتَشَبَّتْ فِيهَا شَيْئاً لَمْ تَدْرِ كُنْهَهُ إِلَّا
أَنَّهُ مُبْهِجٌ عَلَى أَيِّ حَالٍ.

لَمْ يَفْصِلِ النَّبِيُّ عَنْ حُجْرَاتِهِ بَعِيداً حِينَ أَقْبَلَتْ مَيْمُونَةُ أُخْتُ بِنْتِ عُمَيْسٍ
عَلَى فَاطِمَةَ تَزْوُرُهَا، فَأَيْسَتْ إِلَيْهَا كَمَا لَوْ كَانَتْ تَنْتَظِرُ لِقَاءَهَا بِلَهْفَةٍ وَصَبْرٍ نَافِدٍ...
وَالْمَرْأَةُ تَتَكَشَّفُ إِلَى الْمَرْأَةِ بِحَقِيقَتِهَا العَارِيَّةِ، وَتُظْهِرُ الْمَرْأَةَ إِلَى الْمَرْأَةِ بِكُلِّ ذَاتِيَّتِهَا،
وَلَيْسَتْ تُعْطِي الرَّجُلَ إِلَّا نِصْفَ مَغْنَاهَا، وَيَبْقَى النُّصْفُ الْآخَرُ مَجْهُولاً غَايِضاً
وَيَذْهَبُ فِي غُمُوضِهِ أَبَداً. فَحِثُّ نَفْهِمِ الْمَرْأَةِ نِصْفَ فَهْمٍ لِأَنَّهَا لَا تَتَكَشَّفُ لَنَا إِلَّا
نِصْفَ أَنْكِشَافٍ، وَلَا يُخْرِجُهَا مِنْ صَدَفَتِهَا لِلْعَرَاءِ إِلَّا الْحُبُّ، وَالْمَرْأَةُ، إِذَا تَفَتَّحَتْ
أُنُورَتُهَا وَنَضَبَتْ، حَنَّتْ حَنِيناً مُبْهِمًا، فَإِنَّهَا تَجِدُ نِصْفَ مَغْنَاهَا فِي الرَّجُلِ، وَالنُّصْفَ
الْآخَرَ فِي الْوَلَدِ، وَهِيَ تُرِيدُ أَنْ تَحُلَّ لُغْزَهَا فَيَأْخُذُهَا هَذَا الحَنِينُ.

أَقْبَلَتْ مَيْمُونَةُ إِقْبَالَ مَنْ فَهِمَتْ شَيْئاً وَتُرِيدُ المَزِيدَ، وَقَالَتْ لَهَا: مَرَزْتُ بِالنَّبِيِّ،

وهو في بهجة ضاحكة زادت شعاعاً على ما كنا نعهده بعد يوم المدينة، وإن كانت لا تُفارقهُ، حتى لقد خُيِّلَ إليَّ أنه عزمَ على أمرٍ فشاعَ سروره على مُحَيَّاهُ البهي. ولا يُعُدُّ بي ظنِّي أنكَ وَقَفْتَ عليه، فقد أعلمُ أنه يَشْتَرُوحُ فيكَ رَوْحُ النُّبُوَّةِ، وما هو بغيرٍ، فإنك وُلِدْتَ له بعدَ مَبْعَثِهِ، وقد اسْتَحَالَتِ النُّبُوَّةُ في مغناه، وغَدَّتْ له ذاتيَّةً، فأنتِ ذِكْرِي من ذِكْرِيَّاتِ الرُّوحِي الأولى.

اسْتَوَتْ فاطمة، وقد تَأَلَّقَتْ في عَيْنَيْهَا إِشْرَاقَةٌ من حلاوة هذه الملاحظة، فقد كانت تغزو ما يُلْقَاهَا به النبي من آخِفاءٍ وَاخْتِفَالٍ إلى مَخْصِ الحَنَانِ الأَبَوِيِّ، وَأَلْقَتْ في آيِسَامَةِ مُفْتَرَّةٍ: إذا فأنا شيءٌ منه كالرُّوحِي أو كالتُّبُوَّةِ، وطِيفَ سَمَويٌّ في خَيَالِ أبي عندك يا مَيْمُونَةَ.

قالت ميمونة: وأنا وإِيمُ اللَّهِ، ما جَلَسْتُ إِلَيْكَ إِلَّا شَعَرْتُ بروحانيَّةِ هذا الطِّيفِ المُتَأَلِّقِ وَجَمَالِهِ، وَشَمَلْتَنِي سَكِينَةً لا أُحَدِّدُهَا إِلَّا بما تَتَوَكَّعُ في نَفْسِي من أَطْمِئْنَانٍ لاذٍ رَغِيبٍ. ولا تَحْسَبِينِي، مِنْ هذا الشُّعُورِ، كما قيل: «تَحَيَّلَ ثُمَّ خالاً» بل هو واقعٌ نَفْسِيٌّ كَالرُّبِّيِّ على الظُّمَأِ، أو كَالأَمَلِ اللَّيْثِيِّ.

قالت فاطمة: يَسُرُّنِي أنكَ تُحِبِّبْنِي هذا الحُبَّ، ولكن ما وَجْهَ الأَمْرِ الَّذِي عَزَمَ عليه أبي، على ما آتَيْهِ إِلَيْهِ حَدْسُكَ؟ فقد طافَ بِنَفْسِي شيءٌ كالَّذِي طَافَ بِنَفْسِكَ، وأنه عَرَاني إِحْسَاسٌ غَامِضٌ حِينَ قَبْلَتَنِي أَبِي في هذا الصُّبَاحِ قُبْلَةً جَدِيدَةً المَغْنَى، وَبَتْ في قُبْلَتِيهِ، إلى جَانِبِ الحَنَانِ الَّذِي عَوَّدَنِيهِ، شُعُورَ مَنْ يَخْشَى فِرَاقِي، وَكَانَ في بَهْجَتِهِ المُشْرِقَةِ نَفْسِهَا الَّتِي لَمْ تُزَايِلْهُ حِينَ مَرَزَتْ بِهِ.

وكانت حُجَرَاتُ النَّبِيِّ تُشْرِفُ على المَسْجِدِ فَرَأَتْنا سَبَحاً لَمْ تَتَبَيَّنْاهُ جَيِّداً، يَدْخُلُ مُسْرِعاً وَيَخْرُجُ سَرِيعاً، فَأَشْرَأَبْتُ مَيْمُونَةَ تَنْظُرُ، وَأَطَلْتُ مِنْ قَرِيبٍ، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ أَبُو بَكْرٍ عَرَضَ عليه شيئاً فلمْ يَنْبَسِطْ إِلَيْهِ. ولم يُغَادِرْ بَعِيداً وَيتَوَارَى حَتَّى جَاءَ عُمَرُ فَسَارَهُ بِشَيْءٍ لَمْ تَتَبَيَّنْهُ مَيْمُونَةُ أَيْضاً، فلمْ يَنْبَسِطْ إِلَيْهِ، وَظَهَرَثَ عليه حَرَكَه

إِعْرَاضٍ غَيْرِ خَافِيَةٍ. وَمَا جَاوَزَ الْمَسْجِدَ حَتَّى أَقْبَلَ عَلَيَّ فَتَلَقَّاهُ بِتَهَجُّتِهِ الَّتِي لَحَظْتُهَا عَلَيْهِ سَاعَةً أَبْصَرْتُهُ أَوَّلَ التَّهَارِ، فَسَارَهُ طَوِيلًا وَالتَّبِيُّ يَنْبَسِطُ إِلَيْهِ وَيَحْتَفِلُ بِهِ، فَقَامَ وَعَلَى نَغْرِهِ آتِسَامَةٌ عَرِيضَةٌ لَمْ يَجْتَهِدْ فِي إِخْفَائِهَا، وَأَمَّا تَرْكُهَا تَنْطَلِقُ إِلَى مُنْتَهَاهَا.

فَانْقَلَبْتُ إِلَى فَاطِمَةَ تَقُصُّ عَلَيْهَا مَا رَأَتْ، وَمَرَّ بِخَاطِرِهَا، وَقَدْ صَبَّتْ قَدَمَيْهَا لِلْجُلُوسِ، شَيْءٌ أَطْمَأْنَنْتُ إِلَيْهِ فِي تَفْسِيرِ مَا شَهِدْتُ وَعَمَعَمْتُ: لَعَلَّ... لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ.

وَعَرَضَ لَهَا مَا بَيَّنَّتْ هَذَا الْخَاطِرَ عَلَيْهَا، فَقَالَتْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ نَفْسِهَا: لَذَلِكَ... لَذَلِكَ لَمْ يُكَاشِفْهَا بِالْأَمْرِ الَّذِي عَزَمَ عَلَيْهِ.

وَرَأَتْ مَيِّمُونَةً أَنَّهَا أُخْرِجَتْ حِينَمَا قَالَتْ لَهَا فَاطِمَةُ: لَعَلَّكَ وَقَفْتَ مِنَ الْأَمْرِ عَلَى جِلِّيَّتِيهِ أَوْ عَلَى مَا يَتَّصِلُ بِهِ. فَأَدَارَتْ الْحَدِيثَ بِلَبَاقَةٍ إِلَى وَجْهِ آخَرَ أَلْبَسَتْهُ شَكْلَ الْمُفَاجَأَةِ، لِتَكْسِبَ أَهْتِمَامَهَا بِمَا تُرِيدُ أَنْ تَصْرِفَهَا إِلَيْهِ.

فَقَالَتْ: نَسِيتُ شَيْئًا كُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أُخْبِرَكَ بِهِ وَقَدْ ذَكَرْتُهُ الْآنَ. فَبَدَأَ الْاهْتِمَامَ عَلَى وَجْهِ فَاطِمَةَ، وَأَصَغَتْ فِي كَثِيرٍ مِنَ التَّلَهُّفِ وَالشُّوقِ إِلَى هَذَا النَّبِيِّ الْجَدِيدِ... فَوَاصَلَتْ تَقُولُ:

سَمِعْتُ النَّاسَ فِي طَرِيقِي هَذَا الصَّبَاحَ يَقُولُونَ: إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ حَبْرَ الْيَهُودِ أَعْلَنَ إِسْلَامَهُ وَكَاشَفَ بِهِ. وَكَانَ نَبَأً شَدِيدَ الْوَقْعِ عَلَى الْيَهُودِ حَتَّى لَقَدْ بَاتُوا يُخَاطَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِكَلِمَاتٍ مُخْتَلِطَةٍ، آمْتِحَانًا لِحَوَاسِهِمُ الَّتِي بَدَّوْا يَشْكُونَ فِي سَلَامَتِهَا، فَإِنَّ أَبْنَ سَلَامٍ رَمَزَ دِينِي مِنْ رُؤُوسِ الْيَهُودِ، وَعَجِيبٌ أَنْ يَمِيلَ إِلَى دِينِ أَيْلِكَ. وَتَوَقَّعَ النَّاسُ أَنْ يَكُونَ لِهَذَا الصُّدَى الَّذِي أَحْدَثَهُ أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي الْإِضْعَافِ مِنْ سَلْبِيَّةِ مَوْفِقِيهِمْ إِزَاءَ الدَّعْوَةِ الْجَدِيدَةِ، كَمَا تَدَارَكَ الْيَهُودَ خَوْفٌ عَمِيقٌ مِنْ أَنْ يَفْضَحَ لِأَيْلِكَ سِرُّ الرُّوْحِيَّةِ الَّتِي يَجْتَهِدُونَ فِي جَفْلِهَا لُغْزًا. وَلَكِنْ بَرُغِمَ مَا أَحْدَثَهُ آغْتِنَافُهُ

الإسلام من صدئ عكسي غنيف، ووقع مُزَلِّل، لن يُؤثّر في سُلْبِيَّة اليهود إلا أثراً ضئيلاً، علَّله آبنُ سلام بما في طبيعتهم من «البُهت».

كما أن القومية اليهودية وحدها قامت على الدين الموروث، والكيس الرمزِي في هذا الشكّل حشُب، وبعبارة أصح أن القومية اليهودية كنيس فقط، ولا شيء وراء هذا التقليد الديني. فهم لا يتمسكون بدينهم، رغم الكوارث، بحكم صحتيه، بل بحكم أنه قاعدة قومية تكفل وُحْدَتهم، فاليهودي لا يرفض مبدأً لأنه فاسد أو ليس بصحيح، بل لأنه لا يتفق ومثله القومي الذي يجب أن يقبله بدون مناقشة. وهو قد يعتقد عدم صلاحيته كطب للروحانية البشرية، ولكنه يقبله على أي حال، لأنه الضمانة الأكيدة لسلامة الوحدة اليهودية. فاليهودي لا يعمل عقله في مثله، بل لا يجب أن يعمل عقله، ما دامت هذه المثل تحفظ عليه وُحْدَتَه العامة التي تتصل ببقائه، فلو فرض واتسع اليهود كمجموع بشري يعيش أشتاتاً على الأمم لاتباع أي المبادئ التي تروق لهم لذابوا وغمرتهم اللجة. فمعتقدهم الديني الموروث حفظ وُحْدَتهم وبقائهم كأمة أو كقبيل من البشر يمتاز بخصائصه، وحفظ اتصال تاريخهم، وبذلك كان لهم غنصراً أولياً كالأرض بالنسبة إلى غيرهم من ذوي القوميات الوطيدة في الزمن.

قالت ميمونة: بهذا يُعلل آبنُ سلام سُلْبِيَّة اليهود الصليبية، وليس إزاء الإسلام خاصة، بل إزاء كل المبادئ وكل الأديان، خذراً من تفشخ وُحْدَتهم وتبغثهم في الأمم... قد يرى يهودي يُزوّج لمبدأ وآخر يُزوّج لمبدأ ثانٍ، ولكنهما لم يؤمنا ألبتة بما يُزوّجان له، وإنما يفعلان ذلك بما في طبيعتهم من غنصر القوضوية ومحبة إشاعتها في كل مجتمع، ليتسنى لهم العمل والتجاح.

وبينا هي في حديثها دخل النبي فهبت إليه فاطمة، وتبعها ميمونة، ووجدت إذ ذاك فرصة مكنتها من أذنها، فأنطلقت قدماً وراء خاطر سنح لها عند

الخروج، بأن أنسأ، خادم النبي الذي لا يكاد يفارقه، عنده من خبير المسجد هذا الصباح شيء كثير. فقصدت إليه، وكانت أمه إحدى صوحيباتها، وما ظهرت في الباب حتى استقبلتها أم أنس بالخبر كبشرى فذة، وكان فيما روت لها عن ابنها: «أن أبا بكر أقبل إلى النبي فقعد بين يديه، فقال: يا رسول الله قد علمت مناصحتي وقدمي في الإسلام، وأني... وأني...»

قال: وما ذاك؟

قال: تزوجني فاطمة، فسكت عنه... فرجع أبو بكر إلى عمر، وهو يقول: هلك.

قال عمر: وما ذاك؟

قال: خطبت فاطمة إلى النبي فأعرض عني.

قال: مكانك حتى آتيه فأطلب مثل الذي طلبت.

فأتى عمر النبي فقعد بين يديه، فقال: يا رسول الله قد علمت مناصحتي وقدمي في الإسلام وأني... وأني...

قال: وما ذاك؟

قال: تزوجني فاطمة، فسكت عنه...

فرجع إلى أبي بكر، فقال: إنه ينتظر أمر الله بها... فم بنا إلى علي نستحيه أن يطلب مثل الذي طلبنا.

فأتياه وهو يعلج فسيلاً له، فقالا: إنا جئناك من عند ابن عمك بخطبة... فقام يجر رداءه حتى أتى النبي فقعد بين يديه.

فقال: يا رسول الله قد علمت مناصحتي وقدمي في الإسلام وأني...

وأني...

قال: وما ذاك؟

قال: تُزَوِّجُنِي فَاطِمَةَ... فَأَشْرَقَ وَجْهُ النَّبِيِّ، وقال: فما عندك؟

قال: فَرَسِي وَبَرَّتِي.

قال: أَمَا فَرَسُكَ فَلَا بُدَّ لَكَ مِنْهَا، وَأَمَا يَزْنُكَ فِيْهَا.

فغادرَ وباعها بأَرْبَعِمِائَةٍ وَثَمَانِينَ، وجاءَ بها حَتَّى وَضَعَهَا فِي حِجْرِ النَّبِيِّ، فَقَبَضَ مِنْهَا قَبْضَةً.

فقال: أَيُّ بِلَالٍ، آتَيْنَا بِهَا طَيِّباً^(٢).

شَاعَ الْخَبْرُ فِي الْمَدِينَةِ سَرِيعاً كَمَا يَشِيْعُ الْأَرِيحُ الْعَائِقُ فِي كُلِّ مَكَانٍ مَعَ النَّسَمِ
الْتِّدِيِّ، فَكَانَتْ مَعِمْوَنَةُ لَا تَمُرُّ بِمَحَلَّةٍ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا وَتَرَى الْمَرْأَةَ تَمِيلُ إِلَى الْمَرْأَةِ،
وتقولُ لَهَا فِي بَشَرٍ ظَاهِرٍ:

أَمَا بَلَعَاكَ النَّبَأُ؟ عَلَيَّ خَطْبُ فَاطِمَةَ، وَبَارَكَ النَّبِيُّ الْعَقْدَ، وَإِنَّهُ لَيَنْعَمُ الْحَدَثُ.
لَيْسَ لِهَذِهِ السَّيِّدَةِ الْمُصْطَفَاةِ إِلَّا هَذَا السَّيِّدُ الْمُصْطَفَى. وَهِيَ زَيْبَةُ الْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ،
وَهُوَ زَيْبُ الْوَحْيِ وَبَطْلُ الرِّسَالَةِ.

وَفِي آسْتِدَارَتِهَا صَوَّبَ مَنَزِلَهَا سَمِعَتْ رَجُلًا يَسْمُرُ إِلَى آخَرٍ فِي نَاحِيَةٍ مِنْ
الْحَيِّ وَيَقُولُ:

إِنَّ النَّبِيَّ لَمْ يُزَوِّجْ عَلِيًّا، وَإِنَّمَا كَرَّمَ الْبُطُولَةَ الْخَالِدَةَ الْمُظَفَّرَةَ فِي شَخْصِ الْبَطْلِ
الْخَالِدِ الْمُظَفَّرِ، وَإِنَّ مِنْ حَقِّ الْبُطُولَةِ تَكْرِيمَهَا، وَمَا فَاتَ النَّبِيَّ أَنْ يُكْرِمَ الْبُطُولَةَ بِأَعَزِّ مَا
عِنْدَهُ وَأَقْرَبِ مَا هُوَ إِلَى قَلْبِهِ، فَإِنَّ فَاطِمَةَ قَلْبُ النَّبِيِّ مُصَوَّرًا فِي إِنْسَانٍ مَلَائِكِيٍّ أَوْ
مَلَائِكٍ إِنْسَانِيٍّ. وَلَيْسَ فِي هَذَا مَعْنَاهُ بَلْ مَعْنَى التَّكْرِيمِ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا، فِي حَقِيقَتِهِ،

(٢) راجع كتاب: الرياض النضرة في مناقب العشرة المحجبة الطهري، ج ٢، ص ١٨٠ إلى ١٨٤.

رِسَالَةٌ وَدَعْوَةٌ وَهُوَ الْمُبْتَدَأُ، وَإِنَّ عَلَيَّ، فِي حَقِيقَتِهِ، إِيمَانٌ وَاجِبَةٌ وَهُوَ الْحَبَرُ، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ فَاطِمَةَ رَابِطَةُ الْإِسْنَادِ.

وَمَا فَاتَ مَيْمُونَةَ أَنْ تَسْمَعَ مَا رَدَّ بِهِ الْآخَرُ، وَكَانَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ، كَمَا تَقُولُ: وَأَيْضاً لَقَدْ كَرَّمَ النَّبِيُّ بِهَذَا الْقِرَانِ بَطُولَةَ أُخْرَى هَانِئَةً فِي أَبْدِيَّتِهَا الْمُشْرِفَةِ الْوَاعِيَةِ، إِنَّهُ كَرَّمَ أَبَا طَالِبٍ التَّصِيرَ الْبَرَّ وَالْمُجَاهِدَ الْأَوَّلَ.

قَالَ الْأَنْصَارِيُّ: فَهَذَا الْقِرَانُ إِذَا تَكْرِيمٌ مُزْدَوِجٌ ضَاعَفَ مَعْنَاهُ، وَأُخْلِدَ بِهَذَا الْيَوْمِ تَكْرِيمَ الْبَطُولَاتِ، إِنَّهُ لَيَسْتَحِفُّنِي بِمَعْنَاهُ الْكَبِيرِ... رَنْتَ مَيْمُونَةَ فِي الظَّلَامِ وَأَخَذْتَ بَصَرَهَا كَمَنْ رَأَى شَبَحاً، فَإِذَا شَخْصٌ يُقْبَلُ عَلَيْهِمَا، وَإِذْ تَبَيَّنَا هَتَفًا جَمِيعاً: أَهْلًا بِكَ سَلْمَانُ.

وَكَانَ سَمِعَ بَعْضَ الْحَدِيثِ، وَوَقَفَ مِنْذُ حِينَ عَلَى الْحَبَرِ، فَقَالَ:

إِنَّهُ جَدِيرٌ أَنْ يَسْتَحِفُّكَ يَا هَذَا، إِنَّهُ تَكْرِيمٌ لَأَكْبَرُ بِمَا كُنَّا نَصْنَعُ، نَحْنُ الْفُرْسُ، فِي جَاهِلِيَّتِنَا، مِنْ إِقَامَةِ تِمَثَالٍ جَامِدٍ تَخْلِيداً لِلْبَطْلِ. فَإِنَّ مُحَمَّدًا مَنَعَ تِمَثَالاً حَيًّا أَسْمَى، تَخْلِيداً لِلْبَطُولَةِ الْحَقِّ، فَكُلُّ مَا فِي عَمَلِ الْفُرْسِ وَغَيْرِهِمْ أَنَّهُ تَخْلِيدٌ بِمِقْدَارِ مَا فِي الْحَجَرِ مِنَ الْقُوَّةِ عَلَى الْبَقَاءِ، وَلَكِنَّ الْفَنَاءَ فِي طَبِيعَتِهِ. وَهَذَا تَخْلِيدٌ بِمِقْدَارِ مَا فِي الرُّوحِ مِنَ الْقُوَّةِ عَلَى الْبَقَاءِ، وَلَكِنَّ الْأَبْدِيَّةَ فِي طَبِيعَتِهَا... وَأَغْرَقَ ثَلَاثُهُمْ فِي تَأْمُلٍ صَابِغٍ طَالَ عَلَيْهِمْ، وَجَعَلَ مَيْمُونَةَ لَا تَنْتَظِرُ وَتَلْجُ الْمَنْزِلَ.

أَخَذَهَا اللَّيْلُ بَنُومٍ هَادِيٍّ تَخَلَّلَتْهُ أَحْلَامٌ بِهِجَةً آسْتَقِفَّتْ مِنْهُ عَلَى لَذَّتِهَا، فَحَفَّتْ إِلَى حُجُرَاتِ النَّبِيِّ يَقْدَمُ شَاعِرَةٌ تَحْتَ قَصْدٍ غَيْرِ شَاعِرٍ، وَكَانَتْ فَاطِمَةُ تَنْحَنِّيْهَا أَيْضاً وَتَنْتَظِرُ مِنْهَا شَيْئاً. فَإِنَّ أَبَاهَا اللَّيْلَةَ أَخَذَ بِهَا فِي أَحَادِيثَ سَتَى كَمَا تَشَاءُ الْأُبُوَّةُ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تُفْصِحْ لَهَا عَنْ شَيْءٍ يَضَعُ حَدًّا لَتَسْأُلُهَا، يَدَّ أَنَّهَا تُرِيدُ أَنْ تَعْلَمَ، وَمَنْ لَهَا غَيْرُ مَيْمُونَةَ؟

بَدَرَتْهَا فَاطِمَةُ: لَعَلَّكَ أَتَيْتَنِي الْيَوْمَ بِخَيْرِ إِسْلَامٍ كَفِبِ الْأَشْرَافِ وَفُلَانٍ
وَفُلَانٍ؟ فَأَبْتَسَمَتْ مَيْمُونَةُ، وَأَذْرَكَتْ أَنَّهَا تُرِيدُ أَنْ تَعْلَمَ عِلْمَ مَا كَانَ بِالْأَمْسِ.

فَقَالَتْ: كَأَنَّهُ لَا يَهْمُكَ كَثِيرُ إِسْلَامٍ هَؤُلَاءِ...

قَالَتْ: بَلَى، يَهْمُنِي وَلَكِنِّي لَحَظْتُ بِالْأَمْسِ أَنَّكَ جِئْتَ عَنْ حَدِيثٍ
بِحَدِيثٍ.

قَالَتْ مَيْمُونَةُ: كَانَ الْأَمْرُ يَتَعَلَّقُ بِأَنْ يَنْتَهِيَ عَمَّا عَلَيَّ... وَأَفَاضَتْ فِي إِطْرَائِهِ مِثْلَ
مُعْجَبَةٍ اتَّصَلَ بِهَا إِعْجَابٌ وَحُبٌّ.

قَالَتْ فَاطِمَةُ، وَقَدْ شَعَرَتْ أَنَّهَا تَحِيدُ أَيْضًا: وَمَا أَنَا مِنْ هَذَا الْآنَ؟

قَالَتْ مَيْمُونَةُ: أَوَلَسْتَ تُحِبُّنَهُ وَتُعْجِبِينَ بِهِ؟ وَلَيْسَ مِنْ أَحَدٍ، الْيَوْمَ، إِلَّا وَهُوَ
يُحِبُّهُ وَيُعْجِبُ بِهِ، ثُمَّ لَا يَمَلُّ الْحَدِيثَ عَنْهُ؟

قَالَتْ فَاطِمَةُ: بَلَى، إِنِّي لِأَحِبُّهُ بِحُبِّ أَبِي لَهُ وَأُعْجِبُ... فَقَاطَعَتْهَا مَيْمُونَةُ:
وَأَنْتِ سَوْفَ تُحِبُّنَهُ بِحُبِّ قَلْبِكَ وَحُبِّ أَبْنَائِكَ أَيْضًا.

جَمَدَتْ فَاطِمَةُ سَاعَةً، وَصَبَّغَهَا لَوْنٌ قَدْ يَكُونُ أَزْهَرَ، وَقَدْ يَكُونُ نَاطِقًا، ثُمَّ
قَالَتْ بَعْدَ لَأَيٍّ: حَسْبُكَ، لَقَدْ فَهِمْتُ الْآنَ، فَهَمْتُ كُلَّ شَيْءٍ. إِنَّهُ يُحِبُّهُ، وَيُحِبُّهُ إِلَى
حَدِّ كَبِيرٍ وَلَكِنْ... وَضَعَطَتْ عَلَى كَلَامِهَا وَأَخَذَتْهَا إِطْرَافَةُ مُفَكَّرَةٍ لَمْ تُحَاوِلْهَا مَيْمُونَةُ
صَرَفًا عَنْهَا، وَرَأَتْ حَسَنًا أَنْ تَنْصَرِفَ وَتَتْرُكَهَا إِلَى خَوَاطِرِهَا وَأَفْكَارِهَا.

بَعْدَ أَيَّامٍ مِنْ جَوَارِيهَا أَذْنَاهَا النَّبِيُّ إِلَيْهِ، وَأَعْلَمَهَا فِي أَحَادِيثَ بَيْنَ الْحَنَانِ
وَالِإِشْفَاقِ، فَمَرَّتْ فَاطِمَةُ فِي شَبَابٍ وَاجِمٍ، وَكَانَ طَوِيلًا غَالِبَتْ فِيهِ عَوَاطِفُهَا مُغَالِبَةً
شَاقَّةً، وَقَالَتْ فِي جُهْدٍ مِنْ مَشَاعِيرِهَا:

«يَا رَسُولَ اللَّهِ! زَوَّجْتَنِي بِرَجُلٍ فَقِيرٍ لَا شَيْءَ لَهُ.

فَقَالَ النَّبِيُّ: أَمَّا تَرَوِّضِينَ يَا فَاطِمَةُ أَنَّ اللَّهَ اخْتَارَ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ رَجُلَيْنِ، جَعَلَ أَحَدَهُمَا أَبَاكَ، وَالْآخَرَ بَعْلَكَ»^(٣).

وَكَانَ لِلْكَلِمَةِ النَّبِيُّ فِي أُذُنِ فَاطِمَةَ مَعْنَى كَمَا تَحْمِلُ الْأَلْفَاظُ، وَفِي قَلْبِهَا مَعْنَى آخَرَ هَذِهِ الْأَفَاظُ: إِنَّ الْغِنَى لَيْسَ شَيْئاً فِي الْمَالِ، وَهُوَ أَصْطِلَاحٌ زَائِفٌ اخْتَرَعَهُ مَكْرُ الشَّهَوَاتِ فِي عَقْلِ الْمَدَنِيَّةِ الْمَذْخُولِ، وَإِنَّمَا الْغِنَى شَيْءٌ فِي الْمَعْنَى الْإِنْسَانِي الَّذِي هُوَ نَامُوسٌ خَالِدٌ يَدْوَرُ عَلَيْهِ التَّفَاضُلُ فِي ظِلِّ الْوُجُودِ. فَالزُّهْرَةُ تَكُونُ أَبُيْهِ وَأَحَبُّ وَأَعْنَى بِمَا فِيهَا مِنَ الْمَعْنَى الزُّهْرِيِّ، الَّذِي هُوَ الْجَمَالُ وَالْعَبِيرُ، وَلَيْسَ بِمَا يَغْلُقُ عَلَيْهَا وَهُوَ خَارِجٌ عَنْ مَعْنَاهَا. وَالضُّوءُ يَكُونُ أَغْنَى بِمَا فِيهِ مِنَ الْمَعْنَى الضُّوئِيِّ كَذَلِكَ، وَالْأَسَدُ يَكُونُ أَغْنَى بِمَا فِيهِ مِنَ الْمَعْنَى الْأَسَدِيِّ، وَهَكَذَا كُلُّ شَيْءٍ غِنَاهُ عَلَى مِقْدَارِ مَا فِيهِ مِنْ مَعْنَاهُ... فَالْغِنَى ذَاتِيَّةٌ مُطْلَقَةٌ ثَابِتَةٌ، وَالْمَالُ نِسْبِيَّةٌ مُضْمَحَلَّةٌ، وَلَا تَكُونُ شَيْئاً إِذَا لَمْ تَكُنِ الشَّهَوَاتُ كُلُّ شَيْءٍ، وَلَا تَجِدُ قِيَمَتَهَا إِلَّا فِي مَدَى مَسَافِ الْغَرَائِزِ وَمَسَاقِطِهَا.

وَالْمَرْأَةُ تَسْتَكْمِلُ مَعْنَاهَا بِإِنْسَانِيَّةِ الرَّجُلِ دُونَ بَهِيمِيَّتِهِ وَمَا يَزِينُ هَذِهِ الْبَهِيمِيَّةَ وَيُكْمِلُهَا، كَمَا يَسْتَكْمِلُ الرَّجُلُ مَعْنَاهُ بِإِنْسَانِيَّةِ الْمَرْأَةِ دُونَ بَهِيمِيَّتِهَا وَمَا يُكْمِلُهَا. وَالْمَالُ مُكْمِلٌ لِلْبَهِيمِيَّةِ الطَّائِشَةِ، وَلَيْسَ شَيْئاً وَرَاءَهَا أَوْ بَعِيداً عَنْهَا. وَلَنْ تَشْعُرَ الْمَرْأَةُ بِذَاتِيَّتِهَا، وَتَعْتَدَّ بِكِبَرِيَاءِ مَعْنَاهَا، إِذَا كَانَ الْمَالُ شَارِياً وَالرَّجُولَةُ، مِنْ وَرَائِهِ، كَسَيْفَةٍ خَائِيَّةٍ وَبَازِيَّةٍ مُتَوَارِيَّةٍ، وَإِنَّمَا يَأْخُذُهَا إِحْسَاسٌ غَمِيقٌ بِأَنَّهُ لَمْ يَضْمُمْ بِهِ مَعْنَى إِلَى مَعْنَى بَلْ خَيْرَانِيَّةٌ مَبْدُولَةٌ وَجَدَتْ ضَعْفَهَا إِلَى خَيْرَانِيَّةٍ بِإِذْلَةٍ وَجَدَتْ قُوَّتَهَا، فَتَذْهَبُ تِلْكَ ذَاوِيَّةٌ وَيَأْخُذُهَا تَلَاشٌ سَرِيعٌ، وَتَذْهَبُ هَذِهِ مُتَنَفِّخَةٌ وَيَأْخُذُهَا جَبَرُوثٌ سَرِيعٌ، وَيَنْتَهِي الْمَالُ وَقَدْ عَمِلَ بِأَنْ أُلْصَقَ عَبْدٌ بِرَبِّ، وَلَمْ يَضْمُمْ إِنْسَانِيَّةً إِلَى إِنْسَانِيَّةٍ تَجْدَانِ وَخَدَتَهُمَا، بَلْ تَبَاطَيْنِ عَلَى مِثْلِ الطَّيْرِ فِي مِخْلَبِ الطَّيْرِ تَكُونُ الدَّعَابَةُ مِنْهُ نَهْسَةً يُشْعِرُهُ فِيهَا بَهْوَانِيَّةً، وَإِنَّهُ فِي مَكَانِ التَّهَاقُوتِ مِنْ قِمَمِهِ؛ وَتَكُونُ نِهَاقَةُ زَوَاجِ الْمَالِ آسْتِزَوْقَاقاً أَوْ

(٣) راجع كتاب: الرياض النضرة في مناقب العشرة للمحب الطبري، ج ٢، ص ١٨٢.

أفتراساً في شعور القلب، وتكون في شعور المجتمع اختلالاً في توازن الأسرة يُصيبها بالفساد، ويتجاوز بآثره إلى توازن الجماعة فتختل وتضطرب. وفي كلمتي: زواج وقران رايحة هذا المعنى، بيد أن الأولى قصيد فيها إلى الروح وأحاسيسها، والثانية قصيد فيها إلى الواقع الاجتماعي وأرتساماته. فزواج المال ليس فيه مغناه، وإنما فيه معنى العقد الذي هو احتيال بقانون.

والأنثى إذا لم تيز فضاء الرجل النفسي فما تزيد عن أنها جسد فقط. والرجل إذا لم ييز فضاء المرأة النفسية فما يزيد عن أنه جسد فقط، والزواج في جس الروح فضيلة تكمل فضيلة، ونور يمد نور.

وكان معنى اختيار علي إلى جنب النبي جمع كل الإنسانية فيه، وجاء معه علامة على أن الإنسانية بكل ما ثبت فيها، لن تنحرف عن التوبة الجديدة بكل ما ثبت فيها. فكانت فاطمة منهما بين مصدر إشراق الثور ومجلى انعكاسه، وموجات الشعاع تمر متألقة في جو نفسها المتسامية أبداً.

ومر في نجوى قلبها: إن أبي يقول في تعبير آخر، ظهرت حقيقة الخلق في عالم الإبداع الإلهي بمظهرين: مظهر النبي الكامل، ومظهر الإنسان الكامل، وحبیب إلى نفسي أن يكون حظي هذا الإنسان.

«وأمر النبي أن يُجهزوا فاطمة فحمل لها سريراً مشروطاً بالشروط، وقال لعلي: إذا أتتك فلا تحدث شيئاً حتى آتيك... فجاءت مع أم أيمن حتى قعدت في جانب البيت وعلي في جانب، وجاء رسول الله، فقال:

- ههنا أخي؟

قالت أم أيمن: أخوك وقد زوجته آبتك!

قال: نعم...

وَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ الْبَيْتَ، فَدَعَا بِمَاءٍ، فَقَالَ فِيهِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ، وَدَعَا
فَاطِمَةَ فَجَاءَتْ خَرَقَةً مِنَ الْحَيَاءِ تَغْتُرُ فِي مِرْطِهَا، فَتَضَخَّ عَلَيْهَا وَقَالَ لَهَا:
- إِنِّي لَمْ آلُ أَنْ أُتَكِّحَكَ أَحَبَّ أَهْلِي إِلَيَّ، اللَّهُمَّ إِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ
الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ...

وَرَأَى رَسُولُ اللَّهِ سَوَاداً وَرَاءَ الْبَابِ، فَقَالَ:
- مَنْ هَذَا؟

قَالَتْ: مَيْمُونَةُ.

قَالَ: مَيْمُونَةُ أَخْتُ بَنِي عُمَيْسٍ؟

قَالَتْ: نَعَمْ.

قَالَ: أَمَعَ بَنِي رَسُولِ اللَّهِ جِئْتَ كَرَامَةً؟

قَالَتْ: إِي وَائِمُ اللَّهِ... فَدَعَا لِي دُعَاءَ أَنَّهُ لَا وَثُقُ عَمَلِي، ثُمَّ خَرَجَ فَمَا زَالَ
يَدْعُو لَهَا حَتَّى ضَمَّهُ مَنْرِلُهُ^(٤).

*

يَظَلُّ الزَّمَانُ حَقِيقَةً مَوْهُومَةً، لَوْلَا بَعْضُ الْأَعْمَالِ الْخَالِدَةِ الَّتِي تُورِّثُهَا...

وَتَكُونُ هَذِهِ الْأَعْمَالُ أَكْبَرُ مِنَ الزَّمَنِ، لِأَنَّ حَقِيقَتَهُ بَعْضُ هِبَاتِهَا...

فَيَوْمَ عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ أَكْبَرُ مِنَ الزَّمَنِ، وَأَخْلَدُ مِنَ التَّارِيخِ!...

أَثْبَتَتِ الثَّبُوءُ مَغْنَاهَا الْخَالِدَ فِي رُوحِيَّةِ الْإِنْسَانِ عَلَى وَجْهِ...

وَأَثْبَتَتِ الثَّبُوءُ ذَاتِيَّتَهَا الْخَالِدَةَ فِي دَمِ الْإِنْسَانِ عَلَى وَجْهِ...

(٤) راجع كتاب: الرياض التضرعة، في مناقب العشرة للمحب الطبري، ج ٢، ص ١٨١ و ١٨٢.

فيوم علي وفاطمة، بداءة حياة النبوة الخالدة في الدماء!...

*

كانت النبوة ستظل ذكرى فقط...

ولكن شاء الله أن تكون حياة أيضاً...

فيوم علي وفاطمة، إبقاء لحياة النبوة على الدهور!...

*

تضع الحقيقة الكبرى خصائص مغناها في النواة، لأنها تريد البقاء...

والنواة لا تختلف في خصائصها إلا إذا كان لناموس الوراثة الطبيعي أن
يختلف...

فيوم علي وفاطمة، يوم بروز النواة عن مثل خصائصها في شكل آخر!...

*

تذهب النواة التي هي مخزون الخصائص، تُبم دورتها وتُعطي أشياءها...

والنبوة فكرة السماء المصلحة في محيط البشر...

فيوم علي وفاطمة، طبع لعقلية النبوة في عقل الناس!...

*

اجتمعت في علي قابليات لا حد لها...

واجتمعت في فاطمة إشراقات لا حد لها...

فيوم علي وفاطمة، يوم نظر النبوة إلى نفسها في الميزة!...

* * *

يوم الإيمان الشامخ(*)

جَمَدَتْ فِي مَاقِي النَّاسِ دَمْعَةٌ حَزَى لَمْ يَكُنِ الْحُزْنَ كُلُّ مَغْنَاهَا، كَمَا لَمْ
تَحُلْ مِنْ بَعْضِ مَغْنَاهُ، فَقَدْ آتَصَلَتْ بِكُلِّ قَلْبٍ أَسْبَابَ حُزْنٍ مَرِيرٍ، حِينَ اسْتَفَاقَ
النَّاسُ بَعْدَ أُحُدٍ^(١) عَلَى مَشْهَدِ الْبُطُولَةِ الْكَلِيمَةِ الْجَرِيحَةِ.

وَجَرَاحُ الْبُطُولَةِ لَا تَقْدِفُ فِي النُّفُوسِ ضَعْفَ الْأَلَمِ بَلْ كِبَرِيَاءَهُ، وَلَا تُلْفِيهَا
بِدَلَّةِ التَّجَرُّبَةِ وَلَكِنْ بِتَجْدِيدِهَا فِي عَزِيمَةِ تَضَاعَفَتْ حَقِيقَتُهَا، وَتَمَدَّدَتْ فِي كُلِّ أَشْيَاءِ
الْحَيَسِّ. فَإِنَّ الْأَلَمَ، مَعَ الْإِيمَانِ، ظُهُورٌ لِدَايَةِ الْوُجُودِ بِقُوَّتِهَا، كَمَا يَكُونُ الْأَلَمُ، مَعَ
الْجُحُودِ، ظُهُوراً لِدَايَةِ الْعَدَمِ بِتَلَاشِيهَا.

وَأَنَّ الْأَلَمَ فِي غَايَتِهِ تَحَدٍّ، وَتَحَدِّي الْقُوَّةِ مُبَالَغَةُ الْقُوَّةِ فِي إِظْهَارِ طَبِيعَتِهَا
وَمَغْنَاهَا، وَتَحَدِّي الضَّعْفِ مُبَالَغَةُ الضَّعْفِ فِي إِظْهَارِ طَبِيعَتِهِ وَمَغْنَاهُ.
وَتَزَارُ الْقُوَّةُ إِذَا أُصِيبَتْ زَيْيَرُ الْقُنْبُلَةِ إِذَا أَنْفَجَرَتْ، وَهِيَ تُعَبِّرُ عَنْ أَنَّ فِي بَعْضِ

(٥) أُلْقِيَ هَذَا الْفَضْلُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ سَنَةَ ١٩٤٢ فِي قَاعَةِ الْوَسْطِ هَوَلِ مُنَاسَبَةِ خَفِيِّ الْمَوْلِدِ النَّبَوِيِّ، وَكَانَ مُقْصُوراً
عَلَيَّ وَعَلَى الذَّكَوَرِ عُمَرُ الدَّسُوقِيِّ الَّذِي أُلْقَى قَصِيدَةً، وَكَانَ عَرَبَتْ الْحَفْلَ الذَّكَوَرِ جَمِيلَ عِرْدَاتِي أُسْتَاذَ
الطَّبِّ فِي الْجَامِعَةِ الْأَمْرِكِيَّةِ.

(١) جَبِيلٌ فِي الْحِجَازِ قُرْبَ الْمَدِينَةِ، كَانَتْ فِيهِ مَغْرَكَةٌ شَهِيرَةٌ بَيْنَ الثُّبِيِّ وَأَتْبَاعِهِ، وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَشُعْبَتِهَا
الْمُشْرِكُونَ كَمَغْرَكَةِ تَارِيخٍ يَمُغْرَكَةُ بَذَرِ الْكُبْرَى، وَوَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ فِي صُغُوفِ أَتْبَاعِ الثُّبِيِّ لِأَنَّهُمْ تَزَكُّوا الْمَوَاقِعَ
الْشَّرَاتِيحَةَ الَّتِي عَيْنُهَا لَهُمُ الثُّبِيُّ قَبْلَ نِهَايَةِ الْمَغْرَكَةِ، حِينَ ظَهَرَتْ تَبَاشِيرُ الظُّفْرِ أَوَّلًا فِي جَانِبِهِمْ، كَمَا هُوَ
مَعْرُوفٌ فِي كُتُبِ السِّيَرِ وَالتَّارِيخِ.

الكسر ما هو انطلاق لأعمق القوّات الكامنة. وتؤعد إزعاد الأسد إذا خائنه الموقف، وهو يعبر عن أنه الأسد بطبيعته المخزونة التي شاء الموقف أن يطلقها به. وتلك القوّات وهذه الطبيعة لا تنطلقان إلا بكسر أو جرح، وهما تحسان به إحساس المادة الملتهية بالتار، لا تميل بها إلى ضمور العدم بل إلى كبرياء الوجود، ثم لا تدفعها إلى استسلام كسيف، وضموط طامس، بل إلى اعتداد رهيب وزد مضم، ويكون الكسر، أو الجرح، قد أضاف إلى معناها معنى جديداً، أو سمح لكل طبائعها بالظهور.

وكذلك يكون شعور القوي بالألم إغراء لقوته على أن تنطلق وتنقض ظامته، كما يكون شعور الضعيف بالألم إغراء لضعفه على أن يترز ويبدو في انعس أشكال العبوديات الدلية^(٢) مهانة وخوراً.

والإيمان قوة تصنع البطولات المشهنة. ويوم أحد يوم أصيبت البطولة فيه، فكان آتداء إحساسها بالألم آتداء شموخها الذاهب في السماء والمتحدب مع الآفاق... والدماء الصبية لا تلهم الأبطال روعة الدم الزاهية بل رجفة الدم النايضة، ولا تتركهم إلا وقد استحالوا قوى مريدة منقضة في مسافات أشواطها، لا يحول دونها إلا ما قدير له أن لا يكون.

والألم للإيمان كالحركة للحياة، ثمران الحرارة فيهما، وكما تذهب الحياة بدون الحركة في ضمور، يحور الإيمان بدون الألم في تلاش، ويأخذ همود سحيق. والإيمان قوة، ولكن سرعان ما تتقلل حرارته في أعماق النفس، إذا لم يركزها الألم ويقرنها من عمليّة الحياة.

وإن حركات التاريخ، برميته، تقع بين جواذب الألم ودوافعه، بل تحطى

(٢) العبوديات الدلية هي عبودية الإنسان للإنسان على أشكالها. وأما العبودية لله التي جاءت بها الأديان فإنها تحرير للنفس الإنسان من شتى العبوديات، وإشعارها بكبرياء الذات.

الشَّوْءِ لِلْكُلِّ الْاجْتِمَاعِيِّ تَنْتَظِمُ بَيْنَ هَذَا الدَّفْعِ وَهَذَا الْجَذْبِ، وَكَانَتْ أَكْبَرُ الْحَرَكَاتِ لَا تَزِيدُ، فِي جَوْهَرِهَا، عَنْ أَنَّهَا إِيمَانٌ بِفِكْرَةٍ وَأَلَمٌ فِي الْإِيمَانِ، وَأَبْدَأُ لَا يَشْتَدُّ الْإِيمَانُ وَيَخْطُرُ صُغْداً إِلَّا إِذَا قَدَحَ الْأَلَمُ زِنَادَهُ، وَطَايَرَ بِالْشَّرِّ. وَفِي مُحِيطِ الْمَادَّةِ، فِي مُحِيطِ الرُّوحِ، نَفْسُ التَّامُوسِ، فَإِنَّ الْجِسْمَ الْمَادِّيَّ الضَّعِيفَ يَلِينُ عَلَى الْأَلَمِ، بَيْنَمَا الْجِسْمُ الْقَوِيُّ يَشْتَدُّ وَيَهْيِجُ حَتَّى يَمْلَأَ الْفَضَاءَ، مُشِيراً إِلَى قُوَّتِهِ وَأَنَّهُ لَمْ يَهْنُ.

فَإِذَا كَانَ فِي يَوْمٍ بَذَرِ بَعْضِ الطَّفَرِ، فِي يَوْمٍ أُحْدِ كُلُّ الطَّفَرِ لَأَنَّ الْإِيمَانَ أَحْسَنَ بِقُوَّتِهِ، وَأَنَّهُ شَيْءٌ، وَبَدَأُ يَخْطُو فِي ذَاتِيَّةٍ وَأَعْتِدَادٍ.

إِنْدَقَعَ النَّاسُ إِلَى النَّاسِ «يُهْنِيءُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً» بَأَنَّهُمْ، وَإِنْ خَسِرُوا الْمَعْرَكَةَ، فَقَدْ رَبَحُوا الْإِيمَانَ بِالْمُبَادِيءِ، وَرَبَحُوا الْعَقِيدَةَ الَّتِي ظَهَرَتْ سَلَامَتُهَا، وَأَنَّهَا رِبَاطٌ تَسْتَلِي لَهُ أَنْ يَجْمَعَ قَلْباً إِلَى قَلْبٍ وَيَمْزِجَ نَفْساً بِنَفْسٍ، وَأَنَّهُ لَنْ يَتَفَلَّلَ عَلَى الضَّغْطِ، مَهْمَا كَانَ عُقُوبَاتُهُ، وَمَهْمَا جَاءَ مِنْهُ.

ظَهَرَ أَنَّهُمْ لَا تَجْمَعُهُمْ جَامِعَةٌ مِنْ شَهَوَاتِ الْأَرْضِ بِمَا أَكْتَظَّتْ بِهِ مِنْ أَهْوَاءٍ، وَآخَتَفَلَّتْ بِهِ مِنْ مَطَامِعٍ، وَأَمَّا تَجْمَعُهُمْ جَامِعَةٌ مِنْ رَغَبَاتِ السَّمَاءِ، وَرَغْبَةُ السَّمَاءِ فِي تَطْهِيرِ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَهَوَاتٍ وَأَرْجَاسٍ تُمُورُ مَوْرَاناً، وَتَسُوقُ الْجُمُوعَ الْإِنْسَانِيَّةَ بَغْنَفٍ وَقَسِرٍ إِلَى حَيْثُ لَا تَكُونُ إِنْسَانِيَّتُهَا، وَتَخْسَرُ مَعْنَاهَا... وَكَانَتْ مَعْرَكَةُ أُحُدٍ تَجْرِبَةً سَعِيدَةً لَاحْتِبَارِ بِنَايَةِ مُحَمَّدٍ الْجَدِيدَةِ فِي أَعْمَاقِ النُّفُوسِ، فَقَدْ تَبَتَّتْ عَلَى الْعَاصِفَةِ الَّتِي تَمَزَّقَتْ رِيَاخُهَا عَلَى صَخَرَاتِ الْإِيمَانِ الشَّامِخِ.

مَا الشَّهَوَاتُ النَّهْمَةُ؟

مَا اللَّذَائِدُ الدُّنْيَا؟

مَا الْبَلَهْنِيَّةُ وَالْتَرَفُ؟

إنَّهَا لَا شَيْءَ فِي مَذْهَبِ رَغْبَاتِهِمُ الْكَبِيرَةِ، إِنَّهَا لَا تَمُتُ بِأَفْعِدَتِهِمُ الَّتِي تَلَوَّزُهَا
السُّمُومُ بِمَغْنَاهُ الْقُدْسِيِّ، وَحَاطَهَا حَتَّى لَا تَهْوِي مُسِيفَةً، وَتَزَوِّجَ بِالْأَوْحَالِ، إِنَّهَا أَوْحَالٌ
مِنْ سَفْسَافِ الْأَرْضِ، فَهَمُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا بِتَقَرُّزٍ وَآسِيعِلَاءِ.

هَمُ فِكْرَةٌ مِنَ التَّطْهِيرِ، وَفِكْرَةٌ مِنَ الْإِصْلَاحِ وَالْعُمْرَانِ، وَصَبْرُهُمُ الْجِهَادُ فِكْرَةٌ
مِنَ التَّنْظِيمِ، فَكَانُوا مُعَلِّمِينَ أَطْلَقَهُمُ الْإِيمَانُ الْجَدِيدُ لِيَحْلُوا فِي عَقْلِ الْمُجْتَمَعِ الْمَحْمُومِ،
كَمَا يَحُلُّ الْإِكْسِيرُ الَّذِي يَحْمِلُ فِي مَعْنَى الدَّوَاءِ أَبَدِيَّةَ النَّشَاطِ، وَخُلُودَ الْحَرَارَةِ
وَالْحَرَكَةَ وَالْحَيَاةَ.

لَمْ يَكُنْ فَسَادُ الْمُجْتَمَعِ بِمَعْنَى ذَاتِهِ، وَإِنَّمَا كَانَ بِفِكْرَةِ أَهْوَائِهِ الَّتِي نَفَذَتْ إِلَى
مَحَلِّ الضَّمَائِرِ وَتَمَدَّدَتْ، فَوَقَفَ الْفَرْدُ لِلْفَرْدِ، وَالْجَمَاعَةُ لِلْجَمَاعَةِ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَقَدْ
تَمَلَّؤُوا بِضَرَاوَةِ وَخَشْيَةِ كَالِحَةٍ، وَذَهَبَ كُلُّ شَيْءٍ يُكَافِخُ التِّيَّارَ، وَالْمُجْتَمَعُ يَطْفُو وَيَرُشِبُ
فِي فَوْضَى اللَّجَّةِ الْعَاتِيَةِ النَّكْرَاءِ.

لَوْ تَأَتَّى لِأَتْبَاعِ مُحَمَّدٍ الطُّفَرِ دَائِمًا لَتَحَوَّلَ الْإِيمَانُ، بِدُونِ شُعُورٍ، إِلَى فِكْرَةٍ
مَادِّيَّةٍ مِنَ الْغَنَائِمِ وَالْأَسْلَابِ، وَتَبَخَّرَ عَلَيْهِمْ مَغْنَاهُ، وَلَكِنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ جِهَادُهُمْ
جِهَادَ إِيمَانٍ فَقَطْ، فَكَانَ فِي ظَفَرِهِمْ وَإِخْفَاقِهِمْ ظَفَرُ لِفِكْرَةِ الْإِصْلَاحِ الَّتِي يَحْمِلُونَهَا،
ذَاكَ فِي التَّفَوُّقِ وَحَيِّزُهُ الْوَاقِعُ، وَهَذَا فِي التَّرْكِيزِ وَحَيِّزُهُ النَّفْسُ.

وَقَدْ أَظْهَرُوا أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ فَقَطْ، آسَتْهُوَتْهُمْ الْفِكْرَةُ وَأَخَذَتْ عَلَيْهِمْ
أَحَاسِيسُهُمْ، وَتَفَجَّرَتْ فِي خَلَايَا نُفُوسِهِمْ يَنَابِيعٌ، فَهَمُ لَا يَنْدَفِعُونَ بِدَافِعٍ مِنْ شَهْوَةِ
النَّاسِ فِي لَذَّةِ الْحَيَاةِ، بَلْ بِدَافِعٍ مِنْ تَطَلُّعِ الْعَقْلِ وَشُعُورِ الْقَلْبِ فِي لَذَّةِ الْإِيمَانِ. وَقَدْ
أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يُلَقِّنَهُمْ دَرْسًا بِالْعَا فِي أَنَّ الْإِيمَانَ لَا تَظْهَرُ حَقِيقَتُهُ إِلَّا فِي الْأَلَمِ، وَأَنَّ
الْإِيمَانَ فِي مَظْهَرِ الْعَضَارَةِ الرَّخِيَّةِ إِيمَانٌ تَلِيدٌ مُنْحَلٌّ، أَوْ لَيْسَ شَيْعًا خَالِدًا فِي شُعُورِ
النَّفْسِ.

«أَذَنْ مُؤَذِّنُ رَسُولِ اللَّهِ، غَدَاةٌ مُنْصَرِفُهُ مِنْ أُحُدٍ، بِالْخُرُوجِ فِي طَلَبِ الْعَدُوِّ، وَأَنْ لَا يَخْرُجَ إِلَّا مِنْ حَضَرِ مَعْرَكَةِ الْأَمْسِ، وَأَتْبَاعُهُ مُتَخَنُونَ بِالْجِرَاحِ.

قَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَبِيدِ الْأَشْهَلِ لِأَخِيهِ: أَتَفَوْتُنَا غَزْوَةً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ؟... وَوَاللَّهِ مَا لَنَا دَابَّةٌ نَرْكَبُهَا، وَمَا مِنَّا إِلَّا جَرِيحٌ ثَقِيلٌ. فَخَرَجْنَا وَكُنْتُ أَيْسَرَ جُوحاً مِنْهُ، فَكَانَ إِذَا غُلِبَ حَمَلَتْهُ عُقْبَةٌ وَمَشَى عُقْبَةً، حَتَّى آتَيْنَا إِلَى مَا آتَى إِلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ. وَكَانَ النَّبِيُّ قَدْ آتَى إِلَى حَمْرَاءِ الْأَسَدِ، وَهِيَ مِنَ الْمَدِينَةِ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَمْيَالٍ، وَأَقَامَ بِهَا الْإِثْنَيْنِ، وَالثَّلَاثَاءَ وَالْأَرْبَعَاءَ»^(٣).

كَانَ رَجْعُ الْأَلَمِ فِي الْإِيمَانِ هَبَّةً لَا تَعْرِفُ الْوَنَى، وَلَا تَتَّصِلُ بِالْفُتُورِ وَالِاسْتِخْدَاءِ، إِنَّهَا أَنْطَلَقَتْ أَشَدَّ مَضَاءً وَأَكْثَرَ آتِدْفَاعاً، فَقَدْ أَحْسَسَتْ الْقُوَّةَ بِأَعْيَادِئِهَا، وَعَمَرَتْهَا مَوْجَةُ الْكِبَرِيَاءِ لِأَنَّهُمْ تَحَدَّوْهَا وَاسْتَكْبَرُوهَا، وَالْقُوَّةُ، إِذَا آسْتَشِيرَتْ، تَنْتَشِرُ طَاقَاتٍ فِي أُخْرَى أَكْبَرَ مِنْهَا، حَتَّى تَشُدَّ الْأَفَاقَ وَتَمَلَأَ أَفْطَارَ الْفَضَاءِ، كَمَا دَوَّ الْفَخْمِ فِيهَا مَخْرُوفٌ مِنَ الْقُوَّةِ، تَغْلُقُ بِهَا شَرَارَةً وَتَتَّصِلُ حَتَّى تُؤَجِّجَ بِالْشَّرِّ.

قَالَتِ الْإِنْسَانِيَّةُ الْجَدِيدَةُ، بَعْدَ التَّحَدِّيِّ وَاتِّبَاطِ الرَّجْعِ، (أَنَا) وَهِيَ شَامِخَةٌ بِمَغْنَاهَا، وَوَلَّتِ الْإِنْسَانِيَّةُ الْعَتِيقَةُ الْمُتَهَرِّثَةَ مُتَسَايِلَةً مُتَوَارِدَةً إِلَى أَوْكَارِهَا، وَهِيَ شَامِخَةٌ بِخَيَالِ الْمَغْنَى الضَّائِعِ وَالْمُصَادَفَةِ الْعَارِضَةِ، كَالَّذِي تَغْفُرُ بِهِ قَدَمُهُ فَيَهْوِي إِلَى حَفِيرٍ فِيهِ كَنْزٌ، فَإِنَّهُ يُحْسِنُ بِالْإِتِيَّاحِ إِلَى مَا صَادَفَ مِنَ الثَّرْوَةِ، وَلَكِنَّهُ لَا يُحْسِنُ أَبَداً بِفَخْرِ الثَّرْوَةِ، لِأَنَّهُ لَا تَتَّصِلُ بِذَاتِهِ اتِّصَالُ الْإِبْجَادِ، وَإِنَّمَا تَتَّصِلُ بِأَطْمَاعِهِ اتِّصَالُ الرُّغْبَةِ بِمَا يُبِيرُهَا وَيُخَرِّكُهَا.

وَكَانَ الْفَرْقُ بَيْنَ الشَّاعِرِ بِمَغْنَاهُ، وَالْغَائِضِ فِيهِ مَغْنَاهُ، كَالْفَرْقِ بَيْنَ مَنْ يَشْقُطُ

(٣) راجع: سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٩٠.

في حفير فينسى الألم، ويستند في إحساس أنه لم يزل حياً وسيبعد التجربة، أو يطمئن في إحساس أنه حيّ بحياة المبدأ الذي قضى دونه... وبين من يشقّط في حفير فينسى الحياة والقوة، ويهون في إحساس جراحاته وكسوره، أو ييأس في إحساس أنه مضغّة بين فكّي العدم الصامت. فأولهما يطرد ضعفاً بقوة، وثانيهما يضيف ضعفاً إلى ضعف... ومرّ على مسرح أحد صورة هذين الرجلين:

«أرسل النبيّ من يثحث عن سعد بن الربيع، أفي الأحياء هو، أم في الأموات؟... فنظر فوجدّه جريحاً وبه رمق في القتل.

فقال له: إن رسول الله أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات. قال: أنا في الأموات. فأبلغ رسول الله عني السلام، وقُلْ له إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جرى نبياً عن أمّيه. وأبلغ قومك عني السلام، وقُلْ لهم: إن سعداً يقول: ألا إنّه لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف»^(٤).

كلمات كلّها يقين وأطمئنان ورضاً بهذا المصير، وهذه النهاية التي يحس أنها كبيرة خالدة.

«قاتل قُزَمان قتالاً شديداً فقتل، وحده، ثمانية أو سبعة من المشركين، وكان ذا بأس فألبنته الجراحة. فأحتمل إلى دار بني ظفر، فجعل رجال من المسلمين يقولون له:

والله لقد أبلّيت اليوم يا قُزَمان فأبشّر.

قال: بماذا أبشّر، فوالله إن قاتلت إلا عن أحساب قومي... فلما اشتدّت عليه جراحته أخذ سهماً من كنانته فقتل به نفسه»^(٥).

(٤) راجع: سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٨٦.

(٥) راجع: سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٨٢.

وسَدَلَ التاريخُ من دونِهما سِتارَهُ وأَعْلَنَ هذهَ الحَقِيقَةَ: قَضَى أَوَّلُهُما دونَ
فِكْرَةِ العَقِيدَةِ فَكانَ بَطْلاً وتَلَفَّعَ بالخُلُودِ؛ وقَضَى ثانيهما دونَ فِكْرَةِ الأَحْقادِ ونَزْغَاتِ
الأَغْصابِ فَانْحَلَّ بِأَنْجِلالِها، وتَلَفَّعَ بالْعَدَمِ.

وَقَفَ النَّبِيُّ وأَصْحابُهُ في حَمراءِ الأَسَدِ وَقَفَّةَ الأَسَدِ في وَثْبَتِهِ الحَمراءِ،
وتَحَدَّى طَوِيلاً، وَرَجَّعَ الفَضاءَ دَوِيَّةَ الرَّهيبِ، وَصَمَّتْ كُلُّ شَيْءٍ، وبَقِيَ الصَّدَى
يُعْلِنُ غَلَبَةَ الإنسانِ الجَدِيدِ.

لَفَّتِ المَدِينَةُ أَيْتامَ لَمْ يَكُنْ فيها من سَوادِ الأَسَى أَثَرٌ كَبِيرٌ، وهي إلى أَنها أَيْتامُ
تَأْيِينَ أَقْرَبُ مِنْها إلى أَنها أَيْتامُ أَحْزَانٍ ودُمُوعٍ، على أَنَّ مِنَ الحُزْنِ ما هُوَ بِهِيَجٌ وَلَيْدٌ
شُعُورٍ بالإعْجابِ، وَمِنَ الدَّمْعِ ما هُوَ ضاحِكٌ وَلَيْدٌ شُعُورٍ بالأَمَلِ.

حِينَ شاعَ الإيمانُ، بَمَغْناهِ الهَيْمانيِّ في النَّاسِ، شاعَتِ البَطُولَةُ بِمَغْناها الرَّايعِ في
الرُّجالِ والنِّساءِ جَمِيعاً، وأَعْطَوْا صُوراً خالِدةً تُضَافُ إلى أَشْياءِ التاريخِ الكَبيرةِ.
فكانَ لَنا مِنْ يَومِ أُحُدٍ، أَبطالٌ في شَخْصِ الشَّهَداءِ كَحَمزَةٍ، وأَبْطالٌ في شَخْصِ
الأَحْياءِ كَعَلِيٍّ، وأَبْطالٌ في شَخْصِ النِّساءِ كَنُسَيْبَةَ المازِنِيَّةِ^(٦)، حَتَّى الطِّفْلَةُ^(٧) لَمْ
يُفْتِها نَصيبٌ مِنَ البَطُولَةِ...

في ظِلالِ التَّخيلِ الَّتِي بَدَتْ واجِمَةً في إِطْرافَةِ الحالِمِ، كانَ الشَّاعِرُ يَسْتَوْحِي
وَيَسْتَلْهِمُ، وَجَرَتْ على نَحْدَيِ حَسَّانٍ بَيْنَ ثابِتِ عِبْرَتِ الإعْجابِ الَّذِي آتَّصَلَ

(٦) كانَ مِنْ قِصَّتِها أَنها خَرَجَتْ، في يَومِ أُحُدٍ، ومَعها بَقاءُ تَشْغِي مِنْهُ الجَرحى والزَّيغَ لِلْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا
هَبَّتْ عَلَیْها أُنْحازَتْ إلى الثَّيِّ، وباشَرَتِ القِتالَ عَنْهُ تَذَبُّباً بِالشَّيْفِ وَتَرمِي عَنِ القَوسِ، حَتَّى حَصَلَتِ الجِراخَةُ
لِها، وفيها قالَ الثَّيِّ: «ما أَلَفْتُكِ يَمِيناً ولا شِمالاً يَومَ أُحُدٍ إلّا وَرَأَيْتُها تُقاتِلُ دوني، راجِع: السيرة الحلبية،
ج ٢، ص ٢٣٠.

(٧) قِيلَ سَمُرَةٌ بِنْتُ جُنْدُبٍ لَمَّا رَدَّه الثَّيِّ يَومَ أُحُدٍ لِصِغَرِ سِنِّه، وأَجازَ رافعُ بْنُ حُذَيفٍ، قالَ لَزَوْجِ أُمِّه: أَجازَ
الثَّيِّ رافعاً وأنا أَصرَعُهُ، فقالَ الثَّيِّ: تَصارَعَا فَصرَعَهُ، فَأَجازَهُ وَضَعَهُ إلى الجَيْشِ. راجِع: السيرة الحلبية، ج ٢،
ص ٢٢٠.

بعاطفة مُلتاعة محزونة، وكانت نفسه مُكنَّظة بِمشاعرٍ شتى، آكتِظاظُ اليومِ الغابرِ
بالروائعِ الخالدةِ، ومَرَّتْ به نَسَمَاتُ أَجَاشَتْ عَلَيْهِ شَاعِرِيَّتُهُ، فَأَطْلَقَهَا عَلَى هَيْبَتِهَا فِي
كُلِّ مَجَالٍ.

لَقَدْ كَانَ هَذَا الْيَوْمُ مَادَّةَ الْمَلْحَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَفْقُودَةِ، لَوْ تَأَتَّى لِشَاعِرٍ خَالِدٍ أَنْ
يَسْتَلْهِمَهُ، وَيُفَرِّزَ مَا قَدْ طَفَا عَلَى سَطْحِهِ مِنْ رَوَائِعَ، يُثْقِلُهَا ثَقْلًا أَمِينًا لَا تَقِلُّ عَنْ رَوْعَةٍ
وَاقِعِهَا. فَإِنَّ مَلْحَمَةَ تَكُونُ مَادَّتُهَا هَذَا الْيَوْمُ تَظَلُّ، بِدُونِ رُئْبٍ، أَدَاةَ بَغْيٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ
مِنْ أَيَّامِ الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَتَتَجَدَّدُ كُلَّمَا جَدَّدَ الْعَرَبُ وَالْمُسْلِمُونَ حَرَكَاتِ الْإِنْبِعَاطِ
وَعَزَمَةَ التُّهُوِضِ، وَكَانَ أَفْزَرُ مَا تَرَكْتَ مَعْرَكَةُ أُحُدٍ هَذِهِ الْحَقَائِقُ:

إِنَّ نَجَاحَ الْأَعْصَابِ فِي الْكِفَاحِ عَلَى مِقْدَارِ نَجَاحِ الْإِيمَانِ مِنَ السَّيْطَرَةِ، وَإِنَّ
قِيَمَةَ الْكِفَاحِ عَلَى مِقْدَارِ قِيَمَةِ الْفِكْرَةِ الَّتِي يَحْتَدِثُ مِنْ أَجْلِ تَوْكِيزِهَا، وَإِنَّ الْكِفَاحَ
الظَّاهِرَ لَا يَكُونُ إِلَّا حَيْثُ تَكُونُ الْعَقِيدَةُ الصَّلِيبَةُ، وَإِذَا لَمْ يَكُنِ الْإِيمَانُ فَلَا يَزِيدُ
الْكِفَاحُ عَنْ أَنَّهُ فُورَةٌ مُتَرَاجِعَةٌ، وَحَرَكَةٌ مُخْتَصِرَةٌ، وَلَا يَزِيدُ هَذَا الْبُعْثُ عَنْ أَنَّهُ بَعْثُ
فِيهِ بُرُودَةُ الْمَوْتِ وَمَغْزَى الْإِنْجِلَالِ.

وَطَلَعَ عَلَيْهِ، وَهُوَ فِي لَذَّةِ إِنْشَائِهِ وَإِنْشَادِهِ، الْحَجَّاجُ بْنُ عَلَاطِ السَّلَمِيِّ، وَكَانَ
شَاعِرًا مَفْتُونًا شَاعِرِيَّةً بِطُولَةِ عَلِيٍّ يَوْمَ أُحُدٍ، فَرَاخَ يَفْتَنُ بِالْوَانِهَا وَيَتَغَتَّى بِأَيَاتِهَا.
فَأَوْسَعَ لَهُ حَسَنًا فِي مَجْلِسِهِ، وَقَالَ:

كُنْتُ أَشْتَهِي لِقَاءَكَ مِنْذُ الْيَوْمِ، وَأَحْسَبُ مَا يُقَالُ، مِنْ أَنَّ فِي قُلُوبِ الْأَخْلَاءِ
آذَانًا تَتَّصِلُ بِكُلِّ مَا فِي النَّفْسِ مِنْ رَغَبَاتٍ وَخَلَجَاتٍ، وَتُحِسُّ بِهَا لَحِينَهَا، حَقِيقَتًا
جِدًّا.

فَقَالَ السَّلَمِيُّ فِي دُعَابَةِ مُفْتَرَقَةٍ: وَلَا سِيَّما إِذَا كَانَ الْأَمْرُ بَيْنَ شَاعِرَيْنِ
شَيْطَانَاهُمَا الْمَعْيَانِ.

فَلَمْ يَبْدُ عَلَى حَسَنٍ مَا كَانَ يَنْتَظِرُ مِنْ أَثَرِ الدُّعَابَةِ الْعَارِضَةِ، وَإِنَّمَا أَخَذَهُ إِطْرَاقُ

خاشع، حتى لقد أحسَّ السِّلْمِيُّ أَنَّهُ لَا يُشَارِكُهُ الْمَجْلِسَ وَالْحَدِيثَ.

فَقَالَ لَهُ: مَا بَلَكَ؟ أَرَأَيْكَ كَالْمَأْخُودِ عَنْ نَفْسِهِ!

قَالَ حَسَّانٌ: تَعَاظَمَنِي يَوْمُ أُخْدِ بِتَهَاوِيلِهِ، حَتَّى لَقَدْ ضَاقَتْ شَاعِرِيَّتِي بِبَغْضِ مَا جَمَعَ، وَأَحْسَبُ أَنَّ الْقَوْلَ فِيهِ إلهَامٌ مِنَ الْإلهَامِ، وَلَيْسَ شِعْراً مِنَ الشُّعْرِ. أَمَا بَلَغَكَ نَبَأُ مُحَيَّرِيْق؟

قَالَ السِّلْمِيُّ: أَنْبَأَ إِسْلَامِيهِ الَّذِي فَاجَأَ بِهِ مُنْذُ حِينٍ غَيْرِ بَعِيدٍ؟
قَالَ حَسَّانٌ: كَلَّا، وَلَكِنْ نَبَأُ اسْتِشْهَادِهِ الرَّائِعِ الَّذِي جَعَلَ نَفْسِي، وَكُلَّ نَفْسٍ، تَذْهَبُ فِي الدَّهْشَةِ كُلِّ مَذْهَبٍ.
قَالَ السِّلْمِيُّ: مَاذَا تَقُولُ؟

قَالَ حَسَّانٌ: نَعَمْ! إِنَّهُ اسْتَبَسَلَ دُونَ الْعَقِيدَةِ الَّتِي عَهَدَهَا جَدِيدَةً فِي قَلْبِهِ، اسْتِشْهَادَ مَنْ يُرِيدُ الْمَوْتَ أَوْ الْحَيَاةَ فِي دُنْيَا الْفِكْرِ الْجَدِيدِ.

قَالَ السِّلْمِيُّ: عَجِبْتُ أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ. وَعَجِبْتُ إِيمَانُكَ الَّذِي يَقْتُلِعُ رَسِيسَ النَّفْسِ، بَلِ النَّفْسِ، مِنْ أَقْطَارِهَا وَنَوَاحِيهَا حَتَّى لَا يُحْسِنَ الْمَرْءُ بِشَيْءٍ وَرَاءَ مَعْنَاهُ.
وَنَهَضَ الرَّجُلَانِ فِي اسْتِغْرَاقِ الشَّاعِرِ حَتَّى أَفْضَيَا إِلَى الْحَيِّ، وَمَا آتَتْهَا إِلَّا عَلَى حَدِيثِ النَّاسِ «إِنَّ النَّبِيَّ لَمَّا آتَاهُ إِلَى أَهْلِهِ نَاوَلَ سَيْفَهُ أَتْبَتَهُ، فَقَالَ: آغْسِلِي عَنْ هَذَا دَمَهُ يَا بُنَيَّةُ فَوَاللَّهِ لَقَدْ صَدَّقَنِي الْيَوْمَ... وَنَاوَلَهَا عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ سَيْفَهُ، فَقَالَ: وَهَذَا أَيْضاً فَآغْسِلِي عَنْهُ دَمَهُ فَوَاللَّهِ لَقَدْ صَدَّقَ الْيَوْمَ رَسُولَ اللَّهِ... فَقَالَ النَّبِيُّ: وَصَدَّقَ الْيَوْمَ الْقِتَالَ سَهْلُ بْنُ حَنْتِفٍ وَأَبُو دُجَانَةَ».

كَانَتْ فَاطِمَةُ تَمُرُّ بِهَا هَذِهِ الْأَحْدَاثُ وَهِيَ بِمَرَأَى وَمَسْمَعٍ، وَفِي أَحْشَائِهَا^(٨)

(٨) لَا يُطْرَقُ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ يَدْخُلُ فِي حَدِّ الْخَيَالِ الشُّعْرِيِّ، بَلْ هُوَ حَقِيقَةٌ نَفْسِيَّةٌ تَبَيَّنَتْ عَلَى الْبَحْثِ الْجَدِيدِ، فَقَدْ قَوَّى الْغُلَامُ وَرِثَةَ الْحَيَيْنِ لِكُلِّ مَا يَحْتَفِلُ وَيَتَرَاوَحُ عَلَى الْأُمِّ فِي ذَوْرِ الْحَمَلِ مِنْ تَأَثُّرَاتٍ وَمَشَاعِيرَ وَاحْسَاسَاتٍ.

رُوحٌ جَدِيدَةٌ تَتَأَلَّفُ أَمْشَاجُهَا، فَكَانَ فِي جُمْلَةٍ عَنَاصِرِهَا، بَلْ أَكْبَرَ عَنَاصِرِهَا، غُنْصُرُ
التَّضَحِّيَةِ الدَّائِمَةِ لِلْفِكْرَةِ والعَقِيدَةِ.

وَقَفْتُ فَاطِمَةُ تُزِيلُ أَثَرَ الدِّمَاءِ وَقَدْ صَمَّتْ سَيْفًا إِلَى سَيْفٍ، أَيْ^(٩) قُوَّةً إِلَى
قُوَّةٍ، فَإِنَّ السَّيْفَ رَمْزُ الْعَزْمِ عَلَى الْعَمَلِ، وَكَانَ مَعْنَاهُ أَنَّ سَيْفَ الْعَقِيدَةِ مُصَلَّتٌ فِي
مَدَى سَيْفِ الْمَبَادِيءِ، وَأَتَتْهُمَا مَعًا يَنْجَحَانِ جَمِيعًا. فَأَخَذَهُمَا سَيْفُ الْمَبَادِيءِ، وَفَعَلَهُ
فِي الْفِكْرِ، وَثَانِيَهُمَا سَيْفُ الْعَقِيدَةِ، وَفَعَلَهُ فِي الْمُجْتَمَعِ، وَبِهِمَا تَتَكَوَّنُ الرُّوحِيَّةُ الْعَامَّةُ
الظَّاهِرَةُ، فَكُلُّ مِنْهُمَا يَكُونُ فِي حَاجَةِ الْآخَرِ، وَهُمَا جَمِيعًا فِي حَاجَةِ الْأُمَّةِ إِذَا أُريدَ
خَلْقُهَا أَوْ بَعْثُهَا مِنْ جَدِيدٍ. فَالْتَّبَيُّ حِينَمَا خَلَقَ الْأُمَّةَ جَرَى عَلَى هَذَا الطَّرِيقِ، وَنَحْنُ،
حِينَمَا نُرِيدُ تَجْدِيدَ الْأُمَّةِ، نَجْرِي عَلَى نَفْسِ الطَّرِيقِ.

صَمَّتْ فَاطِمَةُ سَيْفًا إِلَى سَيْفٍ، وَكَانَ مَعْنَاهُ أَنَّ حَرَكَاتِ الْخَلْقِ لَا تَنْجَحُ إِلَّا
بِقُوَّةِ الْفِكْرَةِ وَقُوَّةِ التَّضَحِّيَةِ لَهَا. وَكَانَ مَعْنَى إِضْلَاطِ التَّبَيُّ سَيْفُهُ أَنَّ صَاحِبَ الْفِكْرَةِ
يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ أَشَدَّ الْمُؤْمِنِينَ بِهَا، وَالْمُكَافِحِينَ مِنْ أَجْلِهَا، وَلَوْ عَلَى أَمْرٍ صُورَةٍ.

فَنَحْنُ نُجِلُّ مُحَمَّدًا لِرِسَالَتِهِ إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ، وَنُجِلُّ مُحَمَّدًا لِكِفَاحِهِ وَآسْتِيسَالِهِ
وَأَلَامِهِ فِي سَبِيلِهَا، إِجْلَالًا غَيْرَ مَخْدُودٍ، فَإِنَّ الَّذِي يُعْطِي فِكْرَةً وَلَا يُوقِفُ كُلَّ أَشْيَاءٍ
جِسْمِهِ وَنَفْسِهِ عَلَيْهَا، جِهَادًا وَتَضَحِّيَةً، يُبْلِلُ فِكْرَ الْجَمَاعَةِ ثُمَّ لَا يُقَيِّدُ الْمُجْتَمَعَ، بَلْ
يَزِيدُ فِي مَعْنَى دَائِهِ، فَإِنَّ فِكْرَةَ الْإِصْلَاحِ لَا تَكُونُ شَيْئًا نَبِيلًا إِذَا لَمْ يَجْعَلْهَا الْكِفَاحُ
كُلَّ شَيْءٍ.

إِنَّ الْفِكْرَةَ قَدْ تُشِيرُ إِلَى آمْتِيَاَزٍ مُلْهِمِهَا، وَلَكِنَّهَا لَا تُشِيرُ إِلَى خُلُودِهِ إِلَّا إِذَا
تَحَمَّلَ آلَامُهَا. وَقَدْ بَارَكَ اللَّهُ آلَامَ مُحَمَّدٍ الْخَالِدِ حِينَ أَدَّى رِسَالَتَهُ، وَحَمَلَ ثِقْلَ الْكِفَاحِ

(٩) إِنَّ السَّيْفَ فِي كَلَامِنَا زَمْزَرِيٌّ بَحْثٌ، يُشِيرُ إِلَى الْقُوَّةِ، فَسَيْفُ التَّبَيُّ رَمْزُ لِقُوَّةِ الْمَبَادِيءِ، وَسَيْفُ عَلِيٍّ رَمْزُ
لِقُوَّةِ الْعَقِيدَةِ. وَلَا يَتَوَهَّمَنَّ أَنَّ كَلَامَنَا يَدُورُ عَلَى السَّيْفِ، الْآلَةِ الْهَدْدَةِ، بَلْ نَعْنِي الْقُوَّةَ الْأَدَبِيَّةَ. هَذَا التَّبَيُّ لَكِي
لَا يَتَوَهَّمُ الشُّطَاءُ أَنَّ الْإِسْلَامَ كَانَتْ قَاعِدَتُهُ السَّيْفُ، وَإِنَّا نَهْبُ بِالتَّاسِ إِلَى نَهْضَةِ السَّيْفِ قَاعِدَتُهَا.

والجهاد «أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ، وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ، الَّذِي أَتَقَصَّ ظَهْرَكَ...»
والوزرُ في الآية بمعنى الثقل، وهو ثقل آلام الكفاح بسبيل الرسالة الجديدة.
وكان وضع الثقل عنه إعلاناً بأن إنسانية محمد أخذت طريق نجاحها،
وقامت على قاعدتها، ونفت مرارة الدواء أَلَمْ الداء المصيب الجهد...
بعد حين، تراءى أحد للنبى من بعيد، فاثار فيه ذكريات عذبة بأشائها
الكبيرة، وأطياها اللامعة الرائعة...

وكانت هذه الذكريات قد استحالَت إلى حنين فحُب، جعلاه رمزاً من
رموز الانبعاث والانتقال والتجديد في ضمير المؤمنين الشعراء...
فقال النبي بكرمه «إِنَّ أَحَدًا جَبَلٌ يُجْبُنَا وَنُجْبُهُ»، يُجْبُنَا لَأَنَّهُ رَضِيَ عَنِ
أَسْتِيسَالِنَا وَتَبَانِنَا، وَنُجْبُهُ لَأَنَّهُ رَمَزُ هَذَا الْأَسْتِيسَالِ وَهَذَا الثَّابِتِ...
وكان النبي «دَسَّنَ» بهذا المقال في أحد تمثال الإيمان السامخ...

*

كَانَ يَوْمُ أَحَدِ يَوْمِ الشَّهَدَاءِ...
والشَّهيد، في سبيل أمة، ذكرى حية في ضميرها، ومادة هامة في كبرياء
مجدها...
فيوم أحد يوم الذكريات الحية الخالدة، ولذلك أحبه النبي، ونحن نُحِبُّهُ وَلَا
نَنْسِي عِظَتَهُ النَّاطِقَةَ فِي الضَّمِيرِ!...
إِسْتَحَالَ يَوْمُ أَحَدٍ إِلَى ذِكْرَى مِنَ الزَّوَالِ...
وَاسْتَحَالَتِ الذِّكْرَى إِلَى حُبِّ وَهَيْامِ الْأَمْجَادِ، مَا دَامَ عَلَى الْأَرْضِ عَرَبٌ أَوْ
مُسْلِمُونَ...

وَأُبْرِزَ الْغَيْبُ، بَعْدَ ذَلِكَ، رَوْحاً جَدِيدَةً، جَمَعَتْ طَائِفَةً هَذِهِ الْمَعَانِي وَسَمَّاهَا
النَّبِيُّ حُسَيْنًا...

وَدَارَ الزَّمَنُ دَوْرَةً قَصِيرَةً، وَثَارَ الْحُسَيْنُ وَصَوْتُ الْحَقِّ يُدَوِّي فِي صَوْتِهِ
الْمُرْسَل...

وَأَنْطَلَقَ النَّاسُ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ:
تَحَوَّلَ الْيَوْمَ أَحَدُ مَرَّةٍ أُخْرَى، وَثَارَ بُرْكَانُ الْإِضْلَاحِ يُزَلْزَلُ بِالْحَيْمَمِ!...

* * *

يوم الميلاد

تَنَادَتْ نِسَاءُ الْحَيِّ أَنَّ فَاطِمَةَ جَاءَهَا الْمَخَاضُ، وَكُنَّ يُلِمْنَ بِدَارِهَا كَوُكَبَاتٍ
كَوُكَبَاتٍ، وَيَنْتَظِمْنَ هُنَا وَهُنَاكَ كَمَا شَاءَ الْمَجْلِسُ لَهُنَّ. وَمَرَّتْ لَحَظَاتٌ أَخَذَتْ
عَلَيْهِنَّ كُلَّ مَا كَانَ يَدُو مِنْ حَرَكَاتٍ شَاءَهَا الظُّوفُ وَالْبِشْرُ، وَسَمَلَهُنَّ صُمُوتٌ
خَاشِعٌ فِيهِ بَادِيَةُ الْحَدَرِ، حَتَّى لَيَحْيِلُ لِلتَّائِظِ أَنَّهِنَّ دُمَي مُجْتَنِحَةٌ تَطْمَحُ إِلَى شَيْءٍ فِي
غَيْرِ مَرَأَى الْعَيْنِ.

وَكَانَتْ مَيِّمُونَةُ أُخْتُ بِنْتِ عُثَيْسٍ وَخَذَهَا تُرَى غَادِيَّةً رَائِحَةً، وَمَرَّ خَاطِرُ
أَنَّكَرَتْ مَعَهُ مَوْضِعَهَا. فَقَدْ تَرَاءَى لَهَا أَنَّهَا فِي مَعْبِدٍ آكُتْظُ بِالْمُجْتَنِحَاتِ الَّتِي تُطِلُّ فِي
صُورِهَا مَلَائِكُ فِي فَرْخَةٍ خَاشِعَةٍ.

وَسَبَّحَتْ مَعَ خَاطِرِهَا وَرَاحَتْ فِي مَقْعِدِ الْأَحْلَامِ، حَتَّى لَقَدْ آنْفَصَلَتْ فَوْقَ
حُدُودِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ، فَكَانَ لَهَا عَالَمُهَا الْجَدِيدُ الَّذِي يُغَادِيهَا بُرُؤَى يَقْظَى عَلَى
خُيُوطِ التَّوَرِ.

حَسِبَتْ كُلَّ شَيْءٍ وَاقِعًا، وَحَسِبَتْ أَنَّهَا تَغْدُو وَتَرُوحُ فِي عَالَمٍ مَا تَرَى. إِنَّهَا
أَحَسَّتْ بِلَذَازَاتِهِ طَافِحَةً حَتَّى لَقَدْ غَمَرَتْهَا.

لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا حُلْمًا، إِنَّهُ لِأَكْبَرُ مِنَ الْحُلْمِ فِي مَذْهَبِ الْحَيِّ
الْبَادِي... هَكَذَا تَنَاجَتْ فِي حَدِيثِ نَفْسِهَا حِينَمَا أَنْبَهَتْهَا زَعْرَدَاتُ النِّسَاءِ الَّتِي

بَدَأَتْ هَمَسَاتٍ حُلُوءَةً نَاعِمَةً:

فَقَدْ أَسْلَمَتْ فَاطِمَةُ وَلَيْدَهَا...

ولكن أين ما كُنْتُ أرى؟ أين هو أو أين أنا؟ لَسْتُ، لَسْتُ أدري. أَحَسْبُنِي في مَعْرِضِ الْعَجَائِبِ. أَحَسْبُنِي في غُرْسِ الْأَمْلاكِ. حَقًّا إِنَّ لِلْإِنْسَانِ عَوَالِمَ شَتَّى، وَهُوَ يَعِيشُ فِي أَقْلِهَا تَطَرُّيَّةً، أَوْ يَجْعَلُهَا وَاقِعَ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ أَقْلَ تَطَرُّيَّةً وَبَهْجَاتٍ. هُنَاكَ فِي غَيْرِ وَاقِعِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ يُحِسُّ الْإِنْسَانُ بِالأَشْيَاءِ مُكَبَّرَةً، وَيَتَّصِلُ بِكُلِّيَّاتٍ مَعَانِيهَا لِأَنَّهُ يُحِسُّ بِكُلِّ نَفْسِهِ، وَأَمَّا هُنَا فَإِنَّهُ يُحِسُّ بِبَعْضِ نَفْسِهِ عَلَى مِقْدَارٍ مَا يَسْتَعِجُ الْوَاقِعُ الْجَامِدُ، وَيَبْقَى كُلُّ النَّفْسِ ظَامِئًا.

لَمْ يَكُنْ مَا رَأَيْتُ حُلُمًا؟ إِنَّهُ خَالَطَنِي حَتَّى لِأَلْمُسَةِ. نَعَمْ. نَعَمْ. لَقَدْ أَدْرَكْتُ الْآنَ، وَالْآنَ فَقَطْ، سِرَّ الثُّبُوتِ، وَسِرَّ الْقَدَاسَاتِ، وَسِرَّ الْإِلْهَامِ وَالْهَيْامِ فِي الْفِكْرِ وَالْفَنِّ والأَشْيَاءِ... وَإِنْ يَكُنْ حُلُمًا فَلَيْتَنِي أَظَلُّ حَالِمَةً، وَلَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَكُونَ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِثْلُ وَلِيدِ فَاطِمَةَ، أَرَى عَلَى وَجْهِهِ أَوْ أَحْلُمُ... هَكَذَا كَانَتْ تَقُولُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ نَفْسِهَا قَبْلَ أَنْ أَنْطَلَقَتْ وَغَابَتْ فِي الْجُمُوعِ الْمَائِجَةِ الْفَرِخَةِ، وَضَاعَ وَقَعُ خَطَايَا فِي الرِّينِ الصَّاحِكِ...

كَانَ جَمِيلًا كَحَفَقَةِ الضُّوءِ، وَبَهِيًا كَقَطْرَةِ التَّدْيِ وَقَدْ تَحَاضَّنَتْهَا أَكْثَامُ الزَّهْرِ، حَتَّى لَكَأَنَّهَا فِي بَجْوٍ أَحْلَامَ ذَابَتْ فِيهِ النَّشَوَاتُ، وَأَسْتَحَالَتْ إِلَى أَرِيحٍ تُهْدِدهُ أَيْدِي النَّسِيمِ، وَكَانَ لِأَلَاءِ كَرْزَنْبَقَةِ الْغَوْرِ وَقَدْ مَصَّتْ إِشْرَاقَةَ الْغُرُوبِ الَّتِي خَلَفَتْ فِيهَا الشُّمُسُ ذِكْرَهَا السَّعِيدَةَ إِلَى اللَّيْلِ، وَكَانَ مِلءُ الْعَيْنِ وَالْهَوَى، حَتَّى لَقَدْ قُلْنَ: إِنَّ الْجَمَالَ أَخْصِرَ بِهِ، أَوْ إِنَّ سَنَا الْوُجُودِ الْمُفْرَقَ جَمِيعَ عَلَيْهِ، وَكَانَتْ تَحُوطُهُ، إِلَى ذَلِكَ، هَالَةً مُشِعَّةً، فِيهَا جَلَالُ الثُّبُوتِ وَجَمَالُ الطُّهْرِ الْبَرِيِّ، وَكَانَ عَابِقًا كَأَنَّ السَّمَاءَ أَنْطَلَقَتْ عَلَى الْأَرْضِ بِالْأَرِيحِ.

خَرَجَ الحُضُورُ عَنْ صُموثِيهِمْ، وَغَمَزَتِ الأَثِيرُ مَوْجَةً بِشَرِّ ظَاهِرَةٍ خَفَقَ لَهَا
خَفَقَاتٍ كَانَتْ مُؤَذِّنَةً بِالوَلِيدِ السَّعِيدِ...

بَرَزَ النَّبِيُّ (ص) وَسَطَ الجُمُوعِ كَمَا تَبَيَّرُ المَنَارَةُ وَسَطَ الصُّبَابِ، هَادِيَةً
بُشَاعَتِهَا المُسْتَطِيلَةَ فِي آتِنَاقٍ وَتَدْفِيقٍ، وَأَخَذَ وَلِيدَهُ السَّنِيَّ يَدَيْهِ كَانَتْ حَرَكَاتٍ
أَنَامِلِيهَا تُعَبِّرُ عَنْ قَوَاطِفِ الشُّرُورِ، وَحَنَّا عَلَيْهِ حُنُوَ المُرُوضِ يَهْمِسُ فِي أُذُنِهِ كَلِمَةً
الإِسْلَامِ الشَّامِخَةَ «اللَّهُ أَكْبَرُ! اللَّهُ أَكْبَرُ!».

وَعَامَ عَلَى مَيْمُونَةٍ، فَقَدْ كَانَتْ اليَوْمَ فِي حَسَابِيَّةٍ جِدِّ نَافِذَةٍ. وَسَعَرَتْ جِيَالَ
هَذَا المُشْهَدِ أَنَّ الأَحْيَاءَ بَنَزَعَاتِهِمْ هُمْ صَبَابُ الحَيَاةِ، وَكَثِيرًا مَا يَكُونُ مُطْبِقًا دَاكِئًا،
حَتَّى لَتَبْدُو الحَيَاةَ نَفْسَهَا كُرَّةً مِنَ الصُّبَابِ، تَدُورُ فِي مِثْلِ حَرَكَةِ الإِعْضَارِ هَادِرَةً بِمَا
فِيهَا مِنَ الأَهْوَاءِ. وَلَكِنَّ الشَّمْسَ تَطْلُعُ مِنْ وَرَائِهَا فَتُبْخِرُ مَا اسْتَوَى فِيهَا وَتَرَكَبَ
عَلَيْهَا وَغَلِقَ بِأَنْحَائِهَا، وَتَمُدُّهَا بِمَعْنَى الضِّيَاءِ فَتَغْدُو مُرْدَهِيَّةً مُتَأَلِّقَةً، وَيُخْشَعُ الإِنْسَانُ
عِنْدَهَا فِي مِخْرَابِ اللَّهِ الأَزَلِيِّ. إِنَّهُ خَرَجَ مِنَ التِّيهِ، وَنَقَضَ غُبَارَ البِيدَاءِ، وَاسْتَقْلَى
عَلَى الشَّرَابِ.

أَف... لِلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّ الحَيَاةَ صَبَابٌ مُنْتَشِرٌ فِي آفَاقِ هَذَا الوجودِ، والإِنْسَانُ
يَطْفُو وَيَوْسُبُ مُغْمَضَ العَيْنَيْنِ... إِنَّ وُجُودَهُمْ لَمْ تُشْرِقْ عَلَيْهِ هَذِهِ الشَّمْسُ الَّتِي
تَعْمُرُنَا بِشُعَاعِهَا، إِنَّ صُورَةَ الحَيَاةِ فِي خَيَالِ الأَعْمَى مَلَأَى بِالظُّلَامِ، وَفِي خَيَالِ
الأَعْمَى مَلِيقَةً بِالرَّمَادِ أَوْ الصُّبَابِ، وَلَكِنْ هَلِ الحَيَاةُ كَمَا تَنعَكِسُ فِي مَرَائِيهِمْ
الْمُتَحَجِّبَةِ؟ إِنَّ شَمْسَ النَّبُوَّةِ، وَفِيهَا المَعْنَى الأَتَمَّ المُشْرِقُ لِلإِنْسَانِيَّةِ وَالحَيَاةِ، لَمْ تَسْطَعِ
فِي سَمَاوَةِ فَضَائِلِهِمْ.

هَنَا، وَفِي هَذَا المَكَانِ، أَجِدُ حَقِيقَةَ الحَيَاةِ العَارِيَّةِ تَحْتَ يَنْبُوعِ الثُّبُورِ وَشُعَاعَتِهَا
الْخَالِدَةِ... هُنَا، وَفِي هَذَا المَكَانِ، حَيْثُ يُبَارِكُ النَّبِيُّ إِنْسَانِيَّةً جَدِيدَةً وَيَتَفَرَّغُ مِنْهُ رَافِدٌ
تَمَيِّزٌ وَتَمَدُّ قَوَارٍ فِي صُلْبِ الإِنْسَانِيَّةِ الْحَيَّةِ، فِي دِمَائِهَا المُنْصَبَّةِ إِلَى بُحَيْرَةِ المُسْتَقْبَلِ

البعيد القرار، يجد الظمأ ما يُبرّد حرارة عقولهم وقلوبهم، يجدون التبعوع الذي حجبهم عنه سراب الفكر المدحول...

قال قائل في الظلام - والناس يخرج أحدهم في إثر الآخر - إيه أبا رافع... ورَبَّتْ على كَيْفِهِ: أَرَأَيْتَ أَعْجَبَ مِنَ الْيَوْمِ، التَّيَّيُّ يُسِيرُ فِي أَذُنِ الْوَلِيدِ وَكَأَنَّهُ يَقُولُ شَيْئاً...

قال أبو رافع: نعم. إنه «أذن في أذنيه كما يؤذن للصلاة». قال الرجل: ولكن أترى أن له نفساً مدركة تعي ما يقال لها وما تُخاطب

به؟

قال أبو رافع: نعم. وماذا تظن أنت؟ لعلك أنصرفت بظنك إلى أن نفس الوليد خلأ من القوى، إن كان ذلك فبعد ما تظن. إنها واعية كاتم ما تكون نفس من الوعي، ولكنها غائمة بما في التركيب العضوي من الوهن وضعف الحساسية. والتبي توجّه إلى هذا الوعي وهو في أكماله ليضع فيه شيئاً خالداً، ليضع فيه كلمة الله، فلا يحول عنها ولا يزول مهما اضطربت عليه بواعث الشباب، واضطربت فيه نزواته، لأنها سوف تأسره بحنين الرجوع البعيد.

إنه وضع، في آخر مرحلة التخلي وأول مرحلة التفتح والازدهار، عبق المثل الإلهية، عبق الحقيقة المطلقة، الذي ينفخ ولا ينقطع، الذي يفيض ولا يغيض... تمرّ به الأهوية الهادئة آلهة فلا تُغيّر فيه وإنما يغيّر فيها، بما يحملها من أريج الفواح، فتعدو وقد فقدت ما تُلدّر به بما تُبشّر، إنها حملت روح الزهرة في الحقل...

إن التبي، لنا اليوم، زهرة الحقل، وهو يمدّ يده في أحشاء الزمن بزهرة حقل المستقبل، فعسى أن يتركها الإنسان تُضمخ فضاء الغور في عين الشروق والغروب، ولا تلتفت عليها أفعى الشهوات فتقضمها، إني لحذر، إني... تلغتم، ووضع يده

على قلبه مخافة السقوط، وأغمض عينيّه في خيال رهيب.

وكان أبو رافع مولئ للنبى، فلم يطق ما مرّ بخياله، وتحمّل على صاحبه مدة ظلّ فيها صامتاً صموت الليل الذي تزيد في رهبيته أضواء متقطعة للذئاب.

وسمّل الرجل تيار أبي رافع فاستغرق في وجوم، وسارا يقطعان الليل في خطوات تعبّ عن أنها ذاهلة لا تقصد إلى شيء ولا تتصل بما تنتهي إليه. وما استفاقا إلّا على صوت الإنسان في العلى يُنادي بكلمة الله الأزواح الشاردة الهائمة. واختلط الصوت بشكون الليل فعبر عن أنه قال كلمته، وأستحال صدئ فيه شروء الشكون.

خفّ الناس من كلّ مكان، وفي أعينهم بقايا الحلم السادر، متوافدين مع النداء إلى حيث يمتزجون بالجهول، إلى حيث يصحّون ضمائرهم في عمل الحياة، إلى حيث يجدّدون عقودهم مع الله على الخير والحبّ والمثل، بجعلها مبدأ عمل وواقع حياة... مدّ الرجل خطاه وهبّ يطلب ما يطلب سائر الناس.

قال أبو رافع: على رسلك يا هذا، إننا لم نزل في صلاة منذ خطونا!

قال الرجل: والآن نصلي صلاة بصلاة^(١).

(١) لا ريب في أنّ الصلاة عقد (كونترا)، بين الله والإنسان. وإذا تأملنا الفاتحة نجد فيها شروط عقد متبادلي. وعلى ضوء هذه الملاحظة يتكشف لنا سرّ تكرار الصلاة اليومية، على الشكلي المعروف في الإسلام، وجعلها ليلية ونهارية. وهذا السرّ هو تجديد العقد وتوكيده، حتى لا تضعف فعاليته، وحتى لا تمرّ بالمزّة ساعات فتور وأشيوخاء يجلّ فيها بأحكام العقد، فيظلّ بذلك دائماً طرّفاً في عقد جديد. وكما هو معروف على البحث أنّ التميز والوجدان والعقائد تتولّد من التكرار والتلقين، والصلاة صيغة تلقين وعملية تكرار. هذا فهمنا للصلاة في الإسلام من ناحية عملية. وأما هي من ناحية فلسفية فإنها أضغ طريقة وأسلوب، وأضغ شكل وصيغة لما يُسمّى ساندسون، أحد علماء النفس التطبيقي، مفيد الرؤيا، هذا المفيد الذي يتأمل فيه المؤمن منفرداً، ويخشع مستغرقاً متفكراً، وهو يرى أنه لا صلاح للفرد، وبالتالي للجماعة، إلّا بتقيد الرؤيا، أو ساعة التأمل اليومية، وقد صيغتها الإسلام على شكل مذهبي من التكرار في صحب النهار وفي هدير الليل، وكان الإسلام بصلاة النهار يشرع الإنسان أنيزاعاً لغيره في التأمل والإشراق ولو بلخطاب.

قال أبو رافع: نَعَمْ. وَلَكِنْ رُوِيَكَ، فَإِنَّ النَّبِيَّ رَأَى جَمَاعَةً تَتَرَاكُضُ إِلَى الصَّلَاةِ، فَقَالَ: «لِيَبَاتِ أَحَدُكُمْ الصَّلَاةَ هَوْنًا». وَهُوَ يُشِيرُ بِهَذَا إِلَى أَنَّ الصَّلَاةَ لَا تَكُونُ وَاِعْيَةً إِلَّا إِذَا تَلَبَّسَتْ فِكْرَ فَاعِلِهَا وَنَفْسِهِ، فَهِيَ لَيْسَتْ عَمَلًا خَالِصًا بَلْ فِكْرًا فِي الْعَمَلِ، وَبِذَلِكَ يَكُونُ لَهَا عَمَلٌ فِي الْفِكْرِ، وَالْإِعْجَالُ يُضِيعُ عَلَى الْفِكْرِ أَطْرَادَهُ وَاتِّسَاجَمَهُ. وَالتَّيْبِيُّ يُرِيدُنَا أَنْ نَبْدَأَهَا صَلَاةَ بِالْفِكْرِ، صَلَاةَ بِالرُّوحِ، وَإِلَّا فَهِيَ صَلَاةٌ شَارِدَةٌ غَيْرُ وَاِعْيَةٍ، لِرُوحٍ أَكْثَرَ إِمْعَانًا فِي الشُّرُودِ.

قال الرجلُ: إِنَّ حَدِيثَكَ مَلَكَ عَلَيَّ نَفْسِي مُنْذُ اللَّيْلِ، وَلَقَدْ مَارَجَحْتَنِي حَسْرَةً حِينَ قَطَعَ الْوُجُومَ عَلَيْكَ الْحَدِيثَ.

قال أبو رافع: لَعَلَّ صَلَاةَ الْحَدِيثِ، الَّذِي أَنْقَطَعَ بَيْنَنَا، تَجَرُّ الشُّجُونَ إِلَى اسْتِذْرَاكِهَا يَوْمًا مِنَ الْيَوْمِ.

قال الرجلُ: وَلَكِنِّي أَجِدُ فِي نَفْسِي أَسْرَ الْحَدِيثِ وَمَدَّ الدَّاعِيَةِ إِلَيْهِ، وَلَعَلَّ نَفْسِي لَا تَجْتَمِعُ كَمَا آجَتَمَعَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةُ مِنْ أَقْطَارِهَا. وَأَجِدُنِي أَشَدَّ مَا أَكُونُ آنَصْرَافًا إِلَى مَغْزَى الْأَذَانِ فِي أُذُنِ الْوَلِيدِ، وَمَغْزَى الْأَذَانِ الدَّاهِبِ كُلِّ يَوْمٍ، مَرَاتٍ فَوْقَ ضَجِيجِ الْحَيَاةِ وَصَحْبِهَا، الْأَذَانِ الْقَارِعِ فِي دُنْيَا الْأَبَاطِيلِ.

قال أبو رافع: إِنِّي لَمْ أَزَلْ أَحْشَعُ تَحْتَ ذِكْرِي الرِّثَابِ الْهَامِسَةِ الَّتِي أَرْسَلَهَا النَّبِيُّ فِي أُذُنِ وَلِيدِهِ، لِيَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ أَوَّلَ شَيْءٍ يَتَمَدَّدُ فِي فَضَاءِ تِلْكَ الرُّوحِ، وَأَوَّلَ شَيْءٍ تَتَمَوَّجُ بِهِ وَتَشْتَمِلُ عَلَيْهِ. وَبِذَلِكَ يَبْقَى فَضَاؤُهَا خَلِيًّا مِنَ الصَّبَابِ، فَلَا تَمُرُّ بِهِ حُلُكَةٌ قَاتِمَةٌ، وَلَا تَجْتُمُّ فِيهِ ظَلَامِيَّةٌ أَوْ دُجْنَةٌ، فَيَتَكَوَّرُ فَضَاءُ الرُّوحِ تَكَوَّرَ الْفَلَكَ عَلَى الشَّمْسِ.

وَالْأَذَانُ الَّذِي يُقْصَدُ بِهِ إِلَى الرُّوحِ لَا تَكُونُ فِيهِ أَلْفَاظُ الْأَذَانِ بَلْ رُوحَانِيَّتُهُ، لِأَنَّهَا تَسْمُو، بِمَحَلِّهَا وَمُسْتَوَاهَا، عَنِ الْأَلْفَاظِ وَمَذَاهِبِهَا فِي التَّعْبِيرِ، هَذِهِ الْأَلْفَاظِ الَّتِي

تُولَّفُ كائناً ألياً لا حِسَّ فيه، وأسْتَأْنِي به الإنسانُ إلى إكْمَالِ آيَةِ الْحَيَاةِ وَخَرَكَاتِهَا الرُّبُوبِيَّةِ. ولِذَا ظَلَّ كائِنَا الدَّاخِلِي المَجْهُولُ أَكْثَرَ أَنْفِعَالاً بالمعاني المَطْلَقَةِ عَنِ الأدَاءِ، كَالْأَلْحَانِ الَّتِي هِيَ فِي حَقِيقَتِهَا مَعَانٍ لَمْ تَسْتَحْجِزْ، فَتَنْتَهِجُهُ إِلَى إِحْسَاسِ الرُّوحِ قُدْماً فَتَسْمُوجُ بِهَا سَرِيعاً، بَيْنَمَا الأدَاءُ الآلِي (الْأَلْفَاظُ) يَمُرُّ فِي الْفِكْرِ وَمَا وَرَاءَهُ مِنْ مَعَايِرَ، حَتَّى يَنْتَجِزَ^(٢) وَيَسْتَحِيلَ مَعْنَى مُطْلَقاً فِي إِحْسَاسِ الرُّوحِ.

فهذه الرُّوحُ الجَدِيدَةُ، الَّتِي لَمْ تَحُلْهَا آيَةُ الْحَيَاةِ الْمُخْتَرَعَةُ بَعْدَ بَاشَيَائِهَا، وَالَّتِي لَا تَرَالُ غَضَّةً، لَمْ تَسْتَحْجِزْ أَطْرَافَهَا، تَمَوَّجَتْ أَوَّلَ مَا تَمَوَّجَتْ، وَأَتَسَّعَتْ أَوَّلَ مَا أَتَسَّعَتْ، لِكَلِمَةِ اللَّهِ الْخَالِدَةِ. فَكُلُّهَا مَرَّ بِهَا مِنْ الْعَوَاصِفِ الْمُتَنَارِحَةِ لَنْ تَنْطَلِقَ مَعَ الْهَوَى. إِنَّهَا بِجَاذِبِيَّةِ الْكَلِمَةِ الْأُولَى، وَهِيَ، إِذَا رَمَتْ بِالزُّبَيْدِ، فَلَنْ يَكُونَ إِلَّا حَبَابِ الْمُثُلِ الْمُتَرَاكِبِ، فإِنْسَانِيَّةُ هَذَا الْوَلِيدِ السَّعِيدِ جَاءَتْ كَمَا شَاءَتْ التَّبَوُّةُ.

إِنِّي لَا تَمُرُّ بِي ذِكْرِي الْأَذَانِ فِي أُذُنِ الْوَلِيدِ إِلَّا وَأُخْشَعُ مَعَهَا، إِنَّهَا تَفْعَلُ بِي فِعْلاً غَنِيّاً وَعَمِيقاً، وَلَا أَذْري كَيْفَ أَطْوَعُ أَلْفَاظَ اللَّغَةِ لَتُعَبِّرَ عَنْهَا...

فَصَلْتُ مُنْذُ بَعِيدٍ وَأَنَا دَهِشٌ بِالْأَذَانِ الَّذِي يَغْلُوْلِي مُذْكَراً الْحَيَاةِ بِقَاعِدَتِهَا، وَالْإِنْسَانِيَّةَ بِأَنْبِلِ مُثُلِهَا الْخَوَالِدِ، وَيُضْغِي الْوُجُودَ إِلَى كَلِمَةِ اللَّهِ فِي نَمِ الْإِنْسَانِ كَأَنَّهُ يَشْهَدُ.

وَعَلَا صَجِيحُ النَّاسِ بِالتَّكْبِيرِ، وَكَانَا قَدْ بَلَّغْنَا بَابَ الْمَسْجِدِ فَانْتَضَمْنَا فِي صُفُوفِ الْمُصَلِّينَ، وَعَادَ الْكَوْنُ إِلَى صُمُومِهِ يُضْغِي إِلَى صَوْتِ النَّبِيِّ الْمُرْسَلِ فِي أُذُنِ الْفَجْرِ يَقْرَأُ:

(٢) تَوْجِدُ أَلْفَاظِ فِي اللَّغَةِ لَمْ تَسْتَحْجِزْ بِمَا أَغْدَقَ عَلَيْهَا الشُّغُورُ، حَتَّى تُتَّصِلَ بِمَا وَرَاءَ الْغَوَى الْوَاقِعِيَّةِ، وَتَمُرُّ بِهَا رَأْساً بِدُونِ أَنْ تَمُرَّ فِي الْفِكْرِ، كَالْأَلْفَاظِ الْقَوِيمَةِ وَالْحُبِّ. وَهَنَكَ أَلْفَاظُ تُتَّصِلُ بِمَوَظِنِ الْحَيَاةِ وَتُؤَوِّزُ مُنْخَطِطَةَ الْفِكْرِ أَيْضاً، أَوْ تَمُرُّ بِهِ مَرّاً سَرِيعاً، وَهِيَ أَلْفَاظُ الْفَرَائِزِ وَمَا إِلَيْهَا، وَتُسَمِّيَهَا لُغَةً خَيْرِيَّةً. وَمَا يَبْقَى مِنْ أَلْفَاظِ اللَّغَةِ الْأُخْرَى فَهِيَ أَلْفَاظُ فِكْرٍ، لِأَنَّهَا تُؤَوِّزُ عَنْ طَرِيقِهِ، وَتُسَمِّيَهَا لُغَةً آيَةِ مُسْتَحْجِرَةٍ.

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ
الدُّعَاءِ. رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ».

*

فِي حَقْلِ الْبَشْرِيةِ الشَّائِكِ، غَرَسَ النَّبِيُّ نَوَاةً...
عَمِلَتْ فِيهَا التَّوَامِيسُ، فَبَرَزَتْ زَهْرَةٌ لَمْ تَتَفَتَّقْ عَنْهَا الْأَكْمَامُ...
وَمَسَحَهَا النَّبِيُّ بِيَدَيْهِ كِلْتَابَهُمَا، فَتَوَرَّتْ بَيْنَ أَصَابِعِهِ...
وَمَاسَتْ فَوَاحَةً تَمْلَأُ الْحَقْلَ بِالْعَبِيرِ، حَتَّى لَيْخَيْلُ أَنَّ الْحَقْلَ زَهْرٌ كُلُّهُ!...

*

قَصَدَتْ إِلَيْهَا، مِنْ بَعِيدٍ، أَفْعَى فَاحِمةٌ لَمَاعَةٌ الْأَدِيمِ...
وَكَانَتْ تَفُحُّ فَحِيحاً لَاهِباً، وَيُؤْجُّ مِنْ فِيهَا الْحِمَمُ...
وَالْتَفَتَتْ عِنْدَ أَصْلِ الزَّهْرَةِ، وَتَكَوَّرَتْ كَعُقْدِ الْقَضَاءِ...
وَفِي هَذِهِ اللَّيْلِ، حِينَ كَانَ الْكَوْنُ فِي سُبَاتٍ قَضَمَتْهَا...
وَعَادَتْ وَقَدْ عَادَ الْحَقْلُ شَوْكاً مُلْهِباً، وَعَدَتْ زَهْرَةُ الْحَقْلِ ذِكْرَى رَمَرٍ
سَعِيدٍ!...

زَهْرَةٌ كَانَتْ مِنْ صُنْعِ النَّبُوَّةِ فِي آفَتِنَانِهَا وَسُموّها...
وَالنَّبُوَّةُ سُعْلَةٌ فِي الْحَيَاةِ، وَشَفَقٌ فِي الْفِكْرِ لَا يَتَنَاهَى مَدَاهُ...
وَزَهْرَةُ الْحَقْلِ نَثْرَهَا بَاطِلُ الْإِنْسَانِ، وَلَكِنَّهَا آجَتَمَعَتْ فِي الذِّكْرِى الْخَالِدَةِ...
فَقَدْ غَرَسَتْهَا نُبُوَّةٌ صَنَاعٌ، وَالنَّبُوَّةُ لَا تَحُورُ!...

*

زَهْرَةٌ وَضَعَتْ فِيهَا اللَّانْهَاءُ أَشْرَارَهَا...
فَلَيْسَتْ رُغْمَ بَاطِلِ الْإِنْسَانِ وَلَنْ تُدْرِكَهَا نِهَايَةٌ...
وَحَارَ الْبَاطِلُ إِلَى رَمَادٍ فِي زَوْبَعَةِ الرِّيحِ!...

*

تَحَوَّلَ الْبَاطِلُ، فَكَانَ ظِلَالُ الْحَيَاةِ...
وَتَحَوَّلَ الْحَقُّ، فَكَانَ شَمْسُ الْحَيَاةِ...
وَأَخِيرًا، وَبَعْدَ حِينٍ، ضَاعَ الظُّلُّ فِي الشَّمْسِ!

* * *

مشاهد

مضى، بين يوم الميلاد وهذا اليوم الذي تقاطرت فيه زرافات الناس من كل مكان، أسبوعٌ مُتألّقٌ وضيءٌ كأنما تنفّست في جوّه السعادة، وطفرت من أعماق الحلم لتموّج في واقعيّة الجموع ودنيا الحياة.

كان البصر يذهب مذهبه ثم لا يقع إلا على أوزاع مجتمعين ومتفرّقين، فقد حفّل النبيّ بسابع أيام ولديه وعقّ عنه.

إفتداه بكبش ذهب خيره في أشابة الفقراء، وكان مغزاه أن الإنسانية المثلثة السامية، أول ما تقوم عليه هو إهراق الترواح الحيوانية ونزعاب ضرورتها، مجتمعة في حيوان يهراق. فإذا كان في نحر الحيوان من أجل الغذاء معنى الجسد وتوكيد أنه حيوان قرم، فإن في نحر الحيوان من أجل الفداء معنى الروح المتسامية إلى الغلاء، وكان وحى وإشارة لشيء آخر مترتب ترتب النتائج على المقدمات: الحيوان يُفدى به الإنسان الشاعر بمغناه، ليتعلّم هذا الإنسان كيف يفدي فكرة الإنسانية وكيف يضحّي بسبيل مثالياتها.. ولذا لم يجد^(١) المكافحون المستبسلون، إلى

(١) كان من عادة الجنود في القديم نحر حيوان تحت العلم، وعلى مرأى من الجليد، ويتبيث هذه العادة حتى زمن محمد علي باشا خديوي مصر.

زَمَن قَرِيبٍ، زَمَرًا لَصِدْقِ الْكِفَاحِ الدَّامِي وَلِلآرْتِكَاضِ إِلَى الْمَوْتِ سِوَى إِهْرَاقِ حَيَوَانٍ
بَيْنَ يَدَيِ الصُّرَاعِ، مُشِيرِينَ إِلَى الْمَصِيرِ وَلَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ.

وَطَبِيعَتُهُ جُمُوعُ الْفُقَرَاءِ لِيَكُونَ مَعْنَاهُ أَنَّ تَضَاجُعَ الْإِنْسَانِ جَانِبَ الْحَيَوَانِيَّةِ فِيهِ،
كَيْ يَمْلَأَ الْفَرَاغَ فِي هَذَا الْجَانِبِ بِجَمَاعَاتِ الْمُجْتَمَعِ الْمَحْرُومَةِ، فَيَجِدَ فِي شُعُورِهِمْ
شُعُورَهُ، وَفِي آلَامِهِمْ أَلَمَهُ، وَفِي سَعَادَتِهِمْ سَعَادَتَهُ. فَقَدْ مَرَّجَهُمْ بِنَفْسِهِ وَخَلَطَهُمْ
بِهَوَاهُ، وَقَامَتْ طَبِيعَةُ الْإِنْسَانِيَّةِ فِيهِ عَلَى ثَنَائِيَّةٍ مِنَ الْفَرْدِيَّةِ الْمَهْدِيَّةِ وَالْغَيْرِيَّةِ النَّبِيلَةِ،
يَجِدُ فِي طَبِيعَتِهِ سِرَّ الْجَمَاعَةِ، وَفِي الْجَمَاعَةِ سِرَّهُ، وَبِهَذَا يَتِمُّ التَّوَاصُلُ الْإِنْسَانِي
الصَّحِيحُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ خَيَالِيًّا، وَكَانَ فِي وَلِيدِ النَّبِيِّ وَاقِعًا.

طَبِيعَةُ سَمَتْ عَنِ الْأُنَانِيَّاتِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ آسَظَاعَ، فِي مُجْتَمَعِهِ، أَنْ يُذَيَّبَ «أَنَا»
فِي «نَحْنٍ»، وَحَارَبَ طَوَالَ جِهَادِهِ الَّذِينَ أَذَابُوا بِأَحَابِيلِهِمْ «نَحْنُ» فِي «أَنَا»، فَكَانَ
لِكُلِّ أَمْرٍ فِي مُجْتَمَعٍ مُحَمَّدٍ أَنْ يَقُولَ «نَحْنُ» وَلَيْسَ فِيهَا كِبَرِيَاءُ الْفَرْدِيَّةِ وَعُتُوها،
وَأَمَّا فِيهَا نُبُلُ الْغَيْرِيَّةِ وَوَحْدَتُهَا، وَأَشْتِرَاكِئُهَا وَتَعَاوُنُهَا.

وَقَدْ تَرَكْتُ ذِكْرَ هَذَا الْفِدَاءِ فِي طَبِيعَتِهِ، بَعْدَ أَنْ آسَتَوَى رَجُلًا، زَمَرَهَا
الْإِنْسَانِي وَمَعْنَاهَا النَّبِيلَ. فَلَمْ يُبَالِ تَحْتَ ذِكْرَاهُ أَنْ يُحَقِّقَ فِي ذَاتِهِ مَعْرَاضَهُ، وَأَنْ يُقَدِّمَ،
فِي نَفْسِهِ، فِدَاءَ الْفِكْرَةِ الَّتِي إِذَا تَجَرَّدَ الْإِنْسَانُ مِنْهَا عَادَ مَخْلُوقًا بَغِيضًا، يَنْحَطُّ عَنْ أَنْ
يَكُونَ فِدَاءَ الْحَيَوَانِ ذِي الطَّبِيعَةِ السَّادِجَةِ، وَفِيهَا إِيثَارٌ دُونَ قَصْدٍ، وَفِيهَا قَنَاعَةٌ دُونَ
شُعُورٍ، وَفِيهَا رَغْبَاتٌ^(٢) قَاصِرَةٌ.

(٢) نَعْنِي بِالرَّغْبَاتِ الْقَاصِرَةِ أَنَّ الْحَيَوَانَ يَتَفَعَّلُ بِبَاعِثِ الْغَرِيزَةِ كَالْجُوعِ، فَإِذَا سَقَطَ عَلَى طَعَامٍ تَنَاوَلَ مِنْهُ
حَاجَتَهُ، وَعَفَى عَنِ الْبَاقِي، يَتَنَاوَلُ الْإِنْسَانُ يَتَنَاوَلُ حَاجَتَهُ، ثُمَّ تَتَحَوَّلُ فِيهِ رَغْبَةُ النَّهْمِ حَرَكَتُهَا فَتَخِيلُهُ عَلَى
أَذْخَارٍ مَا فَضَّلَ عَنْهُ دُونَ الْآخَرِينَ. فَلَدَى الْحَيَوَانِ إِيثَارٌ دُونَ شُعُورٍ، وَبِالْجُمْلَةِ تَكُونُ رَغْبَاتُهُ قَاصِرَةً، بَيْنَمَا
رَغْبَاتُ الْإِنْسَانِ سَرِيحَةٌ مُسْتَحْوِذَةٌ. وَالتَّشَاخُزُ لَدَى الْحَيَوَانِ عَلَى الْمُقَوِّمَاتِ الْحَيَوَانِيَّةِ لَا يَكُونُ إِلَّا حِينَ الشُّعُورِ
بِبَاعِثِ الْغَرِيزَةِ وَالْحَاجَةِ، وَلَكِنَّ التَّشَاخُزَ لَدَى الْإِنْسَانِ عَلَيْهَا قَائِمٌ عَلَى أَذْخَارِهَا سَرِيحًا وَأَحْيَا زَا، فَكَانَ الْحَيَوَانُ
بِالطَّبِيعَةِ أَفْضَلَ مِنَ الْإِنْسَانِ.

أَشْرَفَ النَّبِيُّ فِي هَئِئِ الْجُمُوعِ وَبِهَاءِ الْحَقْلِ، قَالَ:

«أَرُونِي آئِنِي مَا سَمَّيْتُمُوهُ؟

قَالَ عَلِيٌّ: سَمَّيْتُهُ حَرْبًا.

فَقَالَ: بَلْ هُوَ حُسَيْنٌ!».

تَهَامَسَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ: سَمَاءُ النَّبِيِّ حُسَيْنًا، وَهُوَ كَذَلِكَ فِي سَمِيهِ وَنَفْسِهِ.

قَالَ عِمْرَانُ بْنُ سُلَيْمَانَ: هُوَ كَذَلِكَ حُسَيْنٌ، وَلَكِنْ فِيهِ مَعْنَى التَّكْبِيرِ.

فَقَالَ قَائِلٌ لَهُ: لَكَأَنَّ النَّبِيَّ كَرِهَ اسْمَ حَرْبٍ.

قَالَ عِمْرَانُ: نَعَمْ. إِنَّ الْحَرْبَ شُدُودٌ فِي طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ يُصِيبُهَا بِالْإِتِكَاسِ، وَالنَّبِيُّ نَصِيرُ الْإِنْسَانِيَّةِ، يَكْرَهُ مَا هُوَ مِنَ الْحَرْبِ وَلَوْ بِمَنْزِلَةِ الْأَسْمِ، لِأَنَّهُ جَاءَ لِتَقْيِيمِ الْإِنْسَانَ عَلَى قَاعِدَةِ الْإِحْسَانِ.

قَالَ الرَّجُلُ: فَفِيمَ حَرْبُنَا إِذَا؟

قَالَ عِمْرَانُ: إِنَّ الْحَرْبَ هُوَ الْعُدَاوَانُ طَمَعًا وَعُتُوًّا وَأَضْطِهَادًا، وَهُوَ رُجُوعٌ إِلَى الْحَيَوَانِيَّةِ الصَّارِيَةِ الَّتِي تَسْتَضِيقُ، عَلَى رَحَابَةِ الْوُجُودِ، بِغَيْرِ ذَاتِهَا فَتَسْتَجِيبُ إِلَى الْعُدَاوَانِ وَتُنَازِعُ الْأَمِينِ عَلَى بَقَائِهِمْ. وَأَمَّا نَحْنُ فَلِأَنَّا نَكَاغُ هَذَا الْعُدَاوَانَ لِنُخَلِّصَ الْإِنْسَانِيَّةَ مِنْ أَدْرَانِ الصَّرَاوَةِ الْبَاغِيَّةِ، فَلَسْنَا نُحَارِبُ مُنَازَعَةً عَلَى الْبَقَاءِ بَلْ تَعْمِيمًا لِحُرِّيَّةِ الْبَقَاءِ، وَهَذَا لَيْسَ حَرْبًا بَلْ نِضَالٌ ضِدَّ الْحَرْبِ، وَإِنَّ النِّضَالَ مِنْ أَجْلِ حُقُوقِ الْإِنْسَانِ وَدُونِهَا إِحْسَانًا.

فَالنَّبِيُّ جَاءَ بِالْإِحْسَانِ مَبْدَأً عَلَى شَتَّى وُجُوهِهِ وَمِنْ أَقْطَارِهِ، لِيُطْفِئَ نَارَ الْحَرْبِ فِي السَّلْمِ الظَّالِمِ وَفِي الصَّرَاحِ الْعَاتِي، وَلِيُرَدَّ ذُنَابَ الْبَشَرِ إِلَى الذُّنَابِ يَتَمَزَّقُ

أَقْبَعَتْهُمْ فَيَسْلَمَ الْإِنْسَانُ.

وبهذا كَانَ النَّبِيُّ أَوَّلَ مَنْ حَارَبَ الْحَرْبَ، وَأَلْغَى مَشْرُوعِيَّتَهَا، وَأَعْلَنَ حُرْمَةَ
الْإِنْسَانِ أَيَّامًا كَانَ، وَرَوَى التَّارِيخُ نُجْلَ الْجِيَهَادِ. وَكَانَ فِي تَسْمِيَّتِهِ الْوَلِيدَ حُسَيْنًا، بَعْدَ
تَسْمِيَّتِهِ حَرْبًا، إِغْلَانًا بِأَنَّ طَبِيعَةَ الْحَرْبِ لَنْ تَتَحَرَّكَ عَلَيْهِ إِلَّا إِحْسَانًا، وَفِي سَبِيلِهِ.
وَفِي تَهَانِسِ النَّاسِ، أَنَّ الْوَلِيدَ أَنَّهُ أَلَمَ زَاهِقَةً، كَانَتْ إِيْدَانَا بِخِتَانِهِ. وَكَانَ
مَغْزَى الْحِتَابِ، فِي إِشْرَاقِ الرُّوحِ، أَنَّ فِي طَبِيعَةِ الْغَرَائِزِ زَائِدَةً تَذْهَبُ فِي شُدُودِهَا
وَأَلْيَوانِهَا حَدًّا تَضَعُهَا فِي مَسَافٍ الْمَسَاقِطِ وَمَآتِيهَا. فَلَا بُدَّ مِنْ تَشْدِيدِ الْغَرَائِزِ لِسُمُورِ
الرُّوحِ وَكَمَالِهَا، وَلَا بُدَّ مِنْ تَقْلِيمِ الْغَرَائِزِ لِدَرْكِ الْمِثَالِيَّةِ وَبِأَلْيَانِهَا الَّتِي، بِهَا جَمِيعًا،
يُمْلِكُ الْبَشَرِيُّ إِنْسَانِيَّةَ صَحِيحَةٍ تَضَعُهُ فَوْقَ الْوَاقِعِ وَدُونَ الْأَحْلَامِ...

*

بَعْدَ حِينَ، كَثِيرًا مَا كَانَ يُرَى هَذَا الْوَلِيدُ السَّعِيدُ يَمُوجُ فِي حِجْرِ جَدِّهِ
الْعَظِيمِ...

وَهُوَ يَزْمِي بَعِثَيْنِ سَادِرَتَيْنِ، أَوْحَتْ عَلَيْهِمَا الْجُفُونُ كِلَاهُمَا فَلَا تَرْحُزُحُ إِلَّا
بِقُتُورٍ...

صَجْعَةٌ فِي جَوْ الْأَحْلَامِ، كَانَ يَرْتَضِعُ فِيهَا الْوَلِيدُ «إِنْهَامَ جَدِّهِ» الْبَطْلِ
النَّبِيِّ...

وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الرِّضَاعِ مَعْنَى التُّدْيِ بَلْ مَعْنَى الْقَلْبِ، فَلَا يَدْعُ إِنْ كَانَ لَهُ
مِنَ الثَّبُوتِ طِبَاعُهَا، وَمِنَ الْبَطُولَةِ تَصْجِيَاتُهَا...

*

صَجْعَةٌ كَأَنَّهَا صَجْعَةُ الْمَلَائِكَةِ فِي هَالَةِ الثُّورِ، أَوْ صَجْعَةُ النَّجْمِ فِي الْأَفْقِ

المشحور!...

أَغْفَى فِيهَا إِغْفَاءَةً الْحَيْشِفِ عَلَى تَذِي الْأُمُومَةِ الْحَانِيَةِ...
وَأَزْتَسَمَتْ ظِلَالُ هَذَا الْمَشْهَدِ عَلَى لَوْحٍ، كَانَ صُورَةً لِبُطُولَةٍ تُغْذِيهَا نُبُوَّةٌ!...
إِبْهَامٌ كَانَ صِلَةً مَعْنَى بِمَعْنَى، وَشَرِيطاً تَشْرِي عَلَيْهِ رُوحٌ إِلَى رُوحٍ...
فَلَمَّا آسَتَوَتْ نَفْسُ الْوَلِيدِ تَأَلَّقَتْ، وَكَانَتْ بُطُولَةً مُضِيَّةً مِنْ وَرَائِهَا نُبُوَّةٌ
تَمُدُّهَا بِالضِّيَاءِ...

*

هُنَاكَ فِي وَادِي الْعَقِيقِ^(٣) كَانَتْ جُمُوعُ السَّمَارِ تَنْتَظِمُ حَلَقَاتٍ حَلَقَاتٍ كَمَا
شَاءَ الْهَوَى فِي عَفْوٍ وَدُونَ تَكَلُّفٍ، وَكَانَ هَذَا النَّوْغُ مِنَ السَّمَرِ مُحِبِّباً إِلَى أَهْلِ
الْمَدِينَةِ، بِمَا فِي طَبِيعَتِهِمْ مِنْ رُوحٍ مَرِحَةٍ، لَا خَرَجَ فِيهَا وَلَا تَغْفِيدَ. وَلَمْ يَكُنْ مَرَحُهُمْ
أَثَرُ رُوحٍ مَكْدُودَةٍ غَرَاهَا تَطَيُّرٌ وَتَشَاوُظٌ بِالْحَيَاةِ وَأَسْبَابِهَا، فَهِيَ تَقِرُّ إِلَى الْخَلَاءِ، إِلَى
الْفَضَاءِ الرَّحْبِ، وَهِيَ تَضْطَنِعُ هَذَا النَّوْغَ مِنَ الْمَرَجِ لِتَنْسَى هُمُومَهَا الْمُشْتَعِلَةَ وَضَنَاهَا
اللُّغُوبَ، وَهِيَ تَنْضُو أَثْوَابَهَا الثَّقِيلَةَ وَأَغْلَالَهَا الْآسِيرَةَ الْعَانِيَةَ لِتَنْسَى ذَاتِيَّتَهَا، بِمَا فِيهَا
مِنْ عُضْصَرِي الْمَكَانِ وَالزَّمَانِ الْمَوْهَقَيْنِ، لِتَغْبَثَ، لِتَلْهُوْ هَارِبَةً مَذْعُورَةً... تِلْكَ طَبِيعَةُ
رُوحٍ مُعْقَدَةٍ حَجَّرَهَا الْجِدُّ الْحَشِينُ، فَهِيَ لَا تَفْتَأُ شَاعِرَةً بِالْخُشُونَةِ فَيَشِيْعُ فِيهَا التَّجَهُمُ
وَالْتَّقْطِيبُ.

لَمْ تَكُنْ هَذِهِ الطَّبِيعَةُ تَتَّصِلُ بِطَبِيعَةِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ فِي قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ، مِنْ قُرْبٍ أَوْ
مِنْ بُعْدٍ، وَإِنَّمَا بُنِيَتْ طَبِيعَتُهُمْ، أَوَّلَ مَا بُنِيَتْ، عَلَى مَرَجٍ كَادَ يَكُونُ مُجُوناً دُونَ قَيْدٍ،

(٣) إِنَّ الْقَرْبَ تَقُولُ لِكُلِّ سَبِيلٍ يَشُقُّ الْأَرْضَ وَيُوسِّعُهَا عَقِيقاً. وَفِي بِلَادِ الْقَرْبِ أَرْتَعَةُ أَعْقَةٍ، وَمِنْهَا الْعَقِيقُ
الَّذِي هُوَ بِنَاجِيَةِ الْمَدِينَةِ فِيهِ غَيُوثٌ وَنَحِيلٌ وَقُصُورٌ وَدُرُزٌ وَمَنَازِلُ. رَاجِعْ: مَعْجَمُ الْبُلْدَانِ، لِبَاقُوتَ، ج ٦،
ص ١٩٨.

وعلى يُشير كاذ يكون انطلاقاً من كل قييد، فشاعت فيهم سماحة مُشرقة،
وأنطَبعت على أفواههم بسمات مُشعة تُمدّها نعمة في الطبع تأتي إلا أن تظهر في
دُعابة مُنطلقة عارضة، وهي إن جدت تكون مُتكلفة في الجِدِّ، كما تكون تلك
الطبيعة مُتكلفة في المرح.

وأى شيء هذه الحياة إذا كانت لا تتمنحنا قلباً سعيداً لم تتحجّر فيه السعادة،
والجِدُّ لا يصل المزم بالسعادة، لأنها انطلاقاً، وهو جمود يُحجّرها كما يُحجّر كل
شيء ويتصل به، فيضيغ فيه حيويته ويغرله من روجه... هكذا كان يتحدّث، في
مجمع وادي العقبي، نعيمان^(٤)، طرفة أهل المدينة، الذي لولا ما دخله من عنصر
المادة الحية لكان روح التاديرة المبدعة.

ليلة كانت من هبات القمر، وهو يذنو فيها كثيراً، ويشع كثيراً حتى ليخيل
أنه يتخذى الشمس في بهاء وطراوة يُشعران بالجمال. ودعاها العرب «أضحانة»،
كانما جميع فيها الضحى أو جمعت فيه، والضحى إغراء باليقظة، بيد أن ضحى
الشمس إغراء بحياة التكليف والذكرى واليقظة على الجسد والواقع القوط،
وضحى القمر إغراء بحياة وراء الحياة، كلها حرّية وانطلاقاً، وكلها نسياناً وولادة
من جديد في اللحظات.

إن الذكرى، وفيها عنصر الثبات والجمود، تجعل الحياة ضربة لازب في
مرارتها وسآمتها وملالها، والنسيان سئل من التجديد والصيرورة، يجعل الحي في
كل الآنات مولوداً جديداً يتقلب في أسباب الطفولة الناعمة الهانقة. فمدار الشمس
دنيا من العتل والوعى الجهيد، ومدار القمر دنيا من النشوة واللاوعي الحالم... كذا

(٤) هو نعيمان بن عمرو بن رفاعه من بني النجار. تُوفي في زمن معاوية. كانت تغلب عليه روح الفكاهة
والنادرة، وكان يُدعى النسي. ذكره الزبير بن بكار في كتاب: الفكاهة والزاح، وذكره ابن الجوزي في
كتاب: الطراف والمتماجين، وترجم له بتوشع ابن حجر العسقلاني في كتاب: الإصابة، ح ٦، ص ٢٥٠

قال نُعَيْمَانُ وهو يَتَدَفَّقُ في تَنَدُّرِهِ، وكان يُسَمِّي لَيْالِي القَمَرِ ضُحَى الأَخْلَامِ، لأنها صَحَوَاتٌ في أَعْمَقِي سُكْرِ، وَلَحَظَاتٌ شِعْرِيَّةٌ تَفُورُ من عَتَبَاتِ الأَبَدِيَّةِ الَّتِي أَذْنَانَا القَمَرُ المُسْحُورُ من آفَاقِهَا المُطَلَّةِ القَرِيْبَةِ.

قال رَجُلٌ من الحُضُورِ: لو شاءَ نُعَيْمَانُ حَدَّثَنَا حَدِيثَ هَدَايَا^(٥) الَّتِي سَتَبَقِي رَمَزَ خُلُودِهِ، وإنْ كَانَتْ تَطْفِيلًا في الكَرَمِ يُشْبِهُ، في المَغْنَى، التَّطْفِيلَ في التَّهَمِ وَلَيْسَتْ تَفْضُلُهُ، وعلى أَيِّ حَالٍ فَإِنَّهَا سَخَاءٌ مُضْحِكٌ، وهو مَعَهَا ضُحْكُهُ الأَسْخِيَاءِ. فَسَرَتْ بَيْنَ الجُمُهورِ رَنَّةٌ مُقَهِّقَةٌ، أَنْطَلَقَتْ وَتَرَامَتْ أَبْعَدَ ما تَتْرَامِي الأَصْدَاءُ في مَطَارِحِ الخُلَطَاءِ.

قال نُعَيْمَانُ: أَمَا أَنْتَ فَضُحْكَةُ البُخْلَاءِ، وَمَعْنَاهُ أَنَّكَ أَكْثَرُ من بَخِيلٍ. وَأَنَا يَسُرُّنِي أَنْ أَكُونَ، كَمَا تَقُولُ، أَكْثَرُ من كَرِيمٍ، وَإِنِّي لَا أَرَاكَ في طَبِيعَتِكَ إِلَّا كَمِثْلِ زَهْرَةِ الحَنْظَلِ. فَازْتَفَعَتِ الأصْوَاتُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ: وما مِثْلُ الزَّهْرَةِ الَّذِي ذَكَرْتَ؟

قال نُعَيْمَانُ: زَعَمُوا أَنَّ فَرَّاشَةَ مَلَوْنَةَ تُخَالُ كَأَنَّهَا زَهْرَةٌ حَيَّةٌ طَائِرَةٌ، مَسَّهَا نَصَبُ التَّرْنِيكِ وَلَعَبُ الطَّنِينِ الَّذِي هو نَشِيدُ أَمَانِي الفَرَّاشِ، وهي قاصِدةٌ إلى الحُقُولِ. فَحَطَّتْ مُعْتَبِطَةً على زَهْرَةِ حَنْظَلٍ كَانَتْ تَمِيسُ بَيْنَ أَيْدِي الرِّيحِ في عُصَارَةِ وَتَمْلُؤُ حَتَّى لَتَحْسَبَ أَنَّهَا تَفِيضُ عُصَارَةً وَمَائِيَّةً، فَدَارَتْ عَلَيْهَا الفَرَّاشَةُ دُورَاتٍ يَائِسَةً كُظَامِيَّةٍ سَقَطَ على آلِ حَفِيٍّ، فَمَدَّتْ جَنَاحَيْهَا وَخَفَّتْ تَطِيرُ.

قَالَتِ الزَّهْرَةُ: إِذَا عُدْتُ بَعْدَ حِينٍ فَتَسْأَلُكَ مِنْ مَاءِ يُمارِي الوَفِيرِ.

قَالَتِ الفَرَّاشَةُ: إِذَا كُنْتُ وَأَنْتِ زَهْرَةٌ من بَنَاتِ السَّرَابِ، فَإِنَّ مَاءَكِ، وَأَنْتِ

(٥) ذَكَرَ خَتَمَهَا آئِنُ حَجَرٍ فِي: الإِصَابَةِ، قال: كَانَ لَا يَدْخُلُ المَدِينَةَ طَوْقَةً إِلَّا اشْتَرَى بِهَا ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِلَى الشَّيْءِ، فَيَقُولُ هَا أَهْدَيْتُهُ لَكَ. فَلِذَا جَاءَ صَاحِبُهُ يَطْلُبُ نُعَيْمَانَ بِمَنْبَهِ أَحْضَرَهُ إِلَى الشَّيْءِ وَقَالَ: أَطْعِمْ هَذَا ثَمَرَ مَتَاعِهِ، فَيَقُولُ الشَّيْءُ: أَوْلَمْ تُهْدِهِ لِي؟ فَيَقُولُ: إِنَّهُ وَاللَّهِ لَمْ يَكُنْ عِنْدِي ثَمَرُهُ، وَلَقَدْ أَغْبَيْتُ أَنْ تَأْكُلَهُ، فَيَضْحَكُ وَيَأْتُرُ لَصَاحِبِهِ بِالثَّقَنِ، وَذَكَرَهَا آئِنُ الحَوْزِي فِي كِتَابِ: الظَّرَافِ والمُتَاجِجِينَ، وَغَيْرِ وَاجِدٍ مِنَ المُولَفِينَ فِي التَّوَادِرِ.

تَمَرَّةٌ، غُصَارَةٌ مُسْتَنْقَعٌ كَرِيهٌ، فَزَهْرُكَ بَاطِلٌ بَيْنَ الزَّهْرِ وَتَمَرُكَ بَاطِلٌ بَيْنَ الثَّمَرِ، فَإِنَّ الزُّورَ إِذَا اسْتَحَالَ فَإِنَّمَا يَسْتَحِيلُ إِلَى زُورٍ أَكْثَرَ.

وهذا يابى النبي كُنْتُ أَسْأَلُهَا إِلَى النَّبِيِّ إِنْ كَانَتْ تُعْبِرُ عَنْ شَيْءٍ، فَإِنَّمَا تُعْبِرُ عَنْ مَكَانِ التَّدْيِ وَالسَّمَاخَةِ مِنْ قَلْبِ النَّبِيِّ الْكَبِيرِ، وَهُوَ لَا يَفْتَنُ يَأْخُذُنَا بِاللَّوَانِ مِنْهُ، وَيَمْلَأُ جَوْ حَيَاتِنَا بِطَرَاوَتِهِ، وَقُصَارَاهُ أَنَّهُ أَخْرَجَنَا مِنْ بَدَاوَةِ الطَّبْعِ، وَزَوَّدَنَا بِقَلْبِ الْإِنْسَانِ.

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ، وَكَانَ أَخَذَ الْحُضُورَ: إِنَّ الْحَدِيثَ ذُو شُجُونٍ، وَقَدْ أَذْكَرْتَنِي بَلَحْنِ حَدِيثِكَ وَاقِعَةً شَهِدْتُهَا. كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ «وَقَدْ أَخَذَ وَلِيدَهُ الْحُسَيْنَ يَدْلُغُ لَهُ لِسَانَهُ فَيَرَى الصَّبِيَّ حُمْرَتَهُ فَيَهْشُ إِلَيْهِ، وَغَيْبَتُهُ بُنْ بَدْرٍ حَاضِرٌ فَقَالَ:

يَا رَسُولَ اللَّهِ تَصْنَعُ هَذَا بِهَذَا، فَوَاللَّهِ إِنَّ لِي الْوَلَدَ وَمَا قَبْلَتُهُ قَطَّ.

قَالَ النَّبِيُّ: مَنْ لَا يُزَحِّمُ لَا يُزَحِّمُ».

قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، وَكَانَ حَكِيمًا: كَمْ كُنْتُ جِدًّا مُحْسِنًا يَا نَعِيمَانُ بِقَوْلِكَ «وَقُصَارَى النَّبِيِّ أَنَّهُ زَوَّدَنَا بِقَلْبِ الْإِنْسَانِ»، فَقَدْ جَمَعْتَ غَايَةَ مَا يُقَالُ فِي أَخْصَرِ مَقَالٍ، وَإِنَّهُ لَيُوحِي بِشَيْءٍ كَثِيرٍ. ثُمَّ أَطْرَقَ فِي تَأْمُلٍ لَمْ يَطْلُبْ بِهِ كَثِيرًا وَلَكِنَّهُ مَسَّ الْجَمْعَ، فَنَقَلَهُمْ مِنْ جَوْ أَنْفُسِهِمْ فِي مَرْجِهِ إِلَى جَوْ نَفْسِهِ فِي تَأْمُلِهِ. وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ أَطْرَدَ يَقُولُ: لَا أَذْرِي مَاذَا تَرَكَ فِي أَنْفُسِكُمْ خَبَرُ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَإِنَّهُ أَتَقَطَّ نَفْسِي عَلَى السِّرِّ الْإِلَهِيِّ فِي مُحِيطِ الْكَوْنِ الَّذِي هُوَ مَصْدَرُ مَا فِيهِ مِنْ تَنَاسُتٍ وَنِظَامٍ، وَجَمَالٍ وَتَنَاعُجٍ. وَإِذَا كَانَتْ قِصَّةُ الْمَثَلِ^(٦) تُعْبِرُ عَنْ وَاقِعِيَّةٍ كَوْنِيَّةٍ فَإِنَّهُ يَقَعُ عَلَى قِمَّتِهَا، وَذَلِكَ السِّرُّ هُوَ الرَّحْمَةُ، فَإِنَّهَا الْمَعْنَى الْأَزَلِيَّةَ الَّذِي أَنْتَبَهَتْ مِنْهُ الْحَقَائِقُ، وَكَانَ الْوُجُودُ إِحْدَى ظَاهِرَاتِهَا، وَهِيَ فِيهِ مِقْيَاسُ الْقِيَمِ، وَنَحْنُ لَنْ نَتَّصِلَ بِالْحَقِيقَةِ

(٦) أَيُّ قِصَّةِ الْمَثَلِ الْأَفْلَاطُونِيَّةِ الَّتِي تَجْعَلُ الْحَيَرَ رَأْسَ الْمَثَلِ.

الأخلاقيّة والطبيعيّة، وتنفّذ إلى أغوار المطلقِ إلّا من طريقها، وعلى أضواؤها الملتصقة، على أنّ الخير الذي اعتبرتَه قصّة المثلِ رأساً ليس في حقيقته إلّا امتداد الرّحمة، وظاهرة من تحركها، والجمال تجسّد للرّحمة بأكثر بما هو تجسّد للخير، فهي ألفة الحقائق التي بها نفهم الكونيّة والأخلاقيّة فهما مطلقاً، ونضع اليد على مقياس القيمة الحقّ.

وميزة الإسلام أنّه جعل الرّحمة دعامة وقام عليها، ولعلّه الدّين الوحيد الذي تهذّب بها إلى فهم الوجود، ومقياس الأخلاق، وتركّز القانون والاجتماع، وجعلها نظريّة فلسفيّة الأولى. فقد سمّى الإسلام الله أحياناً رحيماً وأحياناً رَحماناً، وحين تحدّث عن الكون قال في مقام «وسعت رَحمتي كلّ شيء». وفي مقام آخر قال: «كتب ربّكم على نفسه الرّحمة». وحين تحدّث عن المجتمع العام قال: «وما أرسلناك إلّا رَحمة للعالمين». وعن الأسرة قال: «وجعل بينكم مودةً ورَحمةً». وقال النّبيّ يصف نفسه: «أنا الرّحمة المهداة». وحين تحدّث عن الأخلاق قال: «الراحمون يرحمهم الرّحمن، إرحموا من في الأرض يرحمكم من في السّماء». وما حدّثكم به أبو هريرة الآن «من لا يرحم لا يُرحم» ففلسفة الإسلام قامت على قاعدة الرّحمة التي عالَج بها نظام الحياة من شتى وجوهه وجوانبه، وبثّها في قانونه وأناطيمه، ودخل بها إلى الهيكل المُستغرق الخاشع، والمجتمع الصّاحب الدّاوي، وكسّر بها شجرة الأنانيّات الصّارية، وحدّ بها من مدّ الرّغبات التّهمّة.

وبالرّحمة عالَج الإسلام طبيعة الإنسان المُعقّدة، ليتلّع بها مبلّغ المثل الأعلى الذي عبّر عنه بقوله: «رُحماء بينهم»، وليحقّق بها مبدأ التّآخي العامّ «إنّما المؤمنون أخوة».

وليس هناك كلمة كفيلة بأنّ تدلّ على روح الإسلام الشّائعة في كلّ أوضاعه وتعاليمه سوى الرّحمة، فهي رمز جامع لمجموعة حقائقه؛ كالمحبّة التي هي

الرَّمْزُ الجامع للمسيحية من أقطارها وخواشيتها، وفُزِقَ ما بَيْنَهُمَا أَنَّ في طبيعة الرِّحْمَةِ تَوَازُنَ القانون، وفي طبيعة الثَّانِيَةِ خَيَالِيَّةُ التَّجْرِيد.

وعلى أساس من الرِّحْمَةِ يُقِيمُ النَّبِيُّ التَّوْبِيَّةَ، وَيَضَعُ مَنَهِجَ الرِّبَاةِ^(٧) السَّمْحَةَ الَّتِي تَأْذُنُ لِكُلِّ الطَّبَائِعِ بالتماء في تَقْدِيرِ مَوْزُونٍ، دُونَ مَا كَبِتَ يورثُ آتِيكَاساً وَالتَّيَوَاءَ في الطَّبِيعَةِ الْمُتَفَتِّحَةِ. ولذا ذَهَبَ وَلِيدُهُ بِخَنَائِهِ، وَلَا يَفْتَأُ يُغَادِيهِ بِشَايِبِ حُبِّهِ النَّمِيرِ.

قَالَ سَدَّادُ بُنِ الهادي: لِلَّهِ دُرُكُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَإِنَّ فِيهِمَا أَذْكَرُهُ الْآنَ شَاهِداً عَلَى مَا تَقُولُ: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ خَرَجَ عَلَيْنَا فِي إِحْدَى صَلَاتِي الْعِشَاءِ وَهُوَ حَامِلٌ حُسَيْنًا، فَتَقَدَّمَ النَّبِيُّ فَوَضَعَهُ ثُمَّ كَبَّرَ لِلصَّلَاةِ، فَأَطَالَ سُجُودَهُ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا الصَّبِيُّ عَلَى ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَرَجَعْتُ إِلَى سُجُودِي، فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ سَجَدْتَ بَيْنَ ظَهْرِي صَلَاتِكَ سَجْدَةً أَطْلَعَتْهَا حَتَّى ظَنَنْتَا أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ أَمْرٌ أَوْ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْكَ، قَالَ: كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ، وَلَكِنْ آبُنِي آرْتَحَلَنِي فَكَرِهْتُ أَنْ أُعْجِلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ».

فَقَالَ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ: «طَرَفْتُ النَّبِيَّ ذَاتَ لَيْلَةٍ فِي بَعْضِ الْحَاجَةِ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ وَهُوَ مُسْتَمِيلٌ عَلَى شَيْءٍ لَا أَدْرِي مَا هُوَ. فَلَمَّا فَرَعْتُ مِنْ حَاجَتِي، قُلْتُ: مَا الَّذِي أَنْتَ مُسْتَمِيلٌ عَلَيْهِ؟ فَكَشَفَهُ فَإِذَا حَسَنٌ وَحُسَيْنٌ عَلَى وَرِكَيهِ، فَقَالَ: هَذَانِ ابْنَايَ وَأَبْنَا ابْنَتِي، اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُمَا فَأُحِبُّهُمَا وَأُحِبُّ مَنْ يُحِبُّهُمَا».

وَأَسْتَأْنَفَ أَبُو الدَّرْدَاءِ حَدِيثَهُ فَقَالَ: إِنَّ الرِّحْمَةَ فِي العُصْرِيَّاتِ - وَمَظْهَرُهَا الرُّوْقَةُ وَالْحَدَبُ - هِيَ سِرُّ كِيَانِ المَوْجُودِ الاجْتِمَاعِيِّ وَبَقَائِهِ، وَإِنَّ الطُّفُولَةَ إِذَا لَمْ تُؤْخَذْ بِرِحْمَةِ الْكَبِيرِ فَلَا بُدَّ أَنْ تَقَعَ هَوَاةٌ بَيْنَ الطُّورَيْنِ، تَذْهَبُ مُتَسِعَةً كُلَّمَا ذَهَبَتْ الْأَيَّامُ مُتَمَدِّدَةً، وَتَقْتَلِيءُ وَتُطْفَحُ بِالْأَحْقَادِ، فَتَحْبُو النَّسَوَاتِ الْمُعْرِئَةَ بِالْحَيَاةِ، لِأَنَّ الطُّفْلَ لَمْ يَعُدْ

(٧) مِنْ وَطْنِهَا الْحَدِيدِ بِمَعْنَى تَوْبِيَّةِ الطُّفْلِ، مِنْ ثَلَاثِي: رَت.

يَجِدُ حَاضِرَهُ اللَّادِ فِي الْكَبِيرِ، وَلَآنَ الْكَبِيرَ لَمْ يَغْدُ يَجِدُ فِي الطُّفْلِ مُسْتَقْبَلَ وُجُودِهِ
كَحُلْمِ الْحَمْرَةِ فِي الْغُنْقُودِ.

فَمِثْلُ نَظَرَةِ عُيَيْنَةِ بْنِ بَدْرِ إِلَى الطُّفْلِ تُورِثُ الْبُغْضَ الْخَفِيِّ، وَتُذَكِّي الصَّرَاعَ
بَيْنَهُمَا عَلَى نَحْوِ غَيْرِ مَشْعُورٍ بِهِ، فَلَا تَتَجَادَبُ أَجْزَاءُ الْكَائِنِ، بَلْ تَتَدَافَعُ، وَلَا
تَتَجَانَسُ بَلْ تَتَنَافَرُ، وَبِذَلِكَ يَنْدَثِرُ حُبُّ الذَّاتِ فِي مَظْهَرِهِ الْاجْتِمَاعِيِّ وَتَبْهَثُ
أَحْلَامُهُ فَتَبْدُو خَائِبَةً.

إِنَّ النَّبِيَّ يُوْثُّ، فِي الشَّبَابِ الْمُسْتَوِيِّ، الرَّحْمَةَ عَلَى سَتَى أَطْوَارِهَا:
بِالشَّيْخُوخَةِ لِأَنَّهَا الْمَاضِي، فَهُوَ يَسْتَمِيلُنَا بِالْحَنَنِ، وَبِالطُّفُولَةِ لِأَنَّهَا الْمُسْتَقْبَلُ، فَهُوَ
يَسْتَهْوِينَا بِالْأَمَلِ، فَتَتَوَاصَلُ أَطْرَافُ الْكَائِنِ وَتَتَّجِدُ فِي بَقَاءِ طَوِيلِ، وَمَحَالٌ أَنْ يَقُومَ
مُجْتَمَعٌ عَلَى الْقَسْوَةِ. فَتَحْنُ وَأَبَاؤُنَا وَأَبْنَاؤُنَا أَطْوَارُ كَائِنٍ كُزُوبٍ وَاجِدٍ، يَدُورُ وَهُرِينَا
فِي كُلِّ وَضْعٍ وَحِينٍ وَجْهًا، وَكُرَّةُ هَذَا الْكَائِنِ إِنَّمَا تَدُورُ بِالرَّحْمَةِ، فَإِذَا نَفِذَتْ
جَمَدَتِ الْكُرَّةُ وَذَوَتْ فِيهَا الرُّوحُ. وَالْحَيَاةُ لَا بُدَّ أَنْ تَتَفَسَّخَ وَتُجْتَوَى إِذَا لَمْ تَكُنْ دُنْيَا
مِنَ الرَّحْمَةِ، وَهَذَا مَا حَقَّقَهُ النَّبِيُّ فِي فِرْدَوْسِهِ الَّذِي تَزْهَوُ بِهِ أَرْضُ الْعَرَبِ، وَيَلْتَمِيعُ
إِلَى بَعِيدٍ فِي إِعْرَاءِ.

إِنَّ الطُّفْلَ حَيَوَانٌ يَعِيشُ بِالْغَرِيزَةِ، وَبِالرَّحْمَةِ يُسْتَطَاعُ جَعْلُهُ إِنْسَانًا يَعِيشُ
بِالْقَلْبِ.

قَالَ نَعِيمَانُ، وَلَمْ تُفَارِقْهُ دُعَابَتُهُ: لَا غَرَوْ أَنْ كَانَتْ كُلُّ أَضْرَاسِكَ - أَبَا
الدَّرْدَاءِ - ضِرْسَ عَقْلٍ، أَوْ لَعْلَ لَكَ، وَحَدَّكَ مِنْ بَيْنِنَا، ذَلِكَ الصُّرْسُ... فَصَحَّحُوا
وَهُمْ يَتَنَادَوْنَ مُتَوَاتِبِينَ إِلَى الرُّوَاكِ... «وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِيحُ»...

*

فِي بِلَادِ الْعَرَبِ الْمُتَبَدِّلَةِ وَضَعَ النَّبِيُّ تَصْمِيمَ مَدِينَةٍ فَاضِلَةٍ...

وما إنْ آسَتْوَتْ عَلَى قَوَاعِدهَا، حَتَّى وَجَدَ فِيهَا الظَّمَاءُ التَّائِهُونَ هَيْكَلَ
السَّعَادَةِ الشَّارِدِ...

وَدُحِيتْ لِبِنَاتِهَا مِنْ كُلِّ مِثَالِيَّةٍ آتَقَى فِيهَا الْفِكْرُ وَالْعَمَلُ، فَلَمْ تَعْلُ بِالمِثَالِيَّةِ
فَتَطِيرَ بِهَا اللَّبَنَاتُ وَتَذْهَبَ فِي سُروِدِ...
وَكَانَتْ الرَّحْمَةُ نَامُوسَ تَمَاشِكِهَا وَتَجَادُ بِهَا...

*

فِي هَيَاكِلِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ السَّعِيدَةِ كَانَ حُسَيْنٌ يَحْبُو...
وَهُوَ يَتَسَامَى فِي مُنْبَتِّ إِشْرَاقَاتِهَا يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، كَمَا تَتَسَامَى اللَّالِيَةُ فِي
رَقَارِقِ الثَّمِيرِ الْعَذْبِ...

فَكَانَ كَائِنًا كَالْأَلَمَاسِ، صَقَلَتْهُ الْأَضْوَاءُ وَأَنْطَبَعَتْ فِيهِ...
وَعَدَا، بَعْدَ حِينٍ، مِشْكَاءَ مُتَأَلِّقَةٍ، تَمِيسُ فِي فَضَاءِ الْهَيْكَلِ السَّعِيدِ...
وَتَهَبُ الْحَايِرِينَ طُمَآنِيَةً النُّفُوسِ، وَأَحْلَامَ السَّعْدَاءِ!...

* * *

يوم الدولة

أَصْبَحَ النَّبِيُّ وَقَدْ جَمَعَ إِلَيْهِ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ إِلَّا قَلِيلاً، عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الْقَلِيلَ كَانَ ذَاهِباً أَيْضاً فِي طَرِيقِ سَائِرِهَا، كَمَا تَذْهَبُ الرِّحَى رَاسِمَةً خَطَّ دَائِرَتِهَا فِي غَيْرِ تَوَقُّفٍ. وَكَانَ لَا بُدَّ لِهَذِهِ الرِّحَى، وَفِيهَا أَنْطِلَاقٌ وَفِيهَا حَيَاةٌ، أَنْ تَرُوسَ دَوَائِرَهَا وَاحِدَةً فِي أُخْرَى أَوْسَعَ مِنْهَا، حَتَّى تَتَّصِلَ أَبْعَدَ مَا يَكُونُ الْأَفْقُ الْمُطْبِقُ، الَّذِي هُوَ، فِي نَفْسِهِ، أَقْصَى الدَّوَائِرِ فِي طَاقَةِ الْحَيَاةِ.

وَالنَّبِيُّ، إِلَى هَذِهِ الْآوِنَةِ مِنَ الزَّمَنِ، كَانَ قَدْ قَذَفَ الدِّينَ فِي حَيَاةِ الْعَرَبِ رُوحاً، وَسَوَّى الدَّوْلَةَ قُطْبَ الرِّحَى فِي حَرَكَةِ الْحَيَاةِ الْجَدِيدَةِ، فَانْطَلَقَتْ وَلَمْ تَقِفْ، وَتَفَرَّجَتْ وَلَمْ تَنْكَمِشْ. وَأَبْدَأَ يَقَعُ مِقْيَاسُ الْحَيَاةِ الشَّامِكَةِ فِي الْحَرَكَةِ، بِمِقْدَارِ مَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَخْطُ خُطُوطاً جَدِيدَةً دَائِماً، وَتَنْشُرَ فِي مَدَى خُطُوطِهَا حَيَوَاتٍ لَا تَغِيضُ دَفْقَاتِهَا، وَلَا تَخْبُو إِشْعَاعَاتِهَا، وَلَا تَبْهَثُ أَلْوَانُ أَحْلَامِهَا...

كَانَتْ سَنَةٌ سَبْعٍ، وَكَانَ النَّاسُ يَسْتَقْبِلُونَ بِهَا عَهْداً جَدِيداً، فَقَدْ هَيَأَ النَّبِيُّ الْأَسْبَابَ لِلإِعْلَانِ عَنْ وِلَادَةِ دَوْلَةٍ فِي الْمُنَايَ الْبَعِيدِ الْمَجْهُولِ الْقُوَى، وَالْمَمْدُودِ الرِّغَابَاتِ. فَتَنْظُمُ طَائِفَةٌ مِنَ الرُّسُلِ إِلَى تَمَالِكِ الْعَالَمِ الْقَدِيمِ، تَحْمِلُ رِسَالَةَ الدِّينِ وَالدَّوْلَةِ جَمِيعاً، فَقَدْ أَضْحَى نَبِيُّ فِكْرَةٍ وَرَعِيمٍ دَوْلَةً.

وَكَانَتْ الْفِكْرَةُ الَّتِي أَنْبَجَسَتْ مِنْ يَنْبُوعِ الثُّبُوءِ، قَدْ أَمْتَدَّتْ وَهِيَ تَمْتَدُّ، فَكَانَ

لا بُدَّ للدَّولةِ، وَقَدْ تَرَكَّزَتْ، أَنْ تَتَحَرَّكَ لِتَمْتَنِدَ أَيْضاً. وَدَائِماً تَظَلُّ الْفِكْرَةُ فِي إِحْسَاسِ التَّارِيخِ هَزِيلَةً، إِذَا لَمْ تُرَافِقْهَا الدَّوْلَةُ الَّتِي تَجْعَلُهَا خَلَاقَةً وَمُعَيَّرَةً، وَالْفِكْرَةُ لَا تَكُونُ قَابِلَةً لِتَقْوَمَ عَلَى أُسَاسِهَا الدَّوْلَةُ دَائِماً، وَإِنَّمَا هِيَ فَقَطُ الْفِكْرَةُ الَّتِي آجَتَمَعَتْ^(١) فِيهَا كُلُّ قُوَى التَّارِيخِ وَقَابِلِيَّاتِهِ الرَّائِكَةِ، وَأَنْبَعَثَتْ فِيهَا عَلَى شَكْلِ مِنَ الْحَيَاةِ، وَبِذَلِكَ تَكُونُ فِي آغْتِيَارِ الزَّمَنِ أَنَّهَا مِنْهُ، وَمَصِيرُ الْأَفْكَارِ الْأُخْرَى أَنَّهَا تَسْتَحِيلُ إِلَى نَأْمَاتٍ خَافَتَةٍ فِي أُذُنِ الدَّهْرِ، وَسَمِعِ التَّارِيخِ.

وَمِنْ طَبِيعَةِ الْفِكْرَةِ، الَّتِي تَجْتَمِعُ فِيهَا قُوَى تَارِيخِيَّةٌ كُبْرَى وَتَنْجَحُ فِي إِقَامَةِ دَوْلَةٍ جَدِيدَةٍ وَخَلْقِ تَارِيخٍ جَدِيدٍ، أَنْ تَكُونُ فِيهَا غَنَاصِيرُ الثَّوْرَةِ كَامِلَةً، الثَّوْرَةُ الَّتِي هِيَ ظَاهِرَةٌ مِنْ يَقْظَةِ قُوَى التَّارِيخِ الرَّائِكَةِ.

وَلَأَنَّ تَعَالِيمَ النَّبِيِّ مِنْ هَذَا النَّوْعِ الَّذِي آجَتَمَعَتْ فِيهِ قُوَى التَّارِيخِ كَانَتْ لَا تَنْصِلُ بِمُجْتَمَعٍ إِلَّا وَتَعْمَلُ فِيهِ عَمَلَهَا، فَتُلْهِئُهُ وَتُحْرِقُ عَلَيْهِ زُيُوفَهُ وَتُعَيِّرُهُ تَغْيِيرًا تَامًا، حَتَّى كَأَنَّ مَا لَيْسَ مِنْهَا لَيْسَ مِنَ الْحَيَاةِ. بِذَلِكَ نَجَحَتْ نُبُوَّةُ مُحَمَّدٍ وَنَجَحَتْ دَوْلَتُهُ، وَفِيهَا الْقُوَى لِتَنْجَحَ كُلَّمَا حُرِّكَتْ وَأَنْبَعَثَتْ.

وَكَانَتْ كُتُبُ النَّبِيِّ إِلَى الْمُلُوكِ أَوَّلَ دَعْوَةٍ مِنْ نَوْعِهَا فِي التَّارِيخِ، دَعْوَةٌ دَوْلِيَّةٌ عَامَّةٌ لِلدَّخُولِ فِي النِّظَامِ الْجَدِيدِ، وَجُجِّهَتْ عَلَى شَكْلِ كِتَابٍ رَسْمِيٍّ. كَمَا كَانَتْ إِعْلَانًا بِوِلَادَةِ دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ وَالْعَرَبِ، الَّتِي فِي ضَمِيرِ الزَّمَنِ عَنْهَا: أَنَّهَا كُلَّمَا وُلِدَتْ حَقًّا يَتَغَيَّرُ وَجْهُهُ التَّارِيخِ.

(١) وَمَعْنَى آجَتَمَاعِ قُوَى التَّارِيخِ الرَّائِكَةِ فِي الْفِكْرَةِ، أَنْ تَشْتَمِلَ الْفِكْرَةُ الْجَدِيدَةُ عَلَى كُلِّ الصُّرُورِ الْإِضْلَاجِيَّةِ، سِوَاةِ فِي الْأَخْلَاقِ وَالْحَيَاةِ وَالْإِجْتِمَاعِ، وَمِثَالُهُ: أَنَّ الْقُوَى التَّارِيخِيَّةَ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي دَوْلَةِ فَارِسَ ثُمَّ تَخَلَّفَتْ، وَكَذَلِكَ فِي دَوْلَةِ الرُّومَانِ، وَدَوْلِ الْأَرْضِ إِذْ ذَاكَ، وَجَدَتْ سَبِيلَ ظُهُورِهَا وَقَابِلِيَّةَ أَنْبِعَاثِهَا فِي الْفِكْرَةِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ، فَانْتَبَعَتْ فِيهَا كُلُّ قُوَى التَّارِيخِ الَّتِي كَانَتْ قَدْ رَكَدَتْ فِي الْأُمَمِ حَيِّدَةً، وَكَذَلِكَ كُلُّ فِكْرَةٍ فِي كُلِّ دَوْرٍ لَا تَمْلِكُ قُوَّةَ الْإِنْتِدَادِ وَالْحَيَاةِ وَالشَّيْطَانَةِ إِلَّا إِذَا كَانَتْ فِيهَا قَابِلِيَّةٌ لِأَنْبِعَاثِ الْقُوَى التَّارِيخِيَّةِ فِيهَا الَّتِي تَخَلَّفَتْ فِي أَوْضَاعِ الْأُمَمِ الْأُخْرَى.

في هذه الفترة كنتُ نحس في كُلِّ نَحْوٍ من أنحاء المدينة بحركة نشاط غريبة، وتسمع همسات مُشتتيلة مُتصلة الهمهمات، ولم يكن للناس حديث إلا حديث الكُتُب، وماذا سيكون رَجْعُها وَرَدُّ الملوك عليها؟ وكان، في الطريق الآخِذ إلى العوالي، جماعة انتَحَتْ بنفسها ناحية ظليّة تكاثفتها أوراقُ الأعصان الوارفة. فقال قائل: أما ترون أنها مُحاولَةٌ خطيرة، قد تُولب علينا جماعات الأمم، وهي تُحيطُ بجزيرتنا إحاطة السور بالمعصم، فإن نفسي تتناشأ المخاوف، وتتفسسها شعاعاً.

قال المِفْدَاد بنُ الأسود: لا يَنْتَفِخ سَحْرُك^(٢) بالأوهام، ولا تُرْع، وسر عن نفسك المخاوف. إن لنا من قِوانا الجميعة ما يجعلنا كُثْلَةً مِنَ الصُّلب، من ورائها الإيمانُ يَشُدُّنا، ومن وراء الإيمانِ الله واهبُ القوى والقدر، فلشنا نَرْهَبُ عاتياً من البَشَر. وإنَّ النَّفْسَ الَّتِي رَأَتْ وُجُودَها في الله، تَتَطَاوَلُ بها القوى، وتتقاصرُ في مدى آغْيَابِها أيُّه قُوى أُخرى، فتَنقَذُفُ، وهي قِلَّةٌ راعِدة، من مَصْدَرِ القُوَّة الكُبرى. وحظُّ الإنسانِ مِنَ الحَيَاة، كما هو في مِرَاةِ نَفْسِهِ الَّتِي هي يَنْبُوعُ المَطْلَق، وليس كما هو في مِرَاةِ الوجودِ الَّتِي لا تَعْكُسُ إلا نِسْبِيَّةً وظلالاً خادِعةً مُخْتَلِطةً. وإنَّ الوجودَ كائِنْ بَسِيطاً، وهو لا يَمْلِكُ إلا حقائقَ بَسِيطَةً، وأما حقائقُ الوجودِ المُعْضَمِ فهي من هِباتِ الإنسانِ على الوجودِ. والإنسانُ ليس كائناً مُتَفَصِّلاً مِنَ الوجودِ فَقَطْ، بل هو أداةُ خَلْقٍ وتَكْمِيلٍ فيه... فالحيَاةُ وأشياؤها، والوجودُ المُعْتَوِي وفِكْرُهُ، بذِعةِ هذا الإنسانِ العَجِيبِ الَّذِي لَوْلَاهُ لَظَلَّ الوجودُ بَسِيطاً سادِجاً خُلُواً من الإغراء.

والإنسانُ الَّذِي لا يَفْتَأُ يَطْلُبُ كِبَرِيَاءَ الوجودِ، ويُحِسُّ بِنَشْوَتهِ وُجُودِهِ في حُدُودِ هذه الكِبَرِيَاءِ، بل لا يُحِسُّ بالوجودِ بعيداً، ليس كائناً طَبِيعِيّاً، وإلا فهو،

(٢) تفسير كمالٍ استغفلة الغرث في الحايثية وفي الإسلام تنفى: لا يَمْلِكُ الرُّغْثُ والهَلْجُ أخشاعَكَ وربَّنِيكَ.

كَكَائِنِ طَبِيعِي، شَيْءٌ نَافِعٌ مِثْلُ أَيِّ كَائِنٍ آخَرَ يَنْمُو وَيَذْوِي بَيْنَ فتراتٍ مِنَ الزَّمَنِ.
والإيمانُ باللهِ الَّذي دَعَا إِلَيْهِ الإسلامُ، فِي حَقِيقَتِهِ، إِيمانٌ بِالإنسانِ، وَهَذا
لِلإيمانِ بِالوُجُودِ الصَّامِتِ الَّذي هُوَ وَثِيَّةٌ تَحُولُ بَيْنَ الإنسانِ وَالإيمانِ بِنَفْسِهِ
وَمَعْرِفَتِهَا، وَإِلَى هَذا يَؤْمُرُ قَوْلُ النَّبِيِّ الْأَعْظَمِ «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ».

فَالإنسانُ كائِنٌ إِلَهِيٌّ إِذَا فَهِمَ نَفْسَهُ، وَكُلُّما رَسَبَ إِلَى الطَّبِيعَةِ، وَآمَنَ بِقُواها،
فَقَدْ رَسَبَ وَتَلَاشَى فِي غِمارِ الوُجُودِ الصَّامِتِ، وَعَادَ كَحَفَنَةِ هَامِدَةٍ مِنَ الرِّمالِ.
وَالنَّبِيُّ بَشَرٌ بِالإنسانِ «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ» وَحَارَبَ الْوَثِيَّةَ لِأَنَّها كُفِّرَ بِهِ، وَارْتَدَّ
إِلَى تَأْلِيهِ مَظَاهِرِ الوُجُودِ الْخَادِعَةِ، وَجاءَ بِتَوْحِيدِ الْإِلَهَةِ لِأَنَّها كُلُّما تَعَدَّدَتْ تَلَاشَى
الإنسانُ فِي سَاحَتِها.

وَمَا أَنْكَسَفَ قَمَرُ الإنسانِ فِي أُمَّةٍ، وَارْتَدَّتْ بِعِبَادَتِها إِلَى تَقْدِيسِ الطَّبِيعَةِ
دُونَ الإنسانِ، إِلَّا هَوَتْ مُضْمَجَلَّةً، وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ عَلائِمِ اخْتِضارِها، فَإِنَّ
الإنسانَ، وَخَدَّهُ، هُوَ الْحَقِيقَةُ الْكُبْرَى فِي الْحَيَاةِ وَالوُجُودِ حِينَ خَلَقَهُ اللَّهُ عَلَى
صُورَتِهِ.

وَالقُوَّةُ - يَا هَذا - كَيْفِيَّةٌ لَا كَمِّيَّةٌ، وَلَيْسَتْ كَمَا هِيَ فِي مِرْآةِ الوُجُودِ، بَلْ
كَمَا هِيَ فِي وَجْدانِ الإنسانِ، وَالظَّفَرُ دَائِماً يَكُونُ بِخَيالِ القُوَّةِ وَمُبَالَغَاتِها فِي النَّفْسِ
«كَمْ مِنْ فِقَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِقَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ». فَوَاللَّهِ لَوْ قَدَفَ بِنَا النَّبِيُّ إِلَى بَرَكِ
الْإِيمانِ وَإِلَى كُلِّ مَدائِنِ كِشْرَى وَقَيْصَرَ ما وَثِقْنَا وَلَا نَكَلْنَا؛ وَنَحْنُ لَا بُدَّ ظَافِرُونَ.

قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: عَهْدُنَا بِكَ أَتَكَ بَطَلٌ، فَها أَنْتَ حَكِيمٌ أَيْضاً...

قال المِقْدادُ: إِنَّ الْبُطُولَةَ مَعْرِفَةُ الإنسانِ نَفْسَهُ، فَإِذا بَرَزَتْ فِي الْعَمَلِ قِلَ عَنْها
بُطُولَةٌ، وَإِذا بَرَزَتْ فِي الْفِكْرِ قِلَ عَنْها حِكْمَةٌ. فَالْبُطُولَةُ حِكْمَةٌ صَامِتَةٌ، وَلَنْ يَكُونَ
الْمَرْءُ بَطَلاً إِلَّا إِذا سَبَقَ وَعَرَفَ نَفْسَهُ، أَيِ كانَ حَكِيماً، وَالنَّبِيُّ سَبَقَ وَعَرَفَنا بَأَنْفُسِنا،

فَلَا جَزَمَ إِنْ كَانَ كُلُّ أَتْبَاعِ مُحَمَّدٍ أَبْطَالاً.

وَيَنِينَا هُمْ عَلَى تَبْشِطِهِمْ فِي الْحَدِيثِ، عَرَضَ رَاكِبٌ مُجِدُّ يُغْذُّ الْخُطَى غَدَاً،
وَحِينَ حَاذَاهُمْ قَامَ إِلَيْهِ الْجَمْعُ وَخَفُّوا بِهِ مُلْقِينَ إِلَيْهِ رُؤُوسَهُمْ.

وَقَالُوا بِلَهْجَةِ الْمُتَنَظِّرِ: مَا وَرَاءَكَ؟ وَكَانَ هُوَ الرَّسُولَ الَّذِي بَعَثَهُ النَّبِيُّ بِالْكِتَابِ
إِلَى كِشْرَى.

قَالَ الرَّايِبُ، وَقَدْ أَلَوَى رَأْسَهُ حَتَّى حَاذَى رُؤُوسَهُمْ: إِنْ كِشْرَى بَلَغَتْ بِهِ
حِمَاقَتُهُ أَنَّهُ مَرَّقَ كِتَابَ رَسُولِ اللَّهِ مُسْتَخِفّاً حَانِقاً، فَمَا أَتَتْ عَلَيْهِ لَيْلَتُهُ سَالِماً عِداً
عَلَيْهِ أَتْبَهُ فَقَتَلَهُ، وَقَامَ مَقَامَهُ، وَشَمَلَ النَّاسَ كَأَفْتَهُمْ نَوْحٌ، بَلْ أَنْوَأَ، مِنَ الذُّهُولِ
وَالدَّهْشَةِ وَالاضْطِرَابِ، وَتَرَكْتَهُمْ وَهُمْ يَمْجُجُونَ كَالْآذِيِّ ذِي الْأَمْوَاجِ الْعَارِمَاتِ...
فَتَعَلَّقُوا بِمُسَاءَلَتِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَلَكِنَّهُ حَثَّ مَطِيعَتَهُ وَأَنْطَلَقَ يَسِيرُ، فَأَنْقَلَبُوا إِلَى
بَغْضِهِمْ يَتَعَجَّبُونَ.

قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: لَقَدْ صَدَقَ الْمُقَدَّادُ وَاللَّهُ حِينَ قَالَ: إِنَّ الْإِيمَانَ إِذَا خَبَا،
حَلَّ مَحَلَّهُ جَهْلُ الْإِنْسَانِ قِيَمَتَهُ. وَالْمَثَلُ الْعُلْيَا وَالْمَغْنَوِيَّاتُ الْخَالِدَةُ، وَهِيَ تَنْبُعُ مِنْ
مَعْرِفَةِ الْإِنْسَانِ بِنَفْسِهِ، لَا يَعُودُ لَهَا وُجُودٌ فِي جَوْهٍ وَفَضَائِهِ، فَيَسْطِطِرُّ عَلَيْهِ نَوْحٌ حَادٌّ
مِنَ الثَّفَاهَةِ يَقْعُدُ بِهِ عَنِ الْمَجْدِ، وَنَوْحٌ حَادٌّ آخَرُ مِنَ الْمَلَالِ يَهْبِطُ بِهِ إِلَى الرُّغَامِ. وَفِي مَا
نَقَلَ إِلَيْنَا الرَّسُولُ الْآنَ مِنْ حَالِ الْفُرْسِ شَاهِدٌ جِدُّ خَطِيرٍ، فَهُمْ أُمَّةٌ جَهْلُ الْإِنْسَانِ
فِيهَا قِيَمَتُهُ، فَلَا بُدَّ أَنْ تَعُودَ وَلَا قِيَمَةَ لَهَا، رُوِيَ أَنَّ تُشْرِقَ عَلَيْهِمْ شَمْسُ إِنْسَانِيَّتِنَا
الْجَدِيدَةِ.

وَلَمْ يَكُنْ طَوِيلًا حَتَّى خَفُّوا، بِغَضُّهُمْ فِي إِثْرِ بَغْضٍ، وَوَأَفُوا الْمَدِينَةَ، وَكَانَ
النَّاسُ يَمْجُجُونَ مَوْجاً، فَقَدْ هَبَطَ أَيْضاً الرَّسُولُ إِلَى قَيْصَرَ وَهُوَ يُنْقَلُ بِقَدَارِ آخِرَامٍ
قَيْصَرَ لِلْكِتَابِ، وَهَبَطَ سَائِرُ الرُّسُلِ الْآخَرُونَ يُنْقَلُونَ مِثْلَ ذَلِكَ؛ فَبَارَكَهُمُ النَّبِيُّ وَنَادَى

المُؤَذَّن «حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ» فَاسْتَوَى النَّبِيُّ فِي مُصَلَّاهُ، وَخَفَّ النَّاسُ يَنْتَظِمُونَ صُفُوفًا.

قَالَ قَائِلٌ لآخَرٍ، وَقَدْ تَوَجَّهَ النَّاسُ يُكَبِّرُونَ بِالصَّلَاةِ: إِنِّي لَيْسَتْخَفْنِي شُعُورٌ غَنِيْفٌ أَنَا مَعَهُ جِدٌّ مُغْتَبِطٌ، فَقَدْ طَفَرْنَا إِلَى قِمَّةِ التَّارِيخِ، وَغَدَوْنَا أُولَى فِكْرَةٍ أُسْمَى مَا يَكُونُ الْفِكْرُ، وَأُولَى مُجْتَمَعٍ أُسْمَى مَا يَكُونُ الْمُجْتَمَعُ، وَإِنَّهُ سَيَظِلُّ لَنَا تَذْكَارَانِ خَالِدَانِ: يَوْمُ الْهَجْرَةِ وَهُوَ تَذْكَارُ نَجَاحِ الثَّبُوءِ، وَيَوْمُ الرُّسُلِ أَوْ الشُّفَرَاءِ وَهُوَ تَذْكَارُ نَجَاحِ الدَّوْلَةِ. «وَجَاءَ حُسَيْنٌ يَشْتَدُّ بَيْنَ الصُّفُوفِ، وَقَدْ سَجَدَ النَّبِيُّ يُصَلِّي فَالْتَزَمَ غُنْفَهُ، فَقَامَ وَأَخَذَهُ بِيَدِهِ، فَلَمْ يَزَلْ يُمَسِّكُهُ حَتَّى رَكَعَ».

مَضَتْ سَنَةٌ سَبْعٌ وَأُهِلَّتْ سَنَةٌ ثَمَانٍ، وَكَانَ الْحُسَيْنُ قَدْ شَارَفَ الرَّابِعَةَ أَوْ عَظْرَهَا، حِينَ آتَجَّهُ النَّبِيُّ لِذَلِكَ آخِرِ مَعْقِلٍ مِنْ مَعَاqِلِ الْأَوْهَامِ، (مَكَّةَ)، الَّتِي هَوَتْ بِالْإِنْسَانِ إِلَى ذَرْكِ التَّارِيخِ، وَمَلَأَتْ أَجْوَاءَهُ بِالْأَسَاطِيرِ، حَتَّى أَنْقَلَبَ مَعَهَا وَهُوَ أُسْطُورَةٌ حَيَّةٌ، وَأَنْقَلَبَتْ دُنْيَاهُ الَّتِي يَحْيَاهَا وَهِيَ حَيَاةٌ فِي أُسْطُورَةٍ.

هَبَطَتْ جُمُوعُ النَّبِيِّ مَكَّةَ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ، وَدَلَفُوا إِلَيْهَا مِنْ كُلِّ حَذَبٍ، وَبَرَزَ النَّبِيُّ كَالنَّشْرِ الطَّائِرِ، وَهُوَ رَمَزُ فِكْرَةٍ وَتَفَوُّقٍ، وَسَارَ حَتَّى دَخَلَ الْبَيْتَ، وَمِنْ آيَةٍ جِهَاتِيهِ أَوْهَامٌ مُتَجَسِّدَةٌ (أَصْنَامٌ)، عَبَدَهَا الْإِنْسَانُ، فَكَانَ يُشِيرُ إِلَيْهَا بِيَدَيْهِ كِلْتَاهُمَا، وَيَهْتِفُ بِكَلِمَةِ اللَّهِ الْقَارِعَةِ «جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا». فَهَوَتْ مُكِبَّةً، وَغَابَ رَجُوعُ صِدَاها فِي الْغُورِ السَّحِيقِ، وَتَمَجَّدَ الْحَقُّ يَوْمًا فِي دُنْيَا الْإِنْسَانِ، وَغَرَا النَّاسُ بَجَلَالِ الْمَوْقِفِ، وَرَاحُوا فِي يَقْظَةٍ آسْتِغْرَاقٍ كَانَتْ وَاعِيَةً، وَجَرَى عَلَى لِسَانِ فُضَالَةِ اللَّيْثِيِّ:

لَوْ مَا رَأَيْتَ مُحَمَّدًا وَجُنُودَهُ بِالْفَتْحِ يَوْمَ تَكَسَّرَ الْأَصْنَامُ
لَرَأَيْتَ نَوْرَ اللَّهِ أَصْبَحَ بَيْتَنَا وَالشُّرُوكَ يَغْشَى وَجْهَهُ الْإِظْلَامُ

وَحَشِدَتْ قُرَيْشُ أَشَابَاتِ أَشَابَاتٍ، وَرَاحَ النَّبِيُّ يَخْضُرُ بَيْنَهُمْ، وَرُؤُوسُهُمْ قَدْ
سَاوَتْ الصُّدُورَ.

قال: ما تزوني فاعلاً بكم؟

قالوا: أئح كرم وآئن أئح كرم!

فَقَالَ، وَقَدْ جَمَعَ ثُبُلَ الْإِنْسَانِ مِنْ أَطْرَافِهِ: إِذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلَقَاءُ!...

وَرَدَّدَ الصَّدَى فِي كُلِّ مَكَانٍ «إِذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلَقَاءُ»، الَّذِي كَانَ إِعْلَانًا
لِلْبَشَرِيَّةِ بِأَنَّ هَذَا يَوْمُ حُرِّيَّتِهَا. فَلَمْ تَكُنْ حَرْبُ النَّبِيِّ عُنْتًا وَآضْطِهَادًا وَقَدْ وَجَدَ سَبِيلَهُ
إِلَيْهِمَا، وَإِنَّمَا كَانَتْ خَلَاصًا وَتَحْرِيراً لَكِي يَتَنَفَّسَ الْإِنْسَانُ بِمِلءِ رِئْتَيْهِ فِي الْعَرَاءِ...
وَتَرَدَّدَ فِي الدَّهْرِ أَنَّ مُحَمَّدًا أَطْلَقَ الْفَقِيرَ، وَكَسَرَ قَيْودَهُ...

وَرَاحَ الْفَرَّاشُ يَطْلُبُ فِي الْحُقُولِ تَتَحَاضُّنُهُ أَيْدِي الزُّهْرَاتِ.

فَقَلَ النَّبِيُّ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَقَدْ آزَدَهَتْ بِنَهَجَاتِهَا، وَأَصْبَحَتْ وَفِي كُلِّ
نَيْبِ صَدَى فَوْحَةٍ أَنْطَلَقَتْ مُتَمَاجِجَةً وَكَبِيرَةً، وَكَانَ النَّبِيُّ يُلَبِّي دَعَوَاتِهِمْ وَيُشَارِكُهُمْ
مِرَاحَ الظُّفْرِ وَفَخَارَهُ.

قَالَ يَغْلَى بَنُ مُرَّةَ: «خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى طَعَامٍ وَأَنَا مَعَهُ، فَإِذَا حُسَيْنٌ فِي
السُّكَّةِ مَعَ غِلْمَانٍ يَلْعَبُ. فَتَقَدَّمَ النَّبِيُّ أَمَامَ الْقَوْمِ وَبَسَطَ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ الْغُلَامُ يَفْرُ
هَا هُنَا وَهَا هُنَا، وَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ يُضَاجِكُهُ حَتَّى أَخَذَهُ، فَوَضَعَ إِخْدَى يَدَيْهِ تَحْتَ
قَفَاهُ وَالْأُخْرَى تَحْتَ ذَقْنِهِ وَقَبْلَهُ، وَقَالَ:

حُسَيْنٌ مِنِّي وَأَنَا مِنْ حُسَيْنٍ، أَحَبَّ اللَّهُ مَنْ أَحَبَّ حُسَيْنًا، وَحُسَيْنٌ سَبِطٌ مِنَ
الْأَسْبَاطِ».

*

نُجِبُ الْبُيُوتَةَ لِأَتْنَهَا خُلُودٌ لِلذَّاتِ...
وفي الحُسَيْنِ كَانَ النَّبِيُّ يَرَى خُلُودَ ذَاتِهِ...
فَلا جَزَمَ إِنْ كَانَ يَغْمُرُهُ بِهَذَا الْحُبِّ لِأَنَّهُ اسْتِمْرَارُ ذِكْرِ النَّبُوتَةِ...

*

صَمَّهْ إِلَيْهِ مَلَيًّا بَيْنَ الْحُبِّ وَالْمَجْدِ...
وَحَنَا طَوِيلًا عَلَيْهِ بَيْنَ الْقَلْبِ وَالْفِكْرِ...
فَكَانَ لَهُ مِنْ قَلْبِهِ وَفِكْرِهِ جَمِيعًا...
وظَلَّ أَبَدًا رَمَزَ مَجْدٍ شَامِخٍ، وَقُبْلَةَ حُبِّ كَتَنُقْسِ أَزْهَارِ السَّحْرِ وَعَبَقِي
الْخُلْدِ!...

*

الْحُبُّ شُعُورٌ إِلَى شُعُورٍ، وَخَفَقَةٌ قَلْبٍ إِلَى خَفَقَةِ قَلْبٍ...
وَالشُّعُورُ جَوْهَرٌ فَرْدٌ لَيْسَ يَنْقَسِمُ...
فَكَانَ حُسَيْنٌ مِنْهُ وَكَانَ مِنْ حُسَيْنٍ!...

*

إِذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطَّلَاقُ!...
خِطَابُ لِقَائِ مُشِيرٍ إِلَى كُلِّ إِنْسَانٍ فِي كُلِّ مَكَانٍ...
لِيَقِفَ شَاعِرًا بِوُجُودِهِ عَلَى حُطَامِ الْأَغْلَالِ وَرُفَاتِ أَرْبَابِ الْقِيُودِ...
فَهَذَا صَوْتُ مِنَ السَّمَاءِ يَنَادِي بِالْحُرِّيَّةِ وَيُنَادِي بِالْخَلَاصِ...

إذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطَّلَاقُ!...

كَلِمَةٌ صَدَرَتْ مِنْ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ وَبَيْتِ مُحَمَّدٍ...

فَكَانَتْ إِذْنًا بِأَنَّ مَوْكِبَ الْحُرِّيَّةِ مِنْ هَذَا الْبَيْتِ يَسِيرُ، وَفِي الطَّلِيعَةِ أَبَدًا
يَكُونُ...

وَطَبِيعَةُ الطَّلِيقِ، لَا تَجْعَلُهُ بِأَعْبَاءِ هَذَا الْأَمْرِ خَلِيقًا...

فَأَبْنَاءُ الْإِسَارِ يَنْطَلِعُونَ عَلَى شَهْوَةِ الْأَسْرِ...

فَقَدْ عَشَّشَتِ الْقُبُورُ فِي رُوحِيَّتِهِمْ وَتَوَلَّدَتْ مِنْهَا عَقْلِيَّتُهُمْ!...

*

وَلَكِنْ حَاوَلَ الطَّلِيقُ الْإِنْتِهَازَ وَكَانَ...

فَعَادَتْ قُبُورُ السَّجْنِ وَالسَّجَّانِ...

فَحَمَلَ حُسَيْنٌ - وَهُوَ رَامُوزُ بَيْتِ الْحُرِّيَّةِ وَحَارِسُهَا - الشُّعْلَةَ الْمُقَدَّسَةَ إِلَى كُلِّ
مَكَانٍ...

فَقَدْ سَمِعَ زُمْرَةً تُحْرِقُ الْأُرَمَ مِنْ وَرَاءِ الْقُبُورِ، فَأَعْلَنَ التُّكْرَانَ...

وَهَبَّ تَحْتَ صَوْتِ الْوَاجِبِ يُغَالِبُ الْبُخْرَانَ... وَهُوَ وَإِنْ لَمْ يَكْبَحْ جِمَاحَ
الطُّغْيَانِ...

فَقَدْ تَرَكَ فِي جَنْبِهِ نَوْرَةَ الْبُرُكَانِ...

* * *

دموع

كثيراً ما كَانَ النَّبِيُّ يُرى، في أُخْرِيَاتِ أَيَّامِهِ، بَيْنَ ذَوِيهِ وَأَبْنَائِهِ يُؤَانِسُهُمْ، وَيَطْمَئِنُّ فِي نَشْوَةِ خَفِيَّةٍ إِلَى أَشْيَاءٍ لَهْوِهِمِ الْبَرِيِّ وَمَرْجِهِمِ الْحُلُوِّ، وَيُعَاطِيهِمْ أَشْبَابَ هَذَا اللَّهْوِ وَهَذَا الْمَرْحِ، وَيَمُدُّ لَهُمْ فِيهِمَا، فَقَدْ حَقَّقَ حُلُمَ الْحَجْدِ وَأَدَّى غَايَةَ الرِّسَالَةِ الْقُضْوَى، فَهَوَ يَشْعُرُ بِالْأَطْمِئْنَانِ وَالرِّضَا، وَيُحْسِنُ بِنَزَاحِمِ شُرُورٍ عَمِيقٍ.

وَكَانَ يَأْتَسُّ كَثِيرًا إِلَى هَذَا الْجَوْ الَّذِي تَشِيْعُ فِيهِ حَرَكَاتُ الطُّفُولَةِ نَاعِمَةً بِبِرَائَتِهَا، هَانِئَةً بِسَدَاجَتِهَا، مُنْتَشِيَةً بِطَرَاوَتِهَا... وَهِيَ، رُغْمَ قَسَوَتِهَا أَخِيَانًا، تَجِدُ وَقْعَهَا اللَّذِيذَ، فَإِنَّ الْبِرَاءَةَ جَمَالٌ عَلَى شَتَّى صُورِهَا وَأَلْوَانِهَا.

وَالطُّفُولَةُ، وَحْدَهَا، أَثْبَتُ حَقَائِقِ الْحَيَاةِ، وَمَا وَرَاءَهَا سُخْرِيَاتٌ وَأَشْبَاهُ سُخْرِيَاتٍ تَبْدُو خَشِيئَةً، وَكُلَّمَا أَوْغَلْنَا فِي مَدَى الْحَيَاةِ تَزِيدُ خُشُونَةً وَتَوَعُّرًا. وَحِينَ تُدْرِكُنَا لَذَائِهَا عَرَضًا فَإِنَّمَا تَكُونُ فِي شَكْلِ مِنْ أَشْكَالِ الرَّجْعَةِ إِلَى الطُّفُولَةِ، وَفِي إِنْضَاءِ زُيُوفٍ ثَقِيلَةٍ مِنْ أَثْوَابِ التَّكْلِيفِ الْمُرْهَقَةِ... وَالتَّكْلِيفِ رِيَاءً وَأُنَانِيَّةً عَلَى كُلِّ وَجْهِهِ، وَلِذَلِكَ أَنْصَرَفَ جُهِدُ النَّبِيِّ إِلَى أَنْ يَضَعُ فِي كُلِّ الْحَيَاةِ بَرَاءَةَ الطُّفُولَةِ.

وَنَحْنُ لَا نَسْتَطِيعُ الرَّجْعَةَ إِلَى الطُّفُولَةِ وَبَعَثَهَا مِنْ بَحْدِيدٍ عَلَى آيَةِ صُورِهَا، كَمَا نَعْمِيزُ دَائِمًا عَنْ خَلْقِ جَوْهَا الْمُتَرْفِ، فَتَطْلُبُهَا فِي الطُّفْلِ بِشَوْقٍ مُلِحٍّ، وَفِي نَوْعٍ مِنَ الْحَيْنِ الْآسِرِ، لِيَعْمُرُنَا بِرُوحِيَّتِهَا الَّتِي تَظَلُّ فِينَا أَمَلًا مُنْشُودًا، وَرَغْبَةً حَادَّةً.

والتَّبِيُّ كَانَ يَجِدُ طُفُولَةَ حَيَاتِهِ اللَّادَّةَ فِي أَهْنَائِهِ كَمَا كَانَتْ وَعَلَى مَا كَانَتْ،
فَيَأْخُذُهُمْ بَصْنُوفِ اللَّعَابِ فِي خَنَانٍ وَآفْتِرَارٍ. وَكَثِيراً مَا كَانَ يُرَى الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ
يَضْطَرِعَانِ وَهُوَ يُحَمِّسُهُمَا، أَوْ يَلْعَبَانِ بِالْمَدَاحِي^(١) وَهُوَ يُعْبَثُ الْهَنَاءَةَ عَبَثاً، وَيَتَمَلَّأُ
مِنْهَا، وَيَتَذَوَّقُ «خُلُوءَ الْبَنِينَ» الَّتِي هِيَ النَّشْوَةُ الْكُبْرَى فِي ظِلَالِ الْعُمُرِ. فَإِنَّ لَدَادَةَ
الْحَيَاةِ تَقُومُ فِي نَشْوَتَيْنِ: نَشْوَةٍ بِالطُّفُولَةِ، وَنَشْوَةٍ بِذِكْرَاهَا فِي الطُّفْلِ، وَمَا بَقِيَ مِنْ
فُصُولِ الْحَيَاةِ هَجِيرٌ كَهَجِيرِ الظَّهِيرَةِ، وَلَذَنْجٌ كَلَذَعِ اللَّهَبِ، وَخُرْقَةٌ تَنْتَهِي بِمَرَارَتِهَا.
وَالطُّفْلُ طَائِرٌ يَرِفُ بَيْنَ أَأْيَدِنَا لِيَتَلَحَّقَ بِهِ إِلَى جَوْ حَقَائِقِهِ وَأَحْلَامِنَا، وَكَانَ
الْحَيَاةُ تَضَعُ الْحَقِيقَةَ الْعَارِيَّةَ السَّعِيدَةَ، بِكُلِّ فُتُونِهَا، بَيْنَ يَدَيِ الطُّفْلِ، فَيَغْرُقُ فِي
خُمَارِهَا زَمَناً، وَلَكِنَّهَا تَنَائِي وَهُوَ فِي قِمَّةِ شُعُورِهِ بِاللَّذَّةِ الْمُطْلَقَةِ، فَيَخْبُو وَرَاءَهَا فِي
لَهْفَاتٍ، ثُمَّ يَغْدُو فِي لَهْفَاتٍ، وَهِيَ تَنَائِي وَتَنَائِي حَتَّى تَحْوَرَ فِي كَوْنٍ مِنَ الصَّبَابِ
يَحُولُ الْأُفُقُ دَوْنَهَا، وَيَقْطَعُ بِالْحَيِّ الْمَسِيرُ فَيَسْتَعْرِقُ حَالِماً، هَائِماً، فَقَدْ سَقَطَ فِي
الشَّرَابِ، تَطَوَّفَ بِهِ وَتَنَازَعَهُ أَحْلَامُ الْمَاءِ.

وإِذْ يَضْطَرِعَانِ، كَانَ التَّبِيُّ يُهَيِّجُ حَرَكَاتِ طُفُولَتَيْهِمَا الْمُتَشَابِكَةِ الَّتِي هِيَ زَمْزُ
عَبَثٍ فِي جِدٍّ، وَجِدٍّ فِي عَبَثٍ، تَنْتَظِمُهَا بَرَاءَةٌ مَارِحَةٌ.
فَيَقُولُ: «إِيهَآ حَسَنُ».

قَالَتْ فَاطِمَةُ: أَسْتَنْهَضُ الْكَبِيرَ عَلَى الصَّغِيرِ؟
قَالَ: هَذَا جَبْرِيلُ يَقُولُ: «إِيهَآ حُسَيْنُ!».

وَجَبْرِيلُ زَمْزُ مِنَ الْمُطْلَقِ، وَأَسْمٌ مِنَ الْمِثَالِ، وَفِي لَحْظَةِ اسْتِعْرَاقٍ وَاسْتِغْلَاةٍ
طَافَتْ بِنَفْسِ النَّبِيِّ صُورَةٌ مِنَ التَّجْرِيدِ بَرَزَتْ مُجَسِّمَةً وَمُكَبَّرَةً، وَهِيَ تُشَارِكُهُ نَشْوَتُهُ

(١) الْمَدَاحِي: أَحْجَازٌ، كَانُوا يَخْفِرُونَ خَفِيرَةً وَيَذْهَبُونَ فِيهَا بِتِلْكَ الْأَحْجَازِ، فَإِنْ رَفَعَ الْحَجَرُ فِيهَا فَقَدْ غَلَبَ
صَاحِبُهَا، وَإِنْ لَمْ يَتَغَنَّ غَلَبَ، وَالذَّخْوُ زَمْنِي اللَّاعِبِ بِالْحَجَرِ وَالْجَوِّزِ وَغَيْرِهِ. أَيْ أَشْبَهَ مَا تَكُونُ بِالْغُلُوفِ الْيَوْمَ.

وَبَهْجَةٍ مَا يَجِدُ جِيَالَ مَرَحٍ سِبْطِيَّةٍ. وَلَمْ يَكُنْ جَبْرِيلُ غَرِيباً عَنْ جَوْهٍ، فَهُوَ زَمْزُ
رِسَالَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ حُسَيْنٌ بَعِيداً عَنْ قَلْبِهِ، فَهُوَ زَمْزُ حُبِّهِ. وَفِي هَذَا الِاسْتِنْهَاضِ
التَّغْنِيلِيِّ زَمْزِيَّةٌ تُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْحُسَيْنَ سَيَكُونُ رَائِدَ الرِّسَالَةِ وَعَلَمَ الْهُدَى، فِي أَعْمَاقِ
ضَمِيرِهِ صَوْتُ مِنَ الْغَيْبِ يَتَرَدَّدُ أَبَداً: إِلَيْهَا حُسَيْنٌ!...

مَعَ الْأَصِيلِ كَانَ فِي أَقْصَى الصَّخْرَاءِ رَاكِبٌ يَسِيرُ بَيْنَ الْجِدِّ وَالْهُوَيْنَا آخِذاً
نَحْوَ الْمَدِينَةِ، وَهُوَ يَتَدَوَّى مِنْ بَعِيدِ كُرَّةٍ يُدْخِرُجُهَا الْأَفْقُ عَلَى الرَّمَالِ، وَالصَّخْرَاءُ هَيْكَلُ
أَبَدِيَّةٍ مَكْشُوفَةٍ، تَتَمَدَّدُ فِي النَّفْسِ عَلَى رُحْبِهَا، فَتَتَمَدَّدُ بِهَا النَّفْسُ لَا مُتَنَاهِيَةً تَطَالِعُ
الْمَجْهُولَ.

وَكَانَ الرَّايِبُ أبا ذُوَيْبٍ الشَّاعِرَ الْحَزِينُ الَّذِي صَفَّرَ الْحُزْنَ عَلَى هَامَتِهِ إِكْلِيلًا
تَنَائَرَتْ أَوْرَاقُهُ، وَتَقَيَّتْ أَشْوَائُهُ الْقَاسِيَةَ تَأْبِرُهُ فِي خَطَرَاتِ الذُّكْرِ، وَخَلَجَاتِ
الْحَيْنِ، وَرَجَفَةِ الْهَوَى، وَتَأَوَّدَاتِ الطَّيْفِ^(٢).

وَالصَّخْرَاءُ يَثْبُوغُ ذِكْرِيَّاتٍ سَيِّمَا لِنَفْسِ إِنْسَانٍ مَحْزُونٍ تَكَثَّرَتْ أَصْدَاءُ
الْأَسَى فِي أَذُنَيْهِ، فَهُوَ يُحْسِنُ بَوَاقِرَها فِي الْخَلَاءِ ضَاجِجاً غَنِيماً، وَالنَّفْسُ الْبَائِسَةُ يَزْدَادُ
فِيهَا صِدْقُ الْحَيْسِ وَالْحَدَسِ، وَتَتَأَثَّرُ بِالْفَوَاجِعِ مِنْ بَعِيدٍ، وَبِرَعَشَاتِ الْغَيْبِ وَالْمَجْهُولِ.
عَزَّتُهُ، وَالْمَطِيَّةُ تَنْتَهَادِي بِهِ، هِرَّةٌ شَجِي، وَتَأَوَّدَتْ فِي أُعْطَافِ الصَّخْرَاءِ أَمَامَ
نَاطِلِزْنِهِ طُيُوفَ رَايِزَةٍ. «وَكَانَ قَدْ بَلَغَهُ أَنَّ النَّبِيَّ عَلِيًّا، وَكَانَ قَدْ اسْتَشْعَرَ حُزْناً مُذِيئاً،
وَكَانَ قَدْ بَاتَ بِأَطْوَلِ لَيْلَةٍ لَا يَنْجَابُ دِيَجُورَها، وَلَا يَطْلُعُ نَوْرَها قَبْلَ أَنْ آبَتَدَأَ الْمَسِيرَ،
فَهَوَّمَ مَعَ السَّحْرِ، فَسَمِعَ صَوْتَ الشَّاعِرِ يَهْتِفُ بِهِ فِي الْأَحْلَامِ:

خَطْبُ أَجَلٍ أُنَاخَ بِالْإِسْلَامِ بَيْنَ التَّخِيلِ وَمَقْعِدِ الْأَطَامِ

(٢) غَيْبَتُهُ أَجْتَلُ مَا قِيلَ فِي الرِّثَاءِ وَالْتَفَتِجِ وَمِنْهَا الْبَيْتُ الذَّاهِبُ تَقَالُ:

وَإِذَا الْمَيِّتَةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَها أَلْفَبِتَتْ كُلَّ تَحِيَّةٍ لَا تَنْفَعُ

فَبِضِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٌ، فَعْيُونُنَا تَذْرِي الدَّمْعَ عَلَيْهِ بِالشَّجَامِ
قال: فَأَصْحِيحُ مِنْ مَنَامِي فَرِعَاً، فَتَنْظَرُوتُ فَلَمْ أَرَ إِلَّا سَعْدَ الذَّابِحِ، فَأَوَّلَتْهُ ذَبْحاً
يَقَعُ فِي الْعَرَبِ، وَعَلِمْتُ أَنَّ النَّبِيَّ قَدْ قُبِضَ.

فَعَحَنْتُ رَاحِلَتِي وَسِرْتُ. فَلَمَّا أَصْبَحْتُ طَلَبْتُ شَيْئاً أَزْجُرُ بِهِ، فَعَرَضَ لِي
شَيْئَهُمْ، قَدْ قُبِضَ عَلَى صِلٍّ، فَهِيَ تَلْتَوِي عَلَيْهِ وَالشَّيْئَهُمْ يَقْضُمُهَا حَتَّى أَكَلَهَا،
فَرَجَزْتُ ذَلِكَ وَقُلْتُ: شَيْئَهُمْ، شَيْءٌ هَمٌّ. وَالتَّوَاءُ الصَّلُّ: تَلْوِي النَّاسِ عَلَى الْقَائِمِ بَعْدَ
رَسُولِ اللَّهِ.

فَأَذَرَكَنِي خَيْرَةً مُتَلَطِّئَةً عَرَضَ لِي فِيهَا شَيْخٌ إِنْسَانٍ مُجِدِّ نَفَقَتْ تَحْتَهُ رَاحِلَتُهُ
مِنْ طَوِيلٍ مَا حَمَلَهَا وَرَاحَ يُحْمَلُهَا، وَلَمْ يَقْعُدْ بِهِ الْإِنْقِطَاعُ بَلْ هَبَّ فِي غَيْرِ تَوَقُّفٍ،
يَخْطُو خُطُوبَاتٍ وَاسِعَاتٍ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لِأَمْرِ مَا جَدَعَ قَصِيرٌ أَنْفَهُ!!

وَقَعَدْتُ الْخُطَى مَدّاً عَنِيفاً حَتَّى هَبَطْتُ الْمَدِينَةَ، وَلَهَا ضَجِيجٌ بِالْبُكَاءِ
كَضَجِيجِ الْحَاجِجِ إِذَا أَهْلَوْا بِالْإِحْرَامِ، وَهُمْ فِي ذُهُولٍ مُسْتَطِيلٍ وَوُجُومٍ.

فَقُلْتُ: مَا الْحَبَرُ؟

قالوا: قُبِضَ النَّبِيُّ!

فَجِئْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ فَوَجَدْتُهُ خَالِياً، فَأَتَيْتُ بَيْتَ النَّبِيِّ فَوَجَدْتُ بَابَهُ مُرْتَجِماً،
وَقِيلَ: هُوَ مُسَجَّى وَقَدْ خَلَا بِهِ أَهْلُهُ.

فَقُلْتُ: أَيْنَ النَّاسُ؟

قِيلَ: فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ^(٣).

وَفِيمَا أَنَا فِي بَغْضِ طُرُقِ الْمَدِينَةِ أَمْشِي مِشْيَةَ الْحَزِينِ الْحَائِرِ، رَأَيْتُ عَارِضَ

(٣) راجع: حياة الحيوان الكبرى للدميري، ج ٢، ص: ٦٧٠

الصَّخْرَاءِ فَتَبَيَّنَتْهُ، فإذا هو مُعَادُ بِنِ جَبَلِ عَزَّتْهُ سَحَابَةُ حُزْنٍ صَامِتٍ مَكْظُومٍ، فَتَلَقَّيْتُهُ
بَيْنَ يَدَيَّ، وَقُلْتُ: أَأَنْتَ؟!

فَانْفَجَرَ وَانْفَجَرَتْ مَعَهُ بَدْمُوعٌ جَرَارٍ تَزِيدُ الْجَوَى لَوَعَةً، وَالْأَسَى لَذْعًا، وَكَانَ
نَشِيجُهُ مَرِيرًا كَمَنْ ثِكِلَ كُلُّ ذَوِيهِ فِي مِيتَاتٍ مُتَقَطِّعَةٍ مُتَلَاخِجَةٍ، لَا تَفْصِلُ بَيْنَهَا إِلَّا
هُنِيَهَاتٍ وَفَيْتَاتٍ. وَكَانَ الْحُزْنُ يَشْتَدُّ بِهِ دَرَاكًا حَتَّى لَمْ يَغْدُ يَتَمَاسِكُ، فَأَخَذَتْهُ إِلَى
وَهُوَ يَضُمُّ يَتَشَنِّجُ، وَشَلُّو يَتَنَزَّى.

وَبَعْدَ لَايٍ أَفَاقٍ، وَكَانَتْ إِفَاقَتُهُ جِدًّا مَرِيرَةً، فَقَدْ هَبَّ كَالْمَرُورِ يَطْلُبُ شَيْئًا
وَأَنَا وَرَاءَهُ، حَتَّى أَتَنَهَى إِلَى كُلِّ بَابٍ يَفْرَعُهُ، وَلَا يَلْبَثُ أَنْ يَرْتَدُّ عَنْهُ. فَقَدْ كَانَ
يَرْغَبُ فِي أَنْ يَرَى النَّاسَ لِيُخْرِجَ مِنْ وَحْدَتِهِ الْمُضْطَّةِ الْقَاتِلَةِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَكَاذُ يَرَى
أَحَدًا حَتَّى تَزِيدَ أَرْزَمَةُ نَفْسِهِ، وَتَتَجَدَّدَ لَهُ ذِكْرَى تَبْعَتْ نَفْسَهُ أَشَدَّ أَلْتِيَاعًا.

وَلَمْ يَزَلْ يَذْنُو وَيَنَائِي، فِي رَغْبَةٍ وَرَهْبَةٍ، حَتَّى قَادَهُ الْمَطَافُ إِلَى بَيْتِ عَلِيٍّ،
وَكَأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُدَاوِيَ الْأَسَى بِالْأَسَى، وَيُلَاشِي الْأَلَمَ بِالْأَلَمِ. وَأَحْسَ بِالْإِثْرِيَا
الْعَمِيقِ حَقِيقَةً، فَإِنَّ الْأَلَمَ كُلَّهُ يَذُوبُ فِي مُضَاعَفَاتِ الْأَلَمِ، وَيَتَلَبَّسُ النَّفْسُ شُعُورًا
سَلْبِيًّا مُبْهِمًا لَا يَتَجَاوَبُ مَعَهُ، فِي النَّفْسِ، غُلُوءُ الْأَلْتِيَاعِ وَبُرْحَاءُ الْأَحْزَانِ، فَإِنَّ
الْمَشَاعِيرَ، عَلَى آخِثِلَائِهَا، نِشْبِيَّةٌ وَلَا فَوَاصِلَ بَيْنَ أَطْرَافِهَا، فَهِيَ إِذَا تَلَعَّتْ غَايَتَهَا
هُبُوطًا، أَوْ أَرْتَفَاعًا، تَتَحَوَّلُ أَوْ تَهْمُدُ.

رَغِبَ كَثِيرًا، وَأَطْمَأَنَّ إِلَى أَنْ يُجَابَهُ الْأَسَى فِي هَيْكَلِهِ، لِيَسْتَعْرِقَ فِي لَحَظَاتِ
الْمَرَاةِ الْمُطْلَقَةِ الَّتِي تَتَجَرَّدُ فِي الْإِطْلَاقِ، عَنْ مَعْنَاهَا وَوَقْعِهَا الْأَلِيمِ، فَقَدْ عَدَّتْ
لَاغُصْبِيَّةً دُونَ أَغْصَابٍ تَتَقَلَّصُ أَوْ تَتَمَدَّدُ، إِنَّهَا أَصْبَحَتْ حَقِيقَةً رُوحٍ فِي غَيْرِ لَوْنٍ.

فَمَضَى مُعَادًا بِإِحْسَاسٍ وَمُجْدَانِيٍّ عَفْوِيٍّ إِلَى بَيْتِ عَلِيٍّ، لِيُوَاجِهَ أَشَدَّ أَنْوَاعِ
الْأَسَى فِي شَخْصِ النَّسْرِ الْحَزِينِ وَفِرَاحِهِ الْحَيَارَى، فَهُوَ يَشْتَهِي، وَيُفَضِّلُ كَثِيرًا، خَيْرَةً

الأسى اللّاشاعرة، والعفوة في الألم على أن يظلّ في يقظة الآلام.
 وقَفَ دون البيت طويلاً ثمّ قرع الباب، وما أشدها وأمرها مُصادفةً، فقد
 «برزت إليه فاطمة» تجول في مآقيها غصارة حبّ خالد، وتعلقت في أهدابها
 الواسعة ذمعة كبيرة، ليتها سقطت!...

وفي ناحية من البيت رأى الحسين، وليد النبي الحبيب، مُكَمِشاً على نفسه،
 يُدير لحاظه فلا يرى إلا دموعاً، ففرق في الدموع، وكان بين حين وآخر يُناجي
 نفسه، ويُطارحها في حديث خفيض مسموع.

أبتاه!.. أين هو؟ لم أعُد أراه! أليس لي أن أراه بعد اليوم؟ بالأمس القريب
 كان يلاعنني، كيف نأى؟ لم يُعُد لي، بعد الآن، حنان ذلك القلب الكبير!!
 فيزيد الفجعة ويُحرك التشيع، ومُعاذ حالِمَ أمام هذا المشهد مُستغرق، إنه
 لم يُعُد يُحس بشيء، إنه عدا خلأ من كل شعور...

*

مات مُحَمَّدُ البَشِيرُ ليُخلد مُحَمَّدُ النبي...
 فاستغبر الحسين لأولهما بالعاطفة والحنين...
 وأفتدى ثانيهما بالدم القاني الصيب...
 حينما حاول مسّ جلال الخلود، غواة مُحققون...

*

بعد أشهرٍ مَعدوداتٍ رُزِيءَ أُمّةُ الزُّهراءِ وملاكهُ الآخر...
 الذي كان يَشعُّ عليه بالأمل الهاني والسعادة الحالمة...
 فجمدت في عينه دموع وفي قلبه دموع...
 جعلته، في حياته كُلّها، يُنظر إلى الأفق البعيد...

يَوَدُّ لو يَذُوبُ في الشَّفَقِ المُلْتَمِعِ من كُوى الأَبْدِيَّاتِ بِإِغْرَاءٍ...

*

مِرَاةٌ قَاتِلَةٌ على قَلْبِ غَضٍّ، هَبَطَتْ فَجْأَةً فَانْتَقَلَتْ به من حالٍ إلى حالٍ...
وَأَسْتَوَى دُفْعَةً، فَنَظَرَ إلى الحَيَاةِ من فَوْقِ كُوءِ الرِّعَابِ فَرَأَى حَمَاتُهَا...
فَوَجَّهَ تَيَّارَهُ الطُّهُورَ، فَتَمَدَّدَتْ وَانْتَفَحَتْ مُتَجَهِّمَةً تُرِيدُ الصَّرَاعَ...
فَتَقَرَّزَهَا وَاسْتَعْلَى، فَقَدْ تَرَكَ فيها دَفَقَاتٍ مِنَ اليَنبُوعِ الأَقْدَسِ وهو لا بُدَّ
مُطَهِّرُهَا...

ولم يَزَلْ يَسْتَعْلَى حَتَّى لم يَغْدُ يُرَى، إِلَّا نَجْمًا يَتَوَارَى في التَّخْلِيقِ بِإِشْعَاعَاتِ
وَأَغْتِمَاضَاتِ...

* * *

مِنْ أَيَّامِ الْعَهْدِ الرَّاشِدِي



مع خليفة

في قَمَّةِ الْمَجْدِ الْعَرَبِيِّ، حِينَما كَانَتِ الرَّايَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ تُنَسَّجُ وَتُنْظَمُ خُيُوطُهَا مِنْ تَمَالِكِ الْعَالَمِ الْقَدِيمِ، وَتَنْتَهَادِي مُتَطَوِّلَةً فِي الْفَضَاءِ، كَأَنَّهَا تُوسِّعُ الْآفَاقَ، وَتُطِلُّ عَلَى عَالَمِ يَمُورٍ بِالْخُلُودِ، وَتُخْتَضِرُ جَدَاوِلَ الْأَبْدِيَّاتِ بِمَا فِيهَا مِنْ فُتُونٍ، وَقَفَّ عُثْمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يُبَارِكُ هَذَا الْمَجْدَ وَيَقُولُ كَلِمَتَهُ بِلِسَانِ التَّارِيخِ، وَيُودِّعُ عَالَمًا يَدْفَعُهُ بِمَنْكِبَيْهِ، وَيَسْتَقْبِلُ عَالَمًا بِكِلْتَا يَدَيْهِ.

عَالَمٌ مِنْ طُوبَى مُحَمَّدٍ، وَلَكِنَّهَا طُوبَى مُتَخَيِّرَةً تَحَيَّرَ الْوَاقِعِ، وَمُتَأَلِّقَةً تَأَلَّقَ الشُّعَاعُ، وَهِيَ، إِلَى هَذَا، بِلَاءُ السَّمْعِ وَالبَصَرِ، وَمَرَاثُ الْأَمَانِيِّ... عَالَمٌ أَنْطَبَعَ عَلَى آفَاقِهِ وَجْهَ مُحَمَّدٍ فِي هَالَةِ الْقُرْآنِ، وَالْقُرْآنُ هُوَ اللَّوْحَةُ الَّتِي شَاءَتِ الْحَقِيقَةُ الْخَالِدَةُ أَنْ تَبْزُرَ فِيهَا كَامِلَةً، فَذَ نَضَّتْ عَنْهَا شَتَى الْأَثْوَابِ.

جَلَسَ عَلَى أُرَيْكَةِ هَذَا الْعَالَمِ الْجَدِيدِ الَّذِي هُوَ مِنْ عَمَلِ نَبِيِّ الْخُلُودِ، وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الْأُرَيْكَةُ، أَوْ الْعَرْشُ، إِلَّا مِنْبَرُ الْمَسْجِدِ الَّذِي كَانَ مُحَمَّدٌ يَقِفُ عَلَيْهِ، وَيَهْتِفُ بِلِسَانِ السَّمَاءِ، يَهْدِي التَّائِبِينَ، وَالْأَثِيرَ، مِنْ وَرَائِهِ، يُرَدِّدُ النَّدَاءَ أَبْعَدَ مَا يَتَنَاهَى، فَمَحَا كَوْنًا وَأَثْبَتَ كَوْنًا، وَظَلَّ يَتَمَثَّلُ الْحَقِيقَةُ الْبَاقِيَّةُ بَيْنَ الْكَوْنَيْنِ، وَصَوْتُ اللَّهِ فِي وَغْيِ الْعَالَمِينَ مُتَجَاوِبًا بِصَدَى الْأَبَدِ.

لَمْ يَكُنْ فِي عَالَمِ مُحَمَّدٍ عَرْشٌ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِيهِ عُبودِيَّةٌ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ بِلَاطٌ

لأنه لم يكن فيه إزهاب واستصناع عظام مزيّفات، وإنما كان المنيبر فيه هو العرش، والمنيبر رمز يشير إلى الكوة التي شُع منها الهدى، وأنبتت منها الضياء. وكان المسجد فيه هو البلاط، والمسجد رمز يشير إلى التلاشي في الروح، والفناء في الإشراق، والنشوة الواعية في التأمل والاستغراق.

وقف عمر يتكلم، وكأنما زوي العالم إليه من أقطاره، وتآزر في حدود موضعيه، والناس كأن على رؤوسهم الطير يصفون، والكون من ورائه يسمع ويحشع... ومن أقصى المسجد جاء يخطر بين الصفوف الحسين، وليد النبي، حتى بلغ مرقاة المنيبر فما تهيبها، بل صعد رابط الجأش حتى انتهى إلى حيث يجلس عمر، فشاركه موضعه.

وكان منظرًا بدا غريباً، أعطى الناس لحظة أنبياء شرعوا معها يتلعون رؤوسهم ويتهايمسون، لحظات ذكرى انتقلت بهم من حال إلى حال، ومن زمن يعيشون فيه إلى زمن يحنون إليه، وقد ظل شائعاً حياً في الخطرات الحلوة، يوم كان الحسين يتخذ موضعه إلى جنب جده العظيم، في هذا الشكل وهذه الصورة.

ذكرى سعيدة جرت وراءها نوعاً من اللاشعور، وتمددت في تأمل طويل، وكان استغراقاً كُله السكينة والاطمئنان، وإن بدا كالوجوم الراني.

شخص الناس إلى الغلام ينتظرون ما سيجيء به ويصدرون عنه، وكان الغلام أكثر منهم استغراقاً، وأكثر نفوذاً في الذكرى، فراح يملأ ناظره ويبتلعها بمن استيقظت نفسه على أنه جده.

هو شديد الحنين، وشديد الهوى إلى أن يرى جده وقد فصل عنه زمن كان طويلاً في جس القلب، وكان خيالاً شديد الأسر له، فلما لم يجد فيه جده وجم متناعاً، فقد أنهار ما اجتمع في خياله من لذات دُفعة، كمن حيل بينه وبين ما

يُسْتَهَي، وهو في أدقِّ فِتْرَةٍ مِنْ لَذَّةِ التَّدْوِيقِ، فَرَسَبَ فِيهِ خَيَالٌ يُهَيِّثُ بِهِ لَذَّةً، وَطَفَا فِيهِ خَيَالٌ آسْتَوَى مَعَهُ أَلَمٌ.

فَقَالَ لَهُ - أَيُّ لُعْمَرٍ - فِي شَيْءٍ مِنَ التَّحَدِّي الصَّارِمِ: «إِنزِلْ عِن مِثْرٍ أَبِي وَادْهَبْ إِلَى مِثْرٍ أَبِيكَ»... فَاسْتَمَلَهُ عُمَرُ وَحَنَّا عَلَيْهِ طَوِيلًا، ثُمَّ قَالَ لَهُ فِي أَشْيَاءٍ مِنْ دِيمَقْرَاطِيَّةِ الْحَقِّ وَالْاعْتِرَافِ الْفَكِيهِ الْجَمِيلِ:

«إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِأَبِي مِثْرٌ... وَمَالَ عُمَرُ عَلَيْهِ ثَانِيَةً، فَقَالَ لَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ التَّرَقُّبِ وَالْامْتِحَانِ النَّفْسِيِّ: «مَنْ عَلَّمَكَ؟».

فَقَالَ الْحُسَيْنُ فِي أَشْيَاءٍ مِنَ الذَّاتِيَّةِ الْمُتَفَتِّحَةِ: «وَاللَّهِ مَا عَلَّمَنِي أَحَدٌ... وَكَأَنَّمَا رَدَّ عَلَيْهِ: بِأَنَّهُ شُعُورُ النَّفْسِ بِالنَّفْسِ، وَتَحَسُّسُ الشَّخْصِيَّةِ عَلَى مَحَلِّهَا وَمَوْضِعِهَا.

وَخَفَّ النَّاسُ يَشُدُّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ يَقُولُونَ: إِنَّ الْحُسَيْنَ يُطِلُّ مِنْ نَافِذَةٍ مُقَلَّتِيهِ الْبَطْلُ...»

وَكَانَ عُمَرُ قَدْ أَعْجَبَ بِهِ فِي غَيْرِ حَدٍّ، وَكَانَ قَدْ أُخِذَ بِشَخْصِيَّتِهِ الْقَوِيَّةِ فِي غَيْرِ مِقْدَارٍ، فَزَأَى لِزِمَامٍ عَلَيْهِ أَنْ يُبْرِزَهُ فِي حَيَاةِ الْجِدِّ الْحَاكِمَةِ، وَأَنْ يَأْخُذَهُ بِأَسْبَابِ التَّوْجِيهِ وَالْإِشْرَافِ عَلَى تَضْرِيفِ الْمُقَدَّرَاتِ الْعُلْيَا، فَقَالَ لَهُ:

«بَأَبِي! لَوْ جَعَلْتَ تَغْشَانَا»... وَأَنْقَضَى وَقْتُ قَبْلَمَا آجَتَمَعَ إِلَيْهِ ثَانِيَةً، وَتَخَلَّلَتْ أَحْدَاثٌ، فَقَدْ رُفِعَتْ إِلَيْهِ شَكْوَى مِنْ أَطْرَافِ الشَّامِ عَلَى مُعَاوِيَةَ، فَأَهْتَمَّتْ لَهَا عُمَرُ، وَكَانَ رَجُلًا صَلِيحًا، فَاسْتَقْدَمَهُ مَعَ الْبَرِيدِ مُسْرِعًا وَخَلَا بِهِ، وَكَانَتْ الطَّرِيقُ قَدْ جَمَعَتِ الْحُسَيْنَ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، فَقَصَّصَا إِلَى مَقَرِّ الْخَلِيفَةِ يَزِيدَ بْنِ أَبِي سَوْيَبٍ، فَطَلَبَ ثَانِيَهُمَا الدُّخُولَ، فَقِيلَ لَهُ:

«إِنَّهُ خَالٍ بِمُعَاوِيَةَ»... فَأَنْقَلَبَ آتِنُ عُمَرَ، وَأَنْقَلَبَ الْحُسَيْنُ مَعَهُ، وَفَصَلَ زَمَنٌ

لم يَكُنْ بَعِيداً حِينَ صَادَفَ عُمَرَ، فِي بَعْضِ طُرُقَاتِ الْمَدِينَةِ، الْحُسَيْنَ، فَقَالَ لَهُ:
 «لَمْ أَرَكَ...» فَزَوَى لَهُ كَيْفَ حِيلَ يَبْنِي عِبْدَ اللَّهِ آتِنَهُ وَالْدُّخُولَ، وَكَيْفَ رَجَعَ
 مَعَهُ، فَتَصَوَّرَ عُمَرَ، بِشَكْلِ الْجِدِّ، إِشْعَاراً بِالْفَرْقِ الْكَبِيرِ، وَقَالَ، وَصَوْتُ الْحَقِّ يُدَوِّي
 فِي مَقَالِهِ:

«أَنْتَ أَحَقُّ مِنْ ابْنِ عُمَرَ. إِنَّمَا أَتَيْتَ مَا تَرَى فِي رُؤُوسِنَا، اللَّهُ ثُمَّ أَنْتُمْ...»
 وَصَمَتَا يَمُشِيَانِ، وَوَقَفَ التَّارِيخُ مِنْ وَرَائِهِمَا يُرَدِّدُهَا كَلِمَةً خَالِدَةً فِي سَمْعِ الدَّهْرِ،
 وَأُذُنِ الْأَبَدِ....

جهد الشباب

حِينَ كَانَ الْفَتْحُ الْإِسْلَامِيُّ يَضَعُ إِحْدَى قَائِمَتَيْهِ فِي أَقْصَى الشَّرْقِ، وَالْأُخْرَى
عِنْدَ بَابِ الْغَرْبِ - يَفْرَحُ عَلَيْهِ هُجُوعُهُ وَيَنْقُضُ عَنْ جَفْنِي الْغَرْبِ الْبَاقِيَاتِ مِنْ رُقْدَةِ
الْأَيَّامِ، وَالْهَبَاءِ الَّتِي اسْتَحَالَتْ إِلَى ظَلَامٍ كَثِيفٍ حَالِكٍ حَوْلَ مُقْلَتَيْهِ، وَبَيْنَ يَدَيِ
حَيَاتِهِ، كَأَنَّمَا لَمْ تُنْعِشْهُ بَعْدُ أَوَّلُ إِشْرَاقَةِ مِنْ صَحْوَةِ الشَّمْسِ - ذَهَبَ حُسَيْنٌ شَرْقًا،
وَذَهَبَ غَرْبًا، كَأَنَّهُ يَضَعُ بِكِلْتَا يَدَيْهِ حَجَرَ الْإِسْلَامِ فِي قَاعِدَتَيْ قَوْسِ النَّصْرِ مُبَارَكًا.
كَانَ حُسَيْنٌ يُنَاهِزُ الثَّانِيَةَ وَالْعِشْرِينَ مِنْ سِنِيهِ، حِينَمَا ذَهَبَ مُجَنَّدِيًّا يَلُوحُ بِسُفْلَةِ
الْبَغِيْثِ وَالْإِصْلَاحِ فِي الْحَمْلَةِ إِلَى الْغَرْبِ.

وَكَانَ جَوًّا حَمَاسِيًّا ذَلِكَ الْجَوُّ الَّذِي صَبَغَ الْمَدِينَةَ، فَقَدْ تَحَوَّلَتْ مِنْ بَلَدٍ نَائٍ
مَجْهُولٍ، مُحِيطٌ بِهِ الصَّخْرَاءُ، وَتَعْمُرُهُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ - وَالصَّخْرَاءُ مُحِيطٌ زَانِحٌ
تَقُومُ فِيهِ الرَّمَالُ مَقَامَ الْمَاءِ - إِلَى عَاصِمَةِ مَزَكِرِيَّةٍ تَتَوَلَّدُ فِيهَا الْحَرَارَةُ وَتُوزَعُهَا، إِلَى
قَلْبِ عَالَمِيٍّ تَخْفُقُ فِيهِ الْحَيَاةُ، وَيَبْضُ بِالْخَلَجَاتِ إِلَى كُلِّ مَكَانٍ.

فِي هَذَا الْجَوِّ الْحَمَاسِيِّ كَانَ التَّسَابُّقُ عَلَى الْجِهَادِ قَدْ آتَاكَ شَكْلَ مُبَارَاةٍ بَيْنَ
الشَّبَابِ وَالْكُهُولِ، وَمِنْ دُونَ الشَّبَابِ وَمِنْ فَوْقَ الْكُهُولِ.

هِيَ أُمَّةٌ جَدِيدَةٌ بَعَثَتْهَا رُوحٌ جَدِيدَةٌ، فَانْطَلَقَتْ، وَفِي غُرُوقِهَا عُصَارَاتٌ مِنْ
حَيَوَاتٍ فَائِضَةٍ، تُجْرِيهَا فِي جِسْمِ الْعَالَمِ الْمُمَدِّدِ الْمُخْتَصِرِ، وَتَصِلُ غُرُوقَهُ بِغُرُوقِهَا،

فَتَمَشِي، طَائِفَةً عَلَيْهِ، دَائِرَةً فِيهِ، مَشْيَ الرُّوحِ الَّتِي تَمَشُّهُ بَتَارِهَا.

كَانَ السَّائِرُ فِي طُرُقِ الْمَدِينَةِ وَمُنْعَطَفَاتِهَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا الْأَصْدَاءَ قَوِيَّةَ مَرْهُوَّةٍ، هِيَ بَقَايَا هُتَافَاتِ تُثِيرِ الْأَعْصَابَ. وَكَانَ الْعَلَمَةُ يَتَقَاذَفُونَ بِالْأَزْهَارِ، وَالْعَلِيَّةُ يَتَحَايُونَ بِالْعِمَارِ^(١) وَالْمَسْرَةِ^(٢). فَقَدْ تَرَكُوا لِأَعْصَابِهِمِ الْمَائِجَةَ بِصُنُوفِ الْفَخَارِ وَالْمَجْدِ، سَبِيلَ هَوَاهَا وَمَجَالَاتِ التَّعْبِيرِ عَنِ آزْدِهَائِهَا. فَقَدْ وَرَدَتِ الْأَنْبَاءُ بِالْإِتِّصَارِ الْمُؤَزَّرِ فِي بَرْقَةٍ، وَأَنْكِفَاءِ الْبُرْزِ هُنَاكَ.

وَكُنْتُ لَا تَجِدُ، كَيْفَمَا سِرْتُ وَأَتَى ذَهَبْتُ، إِلَّا جُمُوعاً تَمُوجُ فِي جُمُوعٍ، مِنْ ظَاهِرِ الْمَدِينَةِ إِلَى دَاخِلِهَا، وَعَلَى فَجْأَةٍ أَخَذَ بَصَرُهُمْ فَارِساً يَطْوِي الْهَضَابَ، وَهُوَ يَمُرُّ بَيْنَهَا مَرّاً سَرِيعاً، فَسَمَلَتْهُمْ هَذَاةٌ عَطَّتْ عَلَى الضَّجِيجِ، وَضَمَّتْهُمْ لِحْظَةً أَنْبَاهِ وَشُكُونٍ أَلْفَتْهُمْ فِي ضُمُوتِ مُتَسَائِلِ نَاطِقٍ، وَمَا حَلَّ بَيْنَهُمْ حَتَّى أَلْتَفَوْا عَلَيْهِ، وَأَحَاطُوا بِهِ إِحَاطَةً السُّوَارِ بِالْمَعْصِمِ، وَأَخَذُوهُ بِسَيْلٍ مِنَ الْأَسْئَلَةِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَاسْتَوَى عَلَى الرِّكَابِ مُنْتَصِباً، وَخَاطَبَهُمْ بِصَوْتِهِ الْجَهْوَرِيِّ الْحَادِّ النَّبْرَاتِ، وَالْمُسْتَعِيلِ الْمَقَاطِعِ وَالْكَلِمَاتِ:

أَيُّهَا الْأَنْصَارُ! أَيُّهَا الْأَبْطَالُ! الْيَوْمَ يَوْمُكُمْ، فَقَدْ دَقَّتْ سَاعَةُ الْكِفَاحِ. أَفَسِحُوا لِي الطَّرِيقَ إِلَى الْمَسْجِدِ، إِلَى مَقَرِّ الْخَلِيفَةِ وَاتَّبِعُونِي! فَتَدَافَعَ النَّاسُ عَنْ طَرِيقِهِ صَاحِبِينَ هَاتِفِينَ: الْيَوْمَ يَوْمُنَا. إِلَى مَقَرِّ الْخَلِيفَةِ... وَقَفَّ الرَّجُلُ عَلَى مَقَرَّةٍ مِنَ الْخَلِيفَةِ، وَوَجَّهَ مَقَالَهُ، تَارَةً لِلْجُمُوعِ وَتَارَةً إِلَيْهِ: «إِنَّ جُرْجِيرَ الْمُمَلَّكِ، مَا بَيْنَ طَرَابُلُسَ إِلَى طَنْجَةَ، أَشَبَّ الْجُمُوعِ، وَحَشَدَ الْجُنْدِ مِنْ أَطْرَافِ تَمْلُكِيَّتِهِ، لِلْإِخْدَاقِ وَالْإِيْقَاعِ بِجَيْشِ الْعَرَبِ، وَهُوَ يَتَرَبَّصُّ بِنَا الدَّوَائِرِ،

(١) الْأَزْهَارُ وَالزُّهْرَانُ تُجْعَلُ بَاقَاتٍ وَيُخَيَّتَا بِهَا. قَالَ عُبَيْدُ بْنُ الْأَبْرَصِ:

سَجَدْنَا لَهُ وَرَفَعْنَا الْعِمَارَ.

(٢) الْمَسْرَةُ: أَطْرَافُ الرِّيَاحِينَ يُخَيَّتَا بِهَا، وَيُقَالُ سَرَاهُ أَيْ حَيَّاهُ بِالْمَسْرَةِ.

وبات الخطب على قاب قوسين أو أدنى. وإن عُقِبَتْ بِنَ نافع، قائلنا المظفر، قد بات في ضائقة من الأمر، ولكنه مُسْتَبِيلٌ أَشَدَّ آسِيسَالٍ» يُكَافِحُ كِفَاحَ الْمُسْتَمِيتِ فِي الدِّفَاعِ وَالْهُجُومِ وَمُدَاوَرَةَ الْخُصُومِ، وَهَذَا يَوْمٌ لَهُ مَا بَعْدَهُ.

فإلى الجهاد أيها المؤمنون! إلى القيام بالترامات العقد بينكم وبين الله، على تجديد العالم، وأخذه بالمبادئ الإنسانية الفضلى: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ، وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ، فَاسْتَبِشِرُوا بِنَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ». إِنَّ إِخْوَانَكُمْ، مِنْ قَبْلُ، رَوَّاءَ الرِّمَالِ الرَّايَّةِ إِلَى أَفْرِيْقَةِ بَدِمَائِهِمِ الصَّبِيَّةِ، وَهُمْ أَشْخِيَاءُ، وَبَنَوُا مِنْ جَمَاجِمِهِمْ مَعَايِلَ الصَّخْرَاءِ. وَهِيَ دِمَاؤُهُمُ الْيَوْمَ تُنَادِيكُمْ وَتَسْتَضِرُّكُمْ بِصَوْتِهَا الرَّجَافِ الرَّعُودِ، مِنْ وَرَاءِ الرَّجْمِ وَتَسْتَنْدُبُكُمْ إِلَى التَّضَحِّيَةِ.

فإلى الكفاح! إلى النصر!

وما هو حتى آخَلَطَ صَوْتُهُ بِأَصْوَاتِ الْجُمُوعِ، وَذَابَ فِي دَوِيْهَا الْعَمِيقِ: بَلْ إِلَى الشَّهَادَةِ! إِلَى الْمَوْتِ!... وَبَقِيَّتِ الْأَصْدَاءُ يُرَدُّدُهَا الْفَضَاءُ، وَيَطُوفُ بِهَا الْأَثِيرُ فِي كِبْرِيَاءٍ وَخَيْلَاءِ.

وَتَدَفَّقَ النَّاسُ عَلَى التَّطَوُّعِ، وَكَانَ فِي «مُقَدِّمَتِهِمِ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَعَبْدُ اللَّهِ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَلِيَّةُ لَا تُحْصَى» وَخَفُّوا رَاجِلِينَ:

أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ بَلِيلٍ فَلَمَّا أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لَهُمْ ضَوْضَاءُ

مِنْ مُنَادٍ وَمِنْ مُجِيبٍ وَمِنْ تَضْهَالٍ خَيْلٍ، خِلَالِ ذَلِكَ رُغَاءُ

وَلَمْ يَكُنْ طَوِيلًا حَتَّى هَبَطُوا مَصَافَّ الْقِتَالِ، فَأَخَذُوا مَوَاضِعَهُمْ، وَدَارَتْ رَحَى الْحَرْبِ أَمْدًا لَيْسَ بِالْقَصِيرِ ضَاقَ الْخِنَاقُ فِيهِ عَلَى الْبَرْزِ، فَأَنكَفَرُوا مُتَحَرِّقِينَ

يَتِيهُونَ بَيْنَ الْحُزُونِ وَالشُّهُولِ، وَبَيْنَ الْأُودِيَةِ وَالْهَضَابِ.

وَيَعْدُ بِضِعِّ سِنِينَ «أَنْتَظِمَ الْحُسَيْنُ فِي الْجَيْشِ الذَّاهِبِ شَرْقاً إِلَى طَبْرِسْتَانَ»
بِإِذْلٍ أَنْفُسَهُ، مُضْحِياً خُوبَاءَهُ بِسَبِيلِ كَلِمَةِ اللَّهِ الَّتِي عَاشَ لَهَا، وَقَضَى كَرِيماً تَحْتَ
ظِلَالِهَا الدَّائِمِيَّةِ وَيُنَوِّدُهَا الْحَمَاءُ.

كَانَتْ الْأَنْبَاءُ عَنْ تَضَجُّعِ الشَّبَابِ وَاسْتَيْسَالِهِمْ تَرْدُ إِلَى الْمَدِينَةِ طَافِحَةً إِعْجَاباً
وَبُشْراً. وَكَانَتْ حَدِيثُ الْيَوْمِ بَيْنَ النَّاسِ، فِي الْأُنْدِيَةِ وَالْمَنَازِلِ، وَفِي مُنْعَطَفَاتِ
الطُّرُقِ، حَيْثُ يَخْلُو الْوُقُوفُ عِنْدَ الْأَصِيلِ لِفَقَةِ تَجْدٍ فِي هَذَا النَّوْعِ مِنَ اللَّهْوِ تَسْلِيَةً
رَائِعَةً، وَتُحْسِنُ بَظْماً إِلَى الصَّحْبِ، يُدْهِمُ الْفُضُولُ أحياناً فَتَمَلُّاً بَحْوَ نَفْسِهَا الْمُقْفِرِ بِهَذَا
الْلَوْنِ مِنَ الْأَنْعِمَاسِ فِي الصَّحِيحِ.

وَفِي طَرَفٍ مِنْ أَطْرَافِ الْمَدِينَةِ أَنْفَرَدَ جَمْعٌ، يَبْتَهِمُ الْبَرَاءَ بَنُ عَازِبٍ،
يَتَجَادَبُونَ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ عَنْ أَبْطَالِ الْجِهَادِ الشَّبَابِ. فَقَالَ: إِنَّ الشَّبَابَ مَعْنَاهُ تَقَشُّعُ
بَرَاعِمِ الصَّبَا عَنْ حَيَاةِ الْجِدِّ وَالْوَاجِبِ، وَعَنْ تَبَعَاتِ الْحَيَاةِ؛ وَفَقَهُ الشَّبَابُ هُمْ أَشْعَةُ
حَاضِرِنَا فِي وَقْدَةِ تَأَلُّقِهَا، فَإِذَا بَدَتْ كَسِيفَةً كَلِيلَةً فَقَدْ خَسِرْنَا الْحَاضِرَ وَالْمُسْتَقْبَلَ
جَمِيعاً، وَكَانُوا إِعْلَاناً عَنْ أَنَّ غَيْرُ جَدِيرِينَ بِالْحَيَاةِ.

فَإِنَّ الْحَيَاةَ قُوَى سَائِبَةً كَمِثْلِ الرُّقَارِقِ عَلَى وَجْهِ الرُّمَالِ، وَلَكِنَّهَا تَتَجَمَّعُ فِي
فَتْرَةِ الشَّبَابِ بِمِثْلِ خَزَانِ الْمَاءِ، فَتَتَكَسَّرُ عِنْدَ خَنَايَاهُ الْقُوَى، وَتَتَوَلَّدُ فِيهَا التَّيَارَاتُ،
فَتَتَدَفَّقُ بِحَيَاشَةٍ هَادِرَةٍ.

فَالشَّبَابُ مَجْمُوعَةٌ مِنْ تَيَارَاتِ قُوَى الْحَيَاةِ، فَإِذَا كَانَ الْخَزَانُ مُلْمُوءاً بِالثَّقُوبِ
وَالشَّقُوقِ، أَنْسَابَتِ الْمِيَاهُ فِي كُلِّ وَجْهِ، وَتَبَعَثَرَتْ قُورَاهَا، وَغَاصَّتْ بَيْنَ الْوَهَادِ
وَالْحُزُونِ مُتْرَسِّبَةً فِي مُسْتَنْقَعَاتِ آجِنَةٍ. وَحِينَ لَا يَكُونُ لِلشَّبَابِ حَصَانَاتٌ وَمَنَاعَاتُ
يُدْهِمُهَا شُعُورٌ بِالْحَقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ وَحِسٌّ مُزْهَفٌ بِالتَّبَعَاتِ، فَقَدْ عَادَ شَبَاباً رِخْواً،

أَفْضَلُ مِنْهُ شَيْخُوخَةٌ فَانِيَةٌ.

وَسَبَابُنَا الَّذِينَ أَبْعَثْتَهُمْ الْمَبَادِيءَ ابْتِغَاءً، لَا مَحِيدَ عَنْ أَنْ تَنْطَلِقَ بِهِمْ تَيَارَاتُ الْقُوَى، أَنْطِلَاقًا يَنْتَهِي بِالسَّبِيلِ الْإِسْلَامِيِّ الْمُطَهَّرِ الْجَارِفِ إِلَى غَايَتِهِ، فَيُعْمَرُ حَتَّى الرَّبِيِّ، لِيُنْكَشِفَ عَنْ حَيَاةٍ جَدِيدَةٍ وَدُنْيَا جَدِيدَةٍ.

وَنَحْنُ الَّذِينَ قُمْنَا بِوَاجِبِنَا مَعَ صَاحِبِ الرِّسَالَةِ، وَكَانَ أَذْنَى مَا بَدَّلْنَاهُ أَنْفُسُنَا - وَمَا بَقَاؤُنَا فِي عَيْنِ الْيَوْمِ إِلَّا ذِكْرَى جِهَادٍ وَتَمَثُّلُ كِفَاحٍ - لَا يَسْعُنَا إِلَّا أَنْ نُبَارِكَ سَبَابُهُمُ الْعَصْرُ وَجِهَادُهُمُ الْمُظْفَرُ. وَإِذَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يَأْخُذَ بِأَنْبِيَاهِنَا طَوِيلًا فَإِنَّمَا هُوَ ذَلِكَ الْإِقْبَالُ عَلَى التَّضَحِّيَةِ بِسَبِيلِ الْمَبَادِيءِ لِلْمَبَادِيءِ دُونَ مَا أَنَانِيَّةٍ رَغْنَاءَ وَرَنَانِيَّةٍ^(٣) حَقُودٍ، فَقَدْ ذَابَتْ عِظَامِيَّةٌ (أُرِسْتَقْرَاطِيَّةٌ) مَنْ كَانَ مِنْهُمْ عِظَامِيَّةً فِي بَوْتَقَةِ الْإِيمَانِ. وَالرِّسَالَةُ التَّاجِحَةُ هِيَ الَّتِي تَسْتَطِيعُ أَنْ تُكْفَلَ تَحْوِيلَ الْعِظَامِيَّةِ مِنْ قَاعِدَةٍ الدَّمَاءِ وَالرَّاءِ، إِلَى قَاعِدَةِ الْمَبَادِيءِ وَالتَّضَحِّيَاتِ.

فَهَذَا الْحُسَيْنُ، سِبْطُ النَّبِيِّ، لَهُ مِنْ عِظَامِيَّةِ الدَّمِ مَا لَيْسَ لِأَحَدٍ الْيَوْمَ، أَوْ قَبْلَ الْيَوْمِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ يَمْضِي تَحْتَ رَايَةِ الْوَاجِبِ كَأَيِّ جُنْدِيٍّ تَحْدُوهُ مِثْلُ غَايَتِهِ. وَلَا أَرَاهُ إِلَّا مُعْتَقِدًا أَنَّ الْقَدِيمَ، إِنَّمَا يَجِدُ رَوْحَهُ فِي الْجَدِيدِ لِيُغْدُو كَانِنًا حَيًّا رَائِعًا، وَإِلَّا فَالْقَدِيمُ وَحْدَهُ، إِنْ كَانَ يُعْبَرُ عَنْ شَيْءٍ، فَإِنَّمَا يُعْبَرُ عَنْ مَوْمِيَاءٍ مُجْدٍ فَقَطْ تَظَلُّ زَفْرًا مِنْ زُمُودِ التَّارِيخِ...

فَأُطْرَقَ الْجَمْعُ وَشَمَلَهُمْ صَمْتُ وَاعٍ ثُمَّ خَفُّوا إِلَى زَوَاجِلِهِمْ وَهُمْ يُرَدِّدُونَ قَوْلَهُ:

«وَلَا فَالْقَدِيمُ وَحْدَهُ، إِنْ كَانَ يُعْبَرُ عَنْ شَيْءٍ، فَإِنَّمَا يُعْبَرُ عَنْ مَوْمِيَاءٍ مُجْدٍ فَقَطْ...».

* * *

(٣) الرِّبَانِيَّةُ تُرَادِفُ الْأَنَابِيَّةَ تَمَامًا عِنْدَ الْعَرَبِ الْقُدَامِيِّ، وَالرَّزْنَانِيَّةُ: الْأَنَابِيَّةُ تَمَذَّكَ.

في الثورة

مِنَ المَدِينَةِ إِلَى كُلِّ مَكَانٍ، كِمِصْرَ والعِرَاقِ واليَمَنِ والشَّامِ، خَيِّمَ جَوًّا مُكْفَهَرًا
يُنْذِرُ بِشَيْءٍ. وَكَانَتْ أَلْوَانُهُ مُخْتَلِطَةً إِلَّا أَنَّهَا بَدَأَتْ تَسْتَحِيلُ، خَيْطًا بَعْدَ خَيْطٍ،
وَتَتَكَشَّفُ عَنْ لَوْنٍ أَحْمَرَ قَانٍ، كَأَنَّهُ لَوْنُ الدِّمِ الحَاقِي، أَوْ لَوْنُ الشَّفَقِ الَّذِي أَطْبَقَ بِهِ
لَيْلٌ بِهِيم.

وَكَانَ الهمسُ فِي أَيِّ مَكَانٍ يَطُولُ وَلَا يَقْصُرُ، وَيَتَنَاوَحُ فِي زَفَرَاتٍ تَبْعَثُ
أَسَى، وَلَكِنَّهُ مِنْ نَوْعِ الأَسَى الغَاضِبِ الَّذِي يَزْدَادُ أَشْتِعَالًا بِالدُّكْرِى والتَّزْدَادِ. فَقَدِ
أَسْتَفَاقَ النَّاسُ عَلَى وَضْعٍ غَيْرِ مُحِبِّ بَلْ كَرِيهِ بَغِيضٍ، أَسْتَفَاقُوا عَلَى مُجْتَمَعٍ بَدَأَ
يَتَعَقَّدُ وَتَطْفُو عَلَى سَطْحِهِ طَبَقَاتٌ تَجُرُّ وَرَاءَهَا يَضَالًا هَادِرًا وَتَنَاحِرًا رَهِيًا، بَعْدَ أَنْ
كَانُوا شَعْبًا يَقُومُ عَلَى قَاعِدَةِ المَسَاوَةِ، فَهُوَ مُجْتَمَعٌ مُنْسَجِمٌ.

كَثْرَةُ مُعْتَدَّةٍ، وَهِيَ مُعْتَدَّةٌ بِذَاتِهَا شَاعِرَةٌ بِشَخْصِيَّتِهَا، فَخَوَّرَ بِمَا أَبْدَتْ مِنْ
قُوَّةٍ وَقَدَّمَتْ مِنْ تَضَحِيَّاتٍ، وَقِلَّةٌ زَادَ بِهَا الثَّرَاءُ زِيَادَةً جَعَلَهَا تُحْرِزُ كُلُّ قُوَى النُّشَاطِ
وَتُدْخِرُ مُقَوِّمَاتِ الحَيَاةِ كَافَّةً. وَلَمْ يَكُنْ وَسْطًا دَرَجٌ عَلَى الشُّخْرِيَّةِ وَالْعَمَلِ فِي
الأَرْضِ، فَيُظَلُّ النُّضَالُ فِيهِ خَفِيًّا وَبَطْنِيًّا فِي إِعْطَاءِ نَتَائِجِهِ، بَلْ كَانَ وَسْطًا فُرُوسِيًّا،
وَالْفُرُوسِيَّةُ أَغْتِدَادِيَّةٌ وَشُعُورٌ بِوُجُودِ الذَّاتِ، وَزَادَتْهَا الفُتُوحُ إِحْسَاسًا بِقِيَمَتِهَا، فَكَانَ
أَنْ تَفَاعَلَتْ تَفَاعُلًا تَنَافُرِيًّا مَعَ الوَضْعِ الجَدِيدِ، وَكَانَ أَنْ أَنْفَذَتْ وَقَدَفَتْ بِالشَّرِّ

إلى مكان قصبي.

والشعور بالذات قاعدة الأمة الناهضة، فهي لا تقبل سيادة ولا تتولد فيها السادة من أي نوع كان، وتظل أبداً توافقة إلى الإصلاح آخذة بأشبايه متقلبة في مدى أطواره.

ركدت الفتح فنصبته أهم موارد الدولة، وكان العمل السياسي قد اتجه، فيما سبق هذه الحقبة، إلى جعل العرب مادة حزب فقط، فلم ينالوا نصيباً في الأرض. ولكن الجندي لن يبقى جندياً أبداً خصوصاً والدولة العربية قد أخذت الأتم بحزب إضلاحيّة عالميّة، فكانت حاجتها إلى الجنود كبيرة غير مقتصدة، فشملت العرب عامة، وسرعان ما وفق العرب إلى غايتهم، وسرعان ما أدوا رسالتهم، فركدت حرارة الفتح إلى درجّة الهمود، وعجزت الدولة بعد ذلك عن كفايتهم، فإذا هم طبقة فقيرة غاية في الفقر والخصاصة والعدم، وإذا بجانبهم طبقة أخرى ثريّة غاية في الثراء، وهي لم تجهد أيّ جهد ولم تنل أيّ بلاء، وإنما امتصت وتملاّت.

كبر على هؤلاء أن يستسيفوا وضعيّة نايبة بغضة على هذا الشكل، لا سيما والإسلام في تشريع جعل للمحارب نصيباً في المغام كافة، وبذلك مكنته من أن يتحوّل رجلاً مدنيّاً، دون أن يكون كلاً على الدولة والخزينة العامة. ولم يقرر الإسلام الجنديّة نظاماً دائماً، لأنه لا يرمي إلى أن يجعل من حكومته دولة حزب، بل سنّ الجنديّة، عند الضرورة، من المدنيين أنفسهم، وبهذا ضمين شيعتين خطيرتين:

١ - جعل مسؤوليّة الدفاع عامّة، لكي يشعر بها الشعب شعوراً شاملاً بدون تفاوت.

٢ - الحد من طغيان الجنود وروحيتهم، حتى لا يدفعوا الدولة كل حين إلى

مضايقي لحروبٍ جديدةٍ، فالإسلام وَضَعَ في نظامِهِ ما يحولُ بينَ الدُّولَةِ المُشتَقَّةِ مِنْ طَبِيعَتِهِ، وبينَ حَزْبِ الأَطْمَاعِ.

وَكَانَتِ الهُوَّةُ تَتَّسِعُ بَيْنَ الطَّبَقَاتِ اتِّسَاعاً عَظِيماً، وَعَلَى شَكْلِ مُخْفِيفٍ، كَمَا أَخَذَ الوَضْعُ يَتَطَوَّرُ مِنْ سَيِّئٍ إِلَى أَشْوَأَ حَتَّى اسْتَفْحَلَ شَرُّهُ، وَبَاتَ يُنْذِرُ بِخَطْبٍ خَطِيرٍ وَانْكَفَاءِ انْقِلَابِيٍّ كَبِيرٍ الأَثَرِ. وَزَادَ فِي يَقْظَةِ الحَظْبِ تَنَاخُرُ الأَحْزَابِ الكَثِيرَةِ^(١)، فَهُنَاكَ أَحْزَابٌ رَئِيسِيَّةٌ أَهْمُهَا:

حِزْبُ الأُمَوِيِّينَ: وَأَكْبَرُ رِجَالِهِ الْمُتَنَبِّسِينَ إِلَيْهِ أَبُو سُفْيَانَ، وَابْنُهُ مُعَاوِيَةُ وَمَرْوَانُ ابْنُ الحَكَمِ، والمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ.

والحِزْبُ الشُّعْبِيُّ: وَأَكْبَرُ رِجَالِهِ أَبُو لُؤْلُؤَةَ، وَجُفَيْتَةُ التُّخْرَانِي، وَكَغُفُ الأَخْبَارِ، وَهَذَا الحِزْبُ كَانَ صَنِيعَةً لِلحِزْبِ الأُمَوِيِّ، وَمُنْقِداً لِأَغْرَاضِهِ الدَّمَوِيَّةِ وَمَآرِبِهِ الإِزْهَابِيَّةِ.

وحِزْبُ المُحَافِظِينَ: وَأَكْبَرُ رِجَالِهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَأَبُو أَيُّوبِ الأَنْصَارِيِّ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ، وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ، وَالْمُقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ.

وحِزْبُ الشُّعْبِ: وَأَكْبَرُ رِجَالِهِ أَبُو ذَرٍّ الغِفَارِيُّ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَبْأٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، والأَشْثَرُ التَّخَمِي، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَذَيفَةَ، وَكَانَ هَذَا الحِزْبُ يَسْتَنِيهِمْ إِلَى سِيَاسَةِ حِزْبِ المُحَافِظِينَ، وَطَائِفُهُ أَنَّهُ تَوَرَّيٌّ عَنيفٌ.

وحِزْبُ أَهْلِ المَدِينَةِ: وَأَكْبَرُ رِجَالِهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَابْنُهُ قَيْسٌ، وَالْحُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ حَسَّانٍ، وَكَانَ أَهَمُّ أَهْدَافِ هَذَا الحِزْبِ مُنَاقَظَةُ الحِزْبِ الأُمَوِيِّ وَتَحْطِيمُ مُحَاوَلَاتِهِ.

وإلى جَانِبِ هَذِهِ الأَحْزَابِ كَانَتْ تَقُومُ أَحْزَابٌ أُخْرَى ثَانَوِيَّةٌ أَهْمُهَا:

(١) رَاجِعْ تَفْصِيلَ الكَلَامِ عَلَيْهِ فِي كِتَاب: تَارِيخُ الحَسَنِ: نَقْدٌ وَتَحْلِيلٌ، طَبْعَةُ مَكْتَبَةِ العِرْفَانِ، ١٩٤١.

حِزْبُ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ: وَأَكْبَرُ الْمُتَسَبِّينَ إِلَيْهِ عَائِشَةُ.

وَحِزْبُ أَنْبَاءِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: وَأَكْبَرُ الْمُتَسَبِّينَ إِلَيْهِ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ.

وَالْحِزْبُ الْأُمَوِيُّ الْمُنَشَقُّ: وَكَبِيرُ أَقْطَابِهِ عُمَرُ بْنُ الْعَاصِ.

وما إن استخوذ الحِزْبُ الْأُمَوِيُّ عَلَى سُؤْوِ السُّلْطَةِ الْعُلْيَا فِي عَهْدِ عُثْمَانَ، حَتَّى أَلْقَتْ بَعْضُ هَذِهِ الْأَحْزَابِ جَبِيهَةً مُعَارِضَةً قَوِيَّةً. فَقَدْ شَاءَ الْبَيْتُ الْأُمَوِيُّ أَنْ يَجْعَلَ مِنْ نَفْسِهِ طَبَقَةً حَاكِمَةً، وَشَاءَ، إِلَى ذَلِكَ، أَنْ يَجْعَلَ مِنْ قُرَيْشٍ طَبَقَةً عِظَامِيَّةً (أَرِسْتَقْرَاطِيَّةً). وَهَؤُلَاءِ الْأُمَوِيُّونَ لَمْ يَكْتَفُوا بِأَنْ يَفْرِضُوا أَنْفُسَهُمْ وَوُجُودَهُمْ الْخَالِي مِنْ الْحَيَاةِ وَالْجُهْدِ، بَلْ تَجَاوَزُوا هَذَا إِلَى تَعْبِيقَةِ الْمُجْتَمَعِ فِي طَبَقَاتٍ لَهَا أَمْتِيَّاتُهَا وَقِيَمُهَا، الَّتِي تَهْبِئُهَا حَقُوقًا دُونَ مَا وَاجِبَاتٍ، وَبَسْبِهَا تَفَاتٍ لِنَفْسِهَا مِنْ الْأَعْتِبَارَاتِ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ، مَا يُخَوِّلُهَا آتِيهَاتٍ كُلِّ غَنَمٍ، يَغْرُمُ بِسَبِيلِ حَيَاتِهِ سَوَادَ الْجُمْهُورِ.

وَكُلَّمَا وَجَدَتْ لِمَجَاعَةٍ مَا حَقُوقٌ دُونَ وَاجِبَاتٍ، فَقَدْ وَجَدَ لَدَيْهَا شَرُّ أَنْوَاعِ التَّطَفُّلِ الْأَجْتِمَاعِيِّ، وَحِينَمَا تَنْتَقِلُ هَذِهِ الْأَعْتِبَارَاتُ إِلَى الْقَانُونِ يَنْتَقِضُ الْأَنْسِجَامُ وَالتَّوَارُثُ الْأَجْتِمَاعِيَّانِ، وَيَنْسَاقُ الْمُجْتَمَعُ، كُذْهًا، فِي مَارِقِ التَّنَاحُرِ الَّذِي يَبْدَأُ مِنْ أَجْلِ الدَّائِيَّةِ، وَيَنْتَهِي مِنْ أَجْلِ الْحَيَاةِ، وَهُنَا يَأْخُذُ شَكْلُهُ الدَّامِي، وَمُظْهَرُهُ الْكَالِجُ الرَّهِيْبُ، وَإِلَى هَذَا يُشِيرُ قَوْلُ النَّبِيِّ «إِنَّمَا أَهْلُكَ مَنْ قَبْلُكَمُ أَنَّهُ إِذَا أَثِمَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكَوهُ، وَإِذَا أَثِمَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ». فَإِذَا أَبُو سُفْيَانَ يَقُولُ، عِنْدَمَا وَلِيَ الْخِلَافَةَ عُثْمَانُ: «يَا بَنِي أُمَيَّةَ تَدَاوَلُوهَا بَيْنَكُمْ تَدَاوُلَ الْكَرَّةِ، فَوَالَّذِي يَخْلِفُ بِهِ أَبُو سُفْيَانَ مَا زِلْتُ أَنْتَظِرُهَا لَكُمْ، وَلَتَصِيرَنَّ إِلَى أَهْبَائِكُمْ وَرَاثَةً»، وَإِذَا سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ يَجْعَلُ سَوَادَ الْعِرَاقِ بُشْتَانًا لِقُرَيْشٍ، وَإِذَا الثَّرَوَاتُ الْفَاجِشَةُ تَصِيرُ وَجَمْعُ فِي أَيْدِي الْأُمَوِيِّينَ وَأَنْصَارِهِمْ، وَإِذَا مَرْوَانُ يَسْتَبِدُّ بِالْمُقَدَّرَاتِ الْعُلْيَا عَلَى هَوَاهُ، وَإِذَا أَكْثَرُ الْأَقَالِيمِ تَذَهَبُ إِقْطَاعَاتٍ بَيْنَ فُلَانٍ وَفُلَانٍ، وَإِذَا الْقَانُونُ يُعْبَثُ بِهِ فَلَا يُطَبَّقُ أَحْيَانًا وَكَثِيرًا، بَلْ دَهَبُوا بِهِ مَعَ الْهَوَى إِلَى حَدِّ أَشْعَرَ النَّاسِ أَنَّهُمْ لَمْ يَعُودُوا سِوَاءَ فِي نَظَرِيَّةِ الْحَقِّ وَنَظَرِيَّةِ الْجَزَاءِ فَسَبَقَ إِلَى الْأَذْهَانِ أَنَّ هُنَاكَ فَوْضَى دُونَ مَا سَكَ، وَأَنَّ هُنَاكَ فَسَادًا

في أداة الحكم سبب هذه القوضى دون ما ريب، والفساد يُبيح الثورة، فتدافعت الجموع في تياراتها.

كان الرائد الطواف بين مصر والحجاز والعراق، والذي يجوب متردداً بين هذه الأقاليم يلتمس، ويرى من فواجع الوضع القائم ما يملأه حنقا وثورة، كان يرى بؤساً في غير حد وشقاءً مخيفاً، وقرأ متغولاً، وكان هذا الفقر والشقاء والبؤس يتوزع هنا وهناك، ليجتمع ويألف خصوصاً في بيئات الذين كانوا، إلى زمن قريب، رمز الفخار العربي والإسلامي، رمز الكفاح والجهاد في كل مكان.

نعم كانت هذه الطوائف تنعم بذكري أمجادها الكبيرة، ولكنها تتحرق أيضاً، وهي ترى مقدار ما تبذخ به أقلية فرضت نفسها، واستحوذت على الثورة، دون أي جهد وسابقة كفاح. فيعلى بن أمية يملك ما قيمته مائة ألف دينار عدا عقاريته الكثيرة، وعبد الرحمن بن عوف يملك ما قيمته خمسمائة ألف دينار، وزيد بن ثابت يملك من الذهب والفضة ما كان يُكسر بالفؤوس... إلخ. وأيضاً رأوا أن هذا البذخ المترف جرّ وراءه أنواعاً من المجاوزات في السلوك الذي سنّ نهجه النبي، وعهدهم به لم يكن بعيداً. كما كوّنت هذه العنصرة واللذائنه، في بيئات الأقلية المذكورة، طائفة من الآراء المتطرفة وجدت سبيل شيوخها في المجتمع، فقابلها بكثير من الاستنكار، ولكن لم تقدم، مع ذلك، جماعة من الأنصار، فتولدت في الوسط دعوة إلى هذا الجديد المائع المثير، ودعاة إلى التجديد الرخو.

بيد أن الكثرة محافظة متمسكة بذلك القديم الذي وجدت فيه سبيل قوتها، وانتشرت مؤمنه بأفكاره، وصلاحيته كطب للبشرية اللاهية المختصرة، فهم جنود رسالة جاءتهم بهذا القديم الذي لمسوا فيه خيرهم. فلا يدع إن استنكرت الكثرة خطة هذا الجديد، ولا يدع إن تحدوا أنصاره وأتهموهم بالمروق، ولا يدع إن دخلوا معهم في صراع بدأ خفياً، ثم امتدّ حياً.

وصادَفَ، في هذهِ الفترةِ اللاهيةِ، تطوافَ رَجُلٍ نَعْرِفُ أَنَّ اسْمَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَبْيَأَ، وكانَ على ما يَظْهَرُ، إِنَّ صَحَّ أَنَّهُ وَجَدَ، صاحبَ نفسِ حساسيةِ شاعريةِ، وصاحبَ فكرةٍ مُنَظَّمةٍ إصلاحيَّةٍ، مِنْ وَرائِهِما روحٌ نائِزةٌ. فَاتَّصَلَ بِكُلِّ وَسْطٍ إسلاميٍّ إِذْ ذاكَ، واستَلْهَمَ الحِياةَ العامَّةَ الَّتِي آنَعَكَسَتْ صورَتُها وألوانُها في نَفْسِهِ، فاستَعَزَّ ضَمِيرُهُ، وَاتَّقَدَّتْ جَوانِحُهُ، فلم يَكُنْ بُدَّ مِنْ أَنْ يَلْتَهَبَ، ولم يَكُنْ مَنَاصٌ مِنْ أَنْ يَهْتِفَ بالإصلاحِ وَضُرورةِ تَغييرِ الوَضْعِ البائِسِ البائِسِ، وكانَ غَنيماً في طَبيعَتِهِ، وزادَتْهُ الحالَةُ العامَّةُ غُنىً، فَقَدْ تفاعَلَتِ الصِّفَةُ الحَيَويَّةُ الشَّائِعَةُ في المُجْتَمَعِ بِطَبيعَتِهِ تفاعُلاً جَعَلَهُ يَثورُ، وجَعَلَهُ يُبَشِّرُ بِمبادئِ الإصلاحِ الثَّوريَّةِ. ولم يَكُنِ المُجْتَمَعُ حينَذاكَ في حاجَةٍ إلى أَكْثَرِ مِنَ التَّنادي بِهِ وَاسْتِصْراحِهِ، فَقَدْ كانَ بِحالَةٍ مِنَ الثَّورِ والتَّفاعلِ إلى دَرَجَةِ القَدَحِ بالأَوارِ.

وهو، إلى هذا، قَدِ اجْتَمَعَ بِأَقْطابِ الحَرَكةِ الثَّوريَّةِ في مِصرَ والشَّامِ والعِراقِ، وتأثَّرَ بِهِم، ولا سِوَمَا أبا ذَرَّ الغِفاريُّ الَّذي رَكَزَ^(٢) أَفكارَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَبْيَأَ، وهذا وَجَدَ فِيهِ يَتَّبِعاً دِينياً وَمَعنَوياً خَصباً، يُمكنُهُ أَنْ يَسْتَمِدَّ مِنْ أَخبارِهِ عَنِ النَّبِيِّ، ما يَجْعَلُهُ سَنَداً لأفكارِهِ، فَإِنَّ أبا ذَرَّ كانَ يُحَدِّثُ، مِنْ قَبْلِ وَرُودِ آئِنِ سَبْيَأَ إلى الشَّامِ،

(٢) يَظُنُّ البَسطاءُ مِنَ المُؤرِّخينَ، تَبَعاً لَتَقَدِيراتِ آسْتِشْرائِيَّةٍ مُرسَلَةٍ إِسْلاماً، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَبْيَأَ - يَلْكَ الشَّخْصِيَّةَ الَّتِي هِيَ سِنَةُ تاريخيَّةٍ، أَيْ خُرايِفَةٍ، مِنْ سِنَةِ غُموضِها إلى حَدِّ يُبَيِّحُ لَنا إِنْكارُها مَرَّةً - قَتَنَ مُجْتَمَعاً بِأَشرِهِ، وهذا مُنْقَوِضٌ على ضَرْوِ البِسيكولوجيَّةِ الاجتماعيَّةِ؛ وَقَتَنَ أبا ذَرَّ الَّذي سائِرُ النُّشوءِ الدِّينيِّ الجَدِيدِ في كُلِّ أَطْوارِهِ. وَيَتَبَيَّنُ لَنا دَرَجَةُ ما فِيها مِنْ سَخَبٍ حينَما نَعْرِفُ أَنَّهُمْ بِشَخْصِيَّةِ سَبْيَأَ تاريخيَّةٍ يُريدونَ تَغييرَ مَخرى حادِثَةٍ تاريخيَّةٍ هائِمةٍ، ولا سَلَكُ في أَنها طَريقَةً مِيتافِزيقِيَّةً تُرادُّ بِها تَغْليلُ المَعلومِ بِالْجَهِولِ، وما يَدرِنا قَلْعُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَبْيَأَ عَنَتَرُ أَجْتِماعِيٍّ بِمِثْلِ عَنَتَرِ الفُروسِيٍّ؟ وَأَنا إِذا كُنْتُ أَستَطيعُ أَنْ أَقِرَّ بِهذا الشَّيْءِ المَدْعُوعِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَبْيَأَ، فَإِنَّمَا أَستَطيعُ الإِقرارَ بِهِ على أَنَّهُ يَلْمِيزُ المَدْرَسَةَ الغِفاريَّةَ، ويؤكدُ هذا أَنَّهُ مِنْ أَنصارِ عَلِيٍّ نَ أَنِّي طالِبٌ في الحائِبِ السَّبابيِّ والدِّينيِّ مِنْ أَفكارِهِ، ومَعروفٌ أَنَّ أبا ذَرَّ مِنْ أَنصارِ عَلِيٍّ، فلو قَرَضَنا أَنَّهُ جاءَ بِأَفكارِهِ مَزْجِيَّةً فَلِماذا لَمْ يَحْتَرِ إِلاَّ مُناصَرَةَ عَلِيٍّ، وكانَ أَوْجَحُ لَدَعْوَتِهِ لو ناصَرَ ذِكْرِي أبا بَكْرٍ وعَمَرَ. والشَّيْبُ في نَظرِنا الَّذي أَدى إلى نُشوءِ مَدْرَسَةِ أبا ذَرَّ ودَعْوَتِهِ إِنَّمَا هوَ ذلكَ التَّورُطُ والثَّالِثُ على مِثْلِكَ الرِّاءِ المُتَطَوِّبِ الَّذي أَحدَثَ بِأَشْبابِهِ الأَقْلِيَّةَ الأُمِّيَّةَ وأَعوانِها، وبُروزِها ذلكَ البُروزُ الأَرِشْطَراطيِّ واسْتِيعابُها الإِقطاعيِّ، فكانَ في ذلكَ ما أَغرى أبا ذَرَّ على فَهْمِ الشَّريعةِ ذلكَ الفَهمِ.

بأحاديثه المُنسَدَةِ إلى النبي، وكلُّها تَحْمِلُ عناصرَ الأفكارِ التي انطَلَقَ أبْنُ سَبَأٍ يُرَوِّجُ لها. والذي لَدَيْنَا مِنْ وَثَائِقِ التاريخِ يَشْهَدُ أَنَّ إعلانَ أبي ذَرٍّ عن هذه الأفكارِ وَقَعَ قَبْلَ أَوَّلِ الِاتِّفَاقِ بَيْنَهُمَا، كما يَشْهَدُ أَيْضاً أَنَّ تَكْوُنَ شَخْصِيَّةِ أبْنِ سَبَأٍ كَانَ بَعْدَ أَوَّلِ لِقَاءٍ. فالتَّاريخُ وَكُتُبُ الحديثِ تَعْرِفُ جَيِّداً أَنَّ أبا ذَرٍّ كَانَ يُحَدِّثُ، في السَّامِ، بِمِثْلِ هذه القِصَّةِ التي هي مِنْ وَقَائِعِهِ عَهْدَ النبي.

قال: «سأيتُ رجلاً - وهو بلالٌ - فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، وكانت رَقِيقَةً، فقالَ لي النبي: يا أبا ذَرٍّ، أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟! إِنَّكَ أَمَرُوْهُ فَيَكُ جَاهِلِيَّةٌ. إخوانُكُم خَوَلُكُم جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُم، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ بِمَا يَأْكُلُ، وَلْيَلْبِسْهُ بِمَا يَلْبَسُ، وَلَا تَكْلُفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ».

يَزُوي أبو ذَرٍّ مِثْلَ هذه الواقعةِ، في حقِّ المَوالِي الأَرِقَاءِ بالقانونِ، قَصْدُ مُحَارَبَةِ الوَضْعِ الَّذِي شَاءَتْ بِهِ الأَقْلِيَّةُ جَعْلَ سَوَادِ المُجْتَمَعِ أَرِقَاءَ أَجْتِمَاعِيَّينَ.

فالَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ إِذَا، أَنَّ أبْنَ سَبَأٍ كَانَ يَحْمِلُ أَفكاراً اسْتَلْهَمَهَا مِنْ حَالَةِ المُجْتَمَعِ القَائِمَةِ، وَلَكِنَّهُ سَقَطَ عِنْدَ أبي ذَرٍّ عَلَى مَا يَزَكُّهَا وَيُوضِحُهَا، وَيُعْطِيهَا الغُنْصَرَ الدِّينِيَّ المفقودَ لَدَيْهِ مِنْ قَبْلُ، وَكَانَ سَبَبَ تَخَوُّفِهِ مِنْ نَشْرِ أَفكارِهِ الحُرَّةِ، وبِالْحَرِيِّ أَفكارِ الشَّرِيعَةِ، عَلَى طَرِيقَةِ أبي ذَرٍّ، فَمَضَى يُبَشِّرُ فِي طُولِ البِلَادِ وَعَرَضُهَا بِمَا إِنَّهُ الدِّينُ أَيْضاً.

رَأَيْنَا كَمْ كَانَتْ أَقَالِيمُ المُجْتَمَعِ الإِسْلَامِيِّ الكَبِيرَةِ مُتَوَزَّغَةً، وَرَأَيْنَا إِلَى أَيِّ حَدٍّ قَدْ أَحْسَسَ الشَّعْبُ أَنَّ الأَقْلِيَّةَ الحَاكِمَةَ تَحِيكُ حَوْلَهُ مُؤَامَرَةً وَاسِعَةً النُّطَاقِ، تُبَالِغُ حَتَّى تَنْصِلَ بِحَيَاتِهِ، فَانْكَفَأَ الشَّعْبُ كُلُّهُ فِي الأَقَالِيمِ يَتَأَمَّرُ بِهَا، وَيُسَيِّجُ مِنْ حَوْلِهَا شِبَاكَةً، وَلَقَدْ بَاتَتْ الحَالَةُ العامَّةُ نَجِيءٌ فِي كَلِمَتَيْنِ: مُحْكَمَةٌ تَتَأَمَّرُ بِالشَّعْبِ، وَشَعْبٌ يَتَأَمَّرُ بِالحُكُومَةِ، وَلَكِنْ لِلشَّعْبِ الكَلِمَةُ الأَخِيرَةُ وَالْعُلْيَا دَائِماً.

وَعَبَدَ اللَّهُ بَنُ سَبَا أَيْانَ مَرَّةٍ، وَأَيْنَ أَنْطَلَقَ، يُصَادِفُ جُمُوعاً تَعْتَلِجُ عَلَى جُمُوعٍ،
وَكُنْتُ الْمُؤَامَرَةَ تَنْتَشِرُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَتَقَوِّزُ لَتَحْتَشِدَ. وَلَقَدْ أَحْسَنَ التَّعْبِيرَ عَنْ أَمَانِي
الْجَمَاعَاتِ وَتَصْوِيرِ أَخْلَاصِهِمْ وَأَمَالِهِمْ، فَأَفْتَيْنَا بِهِ وَأَفْتَيْنَ بِهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ يَزُيْطُ بَيْنَ
هَذِهِ الْجُمُوعِ إِلَّا رَابِطَةُ الشُّعُورِ بِضُرُورَةِ الإِصْلَاحِ السَّرِيعِ، فَقَدْ بَلَغَ مِنْ شِدَّةِ الْفَسَادِ
أَنْ كَانَ أَكْثَرُ النَّاسِ تَحَمُّساً لِلثَّوْرَةِ هُمْ أَهْلُ الْمَدِينَةِ، وَالْمَعْرُوفُ عَنْ هَؤُلَاءِ أَنَّهُمْ
يُحَاوِلُونَ شَتَّى الْمَحَاوَلَاتِ لِلتَّزْجِيعِ وَالتَّوْجِيهِ، فَكَانَ شُعُورُهُمْ بِضُرُورَةِ الثَّوْرَةِ مَغْنَاهُ أَنَّ
الْحَزَقَ قَدْ اتَّسَعَ عَلَى الرَّاقِعِ، وَأَنَّ حَالَةَ الْفَوْضَى لَا يَنْجُعُ مَعَهَا إِلَّا الْقَمْعُ الْعَنِيفُ،
فَتَخَلَّوْا عَنْ طَرِيقِ الْجُمْهُورِ، أَوْ قُلْ كَانُوا فِي الطَّلِيعَةِ.

ولكن، مع ذلك، فقد ظلَّ حِزْبُ عَلِيٍّ، أَوْ حِزْبُ الْمُحَافِظِينَ، يَبْذُلُ جُهُوداً
جَبَّارَةً بِسَبِيلِ تَقْرِيبِ وَجْهَةِ النَّظَرِ بَيْنَ كُثْلَةِ الشَّعْبِ وَكُثْلَةِ الْحُكُومَةِ، وَيَحُولُ، بِجَهْدِ
الْمُسْتَطَاعِ، بَيْنَ الْجُمْهُورِ وَبَيْنَ مَا رِيهِ الدَّائِمَةِ، وَكَثِيراً مَا جَعَلَ مِنْ نَفْسِهِ ضَمَانَةً لِهَيْئَةِ
الْحُكْمِ. وَالشَّيْءُ الْجَدِيدُ بِالتَّشْجِيلِ وَنَصَاغَةِ الذِّكْرِ أَنَّ هَذَا الْحِزْبَ بَقِيَ مُوَالِياً، بِعَطْفِ
صَادِقٍ، لِلْحُكُومَةِ إِلَى السَّاعَةِ الْآخِرَةِ الَّتِي لَمْ يَغْدُ مُمَكِّناً فِيهَا ضَبْطُ أَغْصَابِ
الْجُمْهُورِ الثَّائِرَةِ، فَطَغَى عَلَى الْحَوَاجِزِ وَبَدَأَ التَّهْدِيمَ.

وَمِنَ الْإِنْصَافِ بَلْ مِنْ الْخَيْرِ أَنْ نَذْكُرَ أَنَّ الْجُمْهُورَ، مَعَ ذَلِكَ، لَمْ يَكُنْ أَرْعَنَ
فِي ثَوْرَتِهِ، فَقَدْ اتَّصَلَ بِأَوْلِيَاءِ الْأُمُورِ وَالشُّلْطَةِ وَطَالَبَ مُسْتَشْفِعاً بِمُمَثِّلِيهِ مِرَاراً
وَتَكَرَّراً، وَلَكِنْ مَطَالِبَتُهُ، فِي كُلِّ مَرَّةٍ، كَانَتْ تَبَوُّءُ بِالْفَسْلِ، وَكَانَ فَشْلاً ذَرِيعاً
مُتَوَاصِلاً مِنَ النَّوْعِ الْمُثِيرِ، فَلَا يَدْعُ إِنْ هَبَّ الشَّعْبُ هَبَّتَهُ الْعَاتِيَةُ، وَتَرَكَّزَتِ الثَّوْرَةُ
الْإِنْتِقَامِيَّةُ فِي رَأْسِهِ تَرَكَّزَ الْفِكْرَةُ الثَّابِتَةُ، لَا يَحُولُ عَنْهَا فِي كَثِيرٍ أَوْ قَلِيلٍ.

هَبَّتْ وَفُودُ الْأُمُصَارِ الْمَدِينَةَ مَرَّةً وَأُخْرَى إِلَى مَرَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَكَانَتْ، فِي كُلِّ
مُنَاسَبَةٍ، تَحْمِلُ طَائِفَةً مِنْ أَمَانِيهَا، وَهِيَ مَلَأَى بِالرَّجَاءِ تَوَدُّ لَوْ صَدَقَتْ أَحْلَامُ أَمَالِهَا،
وَكَانَتْ تَرْجِعُ، فِي كُلِّ مَرَّةٍ، بِوَعْدٍ مَغْسُولَةٍ، وَلَكِنْ لَا تَلْبُثُ أَنْ تَسْتَحِيلَ إِلَى صَدَى

يَأْسٍ فِيهِ غُرُورُ الشَّرَابِ.

ساءها، في كُلِّ تَجَرِبَةٍ وَكُلِّ مُحَاوَلَةٍ، إِخْفَاقُ الْمُتَقَلِّبِ، فَأَغْيِظَتْ كَذِي النَّفْسِ
الْجَرِيحَةِ عَلَى مَنْ لَا يَفْتَأُ يَنْكَأُ جِرَاحَهُ وَيُجْرِي دِمَاءَهُ، وَلَمْ يَسْغُهَا كَظْمُ عَوَاطِفِهَا
الْمُلْتَهِيَةِ، فَهَدَرَتْ صَاحِبَةً مُحْتَجَّةً، تُرِيدُ وَضْعَ حَدٍّ لَأَلَامِهَا وَبِأَسَائِهَا الْمُسْتَعْرِةِ،
فَكَانَتْ تَصْطَلِدُ تَكَرَّاراً وَبِمَرَّارٍ بِمَا يَوْقُظُ فِيهَا شُعُورَ الْحَيَاةِ الْمُتَنَقِّمِ. لِذَلِكَ لَمْ تَكُنِ
الْجَمَاعَاتُ تُرَى فِي أَيِّ مَكَانٍ إِلَّا مُلْتَمِعَةً بَعْضاً عَلَى بَعْضٍ تَتَهَامَسُ فِي أَمْرِ خَطِيرٍ.

وفي هذه الْفَثَرَةِ الْمُلْتَهِيَةِ كَانَ يَطُوفُ، كَمَا قُلْنَا، فِي أَقْطَارِ الْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ،
عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَبَأٍ فِيمَا زَعَمُوا، فَمَا حَلَّ بُقْعَةٌ إِلَّا وَسَمِعَ فِيهَا تَجَاوُبَ نَاقِمَةٍ وَاجِدَةٍ
مُسْتَنْكِزَةٍ، فَاسْتَمَلَ عَلَى حَفِيظَةٍ مُتَحَرِّقَةٍ تَأْتِكِلُ فِي خَنَايَاهُ غَيْظاً وَتُحْرِقُ الْأَرْمَ. وَمَا
هُوَ إِلَّا أَنْ هَبَطَ الشَّامَ فَاتَّصَلَتْ أَسْبَابُهُ بِأَسْبَابِ أَبِي ذَرٍّ فَقَدْ سَمِعَهُ يَنْتَقِدُ وَلَا يُيَالِي
عَلَى أَيِّ وَجْهِهِ فُسِّرَ آتِنْقَادُهُ، وَيَتَخَذَى الْمُجْتَمَعُ^(٣) وَالِدَوْلَةَ، وَكُلُّ أَسْرَةِ الْحُكْمِ تَحْدِيّاً
جَارِحاً بِمَنْطِقِ الدُّسْتُورِ الْإِسْلَامِيِّ الْعَامِّ، الَّذِي هُوَ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ، وَمَنَاهِجُ السُّلُوكِ
التَّقْلِيدِيَّةِ، وَيَأْخُذُ عَلَى الْإِنْطِلَاقِيِّينَ الْمُتَجَاوِزِينَ مَذَاهِبَ سُلُوكِهِمْ.

رَأَى وَلَمْ يَسْ مَقْدَارَ تَهَاوِي النَّاسِ فِي التَّرَفِّ بِالْعُدْوَى، وَتَهَاوَيْهِمْ عَلَى الرِّفَاهِ مِنْ
أَيِّ طَرِيقٍ، وَتَشْتَبِعُ خُطَّةَ هَذَا السُّلُوكِ إِبَاحِيَّةً وَلَا مُبَالَاةً، فَجَعَلَ مِنْ نَفْسِهِ وَأَتْبَاعِهِ
حَاجِزاً يُقَاوِمُ التَّيَّارَ، فَوَقَّفَ فِي كُلِّ مَكَانٍ يُشِيرُ بِمَبَادِيئِهِ، وَبِعِبَارَةٍ أَصَحَّ يَقْرَعُ سَمْعَ
النَّاسِ بِمَا قَدْ عَهِدَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ، وَبِمَا قَدْ سَمِعَهُ مِنْهُ وَوَعَاهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلَكِنْ بَعْضاً مِنَ
النَّاسِ كَانُوا قَدْ اسْتَنَامُوا إِلَى هَذَا الْجَدِيدِ، وَتَذَوَّقُوا وَلَذَّتْهُمْ أَشْيَاؤُهُ، فَأَبْزَوْا عَلَيْهِ وَأَبَى
عَلَيْهِمْ، فَانْطَلَقَ لَا يُيَالِي غَضَباً وَلَا رِضاً.

وَكَانَ أَبُو ذَرٍّ يَرَى أَنَّ فِكْرَةَ الْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ هِيَ الْفَضِيلَةُ، وَالْإِنْسَانُ هُوَ

(٣) تَفْصِيلُ رَأْيِنَا فِي مَدْرَسَةِ أَبِي ذَرٍّ، وَتَفْصِيلُ آرَائِهِ فِي الْحَيَاةِ وَغَايَتِهَا، وَفِي الْمُجْتَمَعِ وَنِظَامِهِ، وَفِي الْحُرِّيَّةِ
الْأَدْبِيَّةِ، وَعِلَاقَةِ الْحَيِّ بِاللَّهِ، نَجِدُهُ فِي كِتَابِنَا: مَدْرَسَةُ أَبِي ذَرٍّ وَالثَّرْوَةُ الْكُبْرَى فِي الْإِسْلَامِ.

الفاضل فقط. فعلى الناس إذا أن يحلوا أشياء الفضيلة بينهم، وأن يؤفروا كل جهودهم على تحقيقها واتباع سُننها وأساليبها. وأما أولئك الذين يجمعون أكبر جهودهم وهمهم على التزيد من مخاريف الحياة الناعمة وأسباب العيش الرفيع، فإنهم لا يفضلون، في اختياره، عن سائمات وجدت سبيل لحظوظها. والإنسان عنده، إذا جمع همه هذا الجمع، فإنه ينقلب حيواناً فقط ميزته أنه أقدر على التحليل بما فيه من الفكر، وأما الإنسانية فإنها غنصر غريب عنه. ولكي يكون إنساناً، ويظل كذلك، لا بد له من حياة أخرى مادتها الفضيلة، والفضيلة، في نظره، هي التجرد والعمل.

هو يريدنا أن نعمل ونكافح بما استطعنا إلى ذلك، كما يريدنا أن نتجرد أيضاً فلا ننعمس في مدى الفتون، يريد منا سيراً بما فينا من حياة عضوية ذات حرارات، واشتغلاء بما فينا من روح لا تفتأ تنشد السموم.

وليس أضر على الكائن الإنساني من أن يسير بالحياة فقط، إذ بهذا يُشبه سير الرُحى تتحرك وهي قابضة بحلها. وفرق ما بين الإنسان والحيوان أن الثاني تسير به الحياة، والأول يسير بالحياة، ويستغلي دوماً بالروح التي هي فكرة الحياة وغايتها وضميرها وأخلاقيتها. وإذا كانت الحركة ضرورية للحياة، والفضيلة، التي هي التجرد، ضرورية للإنسانية، فلكي تكون أحياء إنسانيين يجب أن نعمل، ويجب أن نتجرد، وأما إذا عملنا فقط فقد نحزننا غنصر الإنسانية فينا وأشفقنا، كما نتعقد الحياة حين نضعها في معتزك أطماعنا وشبابك شهواتنا. فكان يوصي ويلح أن نعمل، وأن نتجرد، أي نعمل ولا ندخر، فحضر بأقصى أسلوب وأغتفاه على عدم الكثر، ولوح ما شاءت له فكرته وشاء ضميره بقوله تعالى:

«والذين يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ، يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هذا مَا كَتَرْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ».

وهو يرى أيضاً أنّ الدولة كالفرد سواء بسواء، فإذا كُنْزَتْ ولم تَتَجَرَّدْ
أَنَحْصَتْ، وتَوَلَّدَتْ لَدَيْهَا الْأَطْمَاعُ. فَتَحْدَى الدَّوْلَةُ كَمَا تَحْدَى الْأَفْرَادُ، وَحَارَبَ
الْكُنْزُ الاجتماعي، كما حَارَبَ الْكُنْزُ الْفَرْدِيَّ. وَشَنَّهَا شَعْوَاءٌ عَلَى دُنْيَا الْقُصُورِ وَحَيَاةِ
الْزَّرَفِ، فَقَدْ نَظَرَ إِلَيْهَا نَظَرُهُ إِلَى مَا تَمَّ لِلْمِثَالِيَّةِ الْعُلْيَا وَالْأَحْلَامِ النَّسَامِيَّةِ، فَمَوَكَّبُ
الْإِنْسَانِيَّةِ لَا بُدَّ أَنْ يَتَوَقَّفَ وَيَتَوَحَّلَ، وَيَتَقَلَّبَ مَوَكَّبُ رُجْمٍ إِذَا شَنَّنَا الْوُلُوجُ بِهِ فِي دُنْيَا
الشَّهَوَاتِ.

وَمِنْ نَاجِيَةِ أُخْرَى أَحْسَنَ بَالَامِ الْبُؤْسِ فِي النَّاسِ، وَأَحْسَنَ أَنَّ الدَّوْلَةَ تَتَوَسَّلُ
بِالنَّشِيمَاتِ الْقَانُونِيَّةِ إِلَى أَنْتِهَابِ الْمُسْتَحِقَّاتِ الْحَقُوقِيَّةِ مِنْ أَرْبَابِهَا، وَالِاسْتِخْوَاذِ عَلَى
الثَّوَرَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَتَبْدِيدِهَا دُونَ مُسْتَحَقِّهَا، فَقَدَّرَ وَاسْتَنْتَجَ أَنَّ الْحُكُومَةَ الْمُتَّخِذَةَ هِيَ
ذَاكَ الْحَقُّ الْأَوَّلُ فِي التَّصَرُّفِ بِالْأَمْوَالِ الشَّائِعَةِ. فَتَسْمِيئُهَا مَالِ الْخَزِينَةِ بِمَالِ اللَّهِ
الَّتِي يُرَادُ مِنْهَا الشُّيُوعُ، وَسَبِيلَةٌ إِذَا لِلتَّلَاغِبِ وَالِاسْتِخْوَاذِ، فَحَمَلَ حَمْلَةً نَكْرَاءَ عَلَى
هَذِهِ التَّسْمِيَةِ الْمَغْلُوطَةِ، وَنَادَى أَنَّهَا مَالُ الْمُسْلِمِينَ، هَذِهِ التَّسْمِيَةُ الَّتِي تُؤَدِّي، فِي
تَسْلُسُلِهَا الْمُنْطَقِيِّ الْحَقُوقِيِّ، إِلَى مَنَعِ حُرِّيَّةِ التَّصَرُّفِ، وَإِلَى وُجُوبِ تَوْزِيْعِهَا عَلَيْهِمْ
وَتَعْلَقِ حُقُوقِهِمْ بِهَا.

وَبَلَغَ مِنْ شِدَّةِ وَطْأَةِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ، أَنْ جَعَلَ الْأَنَانِيُّونَ الطَّامِعُونَ يَفِرُّونَ مِنْ
طَرِيقِهِ كُلِّمَا رَأَوْهُ، وَزَادَ فِي تَأْثِيرِ دَعْوَتِهِ وَآتِشَارِهَا أَنَّهُ كَانَ يَشْفَعُ أَقْوَالَهُ هَذِهِ
بِأَحَادِيثَ مَأْثُورَةٍ سَمِعَهَا مِنَ النَّبِيِّ. فَوَجَدَ عَبْدُ اللَّهِ بُرْسَبُؤُ فِي هَذِهِ الْأَفْكَارِ، الَّتِي
يَسْمَعُهَا مِنْ أَبِي ذَرٍّ، مَا هُوَ الْعِلَاجُ النَّاجِعُ لِرُوحِ الْمُجْتَمَعِ الْبَائِسَةِ، وَوَجَدَ فِيهَا أَيْضاً
خَالِصَ أَفْكَارِهِ، وَفَوْقَ ذَلِكَ وَجَدَ فِيهَا مَا تَشَوَّقُ إِلَيْهِ رَغْبَةُ الْمُطَالِبِينَ بِالْإِصْلَاحِ
الْحَائِرِينَ، فَانْطَلَقَ عَلَى سُنَّةِ أَبِي ذَرٍّ يُبَشِّرُ وَلَا يَحْفِلُ.

تَوَقَّفَ فِي الْكُوفَةِ وَهُوَ يَذَرُّعُ الْأَقْطَارَ، فَرَأَى فِيهَا حَرَكََةً أَقْوَى مِنْ سَائِرِ
الْحَرَكَاتِ الْأُخْرَى فِي الْمَدِينِ وَالْقَوَاصِمِ، فَانْخَرَطَ فِيهَا وَنَظَّمَهَا، وَهُنَاكَ وُضِعَتْ

«عريضة الحق» أو «مطالب الإصلاح» فلم تُقابل من الهيئة الحاكمة بالحسن بل بالإغراض، فتألبوا، وكان أن توسط علي بن أبي طالب بينهم وبين الخليفة فوعدوا خيراً، وما إن بارحوا المدينة حتى أوعزت السلطة العليا إلى معاوية بالقبض عليهم في جنص، وبعد لأي أفرج عنهم فعادوا إلى المطالبة مرة أخرى، يتد أنهم استعدوا للخصومة مهما نجم عنها، ومهما احتبكت ألوانها الكالحة. وكانت عريضة الحق تستميل على:

- أ - إبعاد البطانة المشرفة على تفسير الأمور حالياً ولا سيما مزوان بن الحكم.
- ب - الرجوع إلى سياسة الأموال التي درج عليها النبي، دون السياسة التي جرى على سنتها الخليفة الثاني ولا تزال.
- ج - ضرب اليد على طماعية قريش.
- د - الحد من صلاحية الولاة والأمراء، فيقيّد تصرفهم بالخراج والأموال العامة.

هـ - الحيلولة دون الأمراء واستبدال الأهلين.

وقدب الوفود تحت ستار الحج، وهي تخفي أغراضها الدائمة الثورية، وشاع الهمس في المدينة، وأنطلقت عبارات الانتقاد تؤجج كالتار في الهشيم، وقد اتصلت بعلي أخبارهم فتخوف مغبة الأمر وبادر إلى الاجتماع بعثمان، فقال له: «التاس ورائي وقد كلموني فيك، وآلل ما أذري ما أقول لك، وما أعرف شيئاً تجهله، ولا أدلك على أمر لا تعرفه.

إنك لتعلم ما تعلم، ما سبناك إلى شيء فتخبرك عنه، ولا خلونا بشيء فبلغك، وما خصصنا بأمر دونك. وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله وملت صهره، وما أبني أي قحافة بأولى بعمل الحق منك، ولا أبني الخطاب بأولى بشيء

مِنَ الْخَيْرِ مِنْكَ...»

ثم يقول:

«فَاللَّهِ اللَّهُ فِي نَفْسِكَ. فَإِنَّكَ وَاللَّهِ مَا تُبْصِرُ مِنْ عَمِّي، وَتُعَلِّمُ مِنْ جَهْلِي، وَإِنَّ الطَّرِيقَ لَوَاضِحٌ يَبِينُ...»

فإذا آغْتَذَرَ عُثْمَانُ إِلَيْهِ بِأَنَّهُ يَقْتَنِي أَثَرُ عُمَرَ أَجَابَهُ عَلِيٌّ:

«سَأُخْبِرُكَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَانَ كُلُّ مَنْ وَلِيَ فَإِنَّمَا يَطَأُ عَلَى صِمَاحِهِ، إِنْ بَلَغَهُ عَنْهُ حَرْفٌ جَلْبَهُ ثُمَّ بَلَغَ بِهِ أَقْصَى الْعَايَةِ. وَأَنْتَ لَا تَفْعَلُ، صَغُفْتَ وَرَفَقْتَ عَلَى أَقْرَبَائِكَ...»

فإذا ذَكَرَ لَهُ عُثْمَانُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَانَ يَمُنُّ وَلَاَهُ عُمَرُ مُدَّةَ خِلَافَتِهِ كُلِّهَا، وَأَنَّهُ يَقْتَدِي كَذَلِكَ بِعُمَرَ فِي تَوَلِّيَّتِهِ، أَبَانَ لَهُ عَلِيٌّ الْفَرْقَ بَيْنَ الْعَمَلَيْنِ فَقَالَ:

«أَنْشُدْكَ اللَّهَ! هَلْ تَعْلَمُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَانَ أَخَوْفَ مِنْ عُمَرَ، مِنْ يَوْفَاً؟» غُلَامِ عُمَرَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ عَلِيٌّ: إِنَّ مُعَاوِيَةَ يَفْتَتِطِعُ الْأُمُورَ دُونَكَ وَأَنْتَ تَعْلَمُهَا، فَيَقُولُ لِلنَّاسِ هَذَا أَفَرُّ عُثْمَانَ فَيَبْلُغُكَ وَلَا تُغَيِّرُ عَلَى مُعَاوِيَةَ.

ولكنَّ مُعَاوِيَةَ لَمْ يَزَلْ بِعُثْمَانَ يُوَعِّزُ صَدْرَهُ عَلَى عَلِيٍّ، وَيَضْرِبُ لَهُ الْمَثَلَ بِشِدَّتِهِ عَلَيْهِ فيقول:

«هَكَذَا يَسْتَقْبِلُكَ وَأَنْتَ إِمَامُهُ وَسَلَفُهُ وَأَبْنُ عَمِّهِ وَأَبْنُ عَمَّتِيهِ، فَمَا ظَنُّكَ بِمَا غَابَ عَنْكَ مِنْهُ؟»، وَكَذَلِكَ يَقُولُ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ وَسَائِرُ بَطَانَتِهِ (حَتَّى أَجْمَعَ أَلَا يَقُومَ دُونَهُ). وَعَلِيٌّ جِيَالَ تَرَدُّدِ عُثْمَانَ لَمْ يَسْغُهُ إِلَّا أَنْ يَقُولَ:

«مَا يُرِيدُ عُثْمَانُ أَنْ يَنْصَحَهُ أَحَدٌ، أَتَخَذَ بَطَانَةً أَهْلَ غِيْشٍ لَيْسَ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا

(٤) يَوْفَاً: اسْمُ غُلَامِ عُمَرَ، وَكَانَ إِذَا رَأَاهُ يُوَعِّدُ مِنْهُ رُغْبًا، فَضْرِبَ الْمَثَلَ بِهِ فِي الرُّغْبِ.

وَقَدْ تَسَبَّبَ بِطَائِفَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، يَأْكُلُ خَرَايجَهَا وَيَسْتَذِلُّ أَهْلَهَا».

وكان عمرو بن العاص في هذه الأثناء يُحَرِّضُ النَّاسَ عَلَى عُثْمَانَ، وَيَجْبُهُ سِيَاسَتَهُ علانيةً وَيَتَجَسَّسُ عَلَيْهِ، وَيَقْضِخُ الْأَحَادِيثَ الَّتِي تَجْرِي دَاخِلَ دَارِهِ، وَلَا يَلْقَى أَحَدًا إِلَّا أَدْخَلَ فِي رُوعِهِ كَرَاهِيَّتَهُ، وَيَسْتَغِلُّ الْمُنَاسَبَاتِ وَالظُّرُوفَ حَتَّى قَالَ يَصِفُ نَفْسَهُ:

«أنا أبو عَبْدِ اللَّهِ إِذَا حَكَمْتُ قُورَةَ نَكَأْتُهَا، إِنْ كُنْتُ لَأَلْقَى الرَّاعِي فَأَحْرِضُهُ عَلَى عُثْمَانَ... وهذا عُثْمَانُ يَسْتَشِيرُهُ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ صَحْبِهِ فَيَقُولُ لَهُ عَمْرُو:

«أَرَى أَنَّكَ قَدْ رَكِبْتَ النَّاسَ بِمَا يَكْرَهُونَ، فَأَعْتَرِمُ أَنْ تَعْتَدِلَ، فَإِنْ أَبَيْتَ فَأَعْتَرِمُ أَنْ تَعْتَدِلَ، فَإِنْ أَبَيْتَ فَأَعْتَرِمُ عَزْمًا وَآمْنًا فِيهِ قُدْمًا...» وَيُقَابِلُهُ حِينَمَا خَطَبَ عُثْمَانُ عَلَى مَلَأٍ مِنَ الصَّاحِبِينَ الْمُتَمَرِّدِينَ بِقَوْلِهِ:

«يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: إِنَّكَ قَدْ رَكِبْتَ نَهَايِرَ وَرَكَبْنَاهَا مَعَكَ، فَثُبْ نَثْب...» وهذه عَائِشَةُ تَجْتَرِيءُ وَهُوَ يَخْطُبُ، فَتَقُولُ وَقَدْ نَشَرْتُ قَمِيصَ النَّبِيِّ:

«هَذَا قَمِيصُ النَّبِيِّ لَمْ يَبَلِّ، وَقَدْ أَبْلَيْتَ سُنَّتَهُ...». وهذان طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ يُعِينَانِ الثَّائِرِينَ بِالْمَالِ.

والجُمُوعُ الْمُتَأَلِّبَةُ الْوَافِدَةُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، حِيَالٌ مَا تَرَى وَحِيَالٌ مَا تُحِسُّ بِهِ مِنْ آلامٍ فِي قَرَارَتِهَا، تَفْتَحُ ثَائِرَتِهَا، وَمَضَتْ فِي أَنْدِفَاعِهَا مُتَمَرَّةٌ غَاضِبَةٌ. فَبَدَلَ عَلِيٍّ كُلَّ جُهْدٍ لِتَخْفِيفِ ثَائِرَتِهِمْ وَتَبْرِيدِ غُلُوبِهِمْ، وَحَمَلَ عُثْمَانُ عَلَى إِعْطَائِهِمْ مُهَلَّةً ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ. فَلَمَّا أَنْتَهَتْ أَجْتَمَعُوا عَلَى بَابِهِ، بِمِثْلِ الْحِيَالِ، عَلَى حَدِّ تَغْيِيرِ الْمُؤَرِّخِينَ. قَالَ عُثْمَانُ لِمُرَّانٍ: «أُخْرِجْ وَكَلِّمُهُمْ فَإِنِّي أَسْتَحْيِي أَنْ أُكَلِّمَهُمْ»، فَخَرَجَ مَزَوَانٌ إِلَى الْبَابِ، وَالنَّاسُ يَرْكَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَقَالَ:

«مَا سَأَلَكُمْ قَدِ اجْتَمَعْتُمْ كَأَنَّمَا جِئْتُمْ لِتَهْبِ؟ شَاهَتِ الْوُجُوهُ، كُلُّ إِنْسَانٍ

أَخِذْ بِأَذُنِ صَاحِبِهِ؟ جِئْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْزِعُوا مُلْكَنَا مِنْ أَيْدِينَا؟ أَخْرِجُوا عَنَّا. أما والله لئن رُمْتُمونا لَيَمُرَّنَّ عَلَيْكُمْ أَمْرٌ لَا يَشْرُكُكُمْ، وَلَا تَحْمَدُوا غِبَّ رَأْيِكُمْ. أَرْجِعُوا إِلَى مَنَازِلِكُمْ، وَاللَّهِ مَا نَحْنُ بِمَغْلُوبِينَ عَلَى مَا فِي أَيْدِينَا.

كَانَتْ هَذِهِ الْخُطْبَةُ الْمَعْلُومَةُ حُفْمًا وَرُعُونَةً، شَرَارَةً شَدِيدَةً الْأَثَرُ فِي إِذْكَاءِ الثُّورَةِ وَتَقَرِيبِ خُطُوبَاتِهَا، وَمَزْوَانٌ لَمْ يُفْلِحْ فِيهَا بِإِثَارَةِ النَّاسِ فَقَطْ، بَلْ أَفْلَحَ أَيْضاً بِإِثَارَةِ عَلِيِّ نَفْسِهِ، الَّذِي ضَمِنَ لِلْجُمْهُورِ تَشْوِيقَ الْأُمُورِ عَلَى مَا يَوْعَبُ، وَقَدْ أَشْقَطَ فِي يَدِهِ حَقًّا، وَمَا وَسِعَهُ، نَحْتٌ عَاصِفَةٍ نَفْسِهِ وَعَاصِفَةِ الْجُمْهُورِ الْمَائِجِ، إِلَّا أَنْ يَقُولَ مَقَالَتُهُ الْمَشْهُورَةَ:

«مَا رَضِيتُ مِنْ مَزْوَانَ وَلَا رَضِي عَنكَ، إِلَّا بِتَحْرِيفِكَ عَن دِينِكَ وَعَنْ عَقْلِكَ، مِثْلَ جَمَلِ الطَّعْنَةِ يُقَادُ حَيْثُ يُسَارُ بِهِ. وَاللَّهِ مَا مَزْوَانُ بِذِي رَأْيٍ فِي دِينِهِ وَلَا فِي نَفْسِهِ. وَإِنَّمَا اللَّهُ إِنِّي لِأَرَاهُ سَيُورِدُكَ ثُمَّ لَا يُصْدِرُكَ، وَمَا أَنَا بِعَائِدٍ بَعْدَ مَقَامِي هَذَا لِمَعَاتِبَتِكَ، أَذْهَبَتْ شَرَفَكَ وَغُلِبَتْ عَلَى أَمْرِكَ».

وَدَخَلَتْ عَلَيْهِ أَمْرَانُهُ نَائِلَةٌ آبَتُهُ الْفَرَاغِيَّةُ^(٥)، فَقَالَتْ:

«أَتَكَلِّمُ أَوْ أَسْكُتُ»، فَقَالَ: «تَكَلِّمِي» فَقَالَتْ:

«قَدْ سَمِعْتَ قَوْلَ عَلِيٍّ لَكَ وَإِنَّهُ لَيْسَ يُعَاوِدُكَ، وَقَدْ أَطَعْتَ مَزْوَانَ يَقُودُكَ

حَيْثُ شَاءَ» قَالَ: «فَمَا أَصْنَعُ؟...» قَالَتْ:

«تَتَّقِي اللَّهَ وَتَتَّبِعُ سُنَّةَ صَاحِبَيْكَ مِنْ قَبْلِكَ، فَإِنَّكَ مَتَى أَطَعْتَ مَزْوَانَ قَتَلَكَ.

وَمَزْوَانُ لَيْسَ لَهُ عِنْدَ النَّاسِ قَدْرٌ وَلَا هَيْبَةٌ وَلَا مَحَبَّةٌ. وَإِنَّمَا تَرَكَكَ النَّاسُ لِمَكَانِ مَزْوَانَ مِنْكَ، فَأَرْسِلْ إِلَى عَلِيٍّ فَاسْتَصْلِحْهُ فَإِنَّ لَهُ مِنْكَ قَرَابَةً وَهُوَ لَا يُعْصِي». فَأَرْسَلَ عُثْمَانُ إِلَى عَلِيٍّ فَأَبَى أَنْ يَأْتِيَهُ وَقَالَ: «قَدْ أَعْلَمْتُهُ أَنَّنِي لَسْتُ بِعَائِدٍ».

كَبَّرَ عَلَى عَلِيٍّ مِثْلُ ذَلِكَ الْمُنْطِقِيِّ، الَّذِي فَاجَأَ بِهِ الْجُمُوعُ مَزْوَانُ بِلِسَانِ

(٥) لَيْسَ فِي الْعَرَبِ مَنْ هُوَ يَفْتَحُ الْغَايَةَ لَا يَصْلُحُهَا يَبْزِي أَيْ نَائِلَةً هَذَا وَالْأَخْرُوصُ الْكَلْبِيُّ

الخليفة، وهو يعلم أنه لم يكن بينهم في هذه المرحلة العصبية وبين التلطي وآلتهام الوضع القائم، إلا كلمة رغاء كالتني فاة بها مزوان، على أنها هدمت قيمة وساطته، وألقت في روع الناس آرتياباً حقيقياً حاداً في جدوى مداخلته، لهذا - وهو في مقياس كل عصر مبرر - تنحى واعتزل وأعتصم في حدود هذا التنحي والاعتزال. ولكن علياً، مع كل ما هو عاتب وواجد، لم يزل يُقدّر ويذهب في مدى تقديره بعيداً، فينتهي إلى الكارثة ويتراءى له شبحها، فيزهق هولها ويخشى وقوعها. يجب إذاً أن لا يظل بعيداً، وإن توارى من الميدان إزاء موقف بطانة عثمان من الجمهور، هذا الموقف الثاني المثير، فبادر إلى تقديم ولدته - لاعتباريهما التقديرية - ومواليه، كي يُنقذوا عوادي الأحداث وطايشات الخطوب. وحين بلغه «أن الناس حصروا داره ومنعوه الماء بعت إليه بثلاث قرب، وقال للحسين والحسين: آذها بسيفيكما حتى تقوما على بابي ولا تدعا أحداً يصل إليه بمكروه، وكان أن خضبت الحسن بالدماء وشجق قنبر مؤلده».

وبات علي مطمئناً، فقد رتب الأمور جيداً، وهو واثق من أن مجرى الحادث سييسر على هذا الشكل: يضطر عثمان تحت ضغط الجمهور، إلى إجابة مطالب الإصلاح وتنحية بطانته ولا سيما مزوان، ولوجود آبنيه ومواليه أطمأن من عدم دنو الخطب منه. فإن وجودهم يُعبر عن معارضة عملية أكيدة من جانبه، فلا يتصل به مكروه دام يصعُ حداً لحياته، وإنما كل ما في الأمر أنه سيضع حداً لأساليب الحكم الاستبدادية ومهازله العائقة. وما كان يذري أن المغرضين، ذوي المآرب، كانوا قد آندسوا في الجمهور الذي عدا جد حساس وجد متأثر، فتدفق السيل جارفاً و«جرى الوادي فطم على القرى».

هذا ما عرف التاريخ عن علي وبنيه إزاء المصراع، بينما عرف من ناحية ثانية أن عثمان، وهو محاصر، كتب إلى معاوية وهو بالشام:

«إن أهل المدينة قد كفروا، وأخلفوا الطاعة ونكثوا البيعة، فأبعث إلي من

قَبِيلِكَ مِنْ مُقَاتِلَةِ أَهْلِ الشَّامِ عَلَى كُلِّ صَغَبٍ وَذُلُولٍ»، فَإِذَا مُعَاوِيَةُ حِينَمَا جَاءَهُ كِتَابُهُ «يَتَرَبَّصُ بِهِ فَقَدْ كَرِهَ - عَلَى حَدِّ دَعْوَاهُ - مُخَالَفَةَ أَصْحَابِ الرِّسُولِ، وَقَدْ عَلِمَ أَجْتِمَاعُهُمْ عَلَى ذَلِكَ».

وَمِنْ تَهَكُّمَاتِ الْقَدَرِ أَنْ يُخَرِّضَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ عَلَى قَتْلِ عُثْمَانَ، وَتَجَبُّهُهُ عَائِشَةَ عَلَانِيَةً، وَتَحَلِّي مُعَاوِيَةَ عَنْ تَجَدُّيهِ، وَيُعِينُ عَلَيْهِ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرُ كِلَاهُمَا، ثُمَّ يَتَفَرُّ هَؤُلَاءِ أَنْفُسَهُمْ هُنَا وَهُنَا، يُطَالِبُونَ بِدَمِهِ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ الَّذِي أَخْلَصَ لَهُ النَّصِيحَةَ، وَحَذَرَهُ مِنْ هَذَا الْمَصِيرِ، وَكَانَ مِجْنُهُ دُونَ رَوَاكِضِ الْخُطُوبِ.

*

بَيْنَ حَقٍّ وَبَاطِلٍ وَمُسْتَضْرِحٍ وَنَاكِيلٍ، تَرَاقَصَ الْحُيْطُ مُضْطَرِباً مُتَرَنِّحاً كَبَحْرِ آسْتَقْبَلَ بَيْنَ خَنَايَاهُ الْعَاصِفَةَ...

فَمَادَ بِهَا وَمَادَتْ بِهِ زَمَنًا، وَأَنْطَلَقَ يَقْدِفُ بِالزَّبَدِ يُعَبِّرُ عَنْ أَنَّهُ حَانِئٌ، وَيَزْمِي بِالْمَوْجِ مُتَطَوِّلاً كَأَنَّهُ يَتَهَدَّدُ...

فَقَدْ عَبَّتِ الْعَاصِفَةُ بِأَبْدِيَّةِ الشُّكُونِ الْجَائِمَةِ عَلَيْهِ. وَهُدُوءِ اللَّانِيَهَاةِ الْغَامِضَةِ الْحَائِمَةِ فِيهِ...

*

شَعَرَ الْبَحْرُ^(٦) أَنَّ الصُّخُورَ^(٧) الشَّامِيَّةَ فِي أَرْجَائِهِ لَيْسَتْ مِنْ طَبِيعَتِهِ... فَاسْتَدَارَ عَلَيْهَا يُزْمِجُ نَائِراً هَادِراً، فَقَدْ أَيْقَنَ أَنَّهَا مَكْمَنُ الْعَاصِفَةِ، فَهُوَ يَنْوُءُ بِأَقْتِلَائِهَا...

(٦) كِنَانَةٌ عَنِ الشَّغْبِ الَّذِي هُوَ فِي الْوَاقِعِ بَحْرٌ حَيَزِيٌّ يَفِيضُ بِالْقُوَى، وَتَارِيخُهُ سَبِيلٌ مِنَ الْهُدُوءِ وَالْعَوَاصِفِ وَالْثَّيَّارَاتِ وَالتَّشَاخُرَاتِ بَيْنَ أَحْيَائِهِ.

(٧) كِنَانَةٌ عَنِ الْأَرَسْطَرَاطِيَّةِ، وَمَا حَلَّ مَحَلَّهَا فِي الْمَجْتَمَعِ الْحَدِيثِ، وَفِي الْوَاقِعِ أَنَّ لَهُذِهِ الْأَرَسْطَرَاطِيَّةَ طَبِيعَةَ الصُّخْرِ مِنْ كِبَرِيَاءِ قَابِيَتِيَّةٍ وَجِسَّ بَلِيدٍ.

وحينَ طاولَتْهُ طَمَا عَلَيَّهَا وَتَجَاهَلُ وُجُودَهَا...
وهو، وإنْ لم يَفْتَلِعْهَا، رَدَّهَا إِلَى حَيْثُ لَا يَكُونُ لَهَا حِسَابٌ فِي كِبَرِيَاءِ
الْوُجُود...
*

إِنَّ كِبَرِيَاءَ الْوَاحِدِ تَجَاهُلُ لُجُودِ الْآخَرِينَ...
وَلَكِنْ وُجُودُهُمْ فِي حِسِّ الْوَاقِعِ، أَكْبَرُ مِنْ وُجُودِهِ فِي حِسِّ الْخَيَالِ...
فَإِنَّ وُجُودَهُ قَبْضَةٌ مِنَ الظَّلَامِ، وَوُجُودُهُمْ قَبْضَةٌ مِنَ الشُّعَاعِ...
وَمَا تَقَابَلَا إِلَّا ذَابَ الْأَوَّلُ فِي الثَّانِي دُونَ مَا أَثَرِ يَقْفُو...
إِنَّ الْكِبَرِيَاءَ صِفَةٌ ذَاتِيَّةٌ لِلْكَثَرَةِ، وَهِيَ تُشِيرُ إِلَى الْعَدَدِ...
وَإِذَا نَجَحَ الْفَرْدُ فِي آتِبِلَاعِ الْكُلِّ أَخِيَانًا، فَإِنَّهُ مُتَعَرِّضٌ لِحَظَرِ التَّمَرُّعِ دَائِمًا...
فَالْكُلُّ قُبْلَةٌ قَدْ تَبَوَّرَ حِينًا، وَلَكِنْ فِيهَا إِمْكَانِيَّةُ التَّفَجُّرِ أَبَدًا...
*

فِي طَبِيعَةِ الْبَحْرِ رَشَاقَةُ الْحَرَكَةِ، وَفِي طَبِيعَةِ الصُّخْرِ سُكُونٌ بَلِيدٌ، وَأَيْضًا قَاسٍ
مُتَجَهِّمٌ...
وَبَيْنَهُمَا وَقَفَ إِنْسَانٌ^(٨) فِيهِ وَغْيُ السُّكُونِ وَقَصْدُ الْحَرَكَةِ، يَصِلُ أَشْبَابُ
أَحَدِهِمَا بِأَسْبَابِ الْآخَرِ...
وَكَانَتْ كِبَرِيَاءُ الصُّخْرِ عَمِيَاءَ فَلَمْ تَقْنَعْ بِغَيْرِ وُجُودِهَا، فَانْطَلَقَتْ أَعَاصِيرُ
الْبَحْرِ تَرَاوُ فِي مِثْلِ الْفَحِيحِ...

(٨) يَكْنَايَةُ عَنْ كُلِّ مُضِلِّحٍ إِنْسَانِيٍّ يَفْعَلُ فِي مَهْدِي التَّبَادُلِ كَعَلِيٍّ.

وَوَقَفَ هَذَا الْإِنْسَانُ عِنْدَ الشَّاطِئِ يَنْظُرُ مُتَفَجِّعاً، إِذَا الْوُجُودُ الْمَخْدُوعُ -
الَّذِي أَصْحَى غَوْرًا - تَرْقُصُ فَوْقَهُ مَوْجَةٌ مَارِحَةٌ... فِي نَعْمَةٍ تُخَيِّرُ: أَنَّهُ كَانَ هُنَا شَيْءٌ
فِيمَا زَعَمُوا...

*

مَضَى ذَلِكَ الْإِنْسَانُ وَقَدْ أَبْصَرَ وَسَمِعَ، مُطْرِقًا مُرَدِّدًا: بِهَذَا نَطَقَ الْحَقُّ فِي
صَدَى الْمَوْجِ...

وَرَوَى هَذَا الْإِنْسَانُ لَوَلَدِهِ^(٩) أُمَثُولَهُ، بِنَحْرِ، فَلَبِثَ مُتَأَمِّلًا يُعَبِّرُ عَنْ أَنَّهُ وَعَى...
وَلَمْ يَكُنْ طَوِيلًا، حَتَّى كَانَ بِنَفْسِهِ رَجْفَةً رَعَشَاتٍ وَخَلَجَاتٍ، وَرَجْعَةً أَصْدَاءِ
الْمَوْجِ...

وَشَرَعَ النَّاسُ يَزُودُونَ، بَعْدَ ذَلِكَ، أُمَثُولَةَ آبِنِ الْإِنْسَانِ...

* * *

(٩) كِنَايَةً عَنْ أَهْلِ الْوَعْيِ الْحَدِيدِ كَالْحُسَيْنِ.

في الزوبعة

عن مأساة حمراء اختلطت فيها الأشلاء بالدماء، انكشف الفصل الأخير
من فصول الثورة التي كانت تمثل على أرض المدينة وفي بطحاها الفسيحة
المدى، البعيدة الآفاق، والتي كانت تتجاوب بأصدائها الهادئة هنا وهناك، قريئة
بعيدة، فتتفاعل مع الأحياء تفاعلاً ملوّن الرعشات، فمن يئضاء ناصعة كالزبد، ومن
سوداء فاحمة كالقار، ومن حمراء قانية كالقنم، وأعصاب الجماعات تتمدد
وتتقلص وتغلو وتهبط... فجذلاً هناك وغضباناً هنا، وبين هذا وذاك تنبعث
نأماثٌ مخترقة، أو زفاراتٌ مُحَنِّقة، أو بقايا هتافاتٍ مُعْتَبِطِ طروب.

وهم، وإن لم يجمعهم الأسى، فقد تنفّس سائرهم الصعداء، ولكن لم
تلبث أن دارت الثورة على نفسها بالغة عنيقة، فقد أفتلت قيادها وهبت طائشة
على قطبها، شاردة في لولبها.

كان الجمهور قد ألتهب بروحية الدماء وشربتها، فقد دَمَوياً وشرساً، يصر
على أشنائه في شكل كره، كأنه يتأكلها، أو كأنما يتأكل الأشباح والطيوف التي
استوت في مكان الحيس من نغمته، فهو يتوعد ضارباً بقبضته في الهواء كمن
يبحث في مكامن الفضاء عن أنارٍ عليه خفيظته، والحفاظ قاسية نهمته إذا
انطلق في مدى الشعور المتصري، وأعصاب الحي حينما تضري، وتهيجها

النَّفْمَةُ لَا تَذْهَبُ فِي آتِنَاقِمِهَا إِلَى الْإِيْقَاعِ السَّاحِقِ بَمَنْ أَسْعَرَهَا فَقَطُّ، بَلْ تَرُوحُ
مَاضِيَةً وَرَاءَ ذَلِكَ بَعِيداً. فَهِيَ لَمْ تَزِرْ حُرْقَةَ الظَّمْأِ الْفَائِرِ، فَتَطْلُبُ سَحَقَ أَخْيَلِيَّتِهَا،
وَتُصَارِعُ الْخِيَالَ الْبَغِيضَ الَّذِي تَمَدَّدَ عَلَيْهَا فِي ثَوْرَةِ الدَّمَاءِ... وَمِثْلُ هَذَا الْجُمْهُورِ لَا
يَزْعَى لِلْمَوْتِ قَدَاسَةً وَحُرْمَةً، وَكَذَلِكَ كَانَ فَقَدْ حَالَ بَيْنَ جَسَدِ الْخَلِيفَةِ الْمَفْؤُودِ وَبَيْنَ
الدَّفْنِ، أَنَّهُ حَانِقٌ لَا يُطِيقُ أَنْ يَرَى شَيْعاً يُجَدِّدُ لَهُ الذِّكْرَى أَشَدَّ هَوَلاً.

إِنْطَلَقَ النَّاسُ فِي مَذْهَبِ أَغْصَابِهِمِ الْمُتَأَزِّمَةِ الْمُتَعَقِّدَةِ دُونَ هَوَادَةٍ أَوْ لِينٍ،
يَذْكُرُونَ مَعَالِمَ الْمَاضِي الْقَرِيبِ كَيْفَ حَلَا لَهُمْ، وَيَضْحَكُونَ كَيْفَمَا شَاءَتْ أَهْوَاؤُهُمْ،
وَفِي هَذَا التَّجْمُهِرِ الْكَبِيرِ قَامَ الْأَشْتَرُ مُتَنَصِّباً فَوْقَ الْجُمُوعِ مُلَوِّحاً بِسَيْفِهِ، هَادِراً
بِمَنْطِقِهِ التَّارِيخِيِّ الْمُتَّقِدِ الَّذِي كَانَ يَخْرِجُ مُمْتَدِّاً كَأَلْسِنَةِ اللَّهَبِ قَائِلاً:

أَلَا سَحَقاً لِيَطَانَةِ الْخَلِيفَةِ الْأَشْرَارِ،

وَوَيْلٌ لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَتُونِ الشَّعْبِ الْفَوَّارِ،

فَيْدُ اللَّهِ مِنْ وَرَاءِ الْغَيْبِ تَغْتَصِرُ الْمُشْتَبِّدِينَ الْفُجَّارِ،

وَلَا بُدَّ لِلظُّلَمِ مِنْ أَنْ يَلْتَهِمَهُ فِي ضَمِيرِ الْكَوْنِ أَفْعَوَانُ جَبَّارِ،

وَرَحِمَ اللَّهُ الْخَلِيفَةَ الرَّفِيقَ الَّذِي أَنْقَلَبَ لِيُنْهَ مَعَهُمْ إِلَى أَنْقِيَادٍ وَصْغَارِ،

وَحَيَّا اللَّهُ غَضَبَةَ الْأَحْرَارِ،

وَكِبْرِيَاءَ بَطْشَةِ الشَّعْبِ إِذَا ثَارَ،

الَّتِي أَنْتَصَفَتْ لِلْمَظْلُومِينَ الْأَبْرَارِ،

فَهَوْلَاءِ إِلَى الْجَنَّةِ، وَأُولَئِكَ، أَعْدَاءُ الشَّعْبِ، إِلَى النَّارِ،

وَحَذَارِ أَنْ تَتْرُكُوا لِلْعَادِينَ فُرْصَةَ الْفِرَارِ وَالنَّفَارِ،

فَهَلُمُّوا كَالسَّيْلِ أَنْدِفاعاً إِلَى بَطْلِ الْأَحْدَاثِ الْكِبَارِ،

فقد أُعْطِيَتِ الْقَوْسُ بَارِيهَا وَتَمَّ الْإِنْتِصَافُ وَالْإِنْتِصَارُ،
وَأَطْمَأَنَّ مُشَرَّدُو الطُّغْيَانِ فِي الْقِفَارِ،
وَأَنْتَحَرَ الْعُدُوَانُ وَأَنْصَارُهُ أَيَّ أَنْتِحَارِ،
وَأَغْتَلَى الْحَقُّ عَلَى الْبَاطِلِ، وَذَابَتْ حُلُكَةُ اللَّيْلِ فِي رَائِعَةِ النَّهَارِ.
فَانْطَلَقَ النَّاسُ، يَمُوجُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، وَتَدَافَعُوا فِي كُلِّ طَرِيقٍ كَالْقُلَلِ
السَّاقِطَةِ الْمُنْدَحِرِجَةِ، إِلَى دَارِ عَلِيٍّ يُنَادُونَ بِهِ خَلِيفَةً وَزَعِيمًا.
كَانَ فِي مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ جَمَاعَةٌ يَتَجَادَبُونَ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ، فِي شَيْءٍ مِنْ
التَّنَافُرِ فِي الرَّأْيِ وَالنَّظَرِ إِلَى الْحَدِيثِ الدَّامِي الَّذِي تَمَّ عَلَى أَيْدِي النَّاسِ.
قَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ: لَقَدْ عَدَا النَّاسُ أَقْدَارَهُمْ وَائِيَمُ اللَّهِ، وَاسْتَطَالُوا عَلَى
مَقَامِ الْخِلَافَةِ، وَلَمْ يَزْعُمُوا حَصَانَةَ الْعَهْدَةِ الَّتِي تَمَّتْ بِالْإِنْتِخَابِ، وَلَكِنْ:
مَنْ سَرَّهُ الْمَوْتُ صِرَافًا لَا مِزَاجَ لَهُ فَلْيَأْتِ مَأْسَدَةً فِي دَارِ عَفَانَا
لَتَسْمَعَنَّ وَشِيكَاً فِي دِيَارِهِمْ أَلَلُّهُ أَكْبَرُ يَا ثَارَاتِ عُثْمَانَ
قَالَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ: مَاذَا تَقُولُ؟ عَدُوا أَقْدَارَهُمْ فَقَطُّ! بَلْ هُمْ أَكْثَرُ
سَفَاكُونَ، وَنَحْنُ لَمْ يَفْتُنَّا مِنْ إِيْمِهِمْ، بَلْ نَصِيبُ كَبِيرٍ بِمَا اقْتَرَفُوا. كَانَتْ جِنَايَةً مَا
أَهْوَلُهَا! إِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَى أَيْدِينَا نَحْنُ، نَعَمْ، نَحْنُ، فَلَا أَرَاهَا إِلَّا مُلَطَّخَةً بِالدَّمِ الزَّكِيِّ
الْبَرِيِّ. لَقَدْ شَارَكْنَا هَؤُلَاءِ الْمَجْرِمِينَ إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ، بَلْ كُنَّا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، كُنَّا مَطَايَا
الْجَرِيمَةِ.

لَعَلَّكُمْ لَا تَذَرُونَ أَنَّ فِي الْحَادِثَةِ يَدًا مَجْهُولَةً حَاكَّتْ هَذِهِ الْمُوَازَةَ الطَّاعِيَةَ مِنْ
أَطْرَافِهَا، وَأَحْكَمَتْ أَسْبَابَهَا. نَعَمْ اسْتَطِيعَ أَنْ أَتَّهِمَ وَأُعْلِنَ بِمِلِّ فَمِي أَنْ وَرَاءَ الْأَكْمَةِ
مَا وَرَاءَهَا... وَابْتَسَمَ آتِيسَامَةُ صَفْرَاءُ كَالْفَحِيحِ فِي شِفَاوِ مُلْتَوِيَةٍ مَقْلُوبَةٍ صَحَبَهَا

تَكَثَّرَ فِي الْجُفُونِ كَأَنَّهُ يُشِيرُ... وَلَكِنَّهَا أَكَمَّةٌ شَفَافَةٌ تُرَى مِنْ خِلَالِهَا الْأَشْبَاحَ.

تَنَمَّرَ جَهْجَاهُ الْغِفَارِيُّ وَرَدَّ عَلَيْهِ: بَلْ بَاءَ أَصْحَابُكَ بِشَرِّ أَعْمَالِهِمْ، وَإِنْ مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ لَيَنْتَظِرُهُ يَوْمٌ أَكْثَرُ سَوْءًا، وَلَوْ كَانَتْ الْأُمُورُ إِلَيَّ لَمَا تَرَدَّدْتُ فِي أَنْ أَبْطِشَ بِكَ أَوَّلَ مَا أَبْطِشُ، فَأَنْتَ هُوَ رَأْسُ الْأُنْعَى، وَبِنَفْسِي أَنْ أَرْوِيَ بِكَ أَعْصَابِي الظَّامِئَةَ.

فِيكَ وَفِي أَصْحَابِكَ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: «مَتَى اسْتَغْبِذْتُمُ النَّاسَ وَقَدْ وَلَدْتُهُمْ أُمَمًا تَهُمُّ أَحْرَارًا»، أَلَمْ يَقُلْهَا لِعَمْرُو بْنِ الْعَاصِ وَآتِيهِ يَوْمَ سَامَا الْمِصْرِيِّ الْبَرِيءِ وَأَضْطَهْدَاهُ اسْتِغْلَاءً فِي الْأَرْضِ وَعُتُوًّا. قَالَ هَذَا فِيكُمْ وَلَمْ تَتَرَبَّعُوا عَلَى دَسْتِ الْحُكْمِ، وَلَمَّا تَصِرْ مَقَالِيدُ الْأُمُورِ وَأَسْبَابُ السُّلْطَانِ إِلَى أَيْدِيكُمْ، فَكَيْفَ وَقَدْ تَسَوَّدْتُمْ؟ أَرَدْتُمُوهَا فِرْعَوْنِيَّةً وَرُبُوبِيَّةً، وَرَكِبْتُمُ النَّاسَ بِالْبَغْيِ مَطَايَا شَهَوَاتٍ... وَثَارَتْ بِهِ حَفِيزَتُهُ، فَانْقَلَبَتْ سَخَنَتُهُ وَتَجَهَّمَتْ عَلَى شَكْلِ مُنْكَرٍ، وَبَدَّرَتْ مِنْهُ حَرَكَةٌ تُنْذِرُ بِشَرٍّ، لَوْلَا أَنْ خَفَّ عَمَارُ بْنُ يَاسِرٍ فَحَالَ دُونَهُ، وَتَنَاوَلَ الْحَدِيثَ:

كَمَا تَقُولُ - يَا مُغِيرَةُ - إِنَّ وَرَاءَ الْأَكَمَّةِ مَا وَرَاءَهَا، وَلَكِنْ كَمْ يُسْقَطُ فِي يَدِكَ إِذَا لَمْ يَكُنْ وَرَاءَ الْأَكَمَّةِ إِلَّا بَطَانَةُ الْخَلِيفَةِ الرَّاجِلِ نَفْسُهَا، ثُمَّ لَمْ تَنْكَشِفْ عَنْ أَحَدٍ سِوَاهُمْ، فَأَنَا أَرَى كَمَا تَرَى وَأُقَدِّرُ مِثْلًا تُقَدِّرُ، بَيِّدَ أَنِّي كُلَّمَا حَدَقْتُ بَيْنَ الْخِلَالِ، وَأَطَلْتُ التَّحْدِيقَ وَأَنْعَمْتُ النَّظَرَ، فَلَسْتُ أَرَى وَرَاءَ الْأَكَمَّةِ إِلَّا مَنْ ذَكَرْتُ لَكَ، ثُمَّ لَا أَرَى إِلَّا إِيَّاكَ وَأَصْحَابَكَ.

نَعَمْ فِي مَضَرِعِ الْخَلِيفَةِ الْفَطِيحِ مُؤَامَرَةٌ أَنْتُمْ نَظَّمْتُمُوهَا بِأَنْفُسِكُمْ، وَقَدْ يَقَعُ غَرِيبًا عَلَيْكَ أَنْ يَتَأَمَّرَ الْمَرْءُ بِنَفْسِهِ، وَقَدْ تَسَحَّرَ فِي سِرِّكَ مِنْ قَوْلِي، وَلَكِنَّ الْمَتَهَوِّزَ الطَّائِشَ طَالَمَا نَالَ نَفْسَهُ بِحُسَامِيهِ، كَذَلِكَ الصَّائِدُ الَّذِي حَمَلَ فِخَاخَهُ وَأَنْطَلَقَ يُرِيدُ الطَّيَاءَ، فَقَالَ لِنَفْسِهِ: لَوْ حَمَلْتَهَا مَفْتُوحَةً مُهَيَّأَةً لَكُنْتُ أَسْرَعَ إِلَى نَيْلِ الْغَايَةِ وَأَرْجَى فِي الْفَائِدَةِ، فَقَعَلَ وَسَارَ... وَلَمْ يَمُضْ بَعِيدًا حَتَّى أَطَبَّقَ بِهِ فَتَحَ مَعَ حَرَكَاتِ الْمَسِيرِ،

فَسَقَطَ يَفْخَصُ فِي الْأَرْضِ^(١)، وَقَدْ قَنَصَ نَفْسَهُ فِي شَهْوَةِ الظُّبَاءِ.

إِنَّكَ أَدْرَى مِنْ غَيْرِكَ بِمَا كَانَ مِنْ سِيَاسَةِ بَطَانَةِ الْخَلِيفَةِ الْقَائِمَةِ عَلَى الْعَسْفِ، حَتَّى لَكَانَتْهَا تَمْشِي عَلَى الْجَمَاجِمِ وَتَتَنَعَّمُ عَلَى أَشْلَاءِ الْأَحْيَاءِ. لَقَدْ ضَنُّوا عَلَيْهِمْ حَتَّى بِمَا يَسُدُّ رَمَقَهُمْ وَيَبُلُّ حُلُوقَهُمْ، وَيَخْلُوا عَلَيْهِمْ بِأَقْلٍ مِنَ الْقَلِيلِ، وَسَامُوهُمْ إِذْ لَالًا، وَأَوْرَدُوهُمْ مَوْرِدَ التَّهْلُكَةِ.

فَبَعَثَ تِلْكَ الْبَطَانَةُ بِسُكْنَى الْقُصُورِ الْمَبْثُوثَةِ بِالرِّيَاشِ، وَأَصَمُّوا آذَانَهُمْ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ الصَّارِخِ الْمُنْبِيعِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَأَوْهَمُوا الْخَلِيفَةَ الرَّقِيقَ الْحَاسَةَ أَنَّ الشُّعْبَ فِي أَسْعَدِ مَا يَكُونُ حَيَاةً، وَضَرَبُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ بِأَسْوَارٍ وَحُجُبٍ، وَمَتَّعُوهُ عَنِ الشُّعْبِ وَمَتَّعُوا الشُّعْبَ عَنْهُ، وَسَمَّوْا رَأْيَهُ فِي النَّاصِحِينَ الْمُخْلِصِينَ، وَجَعَلُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَوْصِيَاءَ عَلَى الْخَلِيفَةِ الَّذِي شَاؤُوا الْحَجَرَ عَلَيْهِ، وَغَفَلُوا عَنْ أَنَّ الْقُصُورَ الَّتِي آغْتَصَمُوا بِهَا قَامَتْ عَلَى أَجْسَادٍ حَيَّةٍ تَتَحَسَّسُ بِالْآلَامِ، وَكَانَ فِي آتِنَفَاضَةٍ مِنْ آتِنَفَاضَاتِهَا مَا أَحَالَ دُنْيَا تِلْكَ الْقُصُورِ أَطْلَالًا وَخَرَابًا.

إِنَّ هَؤُلَاءِ النَّائِرِينَ لَمْ تَحْدُثْهُمْ فِكْرَةُ الْجَرِيْمَةِ وَلَا شَهْوَتُهَا، وَإِنَّمَا حَدَاثُهُمْ تَنَفُّسُ الْحُرِّيَّةِ الْمَضْغُوطَةِ بَيْنَ ضُلُوعِهِمْ، كَمَا رَامُوا، بِإِخْلَاصٍ، إِنْقَادَ الْخَلِيفَةِ مِنْ بَطَانَتِهِ، وَرَفَعَ وَصَايَتِهَا الْقَسْرِيَّةَ عَنْهُ، وَإِنْ كَانَ خَلِيقًا بِهَذِهِ الْوَصَايَةِ حَقًّا، وَبِمِثْلِ هَؤُلَاءِ الْأَوْصِيَاءِ، فَمَا هُوَ وَالْخِلَافَةُ إِذَا ؟

وَلَكِنْ طَاشَ بِالنَّائِرِينَ السَّهْمُ فَأَصَابَ مَنْ لَمْ يَكُنْ هَدَفًا، يَبْدَأُ أَنَّهُ يُعْزَى أَنْ الْبَطَانَةَ أُصِيبَتْ فِي مَقْتَلِهَا بِمَصَابِيهِ، فَمَصَابِيْهُ، وَإِنْ يَكُنْ خَطَأً فِي حِسَابِ الشُّعُورِ، فَإِنَّ سَقُوطَ تِيكَ الْبَطَانَةِ كُلِّ الْعَدْلِ فِي حِسَابِ الْفِكْرِ، وَالْجُمْهُورُ الشَّاعِرُ لَا يُحَدِّدُ التَّيْعَةَ بِمَنْطِقِ الْقَانُونِ بَلْ بِمَنْطِقِ الْأَلَمِ، فَلَيْسَ بِدَعَا إِذَا تَجَاوَزَ وَاسْتَفْحَلَ. وَلَوْ تَنَاوَلْنَا

(١) تَغْيِيرُ كِنَايَةٍ يَتَوَنَّنُ بِهِ يَضْرِبُ أَدِيمَ الثَّرَابِ بِبَاطِنِ الْقَدَمِ.

المَوْقِفَ، حتَّى بَمَنْطِقِ القانون، فَإِنَّ دَعْوَى التَّغْرِيرِ بِهِ لَا تُنْقِذُهُ مِنَ الجَزَاءِ، وَلَقَدْ أَلَّفَ الشَّعْبُ مَحْكَمَتَهُ، فَلَهُ الْكَلِمَةُ الْأُولَى وَالْآخِرَةُ، وَلَقَدْ قَالَهَا بِكُلِّ وُضُوح.

وإِنْ كَانَ حَقًّا مَا تَقُولُ مِنْ أَنَّ النَّائِزِينَ غَضَبُهُ مُجْرِمَةٌ، فَإِنَّ تِيكَ الْبِطَانَةُ أَهْوَلُ جَرِيمَةٍ حِينَ دَخَلُوا بِهَا إِلَى كُلِّ بَيْتٍ. وَلَسْتُ بِهَذَا أُرِيدُ تَبْرِيرَ الْخَطْبِ، وَلَكِنِّي أَقْصِدُ إِلَى هَذِهِ فِكْرَةِ الْجَرِيمَةِ عَلَيْكَ الَّتِي تُغْلِنُهَا، وَلَعَلَّكَ تَعِي.

فَقَالَ جَهَّجَاهُ الْغِفَارِيُّ: تَقُولُ لَعَلَّهُ يَعِي؟ أَأَنْتَ غَرِيبٌ عَنْ شِبَاكِهِ وَأَحَابِيلِهِ. إِنَّهُ يُرِيدُ بِقَصْدٍ تَسْمِيمَ رَأْيِ النَّاسِ وَتَبْلِيَّتِهِمْ، وَلَا يَلْبَثُ هُوَ وَمَنْ فَاتَنَا مِنْ بِطَانَةِ الْخَلِيفَةِ، حَتَّى يُلَاحِظُوا بَيْنَ النَّاسِ بِالْعُثْمَانِيَّةِ، وَيَجْعَلُوا مِنْ عُثْمَانَ مَوْضِعًا ثَائِرًا قَصْدَ إِلْقَاءِ الشَّعْبِ فِي الْفَوْضَى، وَأَنْكِفَائِهِ كُتْلًا عَلَى نَفْسِهِ، وَمَا أَسْرَعَ تَرَدُّدَ الْجُمُوعِ، فَهِيَ لَا تُحَاكِمُ وَلَكِنَّا تَشْعُرُ بِمُبَالَغَاتٍ.

فهذا - وأشار إلى المغيرة - يَغْتَمِدُ عَلَى رُوحِيَّةِ الْجُمْهُورِ، قَصْدَ الْحَارَظَةِ بِالْعُنْصُرِ النَّفْسِيِّ الْقَلْبِيِّ لِإِبْجَادِ حَالَةٍ فَوْضَى شَامِلَةٍ، وَهُوَ لَا يَأْتِيهِ، بِسَبِيلٍ مَا يُرِيدُ، أَنْ تَنْذَكَ مَعَالِمُ مُجْتَمَعِنَا الْعَظِيمِ. لِنَقْرِضَ أَنَّ عُثْمَانَ صُرِعَ بِقَصْدٍ أَنْ يُصْرَعَ فَقَدْ صُرِعَ عُمرُ مِنْ قَبْلِهِ، وَمَا تَهْمُنَا فُرُوقُ الْمَلَابَسَاتِ الَّتِي نَجِدُ قِيَمَتَهَا فِي الْإِعْتِبَارِ الْفَرْدِيِّ دُونَ الْإِعْتِبَارِ الْاجْتِمَاعِيِّ، فَهُمَا، كَحَادَثَيْنِ، سَوَاءٌ بِسَوَاءٍ. فَلِمَاذَا يُحَرِّضُ بِالْإِتْهَامِ، وَيَسْتَشِيرُ بِالتَّفَجُّعِ وَالتَّوَجُّعِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ يَقْصِدُ شَرًّا؟

قَالَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ: نَعَمْ، أَجْدَى عَلَيْنَا، وَأُولَى بِنَا، أَنْ نَعْتَبِرَ بِالْحَادِثِ وَلَوْ لَمْ يَخْلُ مِنْ خَطَأٍ، فَتُدَاوِي الْوَضْعَ وَنَجْتَهِدَ جَيِّدًا بِحُسْنِ التَّائْتِي، كَيْ نَحُولَ بَيْنَ الشَّعْبِ، بِمَنْعِ الْأَسْبَابِ، وَبَيْنَ الْعَوْدَةِ إِلَى آوْتِكَابِ خَطَأٍ جَدِيدٍ مِنْ شَاكِلَتِيهِ. قَدْ مَاتَ الْمَيِّتُ وَبَقِيَ الْحَيُّ مُضْطَرِّبًا، فَلَنَعْرِفْ كَيْفَ نُدْخِلُ الْاطْمِئْنَانَ إِلَى نَفْسِهِ، وَبِذَلِكَ نَكُونُ قَدْ أَصْلَحْنَا الْخَطَأَ وَرَبَحْنَا الْمُسِيبَةَ. وَأَمَّا تَزْوِيعُ الْجُمْهُورِ، بِثَهْمَةِ الْإِجْرَامِ وَالْدِّمِ، فَإِنَّهُ تَكْبِيرٌ لِدَائِرَةِ الْخَطَأِ وَتَوْسِيعٌ لِحَوَاشِي الدِّمَاءِ، وَمَا أَرَى هَذَا إِلَّا دَعْوَةً جَاهِلِيَّةً تَقُومُ

على الانتقام في غرضها القريب، وعلى المؤامرة بالنظام في غرضها البعيد...
وقطع حسان عليه تسلسل حديثه حين انتهى إلى هذه النقطة، فقد مضى
يُرَدِّدُ قول الشاعر:

قومي هُمُو قَتَلُوا أُمِيمَ أَخِي فَإِذَا رَمَيْتُ يُصَيِّبُنِي سَهْمِي
أَصْبَحَ عَلَيَّ الْخَلِيفَةُ، وَاجْتَمَعَتْ فِي يَدَيْهِ مَقَالِيدُ الْأُمُورِ، فَثَابَ إِلَى الْمَجْتَمَعِ
هُدُوؤُهُ مَشْفُوعاً بِالْأَمَلِ وَارْتِقَابِ فَجْرِ جَدِيدٍ.
وبدأ علي، أول ما بدأ، بإعطاء الحق إلى الشعب، فقد وجد أن مشاكِلَهُمُ
المعلقة أضحت مُزِمَّةً لم يُبَتِّ فيها بشيء، فعطف على آلام هذا الجمهور، وواساه
بنفسه وقلبه ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

وذهب مع تقديره بأن المجتمع الذي يقوم النظام فيه على برنامج غير
مكتوب، يظل غرضة للعيب والتلاعب والتصرفات التي من شأنها أن تُضيرهُ، إذا لم
يُقَصِدْ أولاً، وقبل كل شيء، إلى الاختيار وانتقاء الشخصيات التي تضم، إلى
الكفاءة، الإخلاص والضمير. بل من رأي علي أن الإصلاح، حتى في المجتمعات
التي يشتمل النظام فيها على برامج مكتوبة، لا يتيم على وجه مضمون إلا
بالشخصية المنتقاة، ولمس، إلى ذلك، أن أكبر عناصر الشكوى وأهم أجزاءها هو
الجزء الخاص بالأمراء والولاة، فبادر قُدماً إلى تغيير التعيينات.

وكان طلحة والزبير كلاهما مرشحاً لولاية من ولايات الأنصار الكبرى،
فلما أظهر على أن التعيينات الجديدة لم يُصنَّها منها نصيب، امتنعوا نوع
امتناع، ولمسا في الطرف الذي لم يزل قلقاً مضطرباً، ما يُمكنُهُما من القيام بحملة
ضغط على الخليفة الجديد، لا سيما وقد وجدوا في الناس من يطالب بإقامة الحد
الشَّرْعِيِّ على الذين باشروا الاعتلالات بالنفس.

وعليّ لم يُؤخّزهما من حيث إنّهما ليسا بالجدريّين، فهما من ذوي السابقة، ومن أقدر العناصير، بل لأنّ الظرف لم يزل يعجّ بالحزبيّة ولم يزل مُتَشَبِّعاً بروحها. فإذا بعثَ بهما إلى الأقاليم التي تُناصِرُهُما، كالكوّفة بالنّظر إلى الزّبير، والبصرة بالنّظر إلى طلحة، فقد سهّلَ لهما حرّيّة التّصرّف والانفراد بالرّأي لمكان الثّقة الحزبيّة. وحرّيّة التّصرّف هي التي بات يشكو الناس منها، كما كان الحال بمعاوينة في الشّام على عهد عُثمان، على أنّ الأمير يُصبح، بهذه الحزبيّة المناصرة، قليل الاهتمام بأوامر السّلطة العليا، بحيثُ تتخذُ به الأقاليم، في كلّ مكان، شكل إقطاعيات لا تتصلّ بالمرجع الأعلى الإيجابيّ المسؤول إلّا اتّصالاً إسميّاً. وإذا تأرّمت العلاقة بين الرّئاسة العليا والأمير، استطاع الانفراد بإقليمه، وقطّع العلاقة التي لم تكن تُعبّر عن اتّصال إيجابيّ. وهذا خطرٌ يهدّد الدّولة، وداءٌ وييل في جسد الحكم، خصوصاً إذا تواطأ طائفة من أمراء الأقاليم على العصيان باتّفاق المصالح الموجبة، فإنّه يقع الخطر الحقيقي على الكيان الحكومي، كما تطلّ هذه الصّلة الإسميّة للإقليم الإقطاعيّ ينبوع ضررٍ للرّئيس الأعلى، وذلك حين لا يحفل الأمير بالأوامر التي تصدرُ له، ولا يزهّب مزجعةً فيغيث كيف شاء، ويكون المسؤول عن تصرّفه هو الرّئيس الأعلى في نظر الشعب، فيثبّتهم بالتواطؤ معه أو بالتغافل عنه، رغم أنّه، في الواقع، لا يستطيع أن يحيك معه حيكاً، مثلما كان الحال في زمن عُثمان، فقد أصبح اتّصال الأقاليم بمركز الخلافة إسميّاً، والأمير الإقطاعي يتصرّف كيف حلا له، لا ينتظر أمراً ولا يخضع لأمر. وإنّما يستخدِم ذلك الطّابع (الإكليشه): «هذا أمرُ الخليفة» سِتاراً فقط، كما كان يفعل معاوية في الشّام، فاتّهم الخليفة وآسّحقيق ونسبت القوضى.

وإذا بعثَ بهما عليّ إلى الأقاليم الأخرى، وليس لهما فيها أنصارٌ وأشياخ، بل على العكس أعداء حزبيّون، فقد أعاد الوضع إلى القلبي، ودفع الجمهور إلى التّمرد بالشّكوى المصطنعة، فعمد إلى مداواة الحالة العامّة، وحنق الحزبيّة وغنّعاتها،

وإيجاد جسم اجتماعي سليم أولاً. فَبَيْنَ يَدَيْهِ مُجْتَمَعٌ مَرِيضٌ، وهو يَتَطَلَّبُ
شَخْصِيَّاتٍ جَدِيدَةً لَمْ تَنْحَرِطْ فِي الْحَقْلِ الْعَامِّ، والحياة السياسية الصَّاحِبَةِ
الْمُتَنَاجِرَةِ، حتَّى إِذَا تَمَّ لَهُ مَا يُرِيدُ عَادَ فَفَكَّرَ فِيهِمَا وفي سِيَوَاهُمَا. وَلَكِنَّهُمَا فَسَّرَا
إِغْفَالَهُمَا بِالْعَدَاءِ، فَانْصَرَفَا إِلَى إِيجَادِ الْوَسَائِلِ الْقَمِينَةِ بِالضُّغْطِ، فَوَجَّهَا وَجْهَهُمَا
شَطْرَ مَكَّةَ. وَبَيْنَا هُمَا فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ لَقِيَا عَائِشَةً وَهِيَ قَائِلَةٌ مِنْ مَكَّةَ، فَزَوَّيَا لَهَا مَا
كَانَ مِنْ أَمْرِ الثَّائِرِينَ وَعُثْمَانَ، وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ وَعَلِيٍّ، وَكَاشَفَاها بِمَا عَزَمَا عَلَيْهِ.
وَصَادَفَ هَذَا رَغْبَةً خَفِيَّةً فِي ضَمِيرِهَا وَهَوًى كَامِناً، بِمَا اسْتَطَاعَ الرَّيُّزُ، بِمَا لَهُ مِنْ
دَالَةٍ عَلَيْهَا، وَهُوَ زَوْجُ أُخْتِهَا أَشْمَاءَ، وَوَالِدُ مَنْ اسْتَخْلَصَتْهُ لِنَفْسِهَا مِنْ أَثْنَائِهِ، حتَّى
آخْتَارَتْ لِكُنْيَتِهَا أَسْمُهُ وَذَلِكَ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُهُ. فَحَمَلَهَا عَلَى الرَّجْعِ، وَسَهَّلَا لَهَا
الْخَوْضَ فِي مَفْتَعَةٍ سِيَاسِيَّةٍ طَاحِنَةٍ، اتَّصَلَتْ حتَّى أَنْقَلَبَتْ دَمَوِيَّةٌ حَادَّةٌ.

وَلَمَّا هَبَطُوا مَكَّةَ وَجَدُوا فِيهَا قُلُوبَ الْأُمُوتِينَ، فَفَكَّرُوا جَمِيعاً بِاسْتِغْلَالِ الْمَوْقِفِ
وَتَرْتِيبِهِ عَلَى هَذَا الشَّكْلِ:

يَغْصِي بِالشَّامِ مُعَاوِيَةُ، وَهُمْ يَغْضُونَ بِالْعِرَاقِ، حتَّى إِذَا اسْتَقَامَ لَهُمُ الْأَمْرُ
وَأَسْتَقَرَّوْا، حَاصَرُوا الْحِجَازَ وَأَنْتَزَعُوا مُقَدَّرَاتِ السُّلْطَةِ الْعُلْيَا، وَأَزْعَمُوا الْخَلِيفَةَ عَلَى
التَّسْلِيمِ بِمَطَالِبِهِمْ.

إِنِّصَلَ بَعْلِي كُلُّ مَا دَارَ بِخَلْدِهِمْ وَمَا عَزَمُوا عَلَيْهِ، وَاتَّصَلَ بِهِ، فَوْقَ ذَلِكَ،
أَنَّ الْخَطْبَ سَيَعْدُو دَائِرَتَهُ الضَّبِّقَةَ، لِنُزُولِ عَائِشَةَ إِلَى الْمَيْدَانِ بِمَا تَبَعَتْهُ مِنْ خَامِدَاتِ
النُّفُوسِ، وَفِي الْحَيْطِ الْعَرَبِيِّ خُصُوصاً. أَلَيْسَتْ أَمْرَاءُ وَأَمْرَأَةٌ لَهَا قِيَمَتُهَا وَمَنْزِلَتُهَا
الرَّوْحِيَّةُ الْفَرِيدَةُ؟ فَهِيَ زَوْجُ النَّبِيِّ وَأَبْنَةُ الْخَلِيفَةِ الْأَوَّلِ، وَمَزْجَعٌ عِلْمِيٌّ فِقْهِيٌّ. وَمِنْ
نَاحِيَةِ ثَانِيَةٍ، أَلَيْسَ الْمَوْضُوعُ نَفْسُهُ حَسَاساً مُثِيراً؟ أَلَيْسَ كُلُّ الثَّائِرِينَ الَّذِينَ تَمَّ الْحَادِثُ
عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي صُفُوفِ عَلِيٍّ؟ أَلَيْسَتْ نَفْسِيَّةُ الْجُمُوعِ شَدِيدَةُ الْحَسَاسِيَّةِ بِهَوْلِ الدَّمِ
الْمَطْلُولِ، وَضَعِيفَةُ الْحَاكِمَةِ وَالْمُوَازَنَةِ؟ أَلَيْسَ الظَّرْفُ مُتَبَلِّلاً يَمِيدُ وَيَمُورُ بِالْفَوْضَى؟

ففي الأمر إذا عُدَّةٌ خطيرة، ولا بُدَّ أن يَسْتَعْلَهَا هؤلاء الواجدون.

فَكَرَّ وَقَدَّرَ وَقَلَّبَ وَجَوَّهَ الرَّأْيَ، حَتَّى آتَتْهُى إِلَى أَنَّ الْحَالَةَ النَّاشِئَةَ الْبَادِيَةَ، سَتَسْتَحِيلُ إِلَى فَوْضَى خَطِيرَةٍ، قَدْ تَنَدَّدَتْ مَعَهَا ضُرُوحُ الْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ، وَأَنْتَهَى أَيْضاً إِلَى أَنَّ صِفَةَ التَّبَلُّلِ، وَهِيَ تُسَاعِدُ عَلَى الدُّسِّ وَالْإِنْهَارِ، لَا يَحْسِبُهَا إِلَّا عَمَلٌ سَرِيعٌ غَنِيْفٌ. وَفَكَرَّ كَثِيراً قَبْلَ أَنْ آتِبْدَأَ بِطَلْحَةِ الرَّبِّيْرِ، وَمِنْ وَرَائِهِمَا عَائِشَةُ، فَقَدْ لَمَسَ خَطَرَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَمْلِكُونَ مِنْ أَشْبَابِ الشَّيْطَرَةِ وَالتَّأْثِيرِ الرُّوحِيِّ قَدْرًا كَبِيراً، وَقَدْ أَوْضَحَهُ بِقَوْلِهِ:

«بُلِيتُ بِأَنْصُ النَّاسِ، وَأَنْطَقِي النَّاسِ، وَأَطْوَعِ النَّاسِ فِي النَّاسِ. يُرِيدُ بِأَنْصُ النَّاسِ يَغْلَى بَنَ أُمِّيَّةً، وَكَانَ أَكْثَرَ النَّاسِ مَالاً وَنَاضاً، وَأَنْطَقِي النَّاسِ طَلْحَةَ بَنَ عُيَيْدِ اللَّهِ، وَأَطْوَعِ النَّاسِ فِي النَّاسِ عَائِشَةَ».

وَمِنْ نَاحِيَةٍ ثَانِيَةٍ فَقَدْ آسْتَجَلَى طَبِيعَةُ الْبَصْرَةِ، عَلَى ضَوْءِ الرُّوحِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ بَارِزَةً فِي الْعِرَاقِ إِذْ ذَاكَ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى مَكَانِ التَّفَكُّكِ وَالتَّفْسُخِ، وَعَدَمِ الْأَنْسِجَامِ وَالتَّمَاثُلِ، بَيْنَمَا الشَّامُ كَانَتْ عَلَى الْعَكْسِ مُتَمَاثِلَةً بِوَحْدَةِ الدِّمِّ وَالتَّعْرِيرِ. فَالْبَصْرَةُ إِذَا أَقَلَّ غَنَاءٌ وَأَكْثَرَ خَطَرًا وَأَبْعَدَ نَفُودًا، بِمَا يَمْلِكُ اللَّاجِئُونَ إِلَيْهَا مِنْ صَدَى بَعِيدٍ، عَمِيقِ التَّجَاوُبِ فِي النَّفْسِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ الْعَامَّةِ. فَكَانَ لِرَامَا أَنْ يَنْبَعَثَ قَوْرُهُ إِلَيْهِمْ، وَيَتَّخِذَ الْبَصْرَةَ هَدَفَ ضَرْبَتِهِ الْأُولَى الْخَاطِفَةِ السَّاحِقَةِ، فَيُزْهِبَ بِهَا الْمُتَمَرِّدِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَمَجَالٍ.

وَأَقَامَ خُطَّتَهُ عَلَى حَوْبِ الشَّرْعَةِ لِيَكُونَ نَجَاحُهَا مَضْمُونًا، فَيُعِيدَ الثَّقَّةَ الْمَفْقُودَةَ، بَعْدَ الثَّوْرَةِ، إِلَى الْهَيْئَةِ الْحَاكِمَةِ الْجَدِيدَةِ، وَيَضْبِطَ الْعَاصِفَةَ. كَمَا آسْتَعَانَ بِالنُّقْدِ وَالِدَّاعِيَةِ أَدَاةَ حَرْوِيَّةٍ هَائِلَةٍ التَّأْثِيرِ، وَأَذْرَكَ ضَرُورَةَ هَذَا الْعُنْصُرِ فِي الْحَرْبِ. فَدَفَعَ أُمَّ سَلَمَةَ، زَوْجَ النَّبِيِّ، وَهِيَ مِنْ أَغْوَانِهِ، إِلَى آتِنِقَادِ عَائِشَةَ عَلَى شَكْلِ حَادٍّ، فِيمَا أَقْدَمَتْ عَلَيْهِ مِنْ مُعَاوَرَةٍ، فَكَتَبَتْ إِلَيْهَا، وَمِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ أَذِيعَ الْكِتَابُ وَهُوَ:

«مِنْ أُمِّ سَلَمَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ، إِلَى عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنِّي أَحْمَدُ اللَّهَ إِلَيْكَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ هَتَكَتِ سُدَّةَ بَيْنِ رَسُولِ اللَّهِ وَأُمَّتِهِ. جَمَعَ الْقُرْآنُ ذُبُولَكَ فَلَا تَسْحَبِيهَا، وَسَكَرَ خَفَازَتُكَ فَلَا تَبْتَدِلِيهَا، فَاللَّهُ مِنْ وَرَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ... لَوْ عَلِمَ رَسُولُ اللَّهِ أَنَّ النِّسَاءَ يَحْتَمِلْنَ الْجِهَادَ عَهْدَ إِلَيْكَ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ قَدْ نَهَاكَ عَنِ الْقِرَاطَةِ فِي الدِّينِ. فَإِنَّ عَمُودَ الدِّينِ لَا يَثْبُتُ بِالنِّسَاءِ إِنْ مَالَ، وَلَا يُزَابُ بِهِنَ إِنْ أَنْصَدَعَ. جِهَادُ النِّسَاءِ غَضُّ الْأَطْرَافِ وَضَمُّ الدُّيُولِ وَقَصْرُ الْمَوَادَّةِ. مَا كُنْتُ قَائِلَةً لِرَسُولِ اللَّهِ لَوْ عَارَظَكَ بِبَعْضِ هَذِهِ الْقَلَوَاتِ، نَاضَةً قَعُوداً مِنْ مَنْهَلٍ إِلَى مَنْهَلٍ، وَعَدّاً تَرْدِينَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَأُقْسِمُ لَوْ قِيلَ لِي يَا أُمُّ سَلَمَةَ ادْخُلِي الْجَنَّةَ لَا تَسْحَبِينَ أَنَّ أَلْقَى رَسُولُ اللَّهِ هَاتِكَةً حِجَاباً ضَرَبَهُ عَلَيَّ... فَاجْعَلِيهِ سِتْرَكَ، وَقَاعَةَ الْبَيْتِ حِصْنَكَ، فَإِنَّكَ أَنْصَحُ مَا تَكُونِينَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ مَا قَعَدْتَ عَنْ نَصْرَتِهِمْ. وَلَوْ أَتَى حَدَّثُكَ بِحَدِيثٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ لَنَهَشْتُ نَهْشَ الرَّقْشَاءِ الْمُطْرِقَةِ، وَالسَّلَامِ».

وَكَانَ لِهَذِهِ الدَّعَايَةِ الْحَرْبِيَّةِ أَثَرُهَا الْكَبِيرُ، فَأُمُّ سَلَمَةَ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ أَيْضاً، وَهِيَ تَسْجُبُ عَلَى عَائِشَةَ حَرَكَتِهَا، وَتَتَنَقَّدُهَا آتِقَاداً لَا ذِعَاً. وَقَدْ تَرَكَتْ أَثَرَهَا الْمَوْغُوبَ فِيهِ وَالْمُتَوَخَّى نَيْلَهُ، وَكَانَ أَهْزَرَ مَا تَرَكَتْ أَثَرَانِ:

١ - إعطاء صورة نائية عَنْ مُحَاوَلَةِ النِّسَاءِ مِثْلَ هَذِهِ الْمُحَاوَلَةِ، فَقَدْ رَوَوْا «أَنَّ أَبْنَ أَبِي عَتِيقٍ - وَعَائِشَةَ عَمَّتُهُ - لَقِيَهَا فِي بَعْضِ مَآتِي الطَّرِيقِ رَاكِبَةً عَلَى بَغْلَةٍ، فَقَالَ:

إِلَى أَيْنَ يَا أُمَاهُ؟

قَالَتْ: أَصْلِحُ بَيْنَ حَيِّينِ مِنْ أَحْبَاءِ الْمُسْلِمِينَ تَقَاتِلَا.

قال: عَزَمْتُ عَلَيْكَ إِلَّا رَجَعْتَ، فَمَا غَسَلْنَا أَيْدِيَنَا مِنْ يَوْمِ الْجَمَلِ حَتَّى نَعُودَ إِلَى يَوْمِ الْبَغْلَةِ».

٢ - شَجَعَ الرُّعَمَاءُ وَالْأُمَرَاءُ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوا عَلَيْهَا، فَقَدْ كَتَبَ إِلَيْهَا زَيْدُ بْنُ صَوْحَانَ رَدًّا عَلَى كِتَابِهَا إِلَيْهِ:

«سَلَامٌ عَلَيْكَ، أَمَا بَعْدُ: فَإِنَّكَ أَمَرْتَ بِأَمْرِ وَأَمَرْنَا بِغَيْرِهِ، أَمَرْتَ أَنْ تَقْرَى فِي بَيْتِكَ وَأَمَرْنَا أَنْ نُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً. فَتَرَكْتَ مَا أَمَرْتَ بِهِ وَكَتَبْتَ تَنْهَيْتَنَا عَمَّا أَمَرْنَا بِهِ، وَالسَّلَامُ... وَمَضَى الْخُطْبَاءُ يُخْصِبُونَ عَلَيْهَا تَبْلُغَهَا وَتَنَاقُضُهَا. فَبَعْدَ أَنْ كَانَتْ تُشِيرُ بَعْلِي فِي زَمَنِ عُثْمَانَ، وَكَذَلِكَ طَلَحَهُ وَالزُّبَيْرُ يَنْصَحَانِ بِأَنْ يَكُونَ عَلِيٌّ الْخَلِيفَةُ، إِذَا هُمْ يَخْرُجُونَ جَمِيعًا لِحَرْبِهِ وَمُقَارَعَتِهِ فِي أَحْرَجِ السَّاعَاتِ الْعَصِيَّةِ، وَبِذَلِكَ يُسَهِّلُونَ سَبِيلَ الْعَمَلِ لِلْإِنْتِهَازِيِّينَ النَّفْعِيِّينَ.

فَحَرَّبَ الدَّعَايَةَ الَّتِي أَصْطَلَقَتْهَا عَلِيٌّ وَقَذَفَ بِهَا خُصُومَهُ، أَثَرْتُ أَثَرَهَا الْكَبِيرَ، وَفَكَّكَتِ الْوَحْدَةَ فِي الْمُعَشْكِرِ الْآخِرِ. «فَاعْتَزَلَ بِالْجُلَحَاءِ - مِنَ الْبَصْرَةِ عَلَى فَوْسَحَيْنِ - الْأَخْتَفُ بْنُ قَيْسٍ، وَاعْتَزَلَ مَعَهُ زُهَاءُ سِتَّةِ آلَافٍ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ».

وعلى هذا الوُضْعِ فَاجْتَأَهُمُ عَلِيٌّ بِجُنْدِهِ «وفيه ثمانمائة من الأنصار وأربعمائة يَمْنُ شَهِدَ بَيْعَةَ الرُّضْوَانِ، وَكَانَتْ رَايَةُ عَلِيٍّ مَعَ آبْنِهِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ، وَعَلَى مَيْمَنَتِهِ الْحَسَنُ، وَعَلَى مَيْسَرَتِهِ الْحُسَيْنُ، وَعَلَى الْخَيْلِ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ، وَعَلَى الرَّجَالِ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَعَلَى الْمُقَدِّمَةِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ. وَزَحَفَ عَلِيٌّ نَحْوَ الْجَمَلِ بِنَفْسِهِ فِي كَتِيبَتِهِ الْخُضْرَاءِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَحَوْلَهُ بَنُوهُ حَسَنٌ وَحُسَيْنٌ وَمُحَمَّدٌ، وَدَفَعَ الرَّايَةَ إِلَى مُحَمَّدٍ وَقَالَ: أَقْدِمْ بِهَا حَتَّى تَوَكُّزَهَا فِي عَيْنِ الْجَمَلِ. يَا بُنَيَّ تَزُولُ الْجِبَالُ وَلَا تَزُلُ، عَصُ عَلَى نَاجِيكَ، أَعِزَّ اللَّهُ جُمُجُمَتَكَ، تَذُ فِي الْأَرْضِ قَدَمَكَ، لَئِمَّ يَبْصُرَكَ أَقْصَى الْقَوْمِ وَغَضَّ بَصْرَكَ وَأَعْلَمَ أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. فَتَقَدَّمَ مُحَمَّدٌ فَرَسَقَتَهُ السَّهَامَ فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: رُوَيْدًا حَتَّى تَنْفَدَ سِهَامُهُمْ... فَأَنْفَذَ عَلِيٌّ يَسْتَحِثُّهُ، فَلَمَّا أَبْطَأَ عَلَيْهِ جَاءَ بِنَفْسِهِ. وَقَالَ لَهُ: أَقْدِمْ لَا أُمُّ لَكَ. ثُمَّ أَدْرَكَهُ رِقَّةٌ عَلَيْهِ، فَتَنَازَلَ الرَّايَةَ مِنْهُ بِيَدِهِ الْيُسْرَى وَذُو الْفِقَارِ مَشْهُورٌ فِي يَمْنَى يَدَيْهِ، وَنَادَى بِعَفْرِ الْجَمَلِ

فَوَقَّعَتِ الْهَزِيمَةَ».

كانت مغرَكةَ الجَمَلِ، يَدُونِ رَيْبٍ، أو كَادَتْ تَكُونُ هِيَ الْمَغْرَكَةُ الْفَاصِلَةَ، وَأَنْ تَنْقَلِبَ مِنْ حَيْثُ الْقِيَمَةُ ثَانَوِيَّةً، وَأَنْ تُعْتَبَرَ حَرَكَةً فَرْعِيَّةً لِتَطْهِيرِ بَعْضِ عَنَاصِرِ الشَّعْبِ الْبَاقِيَةِ، خُصُوصاً وَالْمُقَاوَمَةَ الْكِفَاحِيَّةَ أَخِذَةً بِهَذَا الشَّكْلِ مِنَ الشُّرْعَةِ وَالِدَّعَايَةِ الْمَوْفَقَةِ، الَّتِي أَشْعَرَتِ النَّاسَ كَافَّةً بِالْأَشْمِئَزَازِ مِنْ شَعْبِ الْمُشَاغِبِينَ. تَبَدَّدَ أَنَّ الْحَالَ تَبَدَّدَتْ وَجَعَلَتْ لِصِفَتَيْنِ الصِّفَّةَ الْحَاسِمَةَ الرَّئِيسِيَّةَ لاعتبارات:

١ - إِسْتِحَالَةُ فِكْرَةِ الْعَقِيدَةِ وَرُوحِيَّتِهَا الْأَخْلَاقِيَّةِ عِنْدَ عَلِيِّ إِلَى فِكْرَةٍ ثَابِتَةٍ، وَالْفِكْرَةُ مِنَ الثَّوَابِتِ تَصْرِفُ كُلَّ قُوَى الْمَرْءِ الرُّوحِيَّةَ وَالْمَعْنَوِيَّةَ إِلَيْهَا، وَتَقِفُ لُجُودُهُ الْعَمَلِيَّةَ فِي سَبِيلِهَا وَمَدَى غَايَتِهَا، فَقَدْ تَرَكَّزَتْ تَرَكُّزَ الْأَعْصَابِ، فَصَاحِبُهَا لَا يُفَكِّرُ وَلَا يَرَى وَلَا يُحِسُّ أَوْ لَا يُحِبُّ أَنْ يُفَكِّرَ، وَأَنْ يَرَى، وَأَنْ يُحِسَّ، إِلَّا فِي مَوَاقِعِ مُبُولِهَا، كَمَا لَا يُدَبِّرُ وَيُقَدِّرُ إِلَّا عَلَى ضَوْئِهَا. لِذَلِكَ لَمْ تُكُنْ سِيَاسَةً عَلِيٍّ مُشْتَقَّةً مِنْ صَمِيمِ الْحَيَاةِ كَمَا هِيَ بِمَسَاوِيَّتِهَا، بَلْ مِنْ رُوحِ الْحَيَاةِ كَمَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ بِقَضَائِلِهَا. فَهَذَا الرَّجُلُ الَّذِي عَرَفْنَاهُ دَمَوِيًّا فِي قَضِيَّةِ الْإِنْتِصَارِ لِلْعَقِيدَةِ، نَرَاهُ شَدِيدَ الْكَرَاهِيَّةِ لِسِيَاسَةِ الدَّمَاءِ وَأَسَالِيِبِهَا فِي قَضِيَّةِ قَمْعِ حَرَكَاتِ الْمُتَمَرِّدِينَ، فَهُوَ يُفَرِّقُ جَيِّدًا بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ. وَلَكِنْ وَسَطُهُ لَمْ يَكُنْ يَفْهَمُ هَذَا الْفَرْقَ فَهَمًّا حَسَنًا، أَوْ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَهُمَا أَلَبَسَهُ، فَقَدْ رَأَيْنَا عُثْمَانَ الْخَلِيفَةَ يُسَمِّي تَمَرُّدَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ كُفْرًا فِي كِتَابِهِ إِلَى مُعَاوِيَةَ، وَنَرَى عَمَّارًا وَمُحَمَّدَ بْنَ أَبِي بَكْرٍ، وَمِنْ وَرَائِهِمَا سَائِرُ النَّاسِ، يُنْظَرُونَ إِلَى خُصُومِهِمْ نَظْرَةَ الْمَارِقِينَ مِنَ الدِّينِ، وَبِالتَّالِي يَجِبُ أَنْ يُطَبَّقُوا عَلَيْهِمْ أَحْكَامُ الْكُفَّارِ وَقَانُونُ الْإِرْتِدَادِ.

كَانَ الْجُمْهُورُ مُتَشَبِّعًا بِهَذِهِ الْفِكْرَةِ وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا وَيُلَاحِظُهَا، إِذَا عَلِيٍّ وَهُوَ الْمُتَشَرِّعُ الْعَنْقَرِيُّ وَالْمُسْلِمُ الْوَاعِي لِحَقِيقَةِ الْإِسْلَامِ يَحْمِلُ عَلَى أَسَاسِ هَذِهِ الْفِكْرَةِ، لَعَلَّا يَتَوَرَّطَ النَّاسُ فِي أَسْتِباحَةِ مُفْتَضَّلَاتِهَا الْقَانُونِيَّةِ الَّتِي تُحَوِّلُهَا حَالَةَ الْحَرْبِ

في الأسرة والمال والملِك والقيمة الشخصية، التي يَبْتَغُ فَقَدها الأسرُ والاسيرِزَقاقُ. وبيّن للناس، بمَنطِقِهِ العميقِ، أَنَّ هُنَاكَ صِفَةً ثَالِثَةً هِيَ الفِسْقُ، وهو لا يَتَعَدُّ بِالْمَزِيَّةِ أَلْبَتَّةَ عَنْ دَائِرَةِ الإِيمَانِ، كما لَا تَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الاستِباحَةُ بَلِ التَّأْدِيبُ فَقَطْ.

وَأَنْظُرْ كَيْفَ يَتَأَتَّى إِلَى إِقْنَاعِهِمْ بِخَطِئِهِمْ فِكْرَتِهِمْ حِينَ قَالُوا «أَحَلَّ لَنَا دِمَاءَهُمْ وَحَرَّمَ عَلَيْنَا أَمْوَالَهُمْ، فَقَالَ عَلِيٌّ:

هِيَ السُّنَّةُ فِي أَهْلِ الْقِبْلَةِ.

قالوا: مَا نَدْرِي مَا هَذَا؟

قال: فَهَذِهِ عَائِشَةُ رَأْسُ الْقَوْمِ أَتَسَاهَمُونَ عَلَيْهَا؟

قالوا: سُبْحَانَ اللَّهِ! أُمُّنَا.

قال: فَهِيَ حَرَامٌ

قالوا: نَعَمْ.

قال: فَإِنَّهُ يُحَرِّمُ مِنْ أَهْنَائِهَا مَا حُرِّمَ مِنْهَا... فَنَادَى فِي النَّاسِ: لَا يُسَلَبَنَّ قَتِيلٌ وَلَا يُبْتَغَ مُدْبِرٌ، وَلَا يُجْهَزُ عَلَى جَرِيحٍ وَلَا يُحَلَّ مَتَاعٌ. وَلَكِنَّ الْجَمَهْرَةَ الْكُبْرَى سَادَجَةٌ بَسِيطَةٌ فِي فِكْرَةِ التَّدْبِيرِ، فَوَقَعَ عَلَيْهِمْ هَذَا النَّدَاءُ وَقَعَ الْيَأْسُ فِي مَحَلِّ الْأَمَلِ، وَجَعَلَهُمْ يَلْعَطُونَ كَثِيرًا، وَيَتَأَفَّفُونَ كَثِيرًا، وَحَمَلَهُمْ عَلَى تَفْكِيرٍ طَوِيلٍ فِيمَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ، وَفِيمَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ الْإِيمَانِ.

فَأَمَّا أُولَئِكَ الْبِدَاةُ الْأَعْرَابُ الَّذِينَ لَمْ يَفْهَمُوا الدِّينَ إِلَّا عَلَى شَكْلِ سَطْحِيٍّ، اسْتَفْصَى عَلَى تَفْكِيرِهِمْ فَهَمُّ الْفُرُوقِ الدَّقِيقَةِ بَيْنَهُمَا، فَمَضَوْا عَلَى أَنَّهُ لَا فَرْقَ، وَآفَقَتَعُوا بِمَا آتَنَهُوا إِلَيْهِ، وَاسْتَمَلَوْا عَلَى نَوْعٍ مِنَ التَّسْخِطِ الْخَفِيِّ كَانَ غَيْرَ مَشْعُورٍ بِهِ إِلَّا قَلِيلًا، لِأَنَّهُمْ، بِمُقْتَضَى نَظَرِيَّتِهِمْ، حَالِ الْخَلِيفَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ حَقِّهِمْ فِي الْعُنْمِ

وَمَنْعَهُمْ إِيَّاهُ. وَمِنْ هَؤُلَاءِ كَانَتْ نَوَاطِئُ الْخَوَارِجِ، وَقَدْ صَاغُوا فِكْرَتَهُمْ هَذِهِ، فِيمَا بَعْدُ، بِأَنَّ مُرْتَكِبَ الْكَبِيرَةِ كَافِرٌ.

وَأُولَئِكَ الَّذِينَ صَحَبُوا النَّبِيَّ طَوِيلًا، وَعَرَفُوا كَثِيرًا مِنْ مَنَاطِقِ الدِّينِ، اسْتَمَلُوا عَلَى أَطْمِئْنَانٍ كَبِيرٍ، حِينَمَا أَوْضَحَ لَهُمْ عَلَيَّ الْفَرْقَ كَمَا لَوْ لَمَسُوهُ. وَكَانَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ مَنْ فَهِمَ الْفَرْقَ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْفِسْقِ، عَلَى نَوْعٍ فِيهِ مُبَالِغَةٌ وَتَكْبِيرٌ، فَقَالَ بِالْمَنْزِلَةِ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ^(٢). وَكَانَتْ هَذِهِ الْأَسْتِثْنَاةُ الْمُخْتَلِفَةُ كُلُّهَا، حَوْلَ الْمَوْضُوعِ الَّذِي أَثَارَتْهُ مُشْكِلَةُ الْغَنَائِمِ بَعْدَ يَوْمِ الْجَمَلِ، أَفْكَارًا غَيْرَ وَاضِحَةٍ كَثِيرًا، وَأَتَّخَذْتُ سَبِيلَ وَضُوحِهَا فِيمَا بَعْدُ، وَقَامَتْ عَلَى أُسَاسِهَا الْفَرْقُ الْإِسْلَامِيَّةُ الَّتِي عُرِفَتْ بِأَسْمَائِهَا أَخِيرًا.

٢ - نَظَرِيَّتُهُ فِي خُصُومِهِ أَتَاهُمْ مُسْلِمُونَ، فَلَا يَجُوزُ اخْتِذُهُمْ فِي غَيْرِ حُدُودِ الْإِسْلَامِ وَقَانُونِهِ، وَهُوَ يُسْتَفْتَى بِهِمْ «أُمُشْرِكُونَ هُمْ؟»

قَالَ: مِنَ الشُّرُكِ فَزُوا... قِيلَ: فَمُنَافِقُونَ هُمْ؟

قَالَ: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا. قِيلَ: فَمَا هُمْ؟

قَالَ: إِخْوَانُنَا بَعَوْا عَلَيْنَا... وَكَانَ لَا يَفْتَأُ يَقُولُ: لَا تَقُولُوا كَفَرًا أَهْلُ الشَّامِ، وَلَكِنْ قُولُوا: فَسَقُوا وَظَلَمُوا». فَلَا بُدَّ إِذَا أَنْ يُفَاوِضَهُمْ، وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يُقِيمَ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ، وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا وَسِعَتْ ذَلِكَ وَوَجَدَ فِيهِمْ أَمَلًا، دُونَ لُجُوءٍ إِلَى الْعُنفِ الَّذِي لَا يَسْتَحِلُّهُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يُغَيِّتُوهُ.

فَقَرَأَهُ يُفَاوِضُ مُعَاوِيَةَ، وَيُرْسِلُ إِلَيْهِ الرَّسُولَ بَعْدَ الرَّسُولِ، وَالْكِتَابَ تَلَوَّ الْكِتَابَ، حَتَّى اسْتَعْمَلَ مَعَهُ أُسْلُوبًا يَقْرُبُ مِنَ الرَّجَاءِ. فَإِذَا بِهِ يُذَكِّرُهُ بِمَوْقِفِ أَبِيهِ مِنْهُ،

(٢) أَضْطَأَ مَوْزُجُو الْفَرْقِ حِينَ تَوَهَّوْا أَنْ فِكْرَةَ الْأَعْتِرَالِ فِي الْمَنْزِلَةِ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ لَمْ تُعْرَفْ إِلَّا فِي خَلْقَةِ الْحَسَنِ النَّضْرِيِّ، عَلَى لِسَانِ وَاصِلِ بْنِ عَطَاءٍ وَعَمْرُو بْنِ عَبِيدٍ، وَإِنَّمَا أَنْشَأَهَا بَعْدَ مَعْرَكَةِ الْجَمَلِ خِيَالُ مُشْكِلَةِ الْغَنَائِمِ، وَتَوْضِيحُ عَلَيِّ الْفَرْقِ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ.

وإذا به يَتَّهَمُهُ بِالْعُقُوقِ فِي رِفْقِي. قَالَ فِي بَعْضِ كُتُبِهِ إِلَيْهِ:

«وَقَدْ كَانَ أَبُوكَ، أَبُو سُفْيَانَ، أَتَانِي حِينَ قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ آبَسْتُ يَدَكَ أَبَايَعَكَ فَأَنْتَ أَحَقُّ النَّاسِ بِهَذَا الْأَمْرِ، فَكُنْتُ أَنَا الَّذِي أُبَيِّتُ عَلَيْهِ مَخَافَةَ الْفُرْقَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ لِقُرْبِ عَهْدِ النَّاسِ بِالْكَفْرِ. فَأَبُوكَ كَانَ أَعْلَمَ بِحَقِّي مِنْكَ، وَإِنْ تَعْرِفَ مِنْ حَقِّي مَا كَانَ أَبُوكَ يَعْرِفُهُ تُصِيبَ رُشْدَكَ وَإِلَّا فَتَتَعَبَّنِ اللَّهُ عَلَيْكَ».

وَلَكِنَّ مُعَاوِيَةَ كَانَ قَدْ سَاوَرَهُ الطَّمَعُ، وَلَعِبَتْ أَحْلَامُهُ الْكِبْرَى أَمَامَ نَازِلِيهِ، وَقَدْ فِيهِمْ مِثَالِيَّةٌ عَلَيَّ وَتَقْوَاهُ فَعَمَدَ لاسْتِغْلَالِهَا. فَإِذَا هُوَ يُصَانِعُهُ، وَيُظْهِرُ لَهُ خُيُوطاً وَاضِحَةً مِنَ الْأَمَلِ بَعْدَ أَنْ يَضَعُ عُقْدَةً يَتَعَايَا بِهَا، فَيَعْذُرُهُ عَلَيَّ وَيَمْضِي فِي مُفَاوَضَتِهِ. وَمُعَاوِيَةُ لَمْ يَكُنْ يُرِيدُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا آكْتِسَابَ الْوَقْتِ لِتَهْيِئَةِ نَفْسِهِ، وَبَعَثَ رُوحَ الْمَلَلِ فِي جَيْشِ عَلِيٍّ، فَهُوَ يَتَمَنَّى طَوْلَ الْوَقْتِ وَطَوْلَ الصَّرَاحِ مَعَ ظُهُورِهِ بِمُظْهِرِ الْمُسْتَسْلِمِ إِذَا أَنْحَلَتْ الْعُقْدُ أَوْ أَقْتَعَهُ بِحُلِّهَا، وَبِهَذَا الْمُظْهِرِ يَضْمَنُ أَنْ لَا يَأْخُذَهُ عَلَيٌّ بِحَرْبٍ خَاطِفَةٍ سَاحِقَةٍ، بَلْ يَرُفِقُ بِهِ، فَتَتَحَوَّلُ الْمَعْرَكَةُ الْجَدِيدَةُ إِلَى حَرْبٍ إِنْهَاكٍ وَإِزْعَاجٍ، وَهِيَ لَا مَحَالَةَ سَتَشِيْعُ صِفَةً التَّمَلُّلِ وَالْيَأْسِ فِي جَيْشِ عَلِيٍّ. أَضِيفَ إِلَى هَذَا أَنَّ هَذَا الْجَيْشَ، مُنْذُ حِينَ، قَدْ خَرَجَ مِنْ مَعْرَكَةِ كُبْرَى، وَمِنْ قَبْلِ كَانَ نَهِيكاً بِالْفَتْوحِ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَلَا يَلْبَثُ أَنْ يَدُورَ هَذَا التَّمَلُّلُ دَوْرَتَهُ وَيَعْمَلُ عَمَلَهُ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَثْرَكَ صُدُوعاً وَاحْتِلَافاً فِي الرَّأْيِ، فَيَنْتَقِسِمَ الْجَيْشُ شَيْعاً، وَيُقَلِّتَ مِنْ يَدِ عَلِيٍّ الزَّمَانُ.

أَمَّا يَرَاهُ يُجِيبُهُ حِينَمَا طَلَبَ تَأْجِيلَ الْحَرْبِ شَهْراً، أَلَيْسَ يَسْمَحُ لِجَيْشِ الشَّامِ، حِينَ آسَتْوَلَى جَيْشُهُ عَلَى الشَّرِيعَةِ، بِالشُّقْيَا «حَتَّى آزْدَحِمَ عَلَيْهَا السُّقَاةَ مِنَ الْعَشْكَرَيْنِ وَمَا يُؤْذِي إِنْسَانٌ إِنْسَاناً»^(٣) فَطَالَ أَمَدُ الْمَعْرَكَةِ مِائَةً وَعِشْرِينَ يَوْماً، وَهَذَا وَقْتُ طَوِيلٌ

(٣) رَوَى الثَّوْرِيُّ أَنَّ جَيْشَ الشَّامِ سَبَقَ إِلَى الشَّرِيعَةِ، فَطَلَبَ عَلِيٌّ الشَّمَاخَ لِجَيْشِهِ فَأَبَى مُعَاوِيَةُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا غَلَبَتْ عَلَيْهَا وَطَلَبُوا إِلَيْهِ ذَلِكَ سَمَحَ لَهُمْ. فَبَرَهَنَ بِهَذَا عَلِيٌّ عَلَى أَنَّهُ يُحَارِبُ لِلْحَقِّ وَلَيْسَ يُحَارِبُ لِلْعَلَنَةِ وَشَهْوَةِ

في عُمرِ حَرْبٍ مِنْ هَذَا التَّنَوُّعِ، وَسَمَحَ طَوْلُ الْوَقْتِ لِلْأَفْكَارِ الَّتِي نَبَتْ فِي رُؤُوسِ الْجُمُوعِ أَنْ تَنْمُوَ وَتَسْتَفْجِلَ، وَتُشْكَلَ نَظَرِيَّةٌ لَهَا أَسْرُهَا وَتَأْثِيرُهَا فِي قَرَارَاتِهِمْ، وَكَانَ هَذَا التَّمَاءُ مَشْفُوعاً بِعَاصِفَةٍ مِنَ الْمَلِلِ وَالْيَأْسِ.

وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ هَذَا خَافِياً عَلَى عَلِيٍّ، بَلْ كَانَ يَنْظُرُ وَيَبْتَسِمُ، فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَحُلَّ الْمَشْكِلةَ الْقَائِمَةَ، وَلَكِنْ عَلَى طَرِيقَتِهِ الْمِثَالِيَّةِ، وَبِمَنْطِقِ الْقَانُونِ الَّتِي يَقْدَسُهُ. وَعَلِيٍّ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَنَّ الطَّرْفَ يَتَأَزَّمُ عَلَيْهِ، وَالْوَقْتُ يَتَعَقَّدُ، وَالْفُرْصَةُ تَكَادُ تُفْلِتُ مِنْهُ إِلَى خَصْمِهِ، يُرِيدُ أَنْ يُحَارِبَ حَرْبَ الْحَقِّ، وَيَنْتَصِرَ لِلْعَدَالَةِ بِالْعَدْلِ، وَإِلَّا فَهُوَ، فِي نَظَرِهِ، يَخْدَعُ ضَمِيرَهُ وَيَخْدَعُ النَّاسَ، إِذَا سَمَحَ لِنَفْسِهِ بِانْتِهَاكِ قَدَاسَةِ الْحَقِّ بِسَبِيلِ تَأْيِيدِ قَضَايَا الْحَقِّ.

عَلَى أَنَّهُ كَانَ رَاضِياً، فَلَمْ يَبْتَسِمِ لِأَنَّهُ وَائِثٌ مِنْ أَنَّ النِّهَايَةَ الطَّافِرَةَ فِي مُتَنَاوَلِ يَدِهِ، يَضُمُّهَا إِلَيْهِ سَاعَةً يُرِيدُ، وَكَذَلِكَ كَانَ حِينَ يَعِيسُ مِنْهُمْ، وَضَرَبَتْهُمْ الصُّرْبَةُ الْقَاصِمَةُ الَّتِي أَلْجَأَتْهُمْ إِلَى حِيلَةٍ رَفَعَ الْمَصَاحِفَ الْمُغْتَادَةَ كَثِيراً، فَقَدْ رُفِعَتْ غَيْرَ مَرَّةٍ يَوْمَ الْحَمَلِ، فَهِيَ إِذَا لَا تَمْلِكُ تَأْثِيرَ الْمُفَاجِئَةِ بَلْ مُعْتَادَةٌ بَارِدَةٌ الْأَثَرِ ضَعِيفَةُ الْمَفْعُولِ، لَوْلَا مَا كَانَ قَدْ اسْتَحْوَذَ عَلَى الْجُمُوعِ مِنْ اسْتِنْفَاحِ الْأَفْكَارِ الْخَطِيرةِ الَّتِي سَبَقَ وَأَشْرْنَا إِلَيْهَا، فَتَصَدَّعَتْ وَخَدَةُ الصُّفُوفِ بِهَذَا السَّبَبِ.

لَقَدْ عَادَتْ الرُّوْبَعَةُ إِلَى الْهُبُوبِ مَرَّةً أُخْرَى أَشَدَّ غُنْفاً، فَتَمَزَّقَ شِرَافُ السَّفِينَةِ، وَمِثْلَتْهَا الْأَمْوَاجُ الْمُتَعَاطِمَةُ الْمُتَكَسِّرَةُ عَلَى جَوَانِبِهَا فِي جَبَرُوتٍ. وَعَلِيٍّ فِي هَذِهِ الْعَمْرَةِ الطَّائِشَةِ كَانَ يَنْشَطُ إِلَى كَشْفِ الْمَهْزَلَةِ وَسَخِي طَوَاغِيَّتِهَا، وَلَكِنْ بِجَبْشِ مَرِيضٍ فَتَعَايَا عَلَيْهِ وَتَرَكَهُ حَيْثُ يَشَاءُ فِي الْمَيْدَانِ. لَمْ يَجِدْ بُدّاً مِنْ مُسَايَرَةِ الْجُمْهُورِ الْكَبِيرِ، وَلَمْ يَجِدْ بُدّاً مِنَ الْخَوْضِ فِي تَبَارِ الْمَهْزَلَةِ الَّتِي اسْتَوْلَتْ بِرُوحِهَا عَلَى الْجُمْهُورِ إِلَى

= الشُّلْطَانِ. وَأُعْطِيَ مَثَلًا قَدْأً فِي التَّارِيخِ كُلِّهِ، إِذَا أَطْطَرُوا إِنْسَانًا إِلَى الْحَرْبِ، كَيْفَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ إِنْسَانًا شَرِيفًا قَبْلَ أَيِّ آغْتِيَارٍ.

النهائية. فلَيْسَ مِنْ سَبِيلِ لِمُدَاوَاةِ الرُّوحِيَّةِ الْعَامَّةِ عَلَى ضَوْءِ النَّفْسِيَّةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، إِلَّا الْأَخْذُ بِالنَّاسِ حَتَّى نِهَايَةِ الطَّرِيقِ فِي مَدَى مَا اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ الْأَمْرَاضَ الْاجْتِمَاعِيَّةَ، مِنْ نَوْعِ الْهَيْسْتِيرِيَا الْحَادَّةِ، يُدَاوَى مَعَهَا الْوَهْمُ بِالْوَهْمِ، وَعَلَى ذَلِكَ نَزَلَ عِنْدَ رَأْيِهِمْ لِيَهَيِّئَ الظُّرُفَ الْمُنَاسِبَ مِنْ جَدِيدٍ.

فَعَلَيَّْ إِذَا لَمْ يَشَأْ قَصْدًا أَنْ يَشْتَغِلَ شُرْعَتُهُ، وَهِيَ تَقْتَضِي الْبَطْشَ، اسْتِغْلَالًا حَازِمًا وَسَرِيعًا، وَكَانَ هُوَ الْوَاجِبُ إِذْ ذَاكَ مِنْ وَجْهَةِ نَظَرٍ عَشَكْرِيَّةٍ. نَحْنُ نَعْرِفُ عَلَيَّا بَطْلَ الْحَرْبِ، فَلِمَاذَا أَغْرَضَ هَذَا الْإِعْرَاضَ، وَأَخْتَارَ الْبُطْءَ فِي الْإِيقَاعِ بِالْخُصْمِ بَعْدَ تِلْكَ الشَّرْعَةِ الْمَوْفَقَةِ فِي الْإِثْقَالِ وَالْإِعْدَادِ؟ لِأَنَّ عَلِيًّا لَمْ يَكُنْ يَطْلُبُ السُّلْطَانَ مِنْ أَجْلِ السُّلْطَانِ، بَلْ مِنْ أَجْلِ إِحْقَاقِ الْحَقِّ وَإِخْلَالِ الْمَثَلِ الْأَعْلَى الْاجْتِمَاعِيِّ فِي دُنْيَا النَّاسِ، وَإِلَّا فَالسُّلْطَانُ فِي كِبَرِيَاءِ نَفْسِهِ وَفِي كِبَرِيَاءِ مَعْنَوِيَّتِهِ «لَا يُسَاوِي عَقْطَةً عَنِّي» كَمَا كَانَ يَقُولُ.

هُوَ يُرِيدُ السُّلْطَانَ مِنْ أَجْلِ الْحَقِّ، فَإِذَا آتَاهُ الْحَقُّ مِنْ أَجْلِ السُّلْطَانِ فَقَدْ خَنَقَ ضَمِيرَهُ، وَاعْتَصَرَ بِيَدَيْهِ قَلْبَهُ فِي قَسْوَةٍ وَوَحْشِيَّةٍ.

فَمَاذَا يُرِيدُ مِنْ كِفَاجِهِ إِذَا؟ إِنَّهُ يُرِيدُ تَطْبِيقَ قَضَايَا الْعَدْلِ حَتَّى فِي السَّاعَةِ الَّتِي يَجُوزُ فِيهَا الْجُورُ، إِنَّهُ يُرِيدُ الْحَقَّ حَتَّى فِي سَاعَةِ جَبِيشَانِ الْبَاطِلِ وَطُغْيَانِ الْمُتَكَبِّرِ. وَلَكِنْ هُمْ قِلَّةٌ الَّذِينَ تَسَامَوْا إِلَى فَهْمِهِ، وَهَيْهَاتَ حَيَاةِ الْأَطْمَاعِ، الْمَحْدُودَةِ بِالشَّرَايِينِ وَالْأَعْصَابِ، أَنْ تَنْبُضَ بِمِثْلِ خَلَجَاتِ قَلْبِهِ، وَتُحْسَ بِحِسِّهِ، وَتَنْدَى بِمِثْلِ شُعُورِهِ. كَانَ أَكْبَرَ مِنْ مُحِيطِهِ وَلَا يَدْعُ، وَأَسْمَى مِنْ مُجْتَمَعِهِ وَلَا رَيْبَ، فَهُوَ رَيْبُ مُحَمَّدٍ الْمُتَبَلُّورِ مِنْ سَنَاءِ الْوَحْيِ وَضِيَاءِ الثَّبُوءِ، وَهُوَ أَكْبَرُ اللَّالِكَةِ الَّتِي أَنْكَشَفَتْ عَنْهَا دُنْيَا الْقُرْآنِ. فَهَلْ يَغْبِثُ بِوُجُودِهِ وَضَمِيرِهِ فِي مَلْهُى يَدَيْهِ طَائِعًا مُخْتَارًا، وَمِنْ أَجْلِ مَا لَا يَرَاهُ شَيْئًا؟

إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُؤْمِنُ بِمَا يُقَالُ «إِذَا لَمْ يَكُنْ مَا تُرِيدُ فَأَرِدْ مَا يَكُونُ»، فَهَذِهِ خُطْئُهُ

صغار وخيانة وجبن وخور، بل كان يؤمن بغاية أسمى ويُسِّرُ مَهْدًا:

إذا لم تكن الحياة كما تُريد، فحاول أن تجعلها كذلك. فإذا لم تنجح أيضاً فلا تحزن ضميرك، وعش وحدك مثلاً للحياة الفاضلة. ولا تأل جهداً في الدعوة إلى التغيير، كي يتقى للحق في تاريخ الباطل مثلاً يضربه...

إن الذين ينتهكون كل قداسة، بسبيل الفوز، ساقطون في ميزان الأخلاق وقسطاس الزوج، وعلي ليس من طبيعتهم، بل ذلك الأسلوب، في جس علي، أبرز أسلوب من أساليب الحياة وأنكرها. والعلبة تكون مقياس النجاح في جس الجامدين جمود المادة والطبيعة الصماء، بينما مقياس نجاحك، في جس الشعاعين، بمقدار ما تكون أبيض ناصعاً في ضوء المصباح وسنى الفجر.

والوجود نوعان: وجود بالحياة، وجود في أبدية المبادئ، والثاني منهما أكثر الوجودين، فإن عمر أولهما في حدود اللحم والدّم، وعمر ثانيهما في حدود الخلود، وأين مداه؟...

وإذا بقي ذو الوجود الأول، فإنما يتقى في ذكرى التاريخ شوهة مومياء، بينما يظل ذو الوجود الثاني، في ذكرى الأبد، مشكاة حياة تفيض بالتور بالضياء. ولم يشأ علي، وقد أخذ بمقود السفينة، أن يتركها هائمة، ويترك للخاطفين (القرصان) آتيها بها. فعالجها بمقدار ومقدار كبير، والعواصف تتناوح من حولها وبين يديها، وعلي كالربان الماهر يُوخي الشراع أحياناً، فيمضي في مدى مئيل الجمهور، ويؤضى بالتحكيم، ويشد الشراع أحياناً فيضرب ضربته بالنهروان.

وخروج الخوارج إنما تم باستفحال فكرة أن لا فرق بين الكفر والعصيان، فإن قضية الإيمان والكفر، في تفكيرهم، كقضية الحق والباطل، وليس يمكن أن يكون بينهما واسطة يلتقيان، فيها. فالتحكيم إذا خطأ، والخطأ معصية، والمعصية كفر، فانتهوا، في سبيل التناج، إلى ضرورة الإيمان من جديد. وهذه الفكرة، في

جَوهرها، لا تَزِيدُ عَنْ عُقْدَةٍ مَسْرُجِيَّةٍ، إِلَّا أَنَهَا، مَعَ ضَعْفِ الْحَاكِمَةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالنَّقْدِ
الْفِكْرِيِّ، تَبْدُو عُقْدَةً عَسِيرَةَ الْحَلِّ. فَلَدَى الْبِدَاةِ تَسْلِيمٌ عَفْوِيٌّ بِكُلِّ خَاطِرَةٍ وَإِنْ تَكُنْ
سَخِيفَةً، وَفِي نَفْسِيَّتِهِمْ قَابِلِيَّةٌ لِلِاسْتِحْجَارِ وَالتَّصْلُبِ عَلَى شَكْلِ عَفْوِيٍّ أَيْضاً،
بَحِيثٌ تَسْتَحِيلُ إِمَاعَتُهُ إِلَّا بِتَحْطِيمِ الرُّؤُوسِ الَّتِي تَحْمِلُهُ، وَكَذَلِكَ حَدَثَ.

وَلَقَدْ تَمَلَّأَ الْحُسَيْنُ بِعِظَاتِ مَوْقِفِ أَبِيهِ فِي كُلِّ مَرَاكِجِهِ، وَحَلَّلَهَا فِي نَفْسِهِ،
وَأَحْلَاهَا مِنْ قَلْبِهِ مَحَلًّا ثَابِتًا. وَخَاضَ مَعَ الْوَدِيِّ الْعَظِيمِ الصَّرَاعَ عَلَى سَتَى الْوَاوِيهِ،
وَكَانَ لَهُ أَثَرٌ أَيْ أَثَرٌ، وَلَمْ يَقِفْ عِنْدَ الشَّاطِئِ مُتَرَقِّباً بَلْ عَائِثٌ حَائِضٌ تَقُومُ بِهِ لُجَّةٌ
وَتَقَعْدُ بِهِ أُخْرَى، وَتَدْفَعُهُ مَوْجَةً لَتَسْتَقْبِلَهُ الْمَوْجَةُ الثَّانِيَةُ، وَالتَّقَى^(٤) سَيَفُهُ بِسَيَفِ أَخِيهِ
مُحَمَّدٍ، فَشَكَلَا قَوْساً قَاعِدَتْهَا الْمَبَادِيءُ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا خَاضَ أَبُوهُمَا الْكَبِيرُ الْكِفَاحَ
دُونَ هُدْنَةٍ أَوْ هَوَادَةٍ.

وَبَقِيَ فِي سَمْعِ التَّارِيخِ وَبَصَرِهِ مَائِلاً حَيًّا:
أَنْ عَلِيّاً بَطُلُ الْحَقِّ فِي السَّلَامِ وَفِي الْحَرْبِ، وَهُوَ الْإِنْسَانُ الَّذِي آسَتْحَالَ إِلَى
طَاقَةٍ فِي وُجُودِ الْحَقِّ وَكِيَانِهِ...

*

شَاءَ اللَّهُ أَنْ لَا يُحَقِّقَ مَغْزَى أُمْتُولَةِ عَلِيٍّ إِلَّا آبَتُهُ الْحُسَيْنُ، آبَتُهُ الْحَبِيبُ...
فَرَدَّدَ عَلَى شَكْلِ آخَرٍ: إِذَا لَمْ تَكُنِ الْحَيَاةُ كَمَا تُرِيدُ، فَحَاوِلْ أَنْ تَجْعَلَهَا
كَذَلِكَ...

فَإِذَا لَمْ تَنْجَحْ أَيْضاً، فَلَا تَخُنْ ضَمِيرَكَ، وَعِشْ وَخَدِّكَ مِثَالاً لِلْحَيَاةِ
الْفَاضِلَةِ...

(٤) إِشَارَةٌ إِلَى مَا ذَكَرَ الْمُؤَرِّخُونَ مِنْ أَنَّ أَحْمَرَ بَنِي أُمَيَّةَ بَصُرَ بِعَلِيٍّ فَأَرَادَ قَتْلَهُ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ كَيْسَانُ مَوْلَى عَلِيٍّ
فَانْخَلَعَا ضَرْبَتَيْنِ سَقَطَ بَيْنَهُمَا كَيْسَانُ، فَجَذَبَ عَلِيٌّ أَحْمَرَ بَنِي أُمَيَّةَ، وَضَرَبَ بِهِ الْأَرْضَ فَكَتَسَتْ مَثْبُكُهُ
وَعُضْدَتُهُ، وَشَدَّ عَلَيْهِمَا أُنْبَا عَلِيٍّ لِحُسَيْنٍ وَمُحَمَّدٍ فَضَرْبَاهُ بِأَشْيَاءٍ مِمَّا قَتَلَهُ.

ولا تَأَلَّ جُهْدًا يَبْذُلِ النَّفْسَ، كَيْ يَتَّقَى لِلْحَقِّ فِي تَارِيخِ الْبَابِلِ مَثَلٌ يَضْرِبُهُ...

*

على أَنَّهُ أَضَافَ إِلَيْهَا أُمْتُولَتُهُ الْآخَرَى...

إِذَا لَمْ تَكُنِ الْحَيَاةُ كَمَا تُرِيدُ، فَلْيَكُنِ الْمَوْتُ كَمَا تُرِيدُ...

وإِلَّا فَهَيْهَاتَ أَنْ تَشْعُرَ بِخِلَافَةِ الْمِثَالِيَّةِ فِي الْإِيمَانِ، وَتَكُونَ مِنَ الْأَخْرَارِ...

*

بَقِيَ طَائِعُ الْإِنْسَانِ الْكَامِلِ عَلَيَّ، الَّذِي لَا يُحَرِّكُهُ الْحَقْدُ، وَلَا تَمِيلُ بِهِ
النَّرَاغَاتُ وَالنَّرَوَاتُ...

طَائِعاً لِأَنْبَائِهِ، فَقَدْ قِيلَ لِأَبْنَيْهِ مُحَمَّدٍ، دَسَاءً، تَوَلِيداً لِلْمَوْجِدَةِ:

لِمَ يَدْفَعُ بَكَ أَبُوكَ فِي الْحَرْبِ وَلَا يَدْفَعُ بِالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ؟...

فَقَالَ بُوْحَيِ الْقَلْبِ الْمِثَالِي: هُمَا عَيْنَاهُ وَأَنَا يُمْنَاهُ، وَهُوَ يَدْفَعُ عَنْ عَيْنَيْهِ

يَمِينِهِ...

هَذَا طَائِعُ عَلِيٍّ فِي الْأُخُوَّةِ وَالْإِحَاءِ، فَأَيُّ دُنْيَا، بَلْ أَيُّ خُلْدٍ سَعِيدٍ، لَوْ تَسَنَّى

لِلْحَيَاةِ أَنْ تَبْزُرَ بِطَوَائِعِهِ الْآخَرَى...

* * *

إلتیاع

في دارة قريية من الكوفة انعقد أول مؤتمر سياسي إرهابي، وأنقض عن مؤامرة دموية واسعة النطاق، تولى أمرها ثلاثة نفر فداييون كلهم خارجي. فقد كان لمفرزة النهرين، التي أنكشفت عن مأساة مريّة، وقع حاد في نفوس الخوارج كافة، فتشطوا، تحت إلحاح سورة الانتقام، يجتمعون هنا وهناك، ويوالون الاجتماع في كل مكان. فما من بيت إلا ودخلته طائفة من الأرزاء، وأنطلقت العيون كأفواه القرب تتحدّر عن مثل خيوط القطرات المرفضة آرفض عقد نظم، وبالأخرى المتحدّرة مؤلفة أمتلاف نوط شتيت.

وكان عبد الرحمن بن ملجم من أبناء الهوى والشباب، فهو عاشق مدنف الفؤاد متيسم الصبوة، لقي قطام آتنة الشحنة من تيم الرباب، في أصيل ليلة من ليلاي الصّخراء التي يختلط فيها سكون الجمال وجمال السكون، برجفات القوافل، وهي تهوّم راجعة أو منطلقة، كأنها سارحة في طفل الأبد، أو سائحة مع راد الأمل الخابي.

وقطام هذه فتاة أفتنت بها طبيعة الجمال أيّ آفتنان، ومشت في تقاطيعها زوائج الحسّن وآيات الفن، فبرزت كالزهرة أول ما تتشقق عنها الأكمّام، أو كالفتنة الحية المايجة التي أضافت إليها الصّخراء أنبهاهما، فجاءت بساطة في

تَوْكِيبٌ، وَوُضُوحاً فِي غُمُوضٍ... تَخْطُرُ كَيْفَمَا اتَّفَقَ لَهَا، فَتَثِيرُ، فِي مَدَى خُطَاهَا،
تَهَاوِيلَ السَّحْرِ وَعَبَقاً مِنَ الْهَوَى الْمَشْفُوحِ، وَضَبَجَةَ الْجَوَى الشَّرُودِ.
وَالْجَمَالَ، فِي الْغَوَانِي وَفِي كُلِّ شَيْءٍ، أَرَادَتْهُ الطَّبِيعَةُ لَتُعَبِّرَ عَنْ تَذَوُّقِهَا الْفَنِّيِّ،
وَعَنْ أَنَّ غَايَةَ التَّفَاعُلِ الْكُونِيَّ يَنْتَهِي بِالْكُونِ إِلَى الْفَنِّ وَيَجْتَمِعُ عَلَيْهِ، وَأَنَّ بَقَاءَ
الْوُجُودِ قَائِمٌ عَلَى الْإِرَادَةِ الْفَنِّيَّةِ فَقَطْ.

فَالطَّبِيعَةُ الصَّامِتَةُ تُحَاوِلُ مُحَاوَلَاتِهَا تَحْتَ الْإِرَادَةِ الْفَنِّيَّةِ، لِتَنْتَهِيَ إِلَى الْفَنِّ
الصَّامِتِ الَّذِي هُوَ رُوحُ الطَّبِيعَةِ الْجَمُودِ، وَتَبْتَدِيءُ الْحَيَاةَ أَوْ الطَّبِيعَةَ مِنَ الْفَنِّ
الصَّامِتِ، لِتَنْتَهِيَ كَذَلِكَ إِلَى الْفَنِّ الْحَيِّ الَّذِي هُوَ رُوحُ الْحَيَاةِ أَيْضاً، وَتَبْتَدِيءُ
الطَّبِيعَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ مِنَ الْفَنِّ الْحَيِّ، لِتَنْتَهِيَ فِي غَايَتِهَا إِلَى الْفَنِّ الْوَاعِي الَّذِي هُوَ الْمُثَلَّ
الْعُلْيَا.

وَالِى هَذَا الْفَنِّ الْوَاعِي تَنْتَمِي فِكْرَةُ الرُّوحِ وَالْخُلْدِ، حَتَّى اللَّهُ فِي الْأَذْيَانِ فِكْرَةُ
الْفَنِّ الْمُطْلَقِ، وَالْوُجُودُ إِذَا مَا يَتَحَرَّكُ بِإِرَادَةِ الْفَنِّ، لِيَسْمُوَ تَحْتَ هَذِهِ الرُّغْبَةِ الْجَاذِبَةِ
بِالشُّوقِ. وَالِى هَذَا يُشِيرُ قَوْلُ النَّبِيِّ: «خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صَوْرَتِهِ»، مِنْ حَيْثُ إِنَّ فِي
الْإِنْسَانِ أَكْبَرَ قِسْطٍ مِنْ جَمَالِ فَنِّ الْوَعْيِ، أَوْ فَنِّ الْقَصْدِ، إِذْ فِيهِ تَحَوَّلَتْ حَرَكَةُ
الطَّبِيعَةِ الْفَنِّيَّةِ، مِنْ حَرَكَةٍ لِقَاصِدَةٍ إِلَى قَصْدٍ فِي الْحَرَكَةِ... هَذَا حَدِيثٌ فَاهٌ بِهِ آئِنُ
أَبِي عَتِيْقٍ فِي أُمْسِيَّةٍ مِنْ أَمَاسِي الطَّائِفِ، عِنْدَ مَعْنَى نَضِيرٍ، جَمَعَهُ وَعَمَرَ بَنُ أَبِي
رَبِيعَةَ وَالثَّرَيَّا، وَزُمَرَةً كَبِيرَةً مِمَّنْ يَطْلُبُونَ الْحَيَاةَ اللَّاهِيَّةَ الْحَالِمَةَ، كَانَ بَيْنَهُمْ آئِنُ
مُلْجَمٍ.

فَقَالَ عَمَرُ يُحَاوِرُهُ: لَكَأَنِّي بَكَ - يَا آئِنُ أَبِي عَتِيْقٍ - وَأَنْتَ حُشِيَّةُ فُتُونٍ وَدُنْيَا
غَرَامٍ، وَلَمْ أُخْطِطْكَ الصَّفَةَ حِينَمَا قُلْتُ:

أَأَهْجُرْنَهَا؟ وَأَنْتَ زَيْنَتُهَا لِي أَنْتَ مِثْلُ الشَّيْطَانِ لِلْإِنْسَانِ

وَقَهَقَ مُشِيرًا إِلَى الثَّرَيَّا.

قَالَ آبْنُ أَبِي عَتِيقٍ: لَا تُثْرِبَ عَلَيْكَ، فـ «اللَّهُ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ». نَحْنُ
بِإِرَادَةِ الْفَنِّ يَسْتَحْفِنَا سِحْرُهُ، فَتَتَوَافَعُ عَلَى الرِّمَالِ مُنْتَشِسِينَ بِمَوْجَةِ الرَّبْدِ، وَلَعَلَّ ثُرْيَاكَ
أَكْبَرُ مَوْجَاتِ الرَّبْدِ الْحَائِمِ فِي شَاطِئِ الْفَنِّ الْمَسْحُورِ.

قَالَتِ الثُّرَيَّا: فَأَنَا فِي خَيَالِكَ إِذَا - يَا آبْنَ أَبِي عَتِيقٍ - بَعْضُ مِنْ غَايَةِ الْكَوْنِ
فِي تَفَاعُلِهِ الْأَبَدِيِّ، لِأَنِّي بَعْضُ مِنْ فِئْتَةِ الْفَنِّ فِيهِ... وَرَاحَتْ تَزُمُّ آبْنَ أَبِي رَبِيعَةَ.

قَالَ عُمَرُ: مَاذَا تَقُولِينَ؟ لِأَنْتِ، وَاللَّهِ، كُلُّ فِئْتَةِ الْفَنِّ إِنْ كَانَ هَذَا يَفِي
بِمَوْفِعِكَ فِي قَلْبِي، وَلَأَنْتِ كُلُّ غَايَةِ الْكَوْنِ إِنْ كَانَتْ لِلْكَوْنِ غَايَةً... فَرَاحَتْ
تَضْحَكُ فِي خَفَرٍ، وَكَانَتْ ضِحْكَةً تُعْبِرُ عَنْ نَشْوَتِهَا فـ «الْعَوَانِي يَغْرُهُنَّ الشَّاءُ»، وَلَمْ
تَلْبَثْ هُنَيْهَةً حَتَّى قَالَتْ:

«لَوْ أَنَا نَادَيْتُكَ وَاعْمَرَاهُ فَمَاذَا تَقُولُ؟... وَكَأَنَّهَا آسَتْخَفَّتُهُ فَهَبَتْ تَفْعَلُ
كَالْمُخُوبِ: أَقُولُ، أَقُولُ: لَبَّيْكَاهُ. لَبَّيْكَاهُ. لَبَّيْكَاهُ» وَمَدَّ صَوْتَهُ.

لِلأَوَّلِ لِقَاءَةٍ بَيْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَقَطَامٍ، مَرَّتْ فِي مُحَايَلَتِهِ قِصَّةُ أُمِّسَيَّةِ الطَّائِفِ،
وَشَعَرَ بِحُلَاوَةِ الْحُلُمِ، لَوْ كَانَ لَهُ مِنْ قَطَامٍ مَا كَانَ لِعُمَرَ مِنَ الثُّرَيَّا.

وَكَانَ أَنْ رَأَتْ قَطَامٍ مِنْهُ مَا رَأَى مِنْهَا، وَأَحْسَتْ بِمَثَلِ مَا اجْتَمَعَ فِي أَحَاسِيهِ
مِنْ أَخْلَامٍ، فَقَدْ تَوَاصَلَ بَيْنَهُمَا هَوًى، وَمَشَى بَيْنَ فَوَازِيهِمَا غَرَامٌ، وَلَقَّهَمَا وَجْدٌ،
وَأَسْتَدَارَ عَلَى قَلْبَيْهِمَا جَوًى وَهِيَامٌ. كَانَ فِي نُقْطَةِ الدَّائِرَةِ قَلْبُهَا، وَفِي إِطَارِ الدَّائِرَةِ
قَلْبُهُ يَدُورُ، وَلَا يَدْرِي مِنْ أَيْنَ أَبْتَدَأَ أَوْ إِلَى أَيْنَ يَنْتَهِي، وَدَائِمًا يَكُونُ قَلْبُ الْمَرْأَةِ مِنْ
الثَّوَابِتِ، فَهِيَ غَنِيَّةٌ بِالْإِغْرَاءِ، وَقَلَمًا تَكُونُ غَنِيَّةٌ بِالْحِسِّ الصَّافِي، وَهِيَ قَلَمًا تَتَحَرَّكُ
بِالْحُبِّ مِنَ التَّرَجِسِيَّةِ، وَلَكِنَّهَا دَائِمًا تَتَحَرَّكُ بِالْكَرَاهِيَّةِ وَالبُغْضِ.

كَانَ بَيْنَهُمَا لِقَاءٌ إِثْرَ لِقَاءٍ، وَكَمْ تَمَنَّى لَوْ أَفْتِنَا الْعُمَرَ فِي لِقَاءَةٍ سَكْرَى تَضِلُّ
عَنْ صَحْوِهَا، أَوْ تَدْفَعُ بِهِمَا فِي لَانِهَائِيَةِ الْفَنَاءِ قَبْلَ فَنَائِهَا.

عِنْدَ مَهْوَى أَحَدِ الْكُتُبَانِ الَّذِي حَفِظَ لَهُمَا أَوَّلَ أَنْتِشَاءَةٍ مِنْ غَرَامِهِمَا وَآخِرَ
 أَنْتِشَاءَةٍ، كَانَا يَحْلُمَانِ، وَمَا أَصْحَابَا، إِلَّا عَلَى صَوْتِ النَّعْيِ أَنْ وَقَعَتِ النَّهْرَوَانِ ذَهَبَتْ
 بِكُلِّ الشُّيُوخِ وَأَكْثَرِ الْفُتَيَانِ، وَأَنَّ تَيَّارَ الْأَزْزَاءِ جَرَى عَلَى كُلِّ بَيْتٍ، وَعَمَرَ أَعْلَى
 الْعَرَصَاتِ حَتَّى أَذْنَى الْأَوْدِيَةِ. فَتَمَايَلَتْ مَعَ النَّعْيِ مُرْتَعِدَةً كَمَا تَمَايَلَتْ فَصَبَاتُ الْغَوْرِ
 فِي حُرُوفِ الْأَوْدِيَةِ وَالْمُنْعَرَجَاتِ، وَأَنهَمَرَتْ عَيْنَاهَا بِالْذُمُوعِ الْمُتَنَائِرَةِ تَنَائِرُ الْبَرَدِ،
 وَثَارَتْ ثَائِرَةٌ أَبْنِ مُلْجِمٍ عَلَى لَحْنِ دُمُوعِهَا الْقَانِيَةِ... وَتَحْتَ عَوَامِلِ الثَّارِ الْفَائِرِ وَسُورَةِ
 الْإِنْتِقَامِ الْعَاصِفِ، آلَى أَلْيَتُهُ الرَّهِيئَةِ لَيَنْتَقِمَنَّ لَهَا وَلَهُ، وَلَيَسْفِنَنَّ نَفْسَهَا وَنَفْسَهُ
 وَلَيَقْرُونَ عَيْنَهَا وَعَيْنَهُ!

وَطَبِيعَةُ الْجَبَرُوتِ فِي الرَّجُلِ تَأْبَى أَنْ تَظْهَرَ بِمُبَالَغَاتِهَا إِلَّا فِي فُضَاءٍ نَظَرَ الْمَرْأَةُ،
 كَمَا تَأْبَى طَبِيعَةُ الْإِغْرَاءِ فِي الْمَرْأَةِ أَنْ تَظْهَرَ بِمُبَالَغَاتِهَا إِلَّا فِي فُضَاءٍ نَظَرَ الرَّجُلُ،
 كَأَنَّهُمَا، بَعْدَ تَنَاحُرٍ طَوِيلٍ، أَصْطَلَحَا عَلَى أَنْ تَسْتَنِيْمَ الْمَرْأَةُ إِلَى جَبَرُوتِهِ، فَهِيَ تُطَالِبُهُ
 بِهِ فِي الْخُطُوبِ، وَعَلَى أَنْ يَسْتَنِيْمَ الرَّجُلُ إِلَى إِغْرَائِهَا، فَهُوَ يُطَالِبُهَا بِهِ فِي الشُّبُوحِ،
 وَهَيْئَتِ الْأَحْلَامِ، وَدَعْدَغَاتِ الشُّكُونِ الَّذِي يَتَمَدَّدُ فِي فُضَاءِ النَّفْسِ بِأَسْتِزْخَاءٍ.

فِي دَارَةٍ لَا تَبْعُدُ كَثِيرًا عَنِ الْكُوفَةِ، تَسَارَعَ إِلَيْهَا مَفْجُوعُونَ وَمَفْجُوعَاتٌ،
 وَلَبِثُوا يُزِيدُونَ وَيُزِيدُونَ، تَحْتَ إِحْيَاءِ الْمَأْسَاةِ الْحَمْرَاءِ الَّتِي كَانَتْ تَتَّصِلُ بِأَعْصَابِهِمْ
 فَتَحَرَّكُهَا، مُتَصَلِّبَةً مُتَعَقِّدَةً تَشْتَهِي لَوْ تَمَدَّدَتْ خَائِفَةً سَاحِقَةً...

قَامَ الْحَرِيبُ بْنُ رَاشِدٍ التَّاجِيَّ يَخْطُبُهُمْ:

لَقَدْ كَبَّرَ عَلَيْنَا وَاللَّهِ مَضْرُغُ إِخْوَانِنَا الْأَبْرَارِ، وَمَا بَقَاؤُنَا بَعْدَهُمْ؟ أَتَنْتَظِرُونَ أَنْ
 يَنْحَطِّفَكُمُ جَيْشُ عَلِيٍّ زُمْرَةً بَعْدَ زُمْرَةٍ، وَطَائِفَةً بَعْدَ طَائِفَةٍ؟ إِنَّهُ لَا يَنْتَظِرُكُمْ مِنْهُ إِلَّا
 الْمَوْتُ، الْمَوْتُ الدَّلِيلُ الْوَضِيعُ! الْمَوْتُ الْغَائِلُ الزُّوَامُ! أَلَا فَانْفِرُوا وَمُوتُوا فِي عَقْرِ
 الْحِرَابِ، وَلَا تَمُوتُوا فِي عَقْرِ الدِّيَارِ!

فَهَبَ الْقَطْرِيُّ بْنُ الْفُجَاءَةِ يُثْشِدُهُمْ:

أَقُولُ لَهَا، وَقَدْ طَارَتْ شَعَاعاً، مِنْ الْأَبْطَالِ وَيَحْكُ لَنْ تُرَاعِي
فَإِنَّكَ لَوْ سَأَلْتَ بَقَاءَ يَوْمٍ عَلَى الْأَجْلِ الَّذِي لَكَ لَنْ تُطَاعِي
فَصَبْرًا فِي مَجَالِ الْمَوْتِ صَبْرًا فَمَا نَيْلُ الْخُلُودِ بِمُسْتَطَاعٍ
وَلَا ثَوْبُ الْبَقَاءِ بِثَوْبٍ عِزٍّ فَيُطَوَّى عَنْ أَخِي الْخَنِيعِ الْيَرَاعِ
سَبِيلُ الْمَوْتِ غَايَةٌ كُلُّ حَيٍّ قَدَاعِيهِ لِأَهْلِ الْأَرْضِ دَاعِي
وَمَنْ لَا يُغْتَبَطُ يَسْأَمُ وَيَهْرَمُ وَتُسْلِمُهُ الْمَوْتُ إِلَى أَنْقِطَاعِ
وَمَا لِلْمَرْءِ خَيْرٌ فِي حَيَاةٍ إِذَا مَا عُذُّ مِنْ سَقَطِ الْمَتَاعِ
وَوَقَفَ قَرَوَةٌ بْنُ نَوْفَلٍ الْأَشْجَعِي فَقَالَ:

أَلَا فَاسْمَعُوا: إِنَّ عَلِيًّا أَرَادَ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَقْعَةِ التَّهْرَوَانِ أَمْثَلَةً رَهْبِيَّةً، يُلَوِّحُ بِهَا
فِي وَجْهِ خَصْمِيهِ، فَيَقْلُ عَزَبُهُ، وَيُدْخِلُ الرُّوْعَ إِلَى قَلْبِهِ، وَيُحْدِلُ عَلَيْهِ أَغْصَابَهُ، فَبَطَّشَ
بِنَا تِلْكَ الْبَطْشَةَ السَّاحِقَةَ.

إِنَّ عَلِيًّا هُوَ أَخْوَجُ مَا يَكُونُ - وَقَدْ تَهَيَّأَ لِحَرْبِ خَصْمِيهِ - إِلَى مَثَلِ جَبَّارٍ
مُرْعِدٍ يُعِيدُ بِهِ إِلَى الْأُذْهَانِ مَثَلَ رَهْبَةِ مَعْرَكَةِ الْجَمَلِ، وَيُدْخِلُ فِي رُؤُوسِ خُصُومِهِ مَثَلَ
آثَارِهَا فَيَمْتَلِئُونَ دُغْرًا وَخَوْفًا، كَمَا أَرَادَ أَيْضًا أَنْ يُعِيدَ الثَّقَّةَ إِلَى نَفُوسِ جَيْشِهِ، فَقَدْ
عَرَاهَا وَهْنٌ وَخَوْزٌ، وَأَنْ يُعِيدَ الثَّقَّةَ بِالْجَيْشِ وَهُوَ يُقْبِلُ عَلَى مُغَامَرَةِ كُبْرَى فَاصِلَةٍ.
وَعَلَيَّ لَمْ يَضْرِبْنَا ضَرْبَتَهُ تِلْكَ فِي التَّهْرَوَانِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ بَدَلَ أَقْصَى الْجُهْدِ
لِلْعَوْدَةِ إِلَيْهِ، أَوِ الْقِيَّةِ إِلَى مُشَارَكَتِهِ فِي نِزَالِ خَصْمِيهِ، وَلَقَدْ أَرْخَى لَنَا مِنْ عِنَانِهِ حَتَّى
أَخَذْنَا سَهْلَ بَنٍ حُنَيْفٍ، وَأَنْتُمْ تَعْرِفُونَ سَابِقَتَهُ وَلَا تَجْهَلُونَ مَكَانَهُ، فَوَجَدَ إِذْ ذَاكَ
السَّبِيلَ لَتَجْرِبَتِهِ، وَهُوَ وَائِمٌ اللَّهُ قَدْ أُعْذِرَ.

وَلَسْتُ أَقُولُ تَنْبِيْطاً عَنْهُ، بَلِ اخْتِيَاطاً لِدِمَائِنَا، وَعَلَيَّ «لَمْ يَزَلْ عِنْدَنَا فِي الشُّبْهَةِ وَالشُّكِّ»... وَهَا إِنِّي مُعْتَرِلٌ.

فَوَتَّبِ الْحَرِيْثُ يَخْفُقُ بِرَأْسِهِ وَيُثْرِقُ بِعَيْنَيْهِ، وَيُزْعِدُ بِصَوْتِهِ، وَيُلَوِّحُ بِكُلْتَا يَدَيْهِ: أَدْعُوْةً إِلَى التَّفَاقِي وَالْكَفْرِ؟ إِنَّتَفَحَ سَحْرُكَ وَجَبْنَتْ وَهَذَرَتْ دِمَاءُ الْأَطْهَارِ. أَلَا فَمَيْتَةُ السَّوْءِ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَنْفِرُونَ! وَهَا إِنِّي نَافِرٌ نَافِرًا!

فَاشْتَعَلَتْ حِمَاسَةُ الشَّبَابِ خُصُوصاً، وَأَنْدَفَعُوا فِي تَيَّارِ أَصْوَاتِهِمْ كَالْجُنُونِ يُرَدِّدُونَ: أَلَا فَمَيْتَةُ السَّوْءِ لَنَا إِنْ كُنَّا لَا نَنْفِرُ وَنَنْتَقِمُ!... وَأَنْكَشَفَ الْجَمْعُ عَنِ اعْتِزَالِ فَرْوَةِ الْأَشْجَعِيِّ بِشَهْرَزُورٍ، وَنِفَارِ الْحَرِيْثِ التَّاجِي بِالْأَهْوَاِ ثُمَّ بِالْأَسْيَافِ.

وَلَكِنَّ الشَّبَابَ تَنَادَوْا إِلَى بَعْضِهِمْ وَالْوَااجِتِمَاعَ، وَتَوَتَّبِ الْخَطُطِ وَبِرَامِجِ السَّيْرِ بِالمُؤَامَرَةِ الْإِنْتِقَامِيَّةِ، فَهَمَّ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْعَمَلَ جَهْرًا، فَلْيَعْمَلُوا سِرًّا، وَلْيَعْمِدُوا إِلَى الْغِيْلَةِ.

وَكَانَ أَكْثَرُ هَؤُلَاءِ الشَّبَابِ تَحْمُساً عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ مُلْجَمٍ، الَّذِي أَنْدَفَعَ بِحَفِظَةِ الْحُبِّ، وَعَمِلَ كَنِي يُؤْضِي قَلْباً بَاتَ مَعْمُوداً... إِنَّهُ سَيُجَازِفُ كَيْفَمَا شَاءَتْ الْحَازِقَةُ، وَكَيْفَمَا كَانَتْ خُطُورُهَا.

أَلَيْسَ فِيهَا مَا يُؤْضِي مَحْبُوبَتَهُ الْمَفْجُوعَةَ بِأَيِّهَا وَأَخِيهَا؟ أَلَيْسَتْ سَشِيْعُهُ بِرَعِشَاتِ قَلْبِهَا وَخُفُوقِهِ؟

أَمَا سَتَحْتَفِظُ بِذِكْرِي نَابِضَةً تَشِيْعُ بَيْنَ أَهْتَازَاتِهَا آتِسَامَةً حُبِّ بَاكِئَةٍ، وَمَعْنَى هَوًى كَسِيْفٍ؟

فِي إِحْسَاسِ آتِنِ مُلْجَمٍ أَنَّ هَذَا كَافٍ بَلْ كَثِيْرٌ، لَا سِيَّيْمَا وَقَدْ جَعَلَتْ قَتْلَ عَلِيٍّ مَهْرَ قَلْبِهَا وَحُبِّهَا وَجَسَدِهَا، فَلْيَعْتَزِضْهُ إِذَا كُلُّ خَطَرٍ، وَلْتَقُمْ فِي طَرِيقِهِ أَيُّهُ الْعَقَبَاتِ، فَهُوَ لَا بُدَّ مُفْتَحِمُهَا. إِنَّهُ لَمْ يَعُدْ يُفَكِّرُ وَلَا يَرَى سِوَى عُرُوسِ أَخْلَامِهِ

تُبَارِكُهُ وَتَنْظُرُ إِلَيْهِ بِشَجَاجٍ وَتَخَوُّفٍ.

أَلَيْسَ الْآنَ تَوَدُّعُهُ وَهِيَ بَيْنَ عَاطِفَتَيْنِ مُتَصَارِعَتَيْنِ، تَهْتَرُ تَحْتَ غَنِيْفٍ صِرَاعِهِمَا، هَا هِيَ تَتْرُكُهُ يَنْطَلِقُ، مَسْرُورَةٌ تَحْتَ فَوْرَةِ الشَّارِ وَالْمَوْجِدَةِ، ثُمَّ لَا يَكَادُ يَخْطُو، حَتَّى يَطْفِئَ حُبَّهُ فِي حَنَائِيَا رُوحِهَا فَتَنْبُعِثُ وَلَهُى وَرَاءَهُ، تَشُدُّهُ إِلَيْهَا، وَتَغْتَنِّقُهُ آغْتِنَاقًا غَنِيْفًا.

إِنَّهَا بَيْنَ عَاطِفَتَيْنِ قَاسِيَتَيْنِ بِمَوْقِعِهِمَا عَلَى قَلْبِهَا، فَهِيَ تَخَافُ عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ، وَتَخَافُ مِنْهُ أَنْ لَا يَفْعَلَ. إِنَّهَا فِي حَيَزَةٍ يَقْضَى لَيْسَ تَغْفَى، وَنَفْسُهَا سَكْرَى تُعْرِبِدُ. ظَلَّتْ جِينًا بَيْنَ سَخَاءٍ بِهِ فَتُشْرِقُ عَلَى وَجْهِهَا آبَتِسَامَةٌ رَاعِدَةٌ، وَبَيْنَ بُحْلِ بِهِ فَتَتَوَلَّوْهُ وَتَدُوْبُ آبَتِسَامَتُهَا فِي مَوْجَةٍ مِنَ الْأَسَى السَّاهِمِ. يَبْدُو أَنَّهَا لَمْ تُطْلِقْ فَأُغِيْثَ بَيْنَ عَوَاطِفِهَا الْمُتَنَارِخَةِ، فَاسْتَنْدَتْ إِلَيْهِ وَجْهَها غَافِيَةً تَحْتَ أَطْبَاقٍ مِنَ الدُّمُوعِ، غَيْرَ أَنَّهَا رَمَقَتْهُ أَحْيَرًا، وَقَالَتْ لَهُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْخَفُوتِ:

«إِلْتَمِسْ غَيْرَتَهُ، فَإِنْ أَصَبْتَ شَفِيْتَ نَفْسَكَ وَنَفْسِي، وَيُهْنِكُ الْعَيْشُ مَعِي، وَإِنْ قُبِلْتُ فَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَزِينَةِ أَهْلِهَا... لَقَدْ صَحَّ عَزْمُهَا فِي النَّهَائِيَةِ عَلَى الْإِنْتِقَامِ.

وَأَنْطَلَقَ آبَنُ مُلْجَمٍ إِلَى حَيْثُ كَانَ جَمَاعَتُهُ يَنْتَظِرُونَ عِنْدَ الْحَطِيمِ فِي مَكَّةَ، وَكَانَ لَا يَسْمَعُ، كَيْفَمَا سَارَ، إِلَّا أَصْوَاتًا رَهِيْبَةً النَّأْمَاتِ، فَتَيَلَّفَتْ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَلَا يَرَى شَيْعًا، وَلَكِنَّهُ يَقِفُ كَالْمَذْعُورِ يَشُدُّهُ إِلَيْهِ مَوْضِعُهُ أَنَا، وَيَنْطَلِقُ أَنَا كَالِهَائِمِ الْمَشْرُورِ تَتَقَادَفُهُ طَرِيقُهُ مِثْلَ كُرَّةٍ، لَقَدْ عَدَا، تَحْتَ مَا تَجِيْشُ بِهِ نَفْسُهُ وَيَغْتَلِيْجُ بَيْنَ حَنَائِيَاهُ مِنْهَا، كَالْمَفْرُورِ، لَمْ يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، وَإِنَّمَا كَانَتْ تَنْعَكِسُ أَصْدَاءُ نَفْسِهِ فِي أُذُنَيْهِ، وَيَسْمَعُ صَبْجَتَهَا فِي الْخَلَاءِ حَزِيْبَةً أَوْ مُغْتَبِطَةً.

إِنْتَهَى إِلَى أَصْحَابِهِ وَأَتْرَابِهِ «فَتَذَاكُرُوا أَمْرَ النَّاسِ، وَعَابُوا عَلَى وَلَايَتِهِمْ،

وَذَكَرُوا أَهْلَ النَّهْرِ فَتَزَحَّمُوا عَلَيْهِمْ، وَقَالُوا: مَا نَصْنَعُ بِالْبَقَاءِ بَعْدَهُمْ. إِخْوَانُنَا الَّذِينَ
كَانُوا دُعَاةَ النَّاسِ لِعِبَادَةِ رَبِّهِمْ، وَالَّذِينَ كَانُوا لَا يَخَافُونَ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً، فَلَوْ شَرِينَا
أَنْفُسَنَا فَأَتَيْنَا الزُّرُوسَ فَالْتَمَسْنَا قَتْلَهُمْ فَأَرْخَنَّا مِنْهُمْ الْبِلَادَ وَثَارْنَا بِهِمْ إِخْوَانَنَا.
قَالَ آبْنُ مُلْجَمٍ - وَتَعَرَّضَ لَهُ طَيْفٌ قَطَامٍ يَبْتَئِسُ لَهُ وَيُبَارِكُهُ - أَنَا أَكْفِيكُمْ
عَلَيَّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ.

وَقَالَ الْبَرُوكُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: أَنَا أَكْفِيكُمْ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ.
وَقَالَ عَمْرُو بْنُ بَكْرِ: أَنَا أَكْفِيكُمْ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ... فَتَعَاهَدُوا وَتَوَاقَعُوا بِاللَّهِ:
لَا يَنْكُصُ رَجُلٌ مِنَّا عَلَى صَاحِبِهِ الَّذِي تَوَجَّهَ حَتَّى يَقْتُلَهُ أَوْ يَمُوتَ دُونَهُ.

بَعْدَمَا غَابَ آبْنُ مُلْجَمٍ عَنْ عَيْنِي قَطَامٍ، شَعَرْتُ بِغَبْطَةٍ، لَمْ تَلْبِثْ أَنْ
مَازَجَتْهَا حَسْرَةٌ كَانَتْ تَنْسَابُ إِلَى قَلْبِهَا، عَلَى سَكَلِ مَوْجَاتٍ مُتَدَفِّقَةٍ، وَلَمْ تَلْبِثْ
أَنْ فَارَتْ وَأَصْطَحَبَتْ. فَخَفْتُ إِلَى الطَّرِيقِ الَّذِي سَلَكَ تَوَدُّ لَوْ أَدْرَكْتُهُ، وَلَكِنَّهَا
تَوَقَّفَتْ وَلَمْ تَسْقُطْ لَهُ عَلَى أَثَرٍ وَلَوْ فِي الْقَتَامِ. فَظَلَّتْ تَزُونُ جَاحِظَةً وَشَفَتْهَا بَيْنَ
أَسْنَانِهَا، وَظَلَّتْ تُنْسِكُ وَجِيبَ قَلْبِهَا بِيَدٍ، وَتُكْفِكِفُ مِنْ غَرْبِ دَمْعِهَا بِيَدٍ، وَطَالَ
بِهَا الْمَقَامُ وَلَفَّهَا اللَّيْلُ كَأَنَّهُ يُجْلِبِبُهَا بِثَوْبِ الْحِدَادِ.

سَمِعْتُ، بَعْدَ حِينٍ، أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ هَبَطَ الْكُوفَةَ فَهَالَهَا مَا سَوْفَ يُقَدِّمُ
عَلَيْهِ، فَضَمَّتْ إِلَيْهِ، مِنْ قَوْمِهَا، رَجُلًا أَسْمُهُ وَزْدَانُ، تَمَلَّتْ، فِي أَقْصَى عَوَاطِفِهَا، لَوْ
أَنَّهُ سَقَطَ طُعْمُ الْفَرِيسَةِ وَنَجَا صَيَاذُهَا الْحَبِيبُ الْمُقَدَّى.

مَا لَبِثَ آبْنُ مُلْجَمٍ أَنْ لَقِيَ أَصْحَابَهُ فِي الْكُوفَةِ وَكَاتَمَتْهُمْ أَمْرُهُ، ثُمَّ سَارَ إِلَى
«شَبِيبِ بْنِ بَجْرَةَ فَقَالَ لَهُ: هَلْ لَكَ فِي شَرَفِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؟

قَالَ: وَمَا ذَاكَ؟

قَالَ: قَتَلْتُ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ.

قال: ثَكَلَتْكَ أُمُّكَ. لَقَدْ جِئْتُ شَيْئاً إِذَا، كَيْفَ تَقْدِرُ عَلَيْهِ؟

قال: أَكْمُرُ لَهُ فِي الْمَسْجِدِ، إِذَا خَرَجَ لَصَلَاةِ الْغَدَاةِ شَدَدْنَا عَلَيْهِ فَقَتَلْنَاهُ، فَإِنْ نَجَّوْنَا شَفِينَا أَنْفُسَنَا وَأَذْرَكْنَا ثَأْرَنَا، وَإِنْ قُتِلْنَا فَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا.

قال: وَيَحْك! لَوْ كَانَ غَيْرَ عَلِيٍّ لَكَانَ أَهْوَنَ عَلَيَّ، فَقَدْ عَرَفْتُ بَلَاءَهُ فِي الْإِسْلَامِ وَسَابِقَتَهُ مَعَ النَّبِيِّ (ص)، وَمَا أَجِدُنِي أَنْشُرِحَ لِقَتْلِهِ.

قال: أَمَا تَعْلَمُ أَنَّهُ قَتَلَ أَهْلَ النَّهْرِ! إِمَادَةُ الصَّالِحِينَ؟

قال: بلى... فَأَجَابَهُ، وَأَتَى الثَّلَاثَةَ إِلَى قَطَامٍ وَهِيَ مُغْتَكِفَةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْأَعْظَمِ، فَدَعَتْ لَهُمْ بِالْحَرِيرِ فَعَصَبَتْهُمْ بِهِ، وَأَخَذُوا أَسْيَافَهُمْ وَجَلَسُوا مُقَابِلَ السُّدَّةِ الَّتِي يَخْرُجُ مِنْهَا عَلِيٌّ... قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَقَفِيَّةِ: إِنِّي لِأُصَلِّيَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي الْمَسْجِدِ الْأَعْظَمِ فِي رِجَالِ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْمِصْرِ، مَا هُمْ إِلَّا قِيَامٌ وَرُكُوعٌ وَسُجُودٌ، مَا يَشَأُمُونَ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ إِلَى آخِرِهِ، إِذَا خَرَجَ عَلِيٌّ لَصَلَاةِ الْغَدَاةِ، فَجَعَلَ يُنَادِي: أَيُّهَا النَّاسُ، الصَّلَاةُ، الصَّلَاةُ. فَتَنَظَرْتُ إِلَى بَرِيْقٍ وَسَمِعْتُ: الْحُكْمَ لِلَّهِ يَا عَلِيٌّ، لَا لَكَ وَلَا لِأَصْحَابِكَ! فَرَأَيْتُ سَيْفًا ثُمَّ رَأَيْتُ ثَانِيًا ثُمَّ سَمِعْتُ عَلِيًّا يَقُولُ: لَا يَفُوتُكُمْ الرَّجُلُ! وَشَدَّ النَّاسُ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَأُخِذَ وَأُدْخِلَ عَلَى عَلِيٍّ فَقَالَ:

النَّفْسُ بِالنَّفْسِ إِنْ أَنَا مِثٌّ، وَإِنْ بَقِيَتْ رَأَيْتُ فِيهِ رَأْيِي... ثُمَّ أَلْتَفَتَ إِلَى ذَوِيهِ فَقَالَ: يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ: لَا أَلْفَيْتُكُمْ تَخَوْضُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ تَقُولُونَ: قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ. قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ. أَلَا لَا يُقْتَلَنَّ إِلَّا قَاتِلِي، أَنْظِرُوا يَا حَسَنُ، إِنْ أَنَا مِثٌّ مِنْ ضَرْبَتِهِ فَاضْرِبْهُ ضَرْبَةً بَضْرِبَةٍ، وَلَا تُمَثِّلْ بِالرَّجُلِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (ص) يَقُولُ: إِنَّا كُمُ وَالْمُثَلَّةُ لَوْ أَنَّهَا بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ... وَلَمَّا أَحَسَّ دُنُوهُ جَمَعَ إِلَيْهِ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنَ، فَقَالَ:

أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَلَا تَبْغُوا الدُّنْيَا، وَإِنْ بَغَيْتُكُمْ، وَلَا تَبْكِبُوا عَلَى شَيْءٍ

زَوَى عَنْكُمَا، وَقُولَا الْحَقَّ، وَأَرْحَمَا الْيَتِيمَ، وَأَغْنِيَا الْمَلْهُوفَ، وَأَصْنَعَا لِلْآخِرَةِ وَكُنَا
لِلْظَالِمِ خَضَمًا وَلِلْمَظْلُومِ نَاصِرًا، وَأَعْمَلَا بِمَا فِي الْكِتَابِ، وَلَا تَأْخُذْكُمَا فِي اللَّهِ لَوْمَةً
لَا يَمُ... ثُمَّ نَظَرَ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ فَقَالَ: هَلْ حَفِظْتَ مَا أَوْصَيْتُ بِهِ أَخَوَيْكَ؟
قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَوْقِيرِ أَخَوَيْكَ، الْعَظِيمِ حَقُّهُمَا عَلَيْكَ، فَاتَّبِعْ أَمْرَهُمَا
وَلَا تَقْطَعْ أَمْرًا دُونَهُمَا. ثُمَّ قَالَ: أُوصِيكُمَا بِهِ فَإِنَّهُ شَقِيقُكُمَا وَأَبْنُ أَبِيكُمَا، وَقَدْ
عَلِمْتُمَا أَنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُحِبُّهُ... ثُمَّ لَمْ يَنْطِقْ إِلَّا بِقَوْلٍ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، حَتَّى
قُبِضَ...»

فَلَيْتَهَا إِذْ فَدَتْ عَمْرًا بِخَارِجَةٍ فَدَتْ عَلِيًّا بِمَنْ شَاءَتْ مِنَ الْبَشَرِ

*

خَاضَ عَلِيٌّ الْكِفَاحَ الْإِسْلَامِيَّ وَلَمْ يُذِرْكَ مَذْرَكَ الرِّجَالِ، وَقَضَى فِي سَاحَةِ
هَذَا الْكِفَاحِ وَهُوَ أَسْمَى الرِّجَالِ...
وَكَأَنَّهُ بِكِفَاحِهِ أَتَمَّ عَلَى الْإِسْلَامِ كِفَاحَهُ، فَالْتَبَّى كَافِحَ الشُّرُوكِ، وَعَلِيٌّ كَافِحُ
النُّفَاقِ...

وَالْتَبَّى ظَفِرَ بِالْمَغْرَكَةِ الْحَاسِمَةِ، وَعَلِيٌّ ظَفِرَ بِمَغْرَكَةِ التُّظْهِيرِ الْحَاسِمَةِ أَيْضًا...
فِي كُلِّ عَيْنٍ أَنْتَ قُرْئُهَا فِي كُلِّ جِيلٍ أَنْتَ عَلَيْهَا
شَاءَ الْحَقُّ أَنْ يُقَدَّمَ فِي دُنْيَا النَّاسِ نَمُودَجُهُ فَكَانَ عَلِيًّا...
وَشَاءَتِ الْإِنْسَانِيَّةُ الْعُلْيَا أَنْ تَعْتَرِضَ مُتَأَلِّقَةً فِي أَفْقِ الْأَحْيَاءِ فَكَانَتْ عَلِيًّا...
وَشَاءَتِ السَّمَاءُ أَنْ لَا تُسَلِّمَهُ إِلَى أَطْبَاقِ الثُّرَى الْمُظْلِمِ، فَاخْتَارَتْهُ مِلءَ عَيْنِ
الْحَقِّ شَهِيدًا...

*

إِسْتَعْبَرَ الْحَسَنُ، وَتَوَلَّى الْحُسَيْنُ مُلْتَمَعًا، فَقَدْ دَقَّتْ سَاعَةٌ مَاتَ فِيهَا الْبَطْلُ...
وَأَعْوَزَهُ الدَّمْعُ، وَلَكِنَّ عَلِيًّا لَا يُشْفَعُ بِالدُّمُوعِ...
فَإِنَّ تَكْرِيمَ الْبَطْلِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِتَضَحِيَّةٍ فِي بُطُولَةٍ، وَبُطُولَةٍ فِي التَّضَحِيَّةِ...
فَبَكَاهُ وَلَكِنْ لَمْ يَبْكِهِ بِالدُّمُوعِ بَلْ بِالدَّمَاءِ الْخَالِدَاتِ!...

*

تَنْظَّمُ عَلَى رَأْسِ الْحُسَيْنِ إِنْكَلِيلُ أَسَى، وَلَكِنَّهُ إِنْكَلِيلُ غَارٍ يُعَبِّرُ عَنْ خَالِدِ
الْمَجْدِ... فَقَدْ ضَمَّ جَدَّهُ وَأُمُّهُ وَأَبَاهُ فِي آخِيتَاكَ وَضِيء...
وَكَانَ يَشْعَارُهُ أَنَّى سَارَ وَكَيْفَ سَعَى...
وَوَضَلَ الْإِنْكَلِيلُ كَأَنَّ فِيهِ مَحَلًّا لَزَهْرَةٍ حُمْرَاءَ أَيْضًا...
فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ كَانَ يَنْفُسِهِ تِلْكَ الزَّهْرَةَ الْحُمْرَاءَ...
وَوَضَلَ إِنْكَلِيلُ الْغَارِ الْعَظِيمِ ذِكْرَى رَائِعَةٍ فِي ضَمِيرِ الْوُجُودِ!...

*

إِسْتَعْرَقَ الْحُسَيْنُ فِي أَسَى مُذِيبٍ، وَجَرَى عَلَى لِسَانِهِ مِنْ مَرُوثِيَّةِ أَبِي الْأَسْوَدِ
الدُّوَلِيِّ:

إِذَا آسَفْتُ بِلَتْ وَجْهَ أَبِي حُسَيْنٍ رَأَيْتَ الْبَدْرَ رَاغٍ التَّاطِيرِ
لَقَدْ عَلِمْتُ قُرَيْشٌ حَيْثُ كَانَتْ بِأَنَّكَ خَيْرُهَا حَسَبًا وَدِينًا
ثُمَّ تَمَّتْ: لِمَاذَا؟ لِمَاذَا يَقُولُ «أَبِي حُسَيْنٍ»؟...
لَا شَكَّ أَنَّ أَبَا الْأَسْوَدِ يُنَادِينِي، يُنَادِينِي أَنَا...
وَيَخْلِقُ بِي أَنْ أُجِيبَ النَّدَاءَ!...

* * *

مِنْ أَيَّامِ الْحُسَيْنِ السَّبِّطِ (٤)

في الهيكل

هَجَرَ النَّاسَ إِلَى الْمَسْجِدِ، وَسَيَّمَ الْحَيَاةَ الصَّاحِبَةَ، وَقَدْ أَمْتَدَّتْ إِلَيْهِ بِأَرْزَائِهَا،
وَأَتَّصَلَتْ إِلَى قَرَارَةِ حُوبَائِهِ بِأَسْبَابِ بَأْسَائِهَا، فَمَا بَشَّتْ فِي وَجْهِهِ إِلَّا قَلِيلاً، عَلَى أَنَّ
ذَلِكَ الْقَلِيلَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا كَالْفَتْرَةِ بَيْنَ نَحْمَتَيْنِ.

بَلَّةٌ فِكْرَتُهُ عَنِ الْحَيَاةِ، وَكَانَتْ لَا تَزِيدُ فِي آغْتِيَارِهِ عَنْ مَسْرُوحِيَّةِ مُرْسَلَةٍ
إِلْزَمَالاً، لَا تَتَقَيَّدُ بِوَاحِدَةٍ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، تَسْرُ فِي بَعْضِ مِنْهَا، وَتُسْقِي فِي بَعْضٍ،
وَتُضْحِكُ وَتُبْكِي وَتُلْدُ وَتُؤْلِمُ. وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ لَا تُؤْلِمُ حَقِيقَةً كَمَا لَا تُلْدُ حَقِيقَةً،
وَلَكِنَّهَا تُغْرِي بِالْأَلَمِ وَاللَّدَّةِ إِذَا اسْتَجَابَ إِلَى أَشْيَائِهِمَا الشُّعُورُ، فَتُلَوُّنُ بِهَا وَتَعْلُقُ فِي
الْفِكْرِ رَغْبَةً تَصْدِيقُهَا، وَإِلَّا فَهِيَ، فِي حَقِيقَتِهَا، ضِحْكَةٌ نَحْنُ نَفْتَعِلُهَا وَنَحْنُ نَعُودُ
فَنُصَدِّقُهَا وَنُؤَكِّدُهَا.

أَمَا أَنَّهَا وَاقِعٌ فَأَبْعَدُ مَا تَكُونُ عَنْ ذَلِكَ، وَإِلَّا فَلِمَاذَا تَكُونُ مَصَائِبُ قَوْمٍ عِنْدَ
قَوْمٍ فَوَائِدُ؟... وَلِمَاذَا لَا تَمْتَلِكُنَا مَشَاعِرُ وَاحِدَةٍ جِبَالِ الْحَادِثِ الْوَاحِدِ؟

أَلَيْسَ هُوَ حَادِثًا وَاحِدًا لَا يَمْلِكُ هَذَا التَّبَايُنَ، فَمِنْ أَيْنَ جَاءَ إِذَا؟ إِنْ كَانَ
الْحَادِثُ عِلَّةً وَالْمَشَاعِرُ الْمُتَبَايِنَةُ تَنْشَأُ عَنْهُ بِالْعَلَاقَةِ السَّبَبِيَّةِ، فَكَيْفَ اخْتَلَفَتْ؟

وَلِمَاذَا أَقْتَنِيعُ أَنَا بِأُسْلُوبٍ وَمَنْطِقٍ لَا يَقْتَنِيعُ بِهِمَا الْآخَرُ فِي زَمَانٍ وَمَكَانٍ لَيْسَا
مُخْتَلِفَيْنِ؟ وَيُحِسُّ كُلُّ مَنَّا أَنَّ الْوَاقِعَ هُوَ مَا أَنْطَوَى عَلَيْهِ، وَشَعَرَ بِهِ شُعُورًا فِكْرِيًّا أَوْ

مَعْتَوِيًّا. أما يُحِسُّ كُلُّ مِنَّا، إذا اقْتَنَعَ بِأَمْرٍ أَوْ بِرَأْيٍ، أَنَّهُ انْتَقَلَ مِنْ واقِعٍ لَمْ يَعُدْ لَهُ هذا الأَسْمُ، إلى واقِعٍ ليس سِوَاهُ خَلِيقًا بِإِطْلَاقِ الأَسْمِ؟ أَلَسْنَا لَا نَبْتَعِسُ وَنَحْنُ نَعْبُثُ جَدِلِينَ بِأَشْلَاءِ الأَعْدَاءِ وَدِمَائِهِمْ؟

فَالطَّبِيعَةُ الحَيَّةُ إِذَا تَهَدَّمَتِ العِلَاقَةُ السَّبَبِيَّةُ فِي نَفْسِهَا، ثُمَّ لَا تَخْضَعُ لِنَامُوسِهَا، وَالْعِلَاقَةُ السَّبَبِيَّةُ هِيَ ظَاهِرَةُ الواقِعِ، فَلَا يَدْعُ، بَعْدَ هَذَا، إِنْ كَانَتِ الحَيَاةُ لَيْسَتْ واقِعًا، أَوْ لَا تُعْبِزُ عَنْ واقِعٍ فِي كَثِيرٍ أَوْ قَلِيلٍ.

إِنَّ الحَيَاةَ إِنَّمَا تَجِدُ واقِعَهَا فِي آنْفِعَالِنَا الضَّمِيرِيِّ^(١) أَوِ الِوِجْدَانِيِّ، فَكُلُّ مَا لَا يَجِدُ طَرِيقَ أَنْتِهَائِهِ إِلَى مَرْكَزِ الانْفِعَالِ الضَّمِيرِيِّ لَيْسَ بِحَيَاةٍ. فَلِكُنِّي يَكُونُ إِذَا لِلْعِلَاقَةِ السَّبَبِيَّةِ عَمَلٌ فِي الطَّبِيعَةِ الحَيَّةِ فَتَنْتُجُ وَخَدَةً أُثَرٍ، لَا بُدَّ مِنْ وَخَدَةٍ زَمَانٍ وَوَخَدَةٍ مَكَانٍ، وَوَخَدَةٍ حَادِثٍ وَوَخَدَةٍ ضَمِيرٍ، وَهَذِهِ الأَخِيرَةُ أَهَمُّ الوَخَدَاتِ مِنْ حَيْثُ تَجِدُ الحَيَاةَ الإِنْسَانِيَّةُ فِي بَيْدَائِهَا واقِعَهَا. فَأَشْيَاءُ الحَيَاةِ لَا تَجِدُ حَيَاتِهَا، وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى لَا تَجِدُ حَقِيقَتَهَا، إِلَّا إِذَا اسْتَجَابَ إِلَيْهَا الشُّعُورُ، وَإِلَّا فَأَيْنَ الأَلَمُ واللَّذَّةُ؟ وَأَيَّانَ تَقُومُ المُغْرِبَاتُ والفُتُونُ؟ فَلْتُجَرِّبْ إِذَا جَدِيدًا أَنْ لَا تَضْحَبَ أَلْوَانَ الحَيَاةِ الَّتِي تَمُرُّ بِنَا بِاسْتِجَابَةِ الشُّعُورِ، فَتَنْقَلِبَ مَسْرُجِيَّةً تَافِهَةً القِيَمَةِ. وَنَحْنُ مِنْ هَذِهِ المَسْرُجِيَّةِ نَفْسِهَا - وَهِيَ أَفْتِعَالُنَا - نُسَرُّ وَنَأْسَى إِذَا اسْتَجَبْنَا إِلَيْهَا بِشُعُورِنَا، فَسِرٌّ مَا يَنْتَابُنَا مِنْ شَقَاءِ الحَيَاةِ، أَوْ سَعَادَتِهَا، قَائِمٌ فِي الاسْتِجَابَةِ الشُّعُورِيَّةِ فَقَطْ، فَالْحَيَاةُ لَيْسَتْ بِمِثْلِكَ سِوَى أَشْيَاءٍ نَحْنُ نُفَرِّغُ فِيهَا مُسْمِيَّاتِهَا. فَإِذَا حُلْنَا بَيْنَ الشُّعُورِ وَالاسْتِجَابَةِ، أَذَرَكْنَا سِرَّ الحَيَاةِ وَحَقِيقَتَهَا، وَاسْتَشْعَرْنَا بِهَيْئَتِهَا الخُلْدِ، وَأَنْشَتْنَا نَتَقَلَّبُ فِي حَيَاةٍ ذَابَتْ عَلَيْهَا كِبَرِيَاءُ أَبَدِيَّةِ السَّمَاءِ، وَكِبَرِيَاءُ مَعَانِيهَا وَأَخْلَامِهَا... رَنٌّ فِي أَذْنِ الحُسَيْنِ وَهُوَ فِي مَذْهَبِ تَفْكِيرِهِ هَذَا أَوْ تَأْمُلِهِ... فَلْتَنْجِرْذَا هَلُمَّ إِلَى الهَيْكَلِ! إِلَى مِخْرَابِ الْمُقْبَدِ، مِخْرَابِ الرُّوحِ وَالْجَمَالِ وَالْحُبِّ وَالْخَيْرِ

(١) نَفْيِي بِالضَّمِيرِ هُنَا الْمُضَعَرُّ، أَيِ الْمَعْنَى اللَّغَوِيَّةِ دُونَ الْمَعْنَى الْأَخْلَاقِيَّةِ، وَكَذَلِكَ الِوِجْدَانِ.

ظَلَّ في حَيَاةِ تَمَوُّجِ النَّشْوََةِ وَسَكْرَةِ الحُلُمِ، وَخَيْنِ الرُّوحِ، وَرَفَّةِ الطُّهْرِ،
وَحَقِّقَةِ الحُبِّ، وَظَلَّ النَّاسُ خَارِجَ الهَيْكَلِ يَتَقَلَّبُونَ في حَيَاةِ تَمَوُّجِ الْفُتُونِ
وَالشَّهَوَاتِ، وَرَشْحَاتِ الأعْصَابِ مِنْ لَذَّةِ وَأَلَمِ، وَلِكِنَّهَا دُنْيَا مِنَ السَّرَابِ.

كَانَ كَأَنَّهُ في مِخْرَابِهِ بَيْتَ القَصِيدِ في أُنْشُودَةِ الحَيَاةِ، أَوْ أُنْشُودَةِ الطُّهْرِ في
شِعْرِ الوُجُودِ.

ظَلَّ في مِخْرَابِ الرُّوحِ رَانِيَا شَاخِصًا، زَمَنًا طَوِيلًا، في حِسَابِ مَنْ دُونَ
مُحْدُودِ الهَيْكَلِ، وَإِنْ كَانَ، في حِسَابِهِ، لَمْ يُفْنِ اللَّحْظَةَ الْأُولَى بَعْدُ، وَهَلْ في لَحْظَةِ
الإِشْرَاقِ وَجُودٌ لِلزَّمَنِ؟ إِنَّ لَحْظَةَ الإِشْرَاقِ لَحْظَةُ أَبَدٍ، وَأَوَّلُ آخِرٍ في الأَبَدِ إلْغَاءُ فِكْرَةِ
الزَّمَانِ مِنْهُ.

وفي لَحْظَةِ الإِشْرَاقِ سِرُّ الحَيَاةِ، وَلَمَّا كَانَ هَذَا السِّرُّ فِينَا لَا نَفْتًا نُنْشُدُ النَّشْوََةَ
في الحُبِّ وفي الفَنِّ. وَلَآنَ في لَحْظَةِ الإِشْرَاقِ لَحْظَةُ أَبَدِيَّةٍ، لَا يَشْعُرُ المَحِبُّونَ بِدُنْيَا
الحَيَاةِ وَمَا آجَتَمَعَ فِيهَا، ثُمَّ لَا يَشْعُرُونَ بِغَيْرِ دُنْيَاهُمْ، لَقَدْ آتَنَشَوْا فَهَمَّ يَحْلُمُونَ.

في كُلِّ أَشْيَاءِ الوُجُودِ لَفَتَاتُ إِشْرَاقٍ، وَهِيَ تَتَنَادَى بِالحَيِّ إلى التَّائُمْلِ لِيَنْجُوَ
مِنْ عُجَابِ السَّرَابِ، قَبْلَمَا يُعْتَصِرُ في الأَلِيمَاكِ السَّائِجِرِ.

إِنَّ لَحْظَةَ الإِشْرَاقِ في الفَنِّ تَنْتَهِي بِلَحْظَةِ الإِشْرَاقِ في الحُبِّ، وَلَحْظَةُ الإِشْرَاقِ
في الفَنِّ تَنْتَهِي بِلَحْظَةِ الإِشْرَاقِ في الهَيْكَلِ أَيْ التَّائُمْلِ، وَهُنَا تَزْدَفُ سُدُودُ الشُّعُورِ
في القَلْبِ، فَتَدْفُقُ لِحْجُ الإِشْرَاقِ، وَفِي عُجَابِهَا بَاتَ الحُسَيْنُ يَطْفُو حَالِمًا يَشْمُو بِهِ
الْمَدُّ. إِنَّهُ نَشْوَانُ. أَلَيْسَتْ مُحْشَاثَتُهُ تُنْذِرُهَا خَمْرَةُ اللَّهِ، ثَرَابٌ بِقَمِي: إِنَّهَا تَنْدِي بِرَحِيقِ
الأَزَلِ.

بَدَأَ الحُسَيْنُ لَا يَرَى شَيْعًا، إِلَّا رَأَى اللَّهَ وَرَاءَهُ، وَانْتَهَى وَهُوَ لَا يَرَى شَيْعًا إِلَّا
رَأَى اللَّهَ أَمَامَهُ، وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يَرَى شَيْعًا، فَقَدْ فَتِنَتِ الظَّلَالُ كُلُّهَا في الإِشْرَاقِ،

وَأَمَحَى خَيَالُ الْأَشْيَاءِ فِي مُقَلَّةِ الشَّمْسِ.

فَلَا يَدْعُ إِنْ أَسْتَوَى قَلْبُهُ عَلَى قَاعِدَتِهِ، كَمَا أَسْتَوَى فِكْرُهُ عَلَى الْقَاعِدَةِ عَيْنِهَا، وَتَمَلَّأَ ضَمِيرُهُ بِالمَثَالِيَةِ وَشَاعَ فِي وَجْدَانِهِ الْحَقُّ بِقَضَايَاهُ الْعُلْيَا. فَهُوَ خَصِصُ الرُّوحِ أَكْثَرَ مَا تَكُونُ خُصُوبَةً، وَمِنْ فُؤَادِهِ يَتَدَفَّقُ نَمِيرٌ صَالِحٌ لِحَيْرِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْإِنْسَانِ، وَتَتَفَجَّرُ مِنْ أَعْمَاقِ نَفْسِهِ يَنَابِيعُ الْفَضَائِلِ. فَظَلَّ مُصَدَّرَ تَمَوِّدَاتٍ تُشِيرُ إِلَى الْمَكَارِمِ الَّتِي قِيلَ عَنْهَا: إِنَّهَا أَخْلَامُ الشَّاعِرِ وَأُغْنِيَةُ الْعُنْدَلِيْبِ، أَلَا لَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَخْلَامُ الْعُلْيَا تُشِيرُ إِلَى الْحُسَيْنِ وَتَقُولُ: إِنِّي هُنَا!

كَانَ قَدْ آسَظَطِيرَ قَلْبُهُ بِالْحَقِيقَةِ الْإِلَهِيَّةِ، فَهُوَ لَا يَقْتَأُ يَنْشُدُهَا وَيَسْتَعْرِقُ مُتَمَلِّمًا فِي يَبْدَاءِ بَحَالِهَا، فَكَأَنَّهُ وَهُوَ فِي الْحِرَابِ قَدْ جَسَّدَ الْحِرَابَ فِيهِ مَعْنَاهُ. فَلَمْ يَعُدْ يَمُدُّ خَيَالُ الْإِنْسَانِ بَلْ عَدَا يَمُدُّ وَاقِعَ الْإِنْسَانِ، حِينَ أَصْحَى مَعْنَى الْحِرَابِ لِنَسَانًا يَعِيشُ فِي النَّاسِ، فَكَانَ مِثَالُ الْخَيْرِ كُلِّ الْخَيْرِ، وَمِثَالُ الطُّهْرِ كُلِّ الطُّهْرِ، فَلَمْ يَكُنْ يُرَى إِلَّا مُضَلِّيًا حَتَّى كَأَنَّ حَيَاتَهُ جَاءَتْ عَلَى مِقْدَارِ الصَّلَاةِ، وَإِلَّا سَخِيئًا جَوَادًا حَتَّى كَأَنَّ غَايَةَ الْحَيَاةِ فِي غَايَةِ الْجُودِ، وَإِلَّا مُسْتَطِيبًا صَهَوَاتٍ تُحِيلُهُ إِلَى مَكَّةَ كَأَنَّهُ يَشْعُرُ بِالْحَجِّ أَنَّهُ - مِثْلَمَا نَعْبُرُ الْيَوْمَ - تَسْجِيلٌ لِلْأَنْسَمِ فِي سِجْلِ التَّشْرِيفَاتِ، وَلَيْسَ أَشْهَى إِلَى قَلْبِهِ مِنْ مُعَاوَدَةِ ذَلِكَ؟

لِذَا، كَانَ الْحُسَيْنُ، بِجَاذِبِيَّةِ الرُّوحِ، مَهْوًى الْقُلُوبِ وَنَدَى الْأَفْعِدَةِ تَحُومُ مِنْ حَوْلِهِ كَأَنَّهَا تَزُورِي غُلَّتْهَا، فَقَدْ سَقَطَ الْعِطَاشُ مِنْهُ بَعْدَ التَّيِّهِ عَلَى رَقَارِقِ التَّبَنُّوعِ، فَمَا كُنْتُ تَرَى النَّاسَ «إِلَّا عُكْفًا حَوْلَهُ» مُنْتَشِينَ، يَنْعَمُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِالْحَنِينِ إِلَى الْمَجْهُولِ «كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطُّيْرَ».

فَكَانَ مَحَلُّهُ مِنَ النَّاسِ مَحَلُّ جَدِّهِ النَّبِيِّ، تَجِدُ فِيهِ الْأَرْوَاحَ الشَّارِدَةَ الْحَائِرَةَ مَا تَشْتَهِي مِنْ طُمَأْنِينَةٍ وَمَا تَشَاءُ مِنْ سَكِينَةٍ. فَإِذَا عَبَدَ اللَّهُ بَنُو عَبَّاسٍ عَلَى مَكَانَتِهِ يَأْخُذُ بِرِكَابِهِ فِي شُعُورٍ وَدُونَ شُعُورٍ، وَإِذَا قِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، قَالَ: «إِنَّ هَذَا آتَى رَسُولِ اللَّهِ،

أَفَلَيْسَ مِنْ سَعَادَتِي أَنْ أَخَذَ بِرِكَابِهِ؟... وإذا أبو هُرَيْرَةَ يَسِيرُ وَالْحُسَيْنُ فِي بَجَنَازَةٍ فَأَغْيَا الْحُسَيْنُ وَقَعَدَ، «فَجَعَلَ أَبُو هُرَيْرَةَ يَنْفُضُ الثَّرَابَ عَنْ قَدَمَيْهِ بِطَرَفِ ثَوْبِهِ، فَقَالَ: وَأَنْتَ يَا أبا هُرَيْرَةَ تَفْعَلُ هَذَا؟

فَقَالَ لَهُ: دَعْنِي، فَوَاللَّهِ لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مِنْكَ مَا أَعْلَمَ لَحَمَلُوكَ عَلَى رِقَابِهِمْ!... وإذا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ «يَرَى الْحُسَيْنَ مُقْبِلًا وَهُوَ جَالِسٌ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ فِي جَمَاعَةٍ، فَيَقُولُ: هَذَا أَحَبُّ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَيَّ أَهْلِ الْأَرْضِ وَإِلَى أَهْلِ السَّمَاءِ الْيَوْمَ».

وكان، على هذه المكَانَةِ، لَا تَزْدَهِيهِ كِبَرِيَاءُ الْمُتَخَايِلِ، فَإِنَّ الْكِبَرِيَاءَ شُعُورٌ بِنَقْصِ الدَّاتِ، وَجَبَتْ لِهَذَا النُّقْصِ بِالتُّظَاهِرِ، وَمَا حَاجَةُ الْعَظِيمِ إِلَى الْأَنْوَابِ، وَالْعَظُمَةُ ذَاتِيَّةٌ تَكُونُ أَكْثَرَ أَشْرًا كُلَّمَا كَانَتْ أَكْثَرَ عُويَا.

فَالْكِبَرِيَاءُ مَرَضٌ يَنْ أَنْ يَكُونَ فِي الدَّاتِ، أَوْ أَنْ يَكُونَ فِي الْإِذْرَاكِ، وَفِي كِلْتَا حَالَتَيْهَا تَعْبُرُ عَنْ أَنَّهَا كَشَجَرَةٍ الْأَوْرَاقِ فِي الْحَرِيفِ، أَوْ كَزَعْبِ النَّعَامِ فِي الْإِغْصَارِ.

زَعَمُوا أَنَّ ثَفَاحَةَ نَبَتَتْ فِي أَضِلِّ شَجَرَةٍ بَلُوطٍ، فَأَطَلَتْ عَلَيْهَا مِنْ عَلَيَّائِهَا الشَّامِخِ بِخَيْلَاءٍ وَأَزْدِهَاءٍ، وَقَالَتْ: أَأَنْتِ حَقِيرَةٌ، حَقِيرٌ جَنَّاكِ الَّذِي تَحْمِلِينَ، حَتَّى صَوْتُكَ حَقِيرٌ فِي نَجْوَى النَّسِيمِ سَاعَةً يَنْطَلِقُ فِي السَّحْرِ يُغَاوِلُ غَايِبَاتِ الْأَشْجَارِ وَيُسَامِرُهَا... وَأَنْتَقَضَتْ تَصَفُّقٌ، فَقَدْ مَرَّ الرِّيحُ يُهْدِئُهَا، وَذَهَبَتْ تَضْحُكُ مُتَمَائِلَةً فِي سُحْرِيَّةٍ وَكِبَرِيَاءٍ. وَهَبَتْ فِي أَثَرِ الرِّيحِ أَعَاصِيرُ تَزَاوُرَ فَطَالَتْ ضِجْجُكُنَّهَا وَأَسْتَحَالَتْ قَهْقَهَةً لَمْ تَزَلْ تَمْتَدُّ، وَلَكِنَّهَا أَنْقَلَبَتْ فَجَاءَةً إِلَى مِثْلِ حَشْرَجَةٍ رَهْبِيَّةٍ أَنْكَفَأَتْ مَعَهَا تَزَوُّطُهَا بِالْأَرْضِ عِنْدَ قَدَمِ الثَّفَاحَةِ، فَمَالَتْ هَذِهِ عَلَيْهَا رَائِيَةً تَقُولُ:

لَعَلَّكَ الْآنَ - أَيْتُهَا الْأَخْتُ - أَصْدَقُ زَمْرًا فِي الْكِبَرِيَاءِ...

وَمَرَّ سَائِرُ طَرِيقِي جَدُّ بِهِ الْمَسِيرُ، فَوَقَفَ عِنْدَهُمَا تَعْبًا ضَارِيًا، وَأَهْوَتْ يَدُهُ تَطْعَمُ مِنْ تَمَرِ الْبَلُوطَةِ، فَخَبَطَتْهُ مَرَارَةٌ حَادَّةٌ، فَتَقَرَّرَ مُسْتَنْعِصًا كَالَّذِي مَسَّهُ أَفْعَى، وَتَرَايَدَ

به الظلم، وتَلَبَّثَ في حَيْرَةٍ طَوِيلًا قَبْلَ أَنْ أَخَذَ مِنْ ثَمَرِ الأُخْرَى، فَاحْلَوْلَى وشَاعَ الرِّثْيُ في جَوَانِحِهِ، فَقَالَ:

مُبَارَكَةٌ أَنْتِ! فَإِنَّكَ تَحْمِلِينَ عُصَارَةَ الذَّاتِ فِي شَكْلِ خُدُودِ الحِسَانِ، وَأَمَّا أَنْتِ الأُخْرَى فَبُعْدًا لَكَ! إِنَّكَ تَحْمِلِينَ عُصَارَةَ الكِبْرِيَاءِ فِي شَكْلِ جِلَّةِ الجَمَالِ! فَسَمِعَتْ كِلْتَاهُمَا مُحْكَمَ الحَقِيقَةِ عَلَيَّهِمَا، فَمَا تَاهَتْ إِحْدَاهُمَا، وَهِيَ كَبِيرَةُ الذَّاتِ كَبِيرَةُ الوجودِ، وَلَقَدْ تَضَاءَلَتِ الأُخْرَى وَهِيَ عَدِيمَةُ الذَّاتِ كَبِيرَةُ فِي العَدَمِ، وَرَاحَتْ وَقَدْ آخُضِرَتْ عَلَيْهَا الكِبْرِيَاءُ كَأَنَّهَا تَنْظُرُ إِلَى أَشْلَائِهَا مُمَرِّقَةً... وَقِيلَ، بَعْدَ حِينٍ، إِنَّ المَوَاقِدَ أَنْتَهَبَتْهَا، وَحَالَتْ فِي الرَّمَادِ والدُّخَانِ تَقُولُ أَيْضًا: إِنِّي لَمْ أَرَلْ كِبْرِيَاءً تَغْلُوا...!

«مَرَّ الحُسَيْنُ بِمَسَاكِينٍ يَأْكُلُونَ فِي الصُّفَّةِ^(٢)، فَقَالُوا: الغَدَاءُ. فَتَنَزَّلَ وَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُتَكَبِّرِينَ. فَتَعَدَّى ثُمَّ قَالَ: قَدْ أَجْبَثْتُكُمْ فَأَجِيبُونِي، قَالُوا: نَعَمْ... فَمَضَى بِهِمْ إِلَى مَنْزِلِهِ، وَقَالَ لِخَادِمِهِ: أَخْرِجِي مَا كُنْتَ تَدَّخِرِينَ».

والحُسَيْنُ كَانَ، وَهُوَ فِي الهَيْكَلِ، لَا يَفْتَأُ يُمِيعُ النَّظَرَ فِي حَيَاةِ النَّاسِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ يَغْشَاهَا، يُصْلِحُ فِيهَا وَيُصْلِحُ لَهَا حَتَّى آذَنُ الهَيْكَلِ بالخُرُوجِ، كَمَا خَرَجَ جَدُّهُ مِنْ غَارِ حِرَاءَ قَبْلُ، لِيَأْخُذَ الحَيَاةَ طَبَقَ قَاعِدَةِ الإِسْلَامِ، فَتَحَدَّثَهُ أَوْثَانُ الأَحْيَاءِ، فَحَارَبَهُمْ مُنْتَشِرِينَ وَمُجْتَمِعِينَ.

فَالنَّبِيُّ الجَدُّ، مِنْ قَبْلُ، حَارَبَ الوَثَنِيَّةَ فِي الفِكْرِ وَدَحْضَهَا؛ وَالْحُسَيْنُ السَّبِطُ حَارَبَ الوَثَنِيَّةَ فِي المُجْتَمَعِ، وَهُوَ، وَإِنْ لَمْ يَدْحُضْهَا، فَقَدْ رَسَمَ الطَّرِيقَ لِحَرْبِهَا، وَأَبَاحَ ثَوْرَةَ التَّحَرُّرِ عَلَى آيَةِ صُورِهَا وَأَشْكَالِهَا.

❦

(٢) المكان المَعْدُ لِطَعَامِ الْمَسَاكِينِ وَالْفُقَرَاءِ.

ذَابَتْ حَقِيقَةُ الْحَيَاةِ فِي الْقُشُورِ...
وَرَاخَ الْأَحْيَاءُ يَتَعَلَّقُونَ مِنْهَا بِالْعُثَاءِ وَالظَّلَالِ...
فِي نَشْوَةِ كَنْشَوَةِ الْخَمْرِ تُعَبِّرُ عَنْ أَنَّهَا بَاطِلَةٌ، تَمُدُّ بِالْعَرَبَدَةِ دُونَ مَا
أَحْلَامُ!...

*

وَقَلِيلٌ هُمُ الَّذِينَ نَفَذُوا مِنَ الْقُشُورِ إِلَى اللَّبَابِ...
فَطَعِمُوا الْحَيَاةَ الَّتِي هِيَ هَيْئَةُ الْأَبَدِيَّةِ...
فَاسْتَعْلَوْا وَوَقَفُوا عَلَى هَامِ الْقُشُورِ يَنْظُرُونَ إِلَى الْعَلَاءِ...
وَتَحَدَّثَ هَؤُلَاءِ أَنَّهُمْ رَأَوْا، عِنْدَ أَفْقِ الْأَبَدِيَّةِ، إِنْسَانًا يُمِجُّ فِي السَّمَاءِ...
عَرَفُوا فِي طَلْعَتِهِ إِنْسَانَ الْهَيْكَلِ الَّذِي أَغْرَاهُمْ بِاللَّحَاقِ!...

* * *

في وجه الظلم

في جوف الليل العميق غمق الأبدية والمجهول، حين كان الظلام ينتشر على
شكل أودية فاحية، تُلغى وَجْه الكون وتلقيه في سكون حائر وسبات واجم
مخيف، انطلقت أنه تتبعها أخرى وأخرى، في تلاحي بدأ بطيئاً ثم كَرَّ سريعاً،
وكانت أناث تُسمع جريخة، ويُخيل أنها ترى داميةً كليمةً، تجتمع فشكل صرخة
باغته أو بغته صارخة، وتوزع مُتَفَطَّعةً مُتناوِحةً فتؤلف لحناً فانياً، كأنه لحن
التلاشي المختصر، أو نعمة الفناء الذائب في أفواه القبور.

أضغى الحسین إلى ما يتناهى في سمعه، ومال بأذنيه كأنه يسأل: ماذا؟ وقد
خف قلبه إليها يسابق السمع، ولكن الثأبات اختلطت فأدار أذنيه كلتيهما إلى
الجهات كلها، وهفا قلبه يتوثب يميناً وشمالاً، بيد أنها ظلت تقول في منطقي
الصدى: أواه! وظل كأنه يقول: ماذا؟ واختلطت الآهات وأنبهمت... فهب
يشدد خارج الهيكل مشتطلياً وهو يردد:

الليل ليل، وهو ويل ويل وسال بالقوم الطغاة السيل

ويل للظلم والظالمين، «الظلم ظلمات يوم القيامة».

أطل من الهيكل، وأطلع رأسه، والناس متجمهرون على بعضهم كالعمام

المُرْفَ يَقُولُونَ: أَفِي كُلِّ يَوْمٍ صَحِيَّةٌ وَدَمٌ يُطَلُّ؟ أَفِي كُلِّ يَوْمٍ تَمَرُّقُ أَكْبَادٌ وَتُنْتَرُ
أَشْلَاءٌ؟

لَقَدْ جَاءَ النَّعِيُّ بِأَنَّ حُجَرَ بْنَ عَدِيٍّ طُلَّ دَمُهُ مِنْذُ لَيَالٍ فِي نَقْرِ مِنْ صَحْبِهِ،
وهؤلاءِ وجوهُ أَهْلِ الكُوفَةِ يَسْتَصْرِحُونَ وَيُنْتَصِفُونَ.

قَالَ الْحُسَيْنُ: رَبَّاهُ مَا أَسْمَعُ... أَحَجَرَ يُقْتَلُ وَلَا نَصْنَعُ شَيْئاً؟ فَيَا حَيَاةَ أَشِيحِي
وَأَعْرَبِي، وَيَا دُنْيَا الْإِيمَنِ ذَوْبِي وَأَضْمَحْلِي!

وَكَانَ قَدْ آذَنَهُمُ الْفَجْرُ بِالصَّلَاةِ فَعَاجَوْا إِلَى الْمَسْجِدِ وَالتَّأَمَّوْا صُفُوفاً، وَمَا
أَنْصَرَفُوا حَتَّى تَحَلَّقُوا عَلَى شَكْلِ دَوَائِرَ فِي بَعْضِهَا... فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الكُوفَةِ
فَقَالَ:

أَيُّهَا النَّاسُ: أَنْتُمْ هُنَا فِي الْمَدِينَةِ بَقِيَّةُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ، وَإِلَيْكُمْ تَتَّجِعُ الْأَنْظَارُ
مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَإِلَى ظِلَالِكُمْ يَفِيئُونَ قَصْدَ تَطْهِيرِ الْجَمْعِ مِنَ الْأَذْرَانِ.

أَنْتُمْ هُمْ الْأَنْصَارُ، وَبَيْنَكُمْ تَرَعَرَعَتِ الثُّبُوءُ، وَأَشْتَدَّتْ قَوَادِمُهَا، وَرَبَّتْ
خَوَافِهَا. فَاشْتَوَى النَّسْرُ وَخَلَقَ صُعْدَاً فِي كُلِّ مَجَالٍ، وَأَزْتَعَدَتْ فَرَائِصُ الْبَغَاثِ،
وَأَهْوَى الْخَفَاشُ إِلَى الْحَفَائِرِ يَسْتَخْفِي. وَلَقَدْ عَادَ النَّسْرُ الْآنَ إِلَى وَكْرِهِ، وَأَخَذَهُ رُقَادٌ
عَمِيقٌ، فَاشْتَنَسَرَ الْبَغَاثُ وَعَدَّتِ الْهَوَامُّ فِي كُلِّ مَكَانٍ. إِنَّ الْمَدِينَةَ هِيَ نَسْرُ الثُّبُوءِ،
فَأَهْيِئُوا بِالنَّسْرِ إِلَى التَّخْلِيقِ لِتَرْتَعِدَ الْهَوَامُّ مِنْ جَدِيدٍ، وَتُنْسَجِقَ فِي الرُّغَامِ أَبَدًا.

أَلَا فَأَنْتُمْ حَفَظَةُ الْوَحْيِ، وَحَامُو ذِمَارِ الرِّسَالَةِ دُونَ الْعَاطِشِينَ. أَلَا لَقَدْ آوَدَّ
الْجَمْعُ إِلَى جَاهِلِيَّتِهِ الرُّعْنَاءِ، وَلَكِنْ بَأْتُوا بِأُخْرَى تَتِمَّاجُ مِنْ خِلَالِهَا، وَلَيْتَ هَذَا
فَقَطُّ، إِنَّهُ ضَمَّ إِلَى جَاهِلِيَّتِهِ، قَبْلَ الرِّسَالَةِ، جَاهِلِيَّةَ كُلِّ أُمَّةٍ وَكُلِّ قَبِيلٍ.

أُنْظَرُوا! أُنْظَرُوا! لَقَدْ بَعِثَ مُحَمَّدٌ عَدُوًّا لِلْمُلْكِيَّاتِ، فَبَشَا نَتَقَلَّبُ فِي أَرْدَا
أَشْكَالِهَا. وَعَلَّمَ مُحَمَّدٌ ضَرُورَةَ الْحَدِّ مِنْ طُغْيَانِ رِجَالِ الْمَالِ، فَصَارَتْ كُلُّ الْقَوَى فِي

أَيَّدِيهِمْ. وَأَطْلَقَ مُحَمَّدٌ حُرِّيَّةَ الْفَرْدِ، وَأَعْطَاهُ الْحَقَّ بِالْحَيَاةِ كَيْفَ شَاءَ فِي حُدُودِ الصَّالِحِ الْاجْتِمَاعِيِّ الْعَامِّ، وَفِي لِحُدُودِ الْأَخْلَاقِ الْمَسْلُكِيَّةِ وَالضَّمِيرِ الْإِنْسَانِيِّ الشَّامِلِ، إِذَا نَحْنُ نَحْيَا فِي اسْتِعْبَادِ اجْتِمَاعِيٍّ مُنْكَرٍ، حَتَّى لَقَدْ تَنَاهَوْا فَانْتَزَعُوا حَقَّ الْحَيَاةِ مِنْ أَيْدِينَا، وَبَاتُوا يُنْعَمُونَ عَلَيْنَا، إِذَا شَاءَتْ شَهَوَاتُهُمْ، بِقَدْرِ حَقِيرِ بَلِيدٍ مِنَ الْحَيَاةِ الْبَائِسَةِ الشَّقِيَّةِ، وَأَفْضَلُ مِنْهَا الْمَوْتُ خُطَّةً، وَاللَّهِ.

وَصَحَّ الْكِندِيُّونَ مِنْ أَطْرَافِ الْجُمُوعِ وَبَيْنَهَا: يَا لِنَارَاتِ حُجْرٍ وَأَنْطَلَقَ الْمُتَكَلِّمُ الْكُوفِيُّ يَصِلُ مَا أَنْقَطَعَ مُلْتَاعاً مُهْتَاجاً: لَقَدْ أَذْكَرْتَنِي نَارَاتُهُمْ مَضْرَعُ حُجْرِ بْنِ عَدِيِّ الْكِندِيِّ، وَمَنْ يَجْهَلُهُ؟ لَقَدْ كَانَ مِنْ أَكْبَرِ أَعْلَامِ الرِّجَالِ، وَنُقْطَةُ الْفَضْلِ مِنْهُمْ، فَقَدْ صَحِبَ النَّبِيَّ وَأَظْهَرَ أَزْوَاجَ أَنْوَاعِ الْبُطُولَاتِ فِي فَتْحِ الشَّامِ مَعَ أَبِي عُبَيْدَةَ. وَكَانَ مِنْ خَبْرِهِ «أَنَّ مُعَاوِيَةَ لَمَّا وَلَّى الْمَغِيرَةَ بْنَ سَعْبَةَ الْكُوفَةَ سَنَةَ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ، دَعَاهُ وَأَوْصَاهُ بِشَتْمِ عَلِيٍّ وَذَمِّهِ، وَالْعَبِيبِ عَلَى أَصْحَابِهِ وَالْإِقْصَاءِ لَهُمْ، وَبِاطْرَاءِ شِيعَةِ عُثْمَانَ وَالْإِذْنَاءِ لَهُمْ وَالِاسْتِمَاعِ مِنْهُمْ. فَأَقَامَ الْمَغِيرَةُ عَامِلاً لِمُعَاوِيَةَ سَبْعَ سِنِينَ وَأَشْهُرًا، لَا يَدْعُ ذِمَّ عَلِيٍّ، وَالْوُقُوعَ فِيهِ، وَالِدَّعَاءَ لِعُثْمَانَ بِالرَّحْمَةِ، وَالتَّزْكِيَةَ لِأَصْحَابِهِ وَالْمُطَالِبِينَ بِدَمِهِ.

فَكَانَ حُجْرٌ إِذَا سَمِعَ ذَلِكَ قَالَ: بَلْ إِيَّاكُمْ قَدَّمَسَ اللَّهُ وَلَعَنَ... ثُمَّ قَامَ فَقَالَ: كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ، وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّ مَنْ تَذَمَّوْنَ وَتُعَيِّرُونَ لِأَحَقِّ بِالْفَضْلِ... أَلَا لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ مُعَاوِيَةَ سِيَاسَةً تَدُلُّ عَلَى عَدَمِ فَهْمٍ جَيِّدٍ لِنَفْسِيَّةِ الْجَمَاهِيرِ، وَعَدَمِ تَعْلُّلٍ بَيْنَ خَنَايَاهَا وَفِي خِلَالِهَا، فَقَدْ كَانَ فِي هَذَا التَّنْقِصِ مَا يَكْفِي لِيُبْعِثَ الدَّفَائِنَ وَإِذْكَاءِ نَارِ الْحَفَائِظِ إِذْكَاءَ جَهَنَّمِيَّ سَاجِرًا، قَدْ يَأْتِي عَلَى أَرْكَانِ الدَّوْلَةِ وَيُطَوِّحُ بِهَا سَرَّ تَطْوِاحٍ، كَمَا يَجْعَلُ كُلَّ نَفْسٍ تَنْطَوِي عَلَى أَحْقَادِ طَائِمَةِ دَفِينَةٍ وَتَعْدُو فِي آتِمَارَاتِ تُرْوِي بِهَا سَخَائِمَهَا. نَعَمْ هِيَ حِمَاقَةٌ، وَإِنْ كَانَ يُزْمِي بِهَا إِلَى جُمْلَةِ غَايَاتِ:

أ - التَّشْفِي، وتوكيد ما سَبَقَ ونَشَرَهُ مِنْ دَعَايَاتِ ضِدِّ عَلِيٍّ فِي الشَّامِ وَسَائِرِ مَنَاطِقِ نُفُوذِهِ.

ب - بَثَّ عَقِيدَةَ سَيِّفَةٍ تَنُمُو مَعَ الْأَيَّامِ لَدَى النَّاسِ فِي الْبَطَلِ الْإِسْلَامِيِّ الْخَالِدِ عَلِيٍّ، وَفِي بَنِيهِ، وَبِذَلِكَ يَأْخُذُ الطَّرِيقَ دُونَهُمْ إِذَا رَامُوا مُحَاوَلَةً مِنْ نَوْعِ الْمُحَاوَلَاتِ الْكُبْرَى، فَقَدْ سَمَّ الْجَوَّ عَلَيْهِمْ. وَغَيْرُ خَفِيِّ أَنَّ الْآرَاءَ وَالْمُعْتَقَدَاتِ إِنَّمَا تَنْشَأُ بِالتَّلْفِينِ وَالتَّكْرَارِ وَالْمُعَاوَذَةِ.

ج - تَحْرِيكَ أَنْصَارِ عَلِيٍّ لِلتَّمَرُّدِ وَاسْتِثَارَتِهِمْ لِلشَّعْبِ عَلَى رِجَالِ الدَّوْلَةِ وَالدَّوْلَةِ، وَبِذَلِكَ يَجِدُ السَّبَبَ لِإِدَانَتِهِمْ وَأَخْذِهِمْ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ، وَهَذَا مَا وَقَعَ الْحُجْرِ بْنِ عَدِيٍّ وَجَمَاعَةِ كُبْرَى هُنَا وَهُنَا.

ولكن، رُغِمَ أَنَّهَا تَقْصِدُ إِلَى كُلِّ هَذَا، فَقَدْ كَانَتْ سِيَاسَةً هَوَاجَاءَ أَعْشَى فِيهَا غُنْصُرُ الْإِنْتِقَامِ وَغَلَبَ عَلَى قَصْدِ السَّلَامِ الصَّرُورِيِّ إِذْ ذَاكَ، لِإِيجَادِ حَالَةٍ تَوَاضِلٍ صَاحِبِ مُخْلِصٍ بَيْنَ الدَّوْلَةِ وَالشَّعْبِ.

وَالْمُغِيرَةُ كَانَتْ، إِلَى ذَلِكَ، حَسَنَ التَّأْتِي، فَهُوَ يَفْعَلُ مَا يَأْمُرُ بِهِ مَرْجِعُهُ، وَيَتَوَكَّلُ لِلنَّاسِ حُرِّيَّتَهُمْ فِي التَّغْلِيْقِ كَيْفَ شَاءُوا. «وَلَمَّا هَلَكَ، سَنَةَ إِحْدَى وَخَمْسِينَ، جُمِعَتِ الْكُوفَةُ وَالْبَصْرَةُ لِرِيَادِ بْنِ سُمَيَّةَ، فَصَعِدَ الْمُبَيَّرَ وَذَكَرَ عُثْمَانَ وَأَصْحَابَهُ فَقَرَّظَهُمْ، وَذَكَرَ قَتْلَهُ وَلَعَنَهُمْ، فَقَامَ حُجْرٌ فَفَعَلَ مِثْلَ الَّذِي كَانَ يَفْعَلُ بِالْمُغِيرَةِ، وَرَجَعَ رِيَادًا إِلَى الْبَصْرَةِ، وَوَلِيَ الْكُوفَةَ عَمْرُو بْنُ الْحَرِثِ، فَبَلَغَهُ - أَيْ زِيَادًا - أَنَّ حُجْرًا يَجْتَمِعُ إِلَيْهِ شِيعَةُ عَلِيٍّ، وَيُظْهِرُونَ أَلَهُمْ وَالْبِرَاءَةَ مِنْ مُعَاوِيَةَ وَعَمَلِهِ. فَشَخَّصَ إِلَى الْكُوفَةِ وَخَطَبَ الْجُمُعَةَ، وَأَطَالَ الْخُطْبَةَ وَأَخَّرَ الصَّلَاةَ، فَقَالَ حُجْرٌ: الصَّلَاةُ! فَمَضَى فِي خُطْبَتِهِ. ثُمَّ قَالَ: الصَّلَاةُ! فَمَضَى فِي خُطْبَتِهِ، فَلَمَّا خَشِيَ قَوْتَ الصَّلَاةِ نَارَ إِلَيْهَا وَثَارَ النَّاسُ مَعَهُ. وَلَمْ يَسْغَ زِيَادًا إِلَّا التَّرْوُلَ وَالصَّلَاةَ بِالنَّاسِ، وَكَتَبَ إِلَى مُعَاوِيَةَ فِي أَمْرِهِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةُ: أَنَّ شِدَّةَ فِي الْحَدِيدِ ثُمَّ

أَحْمِلْهُ إِلَيَّ... فَأَخَذَ زِيَادُ حُجْرًا وَحَبَسَهُ ثُمَّ حَمَلَهُ إِلَى مُعَاوِيَةَ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ سَلَّمَ فَقَالَ لَهُ: وَاللَّهِ لَا أَقِيلُكَ وَلَا أَسْتَقِيلُكَ، أَخْرِجْهُ فَأَضْرِبُوا عُنُقَهُ... فَقَالَ حُجْرٌ لِلَّذِينَ يَلُونَهُ أُمْرَهُ:

دَعُونِي حَتَّى أَصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ!

قالوا: صَلِّه... فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ خَفَّفَ فِيهِمَا، ثُمَّ قَالَ:

لَوْلَا أَنْ تَظُنُّوا بِي غَيْرَ الَّذِي أَنَا عَلَيْهِ لَأَخْبَيْتُ أَنْ تَكُونَا أَطْوَلَ يَمًّا كَانْتَا، وَلَئِنْ لَمْ يَكُنْ فِيمَا مَضَى مِنَ الصَّلَاةِ خَيْرٌ فَمَا فِي هَاتَيْنِ خَيْرٌ... ثُمَّ قَالَ لِمَنْ حَضَرَهُ مِنْ أَهْلِهِ:

لَا تُطْلِقُوا عَنِّي حَدِيدًا وَلَا تَغْسِلُوا عَنِّي دَمًا، فَإِنِّي أَلَاقِي بِهَا مُعَاوِيَةَ غَدًا عَلَى الْجَادَّةِ... ثُمَّ تَتَبَعَ أَصْحَابَهُ وَاحِدًا بَعْدَ آخَرَ، فَقَتَلَ غَمَزَ بْنَ الْحَمِقِ وَرِفَاعَةَ بْنَ شَدَادٍ إِلَى كَثِيرٍ كَثِيرٍ لَا يُحْصَوْنَ.

أَلَا يَا سِبْطَ مُحَمَّدٍ! إِنَّ مَبَادِيءَ مُحَمَّدٍ تُنَادِيكَ، وَقُرْآنَ مُحَمَّدٍ يَهَيِّبُ بِكَ، إِلَى الْعَمَلِ، إِلَى الْعَمَلِ السَّرِيعِ، فَلَمْ يَغْدُ فِي الْقَوْسِ مَنِيْعٌ، وَلَا فِي الصَّبْرِ مُعْتَصِمٌ، فَقَدْ تَشَقَّقَ الْحِزَامُ عَلَى الطُّبِيِّينَ، بَلْ تَهَرَّأَ مِثْلَ نَسِيلِ الرَّعْبِ.

وَهَبَّتْ تُغُولُ أَحْتُ حُجْرَ بْنَ عَدِيٍّ بِقَوْلِهَا:

تَرْفَعُ أَهْلُهَا الْقَمَرُ الْمُنِيرُ لَعَلَّكَ أَنْ تَرَى حُجْرًا يَسِيرُ
يَسِيرُ إِلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ حَرْبٍ لِيَقْتُلَهُ كَمَا زَعَمَ الْحَبِيرُ
تَجَبَّرَتِ الْجَبَابِرُ بَعْدَ حُجْرٍ وَطَابَ لَهَا الْخَوَزْنُ وَالسَّدِيرُ
وَأَصْبَحَتِ الْبِلَادُ بِهِ مُحُولًا كَأَنَّ لَمْ يَأْتِهَا يَوْمٌ مَطِيرُ
أَلَا يَا حُجْرَ حُجْرَ بْنَ عَدِيٍّ تَلَقَّيْتُكَ السَّلَامَةَ وَالشُّرُورُ

أَخَافُ عَلَيْكَ... مَا أُرْدَى عَدِيًّا وَشَيْخًا فِي دِمَشْقَ لَهُ زَيْبُ
 أَلَا يَا لَيْتَ مُحْجَرًا مَاتَ مَوْتًا وَلَمْ يُنْحَرْ كَمَا نُحَرِّجُ الْبَعِيرُ
 فَإِنْ يَهْلِكُ فَكُلُّ زَعِيمٍ قَوْمٌ إِلَى هُلُكٍ مِنَ الدُّنْيَا يَصِيرُ
 وَعَلَى إِثْرِ ذَلِكَ قَامَ قَيْسُ بْنُ فَهْدَانَ يَقُولُ، وَهُوَ مُفْعَمُ الْحُزَنِ كَالَّذِي فَقَدَ كُلَّ
 ذَوِيهِ، أَوْ كُلَّ بَنِيهِ:

يَا مُحْجَرُ يَا ذَا الْخَيْرِ وَالْأَجْرِ يَا ذَا الْفَضَائِلِ نَابَةَ الذِّكْرِ
 كُنْتُ الْمُدَافِعَ عَنْ ظُلَامَتِنَا عِنْدَ الظُّلُومِ وَمَانِعَ الثُّغْرِ
 كَانَتْ حَيَاتُكَ إِذْ حَيَّيْتُ لَنَا عِزًّا، وَمَوْتُكَ قَاصِمُ الظُّهْرِ
 يَا طَوْلَ مُكْتَأَبِي لِقَتْلِهِمْ مُحْجَرًا، وَطَوْلَ خَزَاةِ الْبَصْدِرِ
 قَدْ كِدْتُ أَضْعُقُ جَارِعًا أَسِفًا وَأَمُوتُ مِنْ جَزَعٍ عَلَى مُحْجَرٍ
 فَدَمَعْتُ مُقْلَتَا الْحُسَيْنِ، وَقَالَ بِصَوْتٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ: لَوْلَا بَيْعَةُ سَبَقَتْ
 لَيْسَ بَالْتَأْسِ، وَثُرْتُ بِالظَّالِمِينَ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، وَاللَّهِ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ.
 وَبَيْنَمَا هُمْ مُجْلِسُونَ لَمْ يَتَفَرَّقُوا بَعْدُ، جَاءَ الْبَرِيدُ بِكُتُبٍ إِلَى الْحُسَيْنِ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ
 عَبَّاسٍ، فَكَانَ هَذَا أَسْرَعَهُمَا إِلَى فَضْلِ الْكِتَابِ. فَإِذَا زِيَادُ «يَعْتَذِرُ فِي شَأْنِ مُحْجَرٍ
 وَأَصْحَابِهِ، فَأَلْقَى الْكِتَابَ رَاجِعًا مُرْتَعِدًا وَهُوَ يَقُولُ كَذَبًا! كَذَبًا! ثُمَّ أَنْشَأَ يُحَدِّثُ:
 إِنِّي حِينَما كُنْتُ فِي الْبَصْرَةِ كَبَّرَ بِي النَّاسُ تَكْبِيرَةً، ثُمَّ كَبَّرُوا الثَّانِيَةَ وَالثَّالِثَةَ، فَدَخَلَ
 عَلَيَّ زِيَادٌ فَقَالَ:

هَلْ أَنْتَ مُطِيعِي يَسْتَقِيمُ لَكَ النَّاسُ... فَقُلْتُ: مَاذَا؟

فَقَالَ: أُرْسِلُ إِلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ، نَاسٍ مِنَ الْأَشْرَافِ، فَأَضْرِبُ رِقَابَهُمْ، فَإِنَّهُ
 يَسْتَقِيمُ لَكَ الْأَمْرُ... فَعَلِمْتُ أَنَّهُ صَنَعَ بِمُحْجَرٍ وَأَصْحَابِهِ مِثْلَ مَا أَشَارَ بِهِ عَلَيَّ».

وكان على المدينة يؤمّيز مزوان بن الحكم، فترقى الخبر إليه، فكتب إلى معاوية «يُعلمه أنّ رجلاً من أهل العراق قديموا على الحسين وهم مقيمون عنده يختلِفون إليه... فكتب معاوية إلى الحسين:

أما بعد: فقد انتهت إليّ أمور عنك لست بها حريّاً، إن كانت حقاً فقد أظنك تركتها رغبة فدعها، ولعمري الله إنّ من أعطى الله عهده وميثاقه لجدير بالوفاء، وإن أحقّ الناس بالوفاء لمن أعطى بيعة، من كان مثلك، في خطرِكَ وشرفِكَ ومنزليكَ التي أنزلَكَ الله بها. وإن كان الذي بلغني باطلاً، فإنك أنت أعدل الناس لذلك. فبط نفسك، وبعهد الله أوف، فإنك متى تُكرّني أنكركَ، ومتى تُكرّني أكذك. فاتتني شق عصا هذه الأمة، وأن يؤدّهم الله على يدك في فتنة. فقد عرفت الناس ببلوتهم، فانظر لتفيسك ولدينك ولأمة محمد، ولا يستخفك الشفهاء والذين لا يعلمون».

وكان وقع كتاب معاوية عند الحسين، وهو يرى من مهازيل الحكم ومآسيه، وقع النار في الهشيم، فما تلّث حتى كتب إلى معاوية كتابه الخالد الذي كان وثيقة اتهاميّة خطيرة للسلطات العليا، وقائمة إحصاء بالأعمال الاعتياليّة التي ارتكبتها، وكان، إلى هذا، استجواباً وإنذاراً شعبيّاً، قال:

«أما بعد: فقد بلغني كتابك، تذكّر فيه أنّه انتهت إليك عني أمور أنت لي عنها راغب، وأنا بغيرها عندك جدير، وأنّ الحسنات لا يهدي لها ولا يسدّد إليها إلا الله تعالى.

وأما ما ذكرت أنّه رقي إليك عني، فإنه إمّا رقاء إليك الملاقون المشاؤون بالنسيمة، المفرقون بين الجمع، ما أزدت لك حزناً ولا عليك خلافاً، وإن كنت لأخشى الله في ترك ذلك منك، ومن الإغدار فيه إليك وإلى أوليائك القاسطين... لست القاتل حُجر بن عديّ أخا كندة وأصحابه المصلين العابدين، الذين كانوا

يُكْرَهُونَ الظُّلْمَ وَيَسْتَفْظِعُونَ الْبِدْعَ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَا يَخَافُونَ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَّائِمَةً، ثُمَّ قَتَلْتَهُمْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا مِنْ بَعْدِ مَا أُعْطِيَتْهُمْ الْإِيمَانَ الْمُغْلَظَةَ وَالْمَوَاقِيقَ الْمُؤَكَّدَةَ، جَرَاءَةً عَلَى اللَّهِ وَاسْتِخْفَافًا بَعْدِهِ؟ أَوْلَسْتَ قَاتِلَ عَمْرُو أَبِي الْحَمِقِ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ الْعَبِيدِ الصَّالِحِ الَّذِي أَهْلَيْتُهُ الْعِبَادَةَ، فَتَحَلَّ جِسْمُهُ وَأَصْفَرَّ لَوْنُهُ، فَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا أُمِنْتَهُ وَأَعْطَيْتَهُ مِنَ الْغُيُودِ مَا لَوْ فَهِمْتَهُ الْعُصْمَ لَنَزَلَتْ مِنْ رُؤُوسِ الْجِبَالِ؟ أَوْلَسْتَ قَدْ سَلَطْتَ زِيَادًا عَلَى النَّاسِ يَقْتُلُهُمْ وَيَقْطَعُ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَيَسْمُلُ أَعْيُنَهُمْ وَيُصَلِّبُهُمْ عَلَى لُجُذُوعِ الثُّخْلِ، كَأَنَّكَ لَسْتَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَلَيْسُوا مِنْكَ؟ أَوْلَسْتَ قَاتِلَ الْحَضَرَمِيِّ الَّذِي كَتَبَ إِلَيْكَ فِيهِ زِيَادٌ أَنَّهُ عَلَى دِينِ عَلِيٍّ، وَدِينُ عَلِيٍّ هُوَ دِينُ أَبِي عَمْرٍو الَّذِي أَجْلَسَكَ مَجْلِسَكَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَانَ شَرَفُكَ وَشَرَفُ آبَائِكَ تَجَسُّمَ الرُّوحَلَتَيْنِ، رِخْلَةَ الشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ؟

وَقُلْتَ فِيمَا قُلْتَ: أَنْظُرْ لِنَفْسِكَ وَلِدِينِكَ وَالْأُمَّةِ مُحَمَّدٍ، وَأَتَّقِ شَقِيَّ عَصَا هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَنْ تَرُدَّهُمْ إِلَى فِئْتَةٍ. وَلَئِنِّي لَا أَعْلَمُ فِئْتَةً أَعْظَمَ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ وَلَايَتِكَ عَلَيْهَا، وَلَا أَعْظَمَ نَظْرًا لِنَفْسِي وَلِدِينِي وَالْأُمَّةِ مُحَمَّدٍ أَفْضَلَ مِنْ أَنْ أَجَاهِدَكَ، فَإِنْ فَعَلْتُ فَإِنَّهُ قُرْبَةٌ إِلَى اللَّهِ، وَإِنْ تَرَكْتُهُ فَإِنِّي أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِدِينِي، وَأَسْأَلُهُ تَوْفِيقَهُ لِإِرْشَادِ أَمْرِي.

وَقُلْتَ فِيمَا قُلْتَ: إِنِّي إِنْ أَنْكَرْتُكَ تُنْكِرُونِي وَإِنْ أَكَيْدَكَ تَكِيدُنِي، فِكَيْدُنِي مَا بَدَأَ لَكَ، فَإِنِّي لِأَرْجُو أَنْ لَا يَضُرَّنِي كَيْدُكَ، وَأَنْ لَا يَكُونَ عَلَى أَحَدٍ أَضَرُّ مِنْهُ عَلَى نَفْسِكَ. لِأَنَّكَ قَدْ رَكِبْتَ جَهْلَكَ، وَتَحَرَّضْتَ عَلَى نَقْضِ عَهْدِكَ، وَلَعَمْرِي مَا وَفَيْتَ بِشَرْطٍ، وَلَقَدْ نَقَضْتَ عَهْدَكَ بِقَتْلِ هَؤُلَاءِ الْفَرِّ الَّذِينَ قَتَلْتَهُمْ بَعْدَ الصُّلْحِ وَالْإِيمَانِ وَالْغُيُودِ وَالْمَوَاقِيقِ، فَقَتَلْتَهُمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا قَاتِلُوا وَقَتُلُوا. وَلَمْ تَفْعَلْ ذَلِكَ بِهِمْ إِلَّا لِذِكْرِهِمْ فَضْلَنَا وَتَعْظِيمِهِمْ حَقًّا، فَقَتَلْتَهُمْ مَخَافَةَ أَمْرٍ، لَعَلَّكَ لَوْ لَمْ تَقْتُلْهُمْ مِتَّ قَبْلَ أَنْ يَفْعَلُوا، أَوْ مَاتُوا قَبْلَ أَنْ يُذَرَّكَوا.

فَاتَّبِعُوا يَا مُعَاوِيَةَ بِالْقِصَاصِ، وَاسْتَيْقِنِ الْحِسَابَ، وَاعْلَمَنَّ أَنَّ لِلَّهِ كِتَابًا لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا. وَلَيْسَ اللَّهُ بِنَاسٍ لَأَخْذِكَ بِالظُّنَّةِ، وَقَتْلِكَ أَوْلِيَاءَهُ عَلَى الثَّهْمِ، وَتَفْيِكَ أَوْلِيَاءَهُ مِنْ دَوْرِهِمْ إِلَى دَارِ الْعُزَّةِ. مَا أَرَاكَ إِلَّا قَدْ خَسِرْتَ نَفْسَكَ وَتَبَرَّتَ دِينَكَ، وَغَشَشْتَ رَعِيَّتَكَ، وَأَخْرَبْتَ أَمَانَتَكَ، وَسَمِعْتَ مَقَالََةَ السَّفِيهِ الْجَاهِلِ، وَأَخَفْتَ الْوَرَعَ التَّقِيَّ، وَالسَّلَامَ».

كَانَ جَدِيرًا بِهَذَا الْكِتَابِ أَنْ يُحَرِّكَ فِي هَيْئَةِ الْحُكْمِ ضَمَائِرَهُمْ وَيُرْدَهُمْ عَنْ غَوَايَاتِهِمْ، وَيَضَعُ حَدًّا لِسِيَاسَةِ الدَّمَاءِ، أَوْ عَلَى الْأَقْلُ يُخَفِّفُ مِنْ أَسَالِبِ الْبَطْشِ وَالْاِعْتِسَافِ. فَإِنَّ صِلَةَ الرَّاعِي بِالرَّعِيَّةِ صِلَةُ الْعَاطِفَةِ بِالْمُخْلِصَةِ، وَكُلَّمَا كَانَتْ صِلَةُ الْمُنْفَعَةِ بِالْخَالِصَةِ فَهَنَّاكَ يَوْجَدُ أَفْطَحُ شَكْلٍ مِنْ أَشْكَالِ اللَّصُوصِيَّةِ وَالْاِعْتِصَابِ.

نَعْرِفُ أَنَّ إِحْصَاءَ الْأَخْطَاءِ عَلَى الْمُخْطِئِ يَذْفَعُهُ نَفْسِيًّا إِلَى تَصْحِيحِ الْخَطَأِ، إِلَّا إِذَا بُنِيَتْ النَّفْسُ عَلَى الشُّذُوزِ، كَمَنْ يَتَغَطَّشُ إِلَى الدَّمَاءِ، بِمَا فِيهِ مِنْ وَخْشِيَّةٍ كَامِنَةٍ، فَهَذَا يُحَسُّ بِلَذَّةٍ فِي نَهْرِ الدَّمَاءِ وَإِهْرَاقِهَا، وَتَأْخُذُهُ نَشْوَةٌ خَفِيَّةٌ يَتَرَدِّدُهَا وَتَقْدَادُهَا؛ إِلَّا إِذَا اسْتَحَالَ حُبُّ الذَّاتِ إِلَى فِكْرَةٍ ثَابِتَةٍ، فَيَسْتَحِيلُ الْخَطَأُ إِلَى صِفَةٍ نَفْسِيَّةٍ ثَابِتَةٍ أَيْضًا، هِيَ قَصْدُ الْخَطَأِ، فَلَا يَزَالُ صَاحِبُهَا يَقْصِدُ الْأَخْطَاءَ وَيَفْعَلُ الْإِجْرَامَ بِمَحْضِ الرَّغْبَةِ فِي تَوْفِيرِ شَهَوَاتِ الذَّاتِ وَتَنْمِيَةِ كِبْرِيَائِهَا.

وهذا ما قد حَدَّثَ بِالْفِعْلِ فِي حَاشِيَةِ مُعَاوِيَةَ، فَلَمْ يَكُنْ لِلْكِتَابِ مِنْ أَثَرٍ سِوَى مَا عَبَّرَتْ عَنْهُ رِوَايَةُ التَّارِيخِ أُبْلَغَ تَغْيِيرٍ: لَمَّا قَرَأَ مُعَاوِيَةَ الْكِتَابَ قَالَ:

«لَقَدْ كَانَ فِي نَفْسِهِ ضَبٌّ - أَيْ حَقْدٌ - مَا أَشْعُرُ بِهِ.

فَقَالَ يَزِيدُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَجِبْهُ جَوَابًا يُصَغِّرُ إِلَيْهِ نَفْسَهُ، تَذَكَّرْ فِيهِ أَبَاهُ بِشَرِّ فَعَلِهِ... وَدَخَلَ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ، فَقَالَ مُعَاوِيَةَ:

أَمَا رَأَيْتَ مَا كَتَبَ الْحُسَيْنُ؟

قال: وما هو؟... فَأَقْرَأَهُ الْكِتَابَ، فقال: وما يَمْنَعُكَ أَنْ تُجِيبَهُ بِمَا يُصَغِّرُ إِلَيْهِ نَفْسَهُ؟ قَالَ يَزِيدُ:

أَرَأَيْتَ - يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - رَأْيِي؟ فَضَحِكَ مُعَاوِيَةُ، وقال:

أَمَّا يَزِيدُ فَقَدْ أَشَارَ عَلَيَّ بِمِثْلِ رَأْيِكَ.

قال مُحَمَّدٌ: قَدْ أَصَابَ يَزِيدُ.

قال مُعَاوِيَةُ: أَخْطَأْتُكُمْ. أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنِّي ذَهَبْتُ لِعَيْبِ عَلِيٍّ، فَمَا عَسَيْتُ أَنْ أَقُولَ فِيهِ، وَمَتَى مَا عِبْتُ رَجُلًا بِمَا لَا يَعْرِفُهُ النَّاسُ لَمْ يَخْفُلْ بِهِ، وَلَا يَرَاهُ النَّاسُ شَيْعًا وَكَذَّبُوهُ، وَمَا عَسَيْتُ أَنْ أُعِيبَ حُسَيْنًا، وَاللَّهِ مَا أَرَى لِلْعَيْبِ فِيهِ مَوْضِعًا؛ قَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَكْتُبَ إِلَيْهِ أَتَوَعَّدُهُ وَأَتَهْدَدُهُ، ثُمَّ رَأَيْتُ أَلَّا أَفْعَلَ.

بعدَ هذا لم يَسْعَ الحُسَيْنُ إِلَّا أَنْ يُشْرِفَ كَثِيرًا مِنْ دُنْيَا الْهَيْكَلِ، الَّتِي يَتَحَنَّنُهَا وَيُخَيِّلُهَا، إِلَى دُنْيَا النَّاسِ الَّتِي تَعُجُّ بِمَجْمُوعَةِ الْأَحْيَاءِ، وَتَخْتَلِطُ وَتَمُورُ بِالْبَغْيِ، يُضْلِخُ مِنْهَا مَا وَسِعَتْهُ إِضْلَاحُهُ وَيَحُدُّ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ طُغْيَانِ السُّلْطَاتِ عَلَى الْجَمَاعَاتِ وَالْأَفْرَادِ.

وَيَظْهَرُ أَنَّ السُّلْطَةَ، فِي كُلِّ مَكَانٍ، كَانَتْ قَدْ آتَّخَذَتْ لِنَفْسِهَا مِنْهَاجَ عَمَلٍ شاذٍّ، فَهِيَ تَسْعَى لِلحَيَاةِ مَا وَسِعَتْهَا، دُونَ التَّقْيِيدِ بِقَانُونٍ أَوْ نِظَامٍ، فَضَاعَتْ حَقُوقُ الضُّعَفَاءِ ضِياعًا تَامًا، وَأَضْطَرُّوا الْأَفْرَادُ إِلَى اسْتِغْمَالِ وَسَائِلِ قُوَّتِهِمْ لِلإِخْفَافِ بِحَقُوقِهِمْ، أَوْ دَفْعِ عَادِيَةِ الضُّمَمِ عَنْهُمْ، حَتَّى أَضْطَرُّوا أَخِيرًا إِلَى إِخْيَاءِ الْوَسَائِلِ الشَّائِعَةِ وَأَعْتِمَادِهَا قَبْلَ نُشُوءِ الْحُكُومَةِ النَّظَامِيَّةِ، مِنْ مِثْلِ مَا يُسَمَّوْنَ «حِلْفَ الْفُضُولِ»، وَهُوَ يُعَبَّرُ عَنْ تَكْتُلِ أَفْرَادٍ، أَوْ جَمَاعَاتٍ، عَلَى وَجْهَةِ نَظَرٍ تَتَعَلَّقُ بِالْخَيْرِ وَحِمَايَةِ الضَّعِيفِ. وَتَكُونُ مِثْلُ هَذِهِ الْوَسَائِلِ ضَرُورِيَّةً فِي غَيْرِ وَسْطِ الْحُكُومَةِ النَّظَامِيَّةِ بِالطَّبِيعِ، وَلَكِنَّ الْحَاجَةَ إِلَيْهَا فِي وَسْطِهَا مَعْنَاهُ أَنَّ الْحُكُومَةَ نَفْسَهَا بَاتَتْ

خَطَرًا عَلَى الْأَمْنِ وَالْحُقُوقِ.

«كَانَ بَيْنَ الْحُسَيْنِ وَبَيْنَ الْوَلِيدِ بْنِ عُثْبَةَ، وَهَذَا يُؤَمِّدُ أَمِيرَ عَلَى الْمَدِينَةِ، مُنَازَعَةً فِي مَالٍ كَانَ بَيْنَهُمَا، فَتَحَامَلَ عَلَى الْحُسَيْنِ فِي حَقِّهِ لِسُلْطَانِهِ. فَقَالَ الْحُسَيْنُ:
أَخْلِفُ بِاللَّهِ لَتُنَصِّفَنِّي مِنْ حَقِّي، أَوْ لَأَخْذَنَ سَيْفِي، ثُمَّ لَأَقُومَنَّ فِي مَسْجِدِ
رَسُولِ اللَّهِ، ثُمَّ لَأَدْعُوَنَّ بِحَلْفِ الْفُضُولِ!

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَهُوَ عِنْدَ الْوَلِيدِ: وَأَنَا أَخْلِفُ بِاللَّهِ لَئِنْ دَعَا بِهِ
لَأَخْذَنَ سَيْفِي ثُمَّ لَأَقُومَنَّ مَعَهُ حَتَّى يُنْصَفَ مِنْ حَقِّهِ أَوْ تَمُوتَ جَمِيعًا... وَبَلَغَتْ
الْمِشُورَةُ بْنُ مَحْرَمَةَ الزُّهْرِيَّ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَبَلَغَتْ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنُ عُثْمَانَ التَّيْمِيَّ
فَقَالَ: «... وَيُظْهِرُ أَنَّ الْخِلَافَ رُفِعَ إِلَى مُعَاوِيَةَ وَاسْتَصْرَحَهُ الْوَلِيدُ عَلَى الْحُسَيْنِ، فَكَانَ
مِنْ مُعَاوِيَةَ تَدَحُّلٌ، وَكَانَ مِنْهُ مَيْلٌ بِالضَّرُورَةِ إِلَى جَانِبِ الْوَلِيدِ.

«فَقَالَ الْحُسَيْنُ لِمُعَاوِيَةَ: لِيُخْتَرُ مِنِّي ثَلَاثُ خِصَالٍ، إِمَّا أَنْ تُشْتَرِيَ مِنِّي حَقِّي،
وَإِمَّا أَنْ تَرُدَّهُ عَلَيَّ، أَوْ تَجْعَلَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ آئِنَ عُمَرَ أَوْ آئِنَ الزُّبَيْرِ، وَإِلَّا فَالْرَابِعَةُ وَهِيَ
الصَّبْرُ»^(١).

قَالَ مُعَاوِيَةَ: وَمَا هِيَ؟

(١) الصَّبْرُ فِي أَصْلِهِ مَعْنَاهُ السَّيْفُ، ثُمَّ جَرَى كَيْفَاةً عَنِ الْأَخْذِ بِالسُّدَّةِ وَالْمُقَابَلَةِ بِالْعُنفِ. وَجُلِفَ الْفُضُولُ هَذَا،
كَانَ وَسِيلَةً أَنْتِصَافٍ مِنْ غَاثِمٍ أَوْ ظَالِمٍ، وَهُوَ مَزُورٌ مِنْ مَتَابِعَاتٍ مَا قُتِلَ الْإِسْلَامُ وَاسْتَعَمَرَ فِيهِ... يُشَاكِلُ مَا
يُغْرَفُ الْيَوْمَ بِالْإِطْرَابِ الْعَالَمِ بِمَعَاهُ الْإِيجَابِيِّ أَيْ الْمُضْحَوِّ بِالْمُقَاوَمَةِ، وَلَيْسَ بِالْمَعْنَى السَّلْبِيِّ فَقَطْ أَيْ الْإِيتِنَاعِ
عَنِ الْقَتْلِ.

وَالْمَعْنَى الْإِيجَابِيُّ الْمُبَاحُ لَا يَتَلَعَّ دَرَجَةً الْعُضْيَانِ التَّمَرُّدِيِّ التَّخْرِيصِيِّ، أَوْ مَا يُمَكِّنُ أَنْ تُسْتَعْيَ: الْقَبْقَبَةُ، وَهِيَ فِي
الْقَرِيبَةِ الْأَصْلِيَّةِ: الْقَفْقَعَةُ بِالسَّنَانِ أَوْ الْأَشْنَانِ... وَأُخْيِثُهَا مِنْ قَبْلُ فِي الْأَرْبَعِينَاتِ لِيَكُونَ مُقَابِلًا لِكَلِمَةِ
Sabotage الَّتِي هِيَ مِنْ كَلِمَةِ Sabot الْقَبْقَابِ. وَكَانَ الْعَمَلُ فِي مَطْلَعِ مَدِينَتِنَا الصَّنَاعِيَّةِ يَتَّبِعُونَ الْقَبَابِيبَ
الْحَشْيِيَّةَ فِي أَثْنَاءِ أَدَاءِ الْقَتْلِ وَمُبَاشَرَتِهِ، فَإِذَا نَقَمُوا لِأَمْرِ مَا لَجَّوْا إِلَى الْأَشْيِكَاكِ وَالضَّرْبِ بِالْقَبَابِيبِ عَلَى
الْآلَاتِ إِلَى حَدِّ الْإِثْلَافِ أحيانًا.

قال: أَهْتَفُ بِحِلْفِ الْفُضُولِ... ثُمَّ قَامَ فَخَرَجَ مُغَضَّباً، فَمَرَّ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّيْثَرِ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَئِنْ هَتَفْتُ بِهِ وَأَنَا مُضْطَّجِعٌ لَأَقْعُدَنَّ، أَوْ قَاعِدٌ لَأَقُومَنَّ، أَوْ قَائِمٌ لَأَمْشِيَنَّ، أَوْ مَاشٍ لَأَسْعِيَنَّ، ثُمَّ لَتَنْفُذَنَّ رُوحِي مَعَ رُوحِكَ أَوْ لَيُنْصِفَنَّكَ! فَبَلَغَتْ مُعَاوِيَةَ فَقَالَ: لَا حَاجَةَ لَنَا بِالصَّيْلِمْ... ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِ: أَنْ أُبْعَثَ فَاَنْتَقِدْ مَا لَكَ، فَقَدِ ابْتَغَنَاهُ مِنْكَ».

إِنَّ حِلْفَ الْفُضُولِ كَانَ يُعْبَرُ عَنْ ثَوْرَةِ اسْتِنْكَارٍ مُنْتَظَمَةٍ غَيْرِ هَائِجَةٍ وَلَا مُتَحَبِّطَةٍ، دَائِمَةِ الْحَيَاةِ دَائِمَةِ التَّزْوِيعِ، يُطْلِقُهَا الشَّعْبُ بِمِقْدَارٍ وَيَصُفُّهَا بِمِقْدَارٍ، يَجْمَعُهَا الصَّالِحُ الاجْتِمَاعِي كَمَا يَنْشُرُهَا هُوَ أَيْضاً، فِي تَقْدِيرٍ مُوزُونٍ.

*

فِي جِسْمِ الْبَاطِلِ حَاوَلَ الْحَقُّ أَنْ يَجِدَ نُقْطَةً يَتَوَكَّرُ فِيهَا...
وَمَا هُوَ حَتَّى آتَمَدَّ وَتَفَرَّغَ، وَأَخَذَ عَلَى الْبَاطِلِ سَبِيلَ امْتِدَادِهِ...
فَذَهَبَ فِي ضُمُورٍ شَيْعاً وَرَاءَ شَيْءٍ، وَضَاقَتْ بِهِ الْحَيَاةُ فَلَفَظَتْهُ...
وَإِذَا بِهِ يَبْحَثُ عَنْ وُجُودِهِ فِي عَرَاءِ الْعَدَمِ، وَهُوَ خِصْمُ سَرَابٍ لَا يَمُتُّ
بِالْوُجُودِ...

*

فِي الْمِحِيطِ الْمِلْحِ يَنْبَثِقُ نَبْعٌ عَذْبٌ يَكُونُ بَيْئَةً لِلْأَلَى...
فَأُغْرِى الْمِحِيطُ بِلَالِيهِ قَرَاخَ يَغْتَصِرُ طَبِيعَتَهُ فِي مِثْلِهَا...
وَلَكِنَّهُ تَمَحَّضَ طَوِيلاً، وَأَنكَشَفَ عَنْ حَصَى تَارَةٍ، وَتَارَةً عَنْ دُنْيَا مِنَ الْمِلْحِ
الْمَرِيرِ...

*

في لَوَحِ حَالِكٍ وَقَعَتْ نُقْطَةٌ نور...
فَنَشَرَتْ أَشْعَتَهَا، وَكَانَ السَّوَادُ أَكْثَرَ إِظْهَاراً لَطَبِيعَتِهَا، وَإِنْدَاءً لِمَا آجَمَعَ فِي
وُجُودِهَا مِنْ سِنَى وَسَنَاء...
وراح السَّوَادُ، كُلَّمَا تَغَيَّظَ وَبَالَغَ فِي إِظْهَارِ طَبِيعَتِهِ، يُضِيفُ إِلَى كَوْكَبَةِ الثَّوْرِ
جِدَّةً إِشْرَاق...
جِدَّةً إِشْرَاق...

*

وَكَانَ كُلُّمَا ذَهَبَ يَقُولُ: «أَنَا» يَشْرِقُ بِحَسَنِ الشُّعَاعِ وَأَشْوَكَ الصُّبَا،
فَتَحْتَضِرُ كَلِمَتُهُ دُونَ لِسَانِهِ...
فَلَمْ يَقَعْ فِي سَمْعِ الْحَيَاةِ إِلَّا كَلِمَةً قَالَتْهَا كَوْكَبَةُ الثَّوْرِ، وَمَشَتْ بِهَا الْحَيَاةُ فِي
التَّارِيخِ، وَرَجَعَتْهَا أَبْدِيَةُ الضُّمِيرِ...

* * *

مع أُرَيْنب

هُنَاكَ عَلَى شَاطِئِ دِجْلَةٍ، فِي زَاوِيَةِ خَلِيجِ الْبَصْرَةِ، كَانَتْ الْأُبْلَةُ^(١) مَهْوًى
مُتَمَاجِنِينَ وَمُتَمَاجِنَاتٍ، وَمَهْطَ وَخِي الْهَوَى وَالشَّبَابِ، وَمَلْهُى كُلُّ فَتًى وَفَتَاةٍ تَلَوَّزَ
الْمَرْحَ طَبِيعَتُهُمَا، ثُمَّ أَطْلُ يُنْظَرُ إِلَى صَوْرَتِهِ فِيهَا. وَلَيْسَ فِي جِسْنِ هَؤُلَاءِ عَنِ الْحَيَاةِ
سِوَى أَنَّهَا شَيْءٌ يَخْلُو وَيَلْهُو، كَأَنْدَاءِ السَّحَرِ فِي شِفَاهِ الْأَقَاخِ وَالْيَاسَمِينَ،
وَكُلُّوَلَوَاتِ الطَّلِّ فِي خُذُودِ الْوُرُودِ وَالرِّيَّاحِينَ... فَهُمْ يُفْنُونَهَا سَكْرَى مَرْحٍ وَنَشَاوَى
مُجَوِّن... وَلَا يَطِيفُ بِسَمْعِهِمْ سِوَى نَعْمَاتٍ تَتَنَاهَى مُتَلَاشِيَةً فِي هَذَا الْقَرَارِ:

يَا لِلشَّبَابِ الْمَرْحِ، التَّصَابِي... زَوَائِحِ الْجَنَّةِ فِي الشَّبَابِ

فَفِي أَعْمَاقِهِمْ صَوْتُ يُهَيِّبُ بِهِمْ إِلَى التَّجَنُّبِ فِي فُضَاءِ الْمَرَاكِ، وَالْفَنَاءِ فِي لَا
وَعِي الظُّلُوفِ الْغَزَلِ... وَهَلِ الْحَيَاةُ، مِنْ وَاجِهَةِ الشَّبَابِ، سِوَى إِغْرَاءَةٍ تَقُومُ فِي اللَّهْوِ
الْعَابِثِ إِلَى أُخْرَى تَسْتَوِي فِي الْجَنَانَةِ اللَّاعِبَةِ؟ ثُمَّ هَلِ الدُّنْيَا سِوَى إِغْرَاءِ مُتَجَلِّبٍ
يَاغْرَاءُ، يُبَالِغُ فِي أَشْرِهِ حَتَّى لَيْسْتَذَنِي إِلَيْهِ مَنْ أَحْتَضِرُ الشَّبَابِ فِي قُلُوبِهِمْ بِالْعُغْرِ أَوْ
بِالْفِكْرِ، فَيَسْتَهْوِيهِمْ، وَرُبَّمَا آسَتْغَوَاهُمْ أَيْضاً بِمَا يَتَنَفَّسُ بِهِ مِنْ خَلَبِ:

إِنَّ بِالْحَيَرَةِ قَساً قَدْ مَجُنَّ فَتَنَ الرُّهْبَانَ فِيهَا وَافْتَنَّتْ

(١) تَهْوُ الْأُبْلَةُ كَمَا مَقْتَرَاهَا مَعْدُوداً فِي جَنَاتِ الدُّنْيَا الثَّلَاثِ.

تَرَكَ الإِنْجِيلَ حِيناً لِلصَّبَا وَرَأَى الدُّنْيَا مُجُوناً... فَزَكَّنَ

هَذِهِ قِصَّةُ شَابٍّ آخِضٍ الشَّبَابَ بَيْنَ بُزْدِيهِ بِفِكْرَةِ التَّقْوَى، وَلَكِنَّهُ أَطْلَعَ عَلَى الْحَيَاةِ مِنْ كُوَّةِ الْمَقْبِدِ الْمُتَكَلِّلِ بِالصُّمُوتِ الْوَقُورِ، فَرَأَى مَا تَجِيئُ بِهِ مِنْ إِغْرَاءٍ، وَمَا يَتَمَوَّجُ فِيهَا مِنْ فُتُونٍ، فَأَخَذَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ وَاسْتَوَتْ طُيُوفُهَا فِي نَاطِرِيهِ، فَاسْتَيْقَظَ شَبَابُهُ الْغَافِي، وَمَشَتْ رُوحُ الشَّبَابِ تَتَرَاقِصُ فِي قَلْبِهِ سَكْرَى.

مَضَى فِي ظَنِّهِ سَاخِرًا... يُجَرِّبُ هَذَا الْمُجُونَ حِيناً فَقَطْ، وَيَزُوي ظِلْمَةَ الصَّبَا الْمَكْبُوحِ، ثُمَّ يَعُودُ فَيَحْمِلُ كِتَابَ تَقْوَاهُ... يَبْدَأُ أَنَّهُ رَأَى الدُّنْيَا لَا تَتَكَشَّفُ إِلَّا عَنْ مُجُونٍ. وَكُلَّمَا نَضَتْ ثَوْباً مَسَتْهُ لَمَسَةُ فُتُونٍ، وَدَبَّ فِي خَنَائِهِ مِنْ شَوَاطِئِ الشَّبَابِ طَائِفٌ مُجُونٍ، فَكَانَ طَبِيعِيًّا أَنْ رَكَزَ... وَإِذَا فِكْرَةُ التَّقْوَى لَدَيْهِ تَنَقَّلَتْ هِيَ التَّجَرِبَةُ، وَيَسْتَوِيحُ مُسْتَوَاحِيًّا عَلَى مَتْنٍ مُوَجَّهٍ مُزْبَدَةٍ، مِنْ مَجَانَةِ هَذَا الْوُجُودِ الْمَسْحُورِ. بِهَذَا كَانَ يَتَحَدَّثُ الدَّلَالُ^(٢) فِي جَمْعٍ مِنْ ظُرَفَاءِ الْحِجَارِ جَمَعَهُمُ التَّصَادُفُ فِي الْأُبْلَةِ، بَيْنَهُمْ أَشْعَبُ، فَقَالَ لَهُ هَذَا:

مِنْ ثَمَّ لَمْ يَكُنْ مِنْ هَمِّكَ أَبَدًا إِلَّا جَمْعُ الرِّجَالِ إِلَى النِّسَاءِ، وَمَلَأَ الدُّنْيَا بِصَحْبِ الْمُجُونِ وَعَرَبِدَاتِ الْجُفُونِ. إِنْ كَانَ هَذَا رَأْيُكَ فَعَسَى أَنْ تَضَعِ الْأَقْدَارُ فِي طَرِيقِكَ صَاحِبَنَا الْأَعْرَابِيَّ الشَّوَهَةَ، فَتَمْتَنِعَ حُوبَاءَ قَلْبِكَ بِالْمَجَانَةِ إِلَيْهِ، أَشْحَنَ اللَّهُ عَيْنَكَ، إِنَّ الْمُجُونَ لَا يَمْلُحُ إِلَّا مَعَ جَمَالٍ أَوْ ظَرْفٍ... فَقَهَقَ الدَّلَالُ، وَانْقَلَبَ الصَّحْبُ يُسَائِلُونَ أَشْعَبَ عَنْ خَبْرِهِ فَحَدَّثَهُمْ:

دَخَلْتُ يَوْمًا عَلَى الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ، وَعِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ قَبِيحُ الْمَنْظَرِ، أَشَدَّ مَا يَكُونُ قُبْحًا، مُخْتَلِفُ الْخِلْقَةِ مُشَوَّهًا، فَسَبَّحْتُ مُتَأَفِّفًا، وَزَادَ بَيْنِي التَّأَفُّفُ، فَقُلْتُ لِلْحُسَيْنِ: أَبَايَ أَنْتَ وَأُمِّي. أَتَأْذُنُ لِي أَنْ أَسْلَحَ عَلَيْهِ... فَأَبْتَسَمَ يَظُنُّ أَنَّ الْأَعْرَابِيَّ يَعْرِفُنِي بِالزَّيْجِ

(٢) الدَّلَالُ كَسَابِ شَخْصِيَّةٍ فَيَّيَّةٍ غَرِلةً، وَكَانَ يَتَعَاطَى سَعْسَعَةَ الزَّوْاجِ، وَلَهُ أَشْبَهُ مَا يُسَمَّى الْيَوْمَ بِمَكْتَبِ الزَّوْاجِ. رَاجِعْ أَجْبَزَهُ فِي: الْأَغَانِي لِلأَصْفَهَانِيِّ، وَمَحَامِيحُ كُتُبِ الْأَدَبِ كُلِّهَا..

فَيَحْتَمِلُهَا مِنِّي.

فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ مُتَهَكِّمًا: إِنَّ شَيْئًا... وَمَعَهُ قَوْسٌ وَكِنَانَةٌ، فَفَوْقَ نَحْوِي
سَهْمًا، وَوَاصِلَ: وَاللَّهِ لَئِنْ فَعَلْتَ لَتَكُونَنَّ آخِرَ سَلْحَةٍ سَلَحَتْهَا... وَأَنْقَدَحَتْ عَيْنَاهُ،
وَلَمَسْتُ مِنْهُ الْجِدَّ فِي الشَّرِّ، فَقُلْتُ لِلْحُسَيْنِ: جُعِلْتُ فِدَاكَ. أَخَذَنِي الْقَوْلُ نَجْجٌ وَعَشْرُ
الْخُرُوجِ! وَطَفِقَ الصَّحْبُ يَضْحَكُونَ فِي رَنِينٍ مُتَجَاوِبٍ طَوِيلٍ.

كَانَ يَوْمًا مُفْعَمًا بِسَيْلٍ مِنْ غَرَائِبِ الْفَتَيَانِ وَغَوَانِي الْفَتَيَاتِ، هَذَا النُّيُوزُ...
حَتَّى كَأَنَّ الْحَيَاةَ اتَّخَذَتْ فِيهِ مَغْرَضَهَا، فَأُطْلِعَتْ أَقْصَى مَا فِي إِبْدَاعِهَا الْفَنِّيِّ مِنْ
آيَاتِ الْجَمَالِ النَّاطِقَةِ بِالْهَوَى، وَالذَّاعِيَةِ بِأَلْقَى الْإِعْرَاءِ إِلَى الْحُبِّ، وَالْمُشِيرَةِ بِأَسْرِ السَّحْرِ
فِي الْعُيُونِ وَالشَّفَاهِ إِلَى فِرْدَوْسِ الْخُلْدِ السَّعِيدِ، وَلَا عَجَبَ، فَتَهَرَّ الْأُبُلَّةُ مَعْدُودٌ أَحَدَ
مَسَارِحِ الْحَيْنَانِ عَلَى الْأَرْضِ فِي حِسِّ هَوْلَاءِ.

وَكَانَ يَزِيدُ - الشَّابُّ الطَّرِيضُ الَّذِي بَالَعَ فِيهِ نَزَقُ الشَّبَابِ، وَذَابَ فِي لُعَابِهِ -
قَدْ ذَهَبَ مَوْغِلًا فِي الصَّحْرَاءِ مُنْذُ حِينَ يَصِيدُ الطُّبَاءَ، وَيَتَّبِعُ آثَارَ السَّوَانِحِ مِنَ الْجَائِزِ
وَالْآرَامِ وَالْوُعُولِ وَالْأَيَّامِ، كَيْفَمَا ذَهَبَتْ وَأَنْعَرَجَتْ. وَلَذَّتْهُ الْمَطَارِدَةُ وَأَخَذَتْهُ
نَشْوَتُهَا، فَمَضَى يَلْهُو وَلَا يَأْلُو، وَزُمُرَةٌ لَهْوِهِ تَتَّبِعُهُ، إِنَّهُ لَا يُلْوِي عَلَى شَيْءٍ فِي مَدَاهِ.

لَمْ يَشْعُرْ إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ جُمُوعِ الْأَلاهِينَ فِي نَهْرِ الْأُبُلَّةِ، فَالْتَفَتَ يَضْحَكُ إِلَى
رِفَاقِهِ مُتَعَجِّبًا: لَقَدْ قَطَعْنَا صَحْرَاءَ الشَّامِ إِلَى الْعِرَاقِ، وَنَحْنُ لَمْ نُذَرِكْ... وَمَالَ يُزْبُثُ
عَلَى كَيْفِ يَزُوبُ مِنْ أَثَرِيهِ ضَاحِكًا مُنْتَشِيًا، وَيَتَأَبَّطُ ذِرَاعَ هَذَا، وَيَذْفَعُ ذَاكَ لِأَهِيًا
عَابثًا. إِنَّهُ يُحِسُّ بِحَيَاةٍ جَدِيدَةٍ وَدُنْيَا جَدِيدَةٍ.

رَاحَ يَتَنَقَّلُ بَيْنَ الْجُمُوعِ وَفِي إِثَرِهِ سُرُجُونَ رَاعِي طُفُولَتَيْهِ وَصِبَاهُ، وَلَكِنَّهُ وَقَفَ
فَجْأَةً عِنْدَ سُرَادِقِ مُنِيفٍ، عَرَفَ أَنَّهُ سُرَادِقُ أَمِيرِ الْعِرَاقِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامِ الْقُرَشِيِّ.
فَقَدْ أَخَذَتْهُ بَعْتُهُ وَجْهِ غَانِيَةٍ نَصِيفٍ، كَبَعْتَهُ بَذَرٍ أَنْشَقَ عَنْهُ الْعَمَامُ، وَأَسْتَقْرَى دُونَهُ لَيْلٌ

بِهِمْ حَالِكٌ، فَزَجَّ نَفْسَهُ رَجًّا غَنِيًّا، وَتَلَبَّسَهُ دُورُ الْجَمَالِ الَّذِي مَالَ يَتَلَاشَى بِطَيْعًا
لِيَتَكَيِّفَ عَنْ غَفْوَةٍ فِي حُبِّ الْقَلْبِ، وَتَلَهَّفَ الْعَقْلُ السَّلِيبُ، تَمُدُّهُ يَقْظَةٌ فِي الْغَرَائِزِ
الْمُفْعَمَةِ.

كَانَ فِي خَيَالِهِ وَجْهٌ يَتَنَفَّسُ بِمِثْلِ عَبَقِ الزَّهْرِ، وَعَيْنَانِ تَبْثَنَانِ مِثْلَ السَّحْرِ،
وَشَفَتَانِ تَنْطَلِقَانِ بِمِثْلِ ذَوْبِ الْغَرَامِ. وَزَادَهُ بِهَا أَنَّ قَلْبَهَا لَا يَتَجَاوَبُ بِصَدَى عَوَاطِفِهِ،
فَتَدُورُ عَاطِفَتُهُ نِصْفَ دَوْرَةٍ وَتَتَكَيَّرُ مُتَلَاشِيَةً فَلَا تُتِمُّ دَوْرَتَهَا، بَلْ تَمْحِي رُسُومَهَا فِي
أَنْبِيَاهِمُ كَالْحِجِّ، وَغُمُوضِ يَأْتِسُ مُتَجَهِّمٍ وَتَعَوُّرٍ فِيهِ صَحِيحُ الْإِتِحَارِ.

وَالْمَرْأَةُ تَزِيدُ فِيهَا جَازِبِيَّةُ الْأُنُوثَةِ نُضْجًا وَرُوءًا إِذَا أَصْحَتْ زَوْجَةً، فَقَدْ
أَنَحَسَرَتْ أَكْمَامُ طَبِيعَتِهَا الْمُعَلَّقَةِ تَنْشُرُ أَرْبَحَهَا كَالزُّهْرَةِ مَيَاسَةً نَاعِمَةً فِي الْهَوَاءِ.
إِنَّ الْمَرْأَةَ تُحْسِئُ بِشَيْءٍ مُبْهَمٍ، وَهُوَ جَوْهَرَةُ الْأُنُوثَةِ فِي أَقْصَى كِيَانِهَا، فَهِيَ تَزْعَاهُ بِسِيَاحِ
الْحَيَاءِ وَالْخَفَرِ كَأَنَّهَا تَحْتَضِنُهُ. فَإِذَا اسْتَحَالَتْ زَوْجَةً فَقَدْ اسْتَحَالَتْ الْآنَ فَقَطْ أُنْثَى
كَامِلَةً الْمَعْنَى. لَقَدْ أَصْحَتْ لَوْلُؤَةَ الْأُنُوثَةِ الْحَبِيبَةِ فِي حِقَاقِهَا، وَالْمُنْطَوِيَّةَ عَلَيْهَا
صَدَفَتْهَا، وَهِيَ جَلِيَّةٌ مَنْشُورَةٌ.

فِيمَا بَعْدُ عَرَفَ يَزِيدُ عَنْ عُرُوسِ أَحْلَامِهِ هَذِهِ أَنَّهَا أُرْنِيْبُ آئِنَةُ إِسْحَقِ الْأَمِيرِ،
وَسَيِّدَةُ السُّرَادِقِ. فَعَرَضَتْ فِي خَاطِرِهِ كَلِمَاتٌ مُتَقَطَّعَةٌ هَازِيَّةٌ، فَرَاخَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ:
كَيْفَ لِي بِهَا؟ بَيْنِي وَبَيْنَهَا هُوَّةٌ سَحِيقَةٌ، وَمَسَافَةٌ تَزِيدُ مَعَ الْأَيَّامِ تَنَائِيًا
وَبُعْدًا...

وَتَلَبَّثَ زَمَنًا لَمْ يَكُنْ بِالْقَصِيرِ، يَرُودُ مَغْنَاهَا وَيُرَاوِدُ قَلْبَهَا، وَلَكِنَّهَا عَرِيضَةٌ
الْأَعْرَاقِ، وَإِنْ كَانَ هُوَ الشَّابُّ النَّصِيرَ، فَبَيْنَهَا وَبَيْنَ قَرِينِهَا مَا شَاءَ الْهَوَى الْعَبْقُ، وَمَا
شَاءَتْ سَعَادَةُ الْأَزْوَاجِ الْخُلَطَاءِ.

بَاتَ كَاسِفًا أَرْقًا يُرَدِّدُ وَلَا يَفْتَأُ:

وفي الحَيِّ نَعْمَ قُوَّةُ الْعَيْنِ وَالْهَوَى وَأَحْسَنُ مَنْ يَمْشِي عَلَى قَدَمِ نَعْمٍ
وَتَخَوَّفَ مُرَيِّيهِ سَرَجُونُ، فَرَزَّيْنُ لَهُ الرُّجُوعَ إِلَى الشَّامِ لَعَلَّهُ يَسْلُو، فَأَجَابَهُ وَعَادَ
بَصَحْبِهِ يُرِيدُونَ دِمَشْقَ. وَبَيْنَمَا هُوَ آخِذٌ بِمَحَاجِزِ الصَّخْرَاءِ وَمَقَاوِزِهَا، حَانَتْ مِنْ يَدِهِ
لَمْسَةٌ وَقَعَتْ عَلَى قَوْسِيهِ، الَّذِي فَصَلَ فِي غُدُوهِ يَصِيدُ بِهِ الطُّبَاءَ، فَتَذَكَّرَ رَيْمَةَ الَّذِي
صَادَهُ... فَشَدَّ الْقَوْسَ إِلَيْهِ وَاعْتَصَرَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فِي تَوَرَّةِ قَلْبٍ:

حَطَمَ الْقَوْسَ عَلَى صَخْرَائِهِ وَأَتَكَى يَسْقِيهِ مِنْ مَاءِ الشَّكَاةِ
أَيْ هَذَا الْقَوْسُ أَنْتَ مَثَلٌ مِثْلُ قَلْبِي، حَطَمْتُهُ الْعَاصِفَاتُ
وَسَأَخِيكَ يُنْهَلُ الدُّمُوعُ إِنَّمَا دَمْعُ الْحَبِيبِينَ حَيَاةُ
لَمْ يَزِدْهُ بُعَادُهُ فِي دِمَشْقَ إِلَّا كَمَدًا وَأَسَى، وَلَمْ يُورِثْهُ الْهَجْرَانُ إِلَّا لَهْفَةً
وَجَوَى. شَأْنُ الَّذِينَ يُحِبُّونَ بَعْرَائِرِهِمْ، فَعَوَاطِفُهُمْ أَبَدًا تَكُونُ عَنِيْفَةً مُهْتَاجَةً عَلَى
الدُّكْرِى، لَأَنْسَهَا وَخِي الْأَعْصَابِ... بَيْنَمَا الْعَوَاطِفُ إِذَا كَانَتْ مِنْ وَخِي الْقَلْبِ أَوْ
حَاسَّةِ الْفَرْ، فَإِنَّهَا تَذَكُرُ وَتَشْمُو بِالتَّلَهُّفِ الْعَاطِفِيِّ، فَالْحُبُّ الَّذِي يَكُونُ عَامِلَةً الْقَلْبِ
أَوْ حَاسَّةُ الْفَرْ، يَذْهَبُ فِي آسْتِحَالَاتٍ مُتَوَاصِلَةٍ: غُدْرِيًّا، فِيمَا لِيَا، بَيْنَمَا حُبُّ
الْأَعْصَابِ يَشْتَهِي أَغْصَابًا وَجَسَدًا فَقَطْ، يَهِيْجُ بِالْفَرَاغِ، وَيَهْمَدُ بِالْإِمْتِلَاءِ، أَمْتِلَاءِ
الْيَدِ مِنْهُ.

فَتَنَاهَى «أَمْرُ يُرِيدَ إِلَى ضُمُورٍ» وَسَلَوَى الْمُتَعِّ وَالْإِنْكِمَاشِ عَلَى نَفْسِهِ فِي أَيِّ
مَكَانٍ آسْتَمَلَ عَلَيْهِ... فَهَذَا الَّذِي كَانَ يَفْلَأُ الْقَصْرَ لَهَا وَمَرَحًا، وَيَقْطَعُ اللَّيْلَ عَزْبَةً
سَكْرَى، وَيَزِينُ مَعَانِي الْأُنْسِ بِشَاشَةٍ وَحُبُورًا... وَالَّذِي لَمْ يَكُنْ مِنْ هَمِّهِ إِلَّا أَنْ
يَقْطِفَ مِنْ رِيَاضِ الْعَوَانِي الْكَوَاعِبِ بَاقَاتِ زَنَاقٍ وَوُرُودِ، وَيَهْتَصِرُ مِنْهُنَّ عُصُونًا
لَدَنَّةً، وَيَعْتَصِرُ عَلَيْنَهُنَّ رُمَانًا شَهِيًّا... غَدَا ذَاهِلًا ذُهُولَ الْمُقْبِلِ عَلَى الْمَوْتِ، ضَاوِيًّا
كَأَنَّهُ يَنْصُرُ فَلَاةً أَوْ مَنْرُوفَ دِمَاءٍ، حَبِيسَ هَوَى وَمُبْلَسَ خَيَالٍ، غَيْرَ شَهِيٍّ إِلَى شَيْءٍ

مِنْ مَلاهِمِهِ الَّتِي كَانَ لَا يَسْتَطِيعُ عَنْهَا صَبْرًا، وَلَهَا مُجَانِبَةٌ، وَفِي أَنْتِهَاجِهَا
أَحْتِشَامًا... حَتَّى أَضْطُرَّ مُعَاوِيَةً أَنْ يَزْجُرَهُ فِي رَفْقٍ، وَيَأْخُذَ عَلَيْهِ تَهْتُّكُهُ فِي تَحْيِيلٍ،
فَقَالَ:

«يَا بُنَيَّ: مَا أَفْذَرَكَ عَلَى أَنْ تَصِيرَ إِلَى حَاجَتِكَ، مِنْ غَيْرِ تَهْتُّكِ يَذْهَبُ
بُرُوءَتِكَ وَقَدْرِكَ، وَأَنْشَدَهُ:

إِنْصَبَ نَهَارًا فِي طِلَابِ الْغَلَا وَأَصْبِرْ عَلَى هَجْرِ الْحَبِيبِ الْقَرِيبِ
حَتَّى إِذَا اللَّيْلُ أَتَى بِالْذُّجَى وَآكُتَحَلَّتْ بِالْعَمَضِ عَيْنُ الرَّقِيبِ
فَبَاشِرِ اللَّيْلِ بِمَا تَشْتَهِي فَإِنَّمَا اللَّيْلُ نَهَارُ الْأَرِيبِ
كَمْ فَايَسِرْ تَحْسَبُهُ نَاسِكًا قَدْ بَاشَرَ اللَّيْلَ بِأَمْرِ عَجِيبٍ»
أَمَّا الْيَوْمَ فَهُوَ مُذْنَفٌ كَلِيفٌ مَضْرُوفُ الْهَوَى، لَا يُرَى إِلَّا مُنْتَحِيًا إِلَى نَفْسِهِ،
فِي ظِلِّ شُجَيْرَاتٍ كَانَ يَتَشَهَّى فَيَنْقُصُ سَاعَةً غَزَلٍ أَوْ طَرْبِ.

وَكَانَ سَرْجُونُ مُرَيِّبِهِ يُرَاقِبُهُ مِنْ بَعِيدٍ، وَيَلْزَمُهُ دُونَ أَنْ يَرَاهُ أَوْ يَلْمَحَهُ. فَانْتَهَى
إِلَى سَمْعِهِ مِنْ نَجْوَى يَزِيدَ لِنَفْسِهِ:

أَوَاهُ، أَرَيْنَبْ! يَا مَنْ لَا تَشْغُرِينَ بِوُجُودِي وَآلَامِي وَخَلَجَاتِ قَلْبِي، وَأَرَاكِ مِلْءَ
الدُّنْيَا لَذَاذَةً وَمُتَعَةً وَنَعِيمًا، أَوْ لَيْتَكَ تَشْغُرِينَ! إِذَا لَكُنْتُ سَعِيدًا.

أَوَاهُ! هَلْ تُصَدِّقُ أَخْلَامِي فَأَرَاكِ عِنْدَ يَدَيَّ، تَنْخَنِينَ عَلَيَّ فَتُضَمِّدِينَ جِرَاحَ
فُؤَادِي، وَتَمْلِكِينَ وَجُودِي إِشْرَاقًا بِأَلْتِ وَجْهِكَ الْعَبْقَرِيِّ الْحُسْنِ. لِحُلْمٍ سَعِيدٍ، وَلَكِنْ
دَوْنَهُ مَفَاوِزَ الْجَحِيمِ الْعَبْقَرِيَّةِ الْأَشْوَالِ وَالْأَهْوَالِ أَيْضًا. ثُمَّ أَطْرَقَ وَتَنَاهَى بِهِ الْإِطْرَاقُ،
وَلَيْتَ طَوِيلًا كَأَنَّمَا آتَبَلَعَهُ ضَبَابُ الْمَسَاءِ فِي لَيْلَةٍ رَمَى بِهَا الشِّتَاءُ فِي الْعَاصِفَةِ. عَلَى
أَنَّهُ رَفَعَ رَأْسَهُ أَخِيرًا، وَعَيْنَاهُ تَدُورَانِ فِي بَرِيقٍ مُخِيفٍ، يَقُولُ:

لا لا ! إني لَنَ أَنْتَظِرَ هِبَةَ الْأَقْدَارِ حَتَّى تَصْعَهَا فِي طَرِيقِي وَزِدَةً مُصَوِّحَةً
 نَاضِبَةً، إِنَّ الضَّعِيفَ فِي شَرِّعِ الطَّبِيعَةِ الْحَيَّةِ حَمَلٌ مَنُهَوَّبٌ، وَالْقَوِيُّ هُوَ ابْنُ الطَّبِيعَةِ
 الْبَكْرُ، وَقَدْ وَهَبَتْهُ، سَائِعًا زُلَالًا، كُلُّ مَا اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَلْفَهُ قُوَّتُهُ، أَوْ يَكُرَّ فِي جَوْهَا.
 هَذِهِ هِيَ الْحَقِيقَةُ الْفَدَّةُ الَّتِي تَرَاهَا بَيْنَ أَذْنَى الْأَحْيَاءِ وَأَعْلَاهَا، مِنْ بَدْيِ النَّبَاتِ
 إِلَى رَفِيعِ التَّكْوُنِ؛ الْإِنْسَانِ.

وَأَمَّا أُولَئِكَ الَّذِينَ شَرَعُوا الشَّرَائِعَ وَالنُّظُمَ، وَحَدَّدُوا مَسِيرَ الْحَيِّ فِيمَا سَمَّوْهُ
 أَخْلَاقًا، فَإِنَّهُمْ مُجَنَّبَاءُ ضَعْفَاءُ وَأَنَايِيُونَ أَيْضًا، قَعَدَتْ بِهِمْ قُوَّتُهُمْ عَنْ أَنْ يُدْرِكُوا أَيَّ
 نَصِيبٍ مِنْ مُتَعِ الْحَيَاةِ وَلَدَائِهَا، أَوْ أَذْرِكُوا نَصِيبًا خَفِيرًا فَأَتَبَكَّرُوا قَانُونَ الْأَخْلَاقِ
 وَالْقَانُونَ، وَحَدَّدُوا سَعْيَ الْأَحْيَاءِ وَفَقَّهَا وَعَلَى طَبَقِهَا، فَأَوْجَدُوا لَأَنْفُسِهِمْ أَوْفَرَ فُرْصِ
 الْحَيَاةِ الْمَائِغَةِ.

إِنَّ هَؤُلَاءِ أَذْنَاءٌ مِنْ أَنْ أُخْتَرِمَهُمْ، إِنَّهُمْ ضَعْفَاءُ مُتَوَهَّوُونَ، خَلَبُوا النَّاسَ
 بِأَسَاطِيرِهِمْ، فَمَا وَبَّحَ الْجَاهِلِينَ.

إِنَّهُمْ شَاوُوا الْعَيْشَ عَلَى حِسَابِنَا نَحْنُ الْأَقْوِيَاءُ، وَحِيَازَةَ النَّصِيبِ الْأَوْفَرَ أَيْضًا،
 أَلَا كَيْفَ يُفَكِّرُ النَّاسُ الْحَقِيقَى الثُّغَسَاءُ؟ لَا أَذْرِي...

إِنِّي لَا أَفْهَمُ مَعْنَى لِهَذِهِ النُّظُمِ سِوَى أَنَّهَا سُمُومٌ الضُّعَفَاءِ، يَنْفُثُونَهَا فِي
 جَوْنَا، نَحْنُ الْأَقْوِيَاءُ، لِنَسْتَرْحِي، فَيَجِدَ الضَّعْفُ فِي جَوْ الْقُوَّةِ فُرْصَةَ الْبَقَاءِ.

إِنَّ مَا أَفْهَمُ، هُوَ هَذَا فَقَطْ، أَنَّ الْحَيَاةَ وَاللَّذَّةَ وَالسَّعَادَةَ فُرْصٌ، وَالْقُوَّةُ وَحْدَهَا
 سَبِيلُ الْاسْتِخْوَاذِ عَلَيْهَا، فَالْحَيَاةُ هِيَ الْقُوَّةُ.

إِنَّ الْأَسَدَ قَدْ يَعِفُّ - وَهُوَ نَهِيكَ جَوْعٍ - عَنِ الطَّعَامِ الْحَقِيرِ الْوَضِيعِ، لِأَنَّهُ لَا
 يَجِدُ فِيهِ لَذَّةَ الْقُوَّةِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَعِفُّ أَلْبَتَّةَ عَنِ الصَّرَاوَةِ، وَعَنِ الْخَلْتِ وَالْإِفْرَاصِ
 أَحْيَانًا، وَهِيَ مَجْلَى الْقُوَّةِ. فَالَّذِي تُمْلِيهِ طَبِيعَةُ الْأَحْيَاءِ: قَسْوَةٌ، وَبَغْيٌ، وَلَذَاتٌ. هَذَا مَا

نَجِدُهُ كُلَّمَا حَلَلْنَا غَنَاصِرَ الْحَيَاةِ وَأَنْوَاعَ الْأَحْيَاءِ، فَمَنْ أَمْلَى عَلَى أَوْلَيْكَ الْجُبْنَاءِ
أَسَاطِيرَهُمْ؟ إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدًا سِوَى الْجُبْنِ وَالْعَجْزِ وَخَوْفِ الْآلَامِ.

وَأَسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لَا يَسْتَبِيدُ

نعم! نعم! إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لَا يَسْتَبِيدُ

أُرَيْبُ! أَنْتِ لِحُلْمٍ سَعِيدٍ، وَقَدْ بَتَّ مُتَعَةً قَرِينَةَ الْمَنَالِ مِنِّي!

أُرَيْبُ! لِنَقُصِّمْ فِي سَبِيلِكَ سُيُولَ الدِّمَاءِ وَرَايَا الْجَمَاجِمِ وَالْأَشْلَاءِ، فَإِنِّي
سَأَسِيرُ عَلَيْهَا إِلَيْكَ، فِي آبِتْسَامَةِ الْقَسْوَةِ وَفَهْقَةِ جَبَرُوتِ الْبَطْشِ! إِنْ أَتَيْنَ الْفَرِيسَةَ
- وَعِظَامُهَا تَتَقَفَّضُ بَيْنَ فَكِّي الْأَسَدِ - يُطْرِبُهُ وَيُشْهِيه، لِأَنَّهُ مَقَاطِعُ مِنْ أَنْشُودَةٍ
كَبِيرَاءِ الذَّاتِ وَكَبِيرَاءِ الْوُجُودِ، فَإِنَّ مَعْنَى نَشِيدِ الْأَيْنِ: أَنْتَ أَنْتَ هُوَ الْجَدِيرُ بِالْوُجُودِ
وَحَذِّكَ... وَلِذَا كَانَ الْأَسَدُ لَا يَطْعَمُ إِلَّا عَلَى أَلْحَانِ نَائِي الْأَشْلَاءِ.

أُرَيْبُ! أَنْتِ عَرُوسُ أَحْلَامِي، وَسَتُضْهِحِينَ عَمَّا قَرِيبَ عُرُوسَ لَذَاتِي! فَمَا
أَجْمَلُهَا نَشْوَةً، وَجِسْمُكَ الْبَضُّ أَهْتَصِرُهُ بَيْنَ ذِرَاعِي الْمُشْتَعَلِينَ، وَأَعْتَصِرُهُ فِي وَقْدَةِ
الصُّلُوحِ الْمُتَلَطِّطَةِ، وَقَوَائِمِكَ يَتَأَطَّرُ وَيَتَنَتَّنِي الْأَفْعَوَانِ، وَيَتَلَوَّى تَلَوَّى الْخَيْرِزَانِ.
فَمَا أُحِبُّ قَوْلَكَ!... إِنَّهُ دُنْيَا مِنَ اللَّذَاتِ الْعَذَابِ، وَلَوْ لَفَّ فِي جَحِيمِ الْعَذَابِ!

أُرَيْبُ! إِنَّنِي سَوْفَ أُلْهَوُ بِكَ أَمْدًا كَالزَّهْرَةِ تَرُودُهَا النَّحَالُ بِتَلْهُفٍ إِلَى
الْإِمْتِصَاصِ، ثُمَّ سَيَانٍ عِنْدِي أَذْكُرُكَ أَمْ نَسِيْتُكَ بَعْدَ، أَلَسْتَ أَمْرَأَةً، وَالْمَوَاةُ لُغْبَةٌ
الرَّجُلِ وَمُتَعَتُهُ فَقَطُّ، وَلَا شَيْءَ وَرَاءَهُمَا؟ ثُمَّ أَلَيْسَتْ النِّسَاءُ فِي النَّوْعِ رِيَّاحِينَ كَمَا
قِيلَ، وَهِيَ تَذْهَبُ فِي شَمَاتٍ أَوْ دُونِهَا، وَتَبْلَى فُتْنَتُهَا... فَأَعْتَنِيهَا فَوْصَةً لَذَاذَةً
كُبْرَى مُعْرِبِدَةٍ، وَأَنْتِ فِيهَا فَوَاحَةٌ بِالْعَبِيرِ.

آه! إِنْ ظَلَمَائِي لَا يَزُوِيهِ إِلَّا سَيْلٌ مِنْ دِمَاءٍ، إِذَا وَقَفَ فِي وَجْهِهِ ذَلِكَ الْعِلْجُ
أَبْنُ سَلَامٍ. إِنَّنِي أَحْسُ بِأَسْنَانِي تَتَأَكَّلُ كَأَنَّ عَلَيْهَا حِكَّةَ جَرَبٍ. إِنَّهَا تَشْتَهِي مُضْغَةً

مِنْ كَبِدِهِ أَلَوْكُهَا! إِنِّي لَأَشْعُرُ أَنَّ فِي أَسْنَانِي هَيْدَ جَدَّتِي يَوْمَ أُحُدٍ، وَهِيَ تُحْرِقُ الْأَرَمَ عَلَى كَبِدِ حَمْرَةٍ! سَوْفَ أَبَارِزُهُ فَأَقْتُلُهُ أَوْ أَرَصُّدُهُ فَأُعِمِدُ فِيهِ وَرَاءَ السَّيْفِ يَدِي.

وَلَمْ يَزَلْ مَعَ طُيُوفِهِ الَّتِي أَخَذَتْ تَتَجَسَّمُ لَهُ، فَيَرَاهَا قَرِيبَةً مِنْهُ دَانِيَةً إِلَيْهِ، وَكَأَنَّ طَيْفَ آئِنِ سَلَامٍ عَرَضَ لَهُ فِي بَعْضِ الطُّيُوفِ، فَهَبَّ يَخْتَرِطُ سَيْفَهُ، وَقَبَضَ عَلَى قَائِمَتِهِ، وَهَزَّهَ فِي الْهَوَاءِ هَزَاتٍ، ضَحِكَ فِي إِثَرِهَا ضِحْكَاً عَصِيْباً، وَفَجْأَةً تَقَلَّصَتْ تَقَاطِيعُ وَجْهِهِ، وَآزَدَتْ إِلَى الْوَرَاءِ فِرْعَاءً مُتَعَقِّدَ الْأَيْدِي يَقُولُ، وَقَدْ عَرَضَ لَهُ طَيْفُ الْعَدَالَةِ: إِنِّي يَزِيدُ! يَزِيدُ الْأَمِيرُ... وَلَكِنَّهُ لَمْ يَزَلْ يَزِدُّ إِلَى الْوَرَاءِ فِي دُعْرِ يَقُولُ: لَسْتُ، لَسْتُ أَنَا هِيَ هِيَ أَغْرَثْنِي!... وَغَرَاهُ دَوَارٌ، فَقَدْ أَخَذَتْهُ أَعْرَاضُ حُمَيِّ خَبِيثَةٍ، وَكَانَ يَهْدِي تَحْتَ وَطْأَةِ الدَّاءِ. فَوَجَلَ سَرُجُونٌ وَجَلّاً شَدِيداً، وَلَمْ يَجِدْ بُدّاً مِنْ أَنْ يَتَعَرَّضَ لَهُ، وَيَقْطَعَ عَلَيْهِ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ خَيَالَاتٍ.

أَفَاقَ بَعْدَ حِينٍ، وَزَايَلَهُ مَا كَانَ فِيهِ مِنْ هَذْيَانٍ، فَقَدْ تَمَائَلَ نَحْوَ الشِّفَاءِ وَالْإِبْلَالِ مِنَ الدَّاءِ، وَبَقِيَ فِي تَضْمِيمِهِ ثَابِتاً: اغْتِيَالُ الرَّجُلِ وَانْتِزَاعُ مَعْشُوقَتِهِ أَنْتِزَاعاً، رَضِيَتْ أَمْ أَبَتْ. وَعَرَفَ مِنْهُ سَرُجُونُ ذَلِكَ الْعَزَمَ وَخَشِيَّ مُجَازَفَتَهُ، فَأَسْرَ إِلَى الْوَلَدِيَّةِ مَيَسُونَ أَبْنَةَ بَحْدَلِ الْكَلْبِيَّةِ بِكُلِّ خَبْرَةٍ، فَأَطْرَقَتْ بِرَأْسِهَا، وَقَالَتْ:

فَذَاكَ مَرَضُهُ إِذَا... وَكَانَ يَزِيدُ وَلَيْدَهَا الْأَوْحَدَ الْمَفْدَى، فَلَمْ تُطِيقْ آلَامَهُ فِي سَبِيلِ امْرَأَةٍ، وَلَمْ تُطِيقْ أَلْبَسَةَ لِرَجُلٍ، مَهْمَا كَانَ خَطَرُهُ وَمَنْزِلَتُهُ، أَنْ يَحُولَ بَيْنَ أَبْنَيْهَا وَرَغْبَاتِهِ، فَقَالَتْ تُخَاطِبُ سَرُجُونُ: وَمَنْ هَذَا آئِنُ سَلَامٍ زَوْجُهَا؟
قَالَ: هُوَ أَمِيرُ الْعِرَاقِ مِنْ قِبَلِ الْمَلِكِ... فَانْقَلَبَتْ ضَاحِكَةً، تَقُولُ:

يَكُونُ مِنْ عُمَّالِنَا وَيُقِيمُ لَهُ يَزِيدُ هَذَا الْوَزْنَ؟ إِنَّا نَحْنُ نَرْفَعُهُ أَوْ نَخْفِضُهُ. ثُمَّ هَلْ هُوَ إِلَّا مُتَعَدِّ لِرَغْبَاتِنَا عَلَيْهِ، هُوَ صَنِيعُنَا فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ زَوْجَتُهُ إِحْدَى إِمَائِنَا، نَتَصَرَّفُ فِيهِ وَفِيهَا كَيْفَمَا نَهْوَى. إِنِّي لَا أَطِيقُ أَنْ أَرَى يَزِيدَ وَاجِماً مِنْ أَجْلِ امْرَأَةٍ

يُسْتَهْيَاهَا، وَلَسْتُ أَطِيقُ أَنْ أَسْمَعَ أَنَّهُ يُمْنَعُ عَنْهَا بِالْعَةِ مَا بَلَغَتْ مَنْزِلَتَهَا.
بَلِّغِ الْمَلِكَ أَنِّي لَا أَطِيقُ أَنْ أَرَى يَزِيدَ مَحْزُونًا يَبْكِي، بَلِّغُهُ أَنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ يَجِبُ
أَنْ تَكُونَ فِي مَجْمَلَةِ إِمَاءٍ يَزِيدُ يَغْتَبُّ بِهَا وَيُلْهَوُ!
قَالَ سَرْجُونُ: لَعَلَّ زَوْجَهَا لَا يُرْضِيهِ تَزُكُّهَا، أَوْ لَعَلَّهَا لَا تَوْضِي هِيَ إِنْ كَانَ
مِنْهُ ذَلِكَ...

قَالَتْ، وَضَرَبَتْ بِيَدِهَا عَلَى وَسَادَةٍ بِجَنْبِ مَقْعِدِهَا: وَمَا قِيَمَةُ رِضَاهُ أَوْ
رِضَاهَا؟ إِنَّا نُرِيدُ ذَلِكَ وَكَفَى!

فَاتَّبَعَسَ سَرْجُونُ وَقَالَ: أَظُنُّ الْأَمِيرَةَ لَا تَغْنِي تَمَامًا مَا تَقُولُ، أَوْ لَا تَجِدُ كُلَّ
الْجِدِّ. فَلَا بَنٍ سَلَامٍ خَطَرُهُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ بِذِي خَطَرٍ فَلَا يَسْعُنَا أَنْتِهَا كُهُ أَنْتِهَا كَأُ
مَكْشُوفًا، وَتَحْدِيهِ فِي شَرْفِهِ. وَلَكِنْ نَسْتَأْتِيهِ فِي غَيْرِ شُعُورٍ مِنْهُ.

قَالَتْ مُتَأَفِّفَةً مُتَبَرِّمَةً وَهِيَ تَهْزُ كَتِفَيْهَا: إِنِّي لَا أَفْهَمُ مَعْنَى لِحْشَيْتِكَ...
فَقَالَ، وَتَمَثَّلَ لَهُ عَهْدُهُ فِي بِلَاطِ الْعَسَاسِيَّةِ، وَهُوَ أَكْثَرُ رِعَايَةٍ لِلْحَقُوقِ:
وَلَكِنَّكَ تَفْهَمِينَ فَقَطْ مَعْنَى خَدَشِ كَرَامَةِ الرَّجُلِ؟

قَالَتْ: إِذَا كُنْتُ تَرَى فِي ذَلِكَ بَأْسًا فَاسْتَأْتِ كَيْفَ شِئْتَ، فَأَنَا أُرِيدُ أَنْ يَصِلَ
يَزِيدُ إِلَى غَرَضِهِ كَيْفَمَا كَانَ، وَلَيْسَتْ تَهْمُنِي الطُّرُقُ الَّتِي سَتَسْلُكُهَا. إِنِّي أُرِيدُ أَنْ
تَقَرَّ عَيْنُ يَزِيدَ بِهَا، وَلَا يَغْنِيَنِي مَا وَرَاءَ ذَلِكَ... فَاسْتَدَارَ سَرْجُونُ عَلَى عَقَبَتَيْهِ وَهُوَ
يَقُولُ:

أَمَّا كَذَلِكَ فَتَعَم...

*

دَخَلَ سَرْجُونُ مَجْلِسَ الْمَلِكِ، وَمِنْ حَوْلِهِ حَاشِيَتُهُ يَتَدَبَّرُونَ أَمْرَ يَزِيدَ، وَمَا

عَسَاءُ أَنْ يَكُونَ طَرَأَ عَلَيْهِ. وَبَدَأَ مُعَاوِيَةَ مُغْتَمًّا، فَهُوَ لَا يُطِيقُ سَمَاعَ أَنْ يَرِيدَ مُكْتَبِتَ، وَهُوَ بِكُرِّ الإِمَارَةِ الْمُتَرَعُّجِ بِالذَّلَالِ، وَفِي قَرَارَةِ نَفْسِهِ أَنْ يَقَرَّ بِهِ عَيْنًا وَهُوَ وَلِيُّ عَهْدِهِ، كَمَا زَادَ بِهِ ضَنْأًا بَعْدَ أَنْ «أَصَابَ مِنْهُ سَيْفُ الْخَارِجِيِّ مَسْرَى الْبَنِينَ».

كَانَ فِيمَا يُسَيِّطِرُ عَلَى الْمَجْلِسِ مِنْ وُجُومٍ، مَا جَعَلَ سَرَجُونَ يَقِفُ طَوِيلًا قَبْلَمَا أَسَرَ إِلَى مُعَاوِيَةَ بِشَأْنِ آبْنِهِ الْبَكْرِ، رُغِمَ قُرْبِهِ مِنْ مُعَاوِيَةَ وَمُنْزِلِيهِ الْمَرْفُوعَةِ الْحِجَابِ لَدَيْهِ. وَظَلَّ وَاجِمًا هُوَ أَيْضًا، فَقَدْ عَدَّتْهُ رُوحُ الْمَجْلِسِ، وَسَيَّطَرَ عَلَيْهِ جَوْهُهُ، حَتَّى قَطَعَ الْوُجُومَ عَمَرُو بْنُ الْعَاصِ بِقَوْلِهِ:

وَمَاذَا تَطُنُّونَ أَصَابَهُ وَهُوَ فِي جِشَمِ الْفِيلِ وَنَشْطَةِ النَّيْرِ؟... وَأَبْتَسَمَ، لَعَلَّ إِحْدَى غَانِيَاتِهِ الْمَدُلَّلَاتِ فَارَكَّتْهُ وَقَطَعَتْ أَشْبَابَ وَدَّهِ.

قَالَ مُعَاوِيَةُ: مَا هَذَا يَا عَمْرُو؟

قَالَ: لَمْ يَقَعْ فِي مَدَى خَاطِرِي سِوَى هَذَا، وَعَلَى كُلِّ «فَهُوَ أَمْرٌ لَا يُوقَفُ عَلَيْهِ إِلَّا مِنْ جِهَةِ وَالِدَتِهِ»، لَعَلَّهَا تَنْتَرِجُ مِنْ بَيْنِ شَفَثَيْهِ كَلِمَةً سِرِّهِ الرَّهِيْبِ... وَأَطَالَهَا كَالسَّاحِرِ... وَهُنَا وَجَدَ سَرَجُونَ مُنَاسَبَةَ الْإِقْضَاءِ إِلَيْهِ، فَمَالَ عَلَى أُذُنِهِ يُسَارُّهُ، وَمَا لَبِثَ أَنْ ضَحِكَ مُعَاوِيَةُ وَهُوَ يَقُولُ:

عِنْدَ ظَنِّكَ يَا عَمْرُو، وَلَكِنَّهَا غَانِيَةٌ جَدِيدَةٌ!

قَالَ عَمْرُو: وَإِنْ بَشَتْ قُلُوبُ صَبِيَّةٍ جَدِيدَةٍ... فَأَبْتَسَمَ الْحُضُورُ، وَطَلَبَ مُعَاوِيَةُ أَنْ يَخْلُوَ بِنَفْسِهِ سِوَى عَمْرُو، فَقَالَ:

مَنْ أَرَيْنَبُ؟ وَهَلْ تَعْرِفُ عَنْهَا شَيْئًا؟

قَالَ: نَعَمْ، هِيَ مِنْ «أَعْرَقِ الْحِجَارِيَّاتِ نَسَبًا، وَأَكْثَرِهِنَّ مَالًا، وَمَثَلٌ فِي الْجَمَالِ بَيْنَ غَرَائِرِ زَمَانِهَا»، كَانَتْ عِنْدَ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ مِنْ قَبْلُ، ثُمَّ صَارَتْ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ أَمِيرِ الْعِرَاقِ الْيَوْمَ.

قَالَ مُعَاوِيَةُ: تَرَى أَنَّهُ عَزِيزٌ عَلَيْنَا أَصْطِيادُهَا؟

قَالَ: هُوَ ذَاكَ، وَأَمْنَعُ مَا تَكُونُ.

قَالَ: وَلَكِنْ كَيْفَ بَرَعِيَّةُ يَزِيدَ الْحَارَّةِ، فَإِنَّهُ يَحْزُ فِي نَفْسِي أَنْ يَبِيتَ آسِيفًا، لَا يَقْضِي لُبَانَتَهُ، وَيُشْبِعَ شَهْوَةَ نَفْسِهِ، وَيَزُويَ ظَمًا قَلْبِهِ.

قَالَ: وَمَا هَذَا؟ أَأَنْتَ أَيْضًا تُسَايِرُهُ فِي مُجُونِهِ وَعَيْبِهِ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ مَا يَتَظَاهَرُ بِهِ مِنْ كَمَدٍ هُوَ مِنْ حَيْلِهِ عَلَى الْمُجُونِ، وَمِنْ دَلَالِهِ عَلَى التَّنْوِيلِ كَيْفَ يَجْعَلُ مِنَّا مَطَايَا شَهَوَاتٍ وَأُوطَارٍ. إِنَّ النَّاسَ تَحَمَّلُوا مِنَّا ضَرَاوَةَ فِي السِّيَاسَةِ، وَضَرَاوَةَ فِي الْأَمْوَالِ، إِلَى ضَرَاوَةِ وَضَرَاوَةِ فِي الْأَحْكَامِ، وَلَا أَرَاهُمْ إِلَّا نَائِرِينَ بِنَا، إِذَا جَعَلْنَا بُيُوتَهُمْ هَدَفًا لَضَرَاوَةِ شَهَوَاتِنَا أَيْضًا...

قَالَ مُعَاوِيَةُ: هُوَ ذَاكَ. وَلَكِنْ كَيْفَ لِي بِالتَّوْفِيهِ عَنْ يَزِيدَ، فَإِنِّي لَا أَقْدِرُ أَنْ أَرَاهُ كَاسِيفًا؟ أَلَا فَفَكَّرْتُ مَعِيَ وَتَحَايَلْتُ مَا وَسِعَتْكَ لِبَاقَةُ الْحِيلَةِ. فَفَكَّرْنَا مَلِيًّا وَكَانَ عَمْرُو أَسْبَقَهُمَا، فَهَتَفَ: لَقَدْ وَجَدْتُهَا، وَإِنْ كَانَ فِيهَا تَشْخِيرُكَ إِيَّايَ حَتَّى لِشَهَوَاتٍ وَلَدَكَ أَيْضًا.

قَالَ مُعَاوِيَةُ يَغْبِطِيَّةً: هَاتِ! هَاتِ! وَعَسَاهَا أَنْ تَكُونَ مِنْ وَحْيِ شَيْطَانِكَ يَوْمَ صِفِّينَ، وَجِدْعَةً كَخِدْعَةِ رَفْعِ الْمَصَاحِفِ... يَعْنِي مُوَفَّقَةً...

قَالَ عَمْرُو: أَتَأْخُذُهَا عَلَيَّ وَبِهَا أَتَقْدِّتُكَ وَبِوَأُتُّكَ عَرَشَكَ، وَجَمَعْتُ بِهَا عَلَيْكَ مَا هُوَ مُجْتَمِعٌ فِي يَدَيْكَ مِنْ أَشْبَابِ الْمُلْكِ، وَمُحْتَبِكٌ عَلَيْكَ مِنْ مَظَاهِرِ السُّلْطَانِ؟
قَالَ: كَأَنْتَ مِنْ أَجْلِ دُنْيَا جَزِينَاكَ عَلَيْهَا بِدُنْيَا، وَمَا أَظُنُّنِي بِخَشْشَتِكَ الْأَجْزِ.
وَكَسَرَ جَفْنَ عَيْنَيْهِ الْيُسْرَى، وَكَانَ لَا يَفْعَلُ هَذَا إِلَّا «وَهُوَ يَتَخَذِي» وَمَا يَجْهَلُ عَمْرُو مِنْهُ ذَلِكَ.

فَقَالَ وَسَمِعَتْهُ رَهْبَةً: رُوَيْدَكَ، إِنِّي لَا أَتَخَذَاكَ وَإِنَّمَا ظَنَنْتُكَ تَغْمِزُ عَلَيَّ...

فَضَحِكَ مُعَاوِيَةُ وَقَدْ أَدْرَكَ سِرَّ رَهْبَتِهِ، وَقَالَ:

لَكَ الْعُتْبَى يَا عَمْرُو حَتَّى تَرْضَى. وَهَلْ مِثْلُكَ يُنْخَسُ قَدْرُهُ وَيُرْوَعُ؟ وَإِنَّمَا قَصَدْتُ مَذَاعِبَتَكَ فَلَا تَتْرِبَ عَلَيْكَ. لَطَالَمَا خَدَمْتُ آلَ أَبِي سُفْيَانَ، فَلَسْتُ أُنْسَى بِالْأَمْسِ كَيْفَ أَنْقَذْتَنِي وَكَانَتْ لَكَ يَدٌ عِنْدِي، وَأَنَا أُعْرِفُ الْيَوْمَ تَأْتِيكَ لِإِنْقَاذِ يَرِيدَ وَلَدِي، وَهِيَ يَدٌ لَكَ عِنْدَهُ لَيْسَ يَنْقُصُهَا.

قَالَ عَمْرُو: حُمَادُكَ، فَإِنِّي عِنْدَ ظَنِّكَ... رَأَيْتُ أَنْ تَشْتَدِّجَ آبَنَ سَلَامٍ بِالْأُلْطَافِ «وَكِرَائِمِ الْأَمْوَالِ وَالْخَلِيعِ»، وَتُرِيَهُ جَانِبَ الْوُدِّ مِنْكَ، وَتُعْرِِيَهُ بِرِيَارَتِكَ وَالْقُدُومِ عَلَيْكَ...

قَالَ مُعَاوِيَةُ: وَبَعْدُ؟

قَالَ عَمْرُو: ذَلِكَ عَلَيَّ حِينَهُ...

*

فَصَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ مِذَاقَتَرْنَ بِأُرَيْبِ، وَهُوَ يَرَى حُلْمَ سَعَادَتِهِ يَنْتَشِرُ لِيَجْتَمِعَ فِي حُدُودِهَا، فَأَحْلَاهَا مِنْهُ مَحَلُّ الْقَلْبِ، فَكَانَ إِذَا خَلَا إِلَى قَلْبِهِ وَجَدَ أُرَيْبِ، وَإِذَا خَلَا إِلَى أُرَيْبِ وَجَدَ قَلْبَهُ. وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَقُولُ لَهَا: لِيَخِيلُ إِلَيَّ أَنَّكَ لَسْتَ سِوَى قَلْبِي مُصَوَّرًا، وَشَاءَ أَنْ يَتَجَسَّدَ فِي شَكْلِ بَنَاتِ الْحُلْدِ، فَيُرِيَنِي كَمَ هُوَ سَعَادَةٌ، وَكَمْ يَجِبُ أَنْ أَكُونَ بِهِ سَعِيدًا. لَوَدِدْتُ يَا أُرَيْبِ أَنَّي أَتَحَوَّلُ هَالَةً فِي أَبَدِيَّةِ عَيْنَيْكَ الْفَاتِنَتَيْنِ... أُرَيْبِ! آوِ أُرَيْبِ!...

آوِ يَا مَا أَسْعَدَ الْأَزْوَاجَ إِذَا كَانَ لِكُلِّهِمْ مِثْلُ أُرَيْبِ!...

وَكَانَتْ أُرَيْبِ لَا تَقِلُّ عَنْهُ إِحْسَاسًا بِسَعَادَتِهَا بِهِ، فَقَدْ عَاطَتْهُ مِنْهَا أَيْضًا مِثْلَ عَوَاطِفِهِ فَقَالَتْ: أَوْ قُلْ مَا أَسْعَدَهُنَّ حَقًّا إِذَا كَانَ لِكُلِّهِنَّ مِثْلُ عَبْدِ اللَّهِ.

قالت له صباح يوم، وقد قَطَفَا أَوَّلَ إِشْرَاقَةِ مِنَ شُعَاعَةِ الشَّمْسِ: لا أَدْرِي
لِمَاذَا؟ لِمَاذَا يُعَاوِدُنِي فِي أَقْصَى هَوَاجِسِي الْعَمِيقَةِ الْحَقِيقَةِ مُنْذُ لَيَالٍ، أَنْتَ لَمْ تَعُدْ لِي،
وَتَعْتَادُنِي طُيُوفَ حَبِيبَتِهِ أَظْلُ مِنْهَا فِي رَهْبَةٍ؟ وَتَعَلَّقْتُ بِهِ. إِنِّي خَائِفَةٌ.

تَرَفَّرَتْ فِي عَيْنَيْهَا ذَمَعَتَانِ كَبِيرَتَانِ، تَرَاخَتْ إِحْدَاهُمَا سَاقِطَةً، وَاسْتَفْسَكَتِ
الْأُخْرَى مُتَبَلِّوَرَةً بَيْنَ جَفَتَيْهَا اللَّذَيْنِ كَانَا فِي نِصْفِ إِغْمَاصَةٍ، فَأَهْوَى يَضُّعُهَا إِلَيْهِ
ضَمًّا عَنِيْفًا كَأَنَّهُ يُحَاذِرُ، فَقَدْ عَرَاهُ مِثْلُ هَاجِسِهَا أَوْ سَرٍّ مِنْهُ، عَرَاهُ أَنَّ هُنَاكَ مَنْ
يُحَاوِلُ اخْتِطَافَهَا، فَهوَ يَشُدُّهَا إِلَيْهِ، يَضُّ بِهَا وَيَقْتَدِيهَا.

اسْتَوَيَا فِي مَقْعَدِهِمَا، ثُمَّ لَمْ يَخْطُوا إِلَّا قَلِيلًا فِي حَدِيقَةِ الْقَصْرِ، حَتَّى اسْتَأْذَنَ
حَامِلُ الْبَرِيدِ يُسَلِّمُهُ كِتَابَ الْمَلِكِ.

اسْتَطِيرَ فَرَحًا، وَاسْتَحَفَّهُ الْإِنْعَامُ الْمَلِكِيُّ عَلَيْهِ، وَكَانَ مُفَاجِئًا حَتَّى لَقَدْ ذَهَلَ
عَنْ أَنَّهُ يُعَاذِرُ زَوْجَتَهُ الْحَقِيقَةَ عِنْدَهُ، دُونَ أَنْ يُلْقِيَ عَلَيْهَا نَظْرَةً وَامِقَةً تُشِيرُ إِلَى أَنَّهُ
سَيَعُودُ إِلَيْهَا، بَعْدَ مُثَعَّةٍ قَصِيرَةٍ بِالنَّظَرِ إِلَى مَا أَهْدَى إِلَيْهِ.

وَقَفَتْ تَنْظُرُ بِاهْتَةٍ وَعَاوَدَتْهَا هَوَاجِسُهَا. فَلَمْ تُطِيقْ وَقُوفَهَا طَوِيلًا، فَانْسَدَّتْ إِلَى
مَقْعَدٍ قَامَتْ مِنْ فَوْقِهِ مُتَعَانِقَاتُ «البواري» فِي شَكْلِ جَعَلَ مِنْهُ وَكَانَ عَاشِقَيْنِ أَوْ
طَائِرَيْنِ حُبٍّ. وَقَالَتْ تُنَاجِي نَفْسَهَا: آه! لَقَدْ وَقَعَ مَا كُنْتُ أَهْجِسُ بِهِ فِي خَاطِرِي،
وَالَّذِي كَانَ يَحِيكُ فِي صَدْرِي مِنْ وَسَاوِسٍ؛ لَيْتَ الْهَدَايَا الَّتِي اسْتَحَفَّتُهُ كَانَتْ عِنْدَ
قَدَمِي لِأَطَّأَهَا مُسْتَحَفَّةً بِأَنْفَسٍ مَا فِيهَا، وَلَا أَقْطَعُ عَلَى نَفْسِي لِحْظَةً قَلْبٍ كَانَ يَخْفِقُ
فِيهَا بِمَغْنَى الْحُبِّ، وَهُوَ كُلُّ الْحَيَاةِ وَكُلُّ السَّعَادَةِ...

اتَّسَعَّ لَهُ عَيْنِي هَدَايَا حَقِيرَةٍ؟! مَهْمَا بَلَغَتْ نَفَاسَتُهَا، فَلَنْ تَكُونَ إِلَّا حَقِيرَةً
بِجَنْبِ مَا هُوَ دُونَ حَسَنَةِ طَائِرٍ مِنْ نَشْوَةٍ مَا كُنَّا فِيهِ، بَلْ بِجَنْبِ خَلْجَةٍ رَاعِشَةٍ مِنْ
تِلْكَ الْخَلْجَاتِ الْمُفَعَّمَةِ...

الآن فقط، بدا لي طفلاً تفتنه لُعبة عن لُعبة، ويأخذ أَيْما وَقَعَ عليه بكلِّ بَصَرِهِ. لم يكن إذاً إلّا طفلاً، ولم أكن، كُلُّ هذا الوقت، سوى لُعبة كَبيرة يَلهو بها دُميَّة، ودُميَّة حَيَّة تَمْتَع قَلْبُهُ الباردة بحرارة أنفاسها المنداة... وهؤلاء الذين يَرَوْنَ المِزاة دُميَّة ذات حرارات، هم باردو القلوب، وإنما يَطْلُبون فيها الأَصْطِلَاء والدَّفء فقط، أما أنا، وأُحسُّ بقلبي مُشْتَعِلاً، فأريدُ قَلْباً مُشْتَعِلاً أيضاً يَفْتِنَانِ على بَعْضِهِما في تَلَهَّبٍ جَميعاً...

أُفُّ للرجُل! إنّه طِفْلٌ في حِسِّ القَلْبِ ولا يَريدُ، ثُمَّ لا يَشْعُرُ مِنَ العاطِفَةِ إلّا على مِقدارِ العَبَثِ، وَلَيْسَتْ لِلأَشْيَاءِ قِيَمَةٌ عِنْدَهُ، إلّا على قَدْرِ ما تَمْلِكُ من إِيحاءِ اللّهُوِ عليه وتُشيعه فيه.

لا، لا لَسْتُ أَرْضَى أَنْ أَكونَ عِنْدَهُ مَتاعاً صِنُوَ هذه الهدايا، بلْ خَيْلَ إِلَيَّ أَنِّي أَحَقُّ مِنْهَا في نَظَرِهِ. فغادَرَنِي يَخْفُ إِلَيْهَا، وَلَمْ يَتْرُكْ، عِنْدَ مَوْقِفِنَا، نَظْرَةً أَشْغَلَ بِهَا حَتَّى يَوُوبَ، إِنَّهَا أَخَذَتْ بِكُلِّ هَوَاهُ، حَتَّى لَمْ أَغْدُ شَيْعاً أَذْكَر...

أُفُّ للرجُل! إنّه في دُنْيا القَلْبِ طِفْلٌ، وأيضاً طِفْلٌ ذو طَبعٍ بَلِيدٍ خَشِين...

يا لَكَ مِنْ هَدَايا مَشْؤومَةٍ! إِنَّكَ هَدَايا فيكَ كُلُّ ما في السُّمومِ من رُوحٍ، وَكُلُّ ما في الأَفاعي مِنْ مَعْنَى مُخِيفٍ وَوُجُودٍ رَاعِبٍ... وما يُدْرِينِي فَلَعَلَّهَا حَبَائِلُ وَشَباكٌ مَنسُوجَةٌ من حُمَمَاتِ العَقَارِبِ وَأُوبارِها... وما هُوَ حَتَّى رَأَتْهُ مُقْبِلاً مُغْتَبِطاً، تَشيعُ الابْتِسَامَةُ المَشيعَةُ الضَّاحِكَةُ في وَجْهِهِ، يَحْمِلُ بَيْنَ يَدَيْهِ كَرائِمَ الجَوْهَرِ وَغُقُودَ اللَّالِيَةِ البَعِيدَةِ الشُّطُوعِ، المَتَمَاوِجَةِ بالسَّنى والسَّناء، يَقُولُ وهو يُقَلِّبُها في كَفِّهِ:

إِلَيْكَ! إِلَيْكَ! لَقَدْ جَاءَتْ كَأَنَّها تَقُولُ: كُنْتُ جَوْهَرَةً يَتِيمةً حَتَّى وَجَدْتُكَ! أما تَسْمَعِينَ؟ أما تَسْمَعِينَها؟... وراحَ في تَشْوَةِ ضاحِكَةٍ، وَلَكِنَّها ظَلَّتْ جامِدةً لا تُحِيرُ جَواباً. فَبِهَتْ وَغَرَاهُ خَدَرٌ كالدُّهولِ، فَاسْتَرْخَى كَفَّاهُ، وَتَساقَطَ ما آسَتوى

عَلَيْهِمَا مِنْ دُرِّي الْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ، وَهُوَ لَمْ يُحَسِّ. وَكَانَتْ تَنْظُرُ وَتَرَى، فَالَمْتُ بِمَا
عَرَاهُ فَأَعْتَبَطْتُ، وَلَمْ تَلْبَثْ حَتَّى أَخَذْتُهُ بَيْنَ ذِرَاعَيْهَا نَشْوَى.

عِنْدَ شُرُفَةِ الصَّبَاحِ، بَعْدَ أَيَّامٍ، حَيْثُ كَانَا وَاقِفَيْنِ يَنْظُرَانِ إِلَى الْأَفْقِ الْبَعِيدِ،
قَالَ، وَهُوَ يَحْسِبُ بَعْضاً مِنْ أَنْفَاسِهِ الَّتِي أَحَسَّ أَنَّهَا تَخْرُجُ جُمْلَةً ثُمَّ لَا تَعُودُ:

لَعَلِّي لَا أَغِيبُ عَنْكَ طَوِيلًا، وَسَوْفَ... قَالَتْ مُرْتَعِدَةً:

تَغِيبُ عَنِّي؟ مَاذَا تَقُولُ؟ وَمِلَى أَيْنَ؟

قَالَ: رَأَيْتُ مِنْكَ، يَوْمَ الْهَدَايَا، أَنَّكَ غَيْرُ مُعْتَبِطَةٍ فَلَمْ أَخْبِرْكَ. جَاءَ فِي كِتَابِ
الْمَلِكِ أَيْضًا أَنَّهُ يَغْرِمُ عَلَيَّ بِالْحُضُورِ، وَلَا أَذْرِي لِمَاذَا؟ هَدَايَا مُفَاجِئَةٌ وَدَعْوَةٌ مُفَاجِئَةٌ!
وَلَكِنِّي أَظُنُّ أَنَّ سَعَادَتِي بِكَ جَذَبَتْ إِلَيَّ سَعَادَةً أُخْرَى... وَرَبَّتْ عَلَى كَيْفِهَا.

إِنْتَفَخَتْ أَوْدَاجُ أَرْيَنَبَ، وَغُصَّتِ الْكَلِمَاتُ فِي حَلْقِهَا، وَلَكِنِّهَا حَوَّلَتْهَا
كَأَنَّهَا تَلُوكُ حُرُوفَهَا لَوْكَا:

أُيْثُهَا النَّفْسُ أَجْمَلِي جَزَعًا فَإِنَّ مَا تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا

فَقَالَ يُدَاعِبُهَا: هَذَا قَوْلُ أَوْسَ بْنِ حَجَرٍ يَزُتِي بِهِ. وَهَا أَنَا فَجَسِي يَدِي...
قَالَتْ، وَوَضَعَتْ يَدَهَا عَلَى فَمِهِ تَأْخُذُ عَلَيْهِ سَبِيلَ الْاسْتِمْرَارِ، فَقَدْ أَرْهَبَهَا مَا ذَهَبَ
إِلَيْهِ ظَنُّهُ وَلَوْ مُدَاعَبَةً:

إِنِّي لَسْتُ أَزُتِي سِوَى نَفْسِي إِلَى نَفْسِي... وَحَاوَلَ الْكَلَامَ فَقَطَعَتْهُ عَلَيْهِ
بَقَوْلِهَا: لَسْتُ مُعْتَبِطَةً بِسَفَرِكَ، وَبِوَدِّي أَنَّكَ لَا تَذْهَبُ، بَلْ بِوَدِّي أَنْ تَزُدَّ عَلَيْهِ عَمَلُهُ
وَتَقْتَرَلَ. فَلِي مِنْ أَمْوَالِي الْكَثِيرَةِ وَدُنْيَايَ مَا يُغْنِيكَ عَنْ أَمْوَالِهِ وَدُنْيَاهُ، وَلَكَ مِنْ
سَيَادَتِكَ وَنَشَبِكَ مَا يُغْنِيكَ عَنِ التَّسْوُدِ بِهِ.

إِنَّهُ يُزْهِنِي! إِنِّي لَا أَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ، وَبِهِ تُحِيطُ عِصَابَةٌ لَا أَذْرِي بِمَاذَا أَنْعَتْهَا...

إِنْتَزَعَهَا مِنْ لِسَانِهَا كَلِمَةً: إِنَّهَا دَمَوِيَّةٌ تَجْرِي وَرَاءَ شَهَوَاتِ حَمَرَاءٍ، ثُمَّ لَا يَحُولُ بِهَا عَنْهَا شَيْءٌ مِنْ عَارِفَةٍ أَوْ قَانُونٍ.

قَالَ: هُوَ ذَاكَ؛ وَلَكِنِّي لَا أَذْرِي كَيْفَ أَرُدُّ عَلَيْهِ. إِنَّ هِيَ إِلَّا أَيَّامٌ قَصِيرَاتُ الْمَدَى، أَعُودُ إِلَيْكَ عَلَى أَثَرِهَا، وَأَصِيرُ إِلَى رَغْبَتِكَ بِاعْتِزَالِ عَمَلِهِ... وَلَكِنَّهَا ظَلَّتْ تَوَعَّبُ إِلَيْهِ أَنْ لَا يَزْجَلَ، وَحَانَتْ مِنْهَا لَفْتَةٌ فَرَأَتْ أَفْرَاسَ الْبَرِيدِ جَاءَتْ تَحْمِلُهُ؛ فَلَمْ تُطِلْ تَرَاهُ يَسِيرُ، فَذَهَبَتْ تَذْفِئُ وَجْهَهَا فِي رَاحَتَيْهَا، وَتُجْهِشُ كَأَنَّمَا هِيَ مُنْخَرِطَةٌ فِي نَشِيجِ مَرِيرٍ، وَرَدَّدَ عَبْدُ اللَّهِ، وَقَدْ تَمَادَى بِهِ الْمَسِيرُ، وَلَفَّهَ قَتَاؤُ الرُّكْبِ.

وَكَمْ تَشَبَّهَتْ بِي يَوْمَ الرُّوحِيلِ ضُحَى وَأَذْمَعِي مُسْتَهْلَاتٍ وَأَذْمَعُهُ أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ فِي بَغْدَادَ لِي قَمَرًا بِالكَرْخِ مِنْ قَلِّكَ الْأَزْرَارِ مَطْلَعُهُ وَدُغْغُهُ وَبِرْدِي لَوْ يُودُّعُنِي صَفْوُ الْحَيَاةِ، وَأَتِي لَا أُوَدِّعُهُ...

*

كَانَ عِنْدَ مُعَاوِيَةَ، بَعْدَ أَيَّامٍ لَمْ تُكُنْ طَوِيلَةً، فِي غَيْرِ حِسِّ أُرَيْبٍ وَحِسَابِ عَبْدِ اللَّهِ، فَتَلَقَّاهُ بِالْأَلْطَافِ وَالْأُنْسِ النَّاعِمِ، فَعَجِبَ كَثِيرًا وَفَكَّرَ كَثِيرًا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَهْتَدِ لَوَجْهِ الْأَمْرِ، وَتَحَيَّرَ بِهِ تَقْدِيرُهُ، فَلَمْ يَطْمَئِنَّ إِلَى أَيِّ وَجْهِ أَنْصَرَفَ إِلَيْهِ. بَيَدَ أَنَّهُ مَعَ ذَلِكَ كَانَ مُعْتَبِطًا، وَتَزَايَدَ بِهِ الْإِعْتِبَاطُ إِزَاءَ مَا يَلْقَى مِنْ خِفَاوَةٍ وَآخِرَامٍ وَرِعَايَةٍ مَقَامٍ، حَتَّى لَمْ يَعُدْ يُفَكِّرُ بِشَيْءٍ إِلَّا أَنَّهُ مَخْلُوقٌ جَدِيدٌ لَا عَهْدَ لَهُ بِالزَّمَنِ.

لَمَسَ صِدْقًا فِي كُلِّ مَا يَلْقَاهُ مِنْ مَظَاهِرٍ، وَبَاتَ أَمِلًا بِشَيْءٍ لَمْ يَذَرِ كُنْهَهُ، إِلَّا أَنَّهُ وَجَدَ بُشْرَى عَلَى أَيِّ حَالٍ. لَمْ يَكُنْ يُرَى إِلَّا مَدْعُوًّا إِلَى مَجَالِسِ أُنْسٍ مُعَاوِيَةَ، وَأُنْدِيَةِ السَّمَرِ الْغَزَلِيَّةِ، وَإِلَّا مُنْتَشِيًا عَلَى مِثْلِ الطُّيُوشِ فِي لِيَالِي الْقُصُورِ الشَّرْقِيَّةِ الْمَاجِنَةِ، الَّتِي كَانَتْ ذَاتَ نَسَبٍ قَرِيبٍ بَلْبَالِي أَلْفِ لَيْلَةٍ فِيمَا بَعْدَ، الْغَارِقَةِ فِي أَخْلَامِ الشَّهَوَاتِ الْمُعْرِبَةِ.

إِسْتَيْقَظْتُ فِي نَفْسِ آبْنِ سَلَامٍ صَبُوءٌ لَمْ يَكُنْ يَعْهَدُهَا، صَبُوءٌ مِنْ نَوْعِ
الصَّبَوَاتِ الْحَادَّةِ، فَلَمْ يَغْدُ يُفَكِّرْ فِي مَدَى أَنْطِلَاقِهَا إِلَّا بِإِزْوَائِهَا، وَدَارَتْ فِيهِ نَهْمَةٌ
كَأَنَّهَا أَنْفَطَرَتْ مِنْ طَبِيعَةِ الظُّمَأِ. فَقَدْ هَبَطَ مِنْ فِرْدَوْسِ الْحُبِّ الْقَلْبِيُّ السَّعِيدِ،
أَنْبَعَثَتْ حَيَاثَةً عَلَيْهِ، نَزَوَاتٌ كَانَ يَكْبُثُهَا الْقَلْبُ فِي نَشْوَاتِهِ الْعَبَقَرِيَّةِ الْإِلْتِهَابِ،
الْمُتَلَطِّئَةِ بِالشُّعْلِ الْحَمْرَاءِ.

كَانَ فِي هَذَا الْجَوْ الْخَفَرِيِّ اللَّذَاتِ الْمَهْوُودِ بِخَمَائِلِ الشَّهَوَاتِ، مَا أَحَالَ
أُرَيْيْبَ، فِي جَوْ نَفْسِهِ، إِلَى ذِكْرِ مِنَ الصَّبَابِ لَمْ تَزَلْ تَتَأَبَّدُ وَتَحْتَجِبُ، وَعَادَ لَا
يَذْكُرُ إِلَّا مَا هُوَ فِيهِ، وَتَمَتَّى لَوْ طَالَ أَمَدُ هَذِهِ الْمُتَعَةِ اللَّازِوَرْدِيَّةِ فِي لِسَانِ اللَّهَبِ،
وَتَشَهَّى أَنْ لَا تَنْقُضِي، وَكَانَ مُنْذُ قَرِيبٍ لَا يَسْتَطِيعُ سَاعَةً بُعَادٍ عَنْ أُرَيْيْبِ مَهَاتِيهِ
النَّابِضَةِ بِالطُّهْرِ فِي وَثَبَاتِ الْحُبِّ الْقَلْبِيِّ الْخَالِصِ...

إِنَّهُ أَسَفٌ مُنْخَدِرًا إِلَى مُحِيطٍ مِنَ الْحَمَاقَةِ الْبَعِيدِ الْقَرَارِ، وَأَصْفَتْ عَلَى نَاطِرِيهِ
الْوُحُولُ فَلَمْ يَغْدُ يَرَى، وَأَتَمَّا بَاتَ يُحِسُّ فِي طَرَاوَةِ الْوُحُولِ نُعُومَةَ الرُّبْدِ، فَرَاخَ يَهِيمُ
فِي خَيَالِ الْوُحُولِ.

إِنَّ الْحُبَّ فِي حَقِيقَتِهِ رَغْبَةٌ بِالْإِسْتِحَالَةِ، وَيَتَغَيَّرُ آخَرُ رَغْبَةٍ فِي التَّحْوِيلِ،
وَلِمَكَانِ الشُّعُورِ بُجُودِ الذَّاتِ يَذْهَبُ الْكَائِنُ، إِذَا صَدَمَ مَشَاعِرَهُ أَنْفِعَالٌ خَدِيدٌ
كَأَنْفِعَالَاتِ اللَّذَّةِ عَلَى أَنْوَاعِهَا، يُحَاوِلُ الْإِسْتِحَالَةَ بِهَذَا الْإِنْفِعَالِ إِلَى وُجُودِ شُعُورِيٍّ
آخَرَ، وَلَا يَزَالُ يُبَالِغُ، تَحْتَ تَأْثِيرِ هَذَا الْإِنْفِعَالِ الَّذِي يَتَزَايَدُ وَضُوحًا، رَغْبَةً بِالْإِسْتِحَالَةِ
حَتَّى يَطْلُبَ مُلَاشَاةَ كِيَانٍ فِي كِيَانٍ، حِينَمَا تَشْتَوِي هَذِهِ الرَّغْبَةُ فِي الْأَعْصَابِ،
وَكُلَّمَا زَادَتْ تَمَكُّنًا وَأَسْتِوَاءً زَادَ الْكَائِنُ نَهْمًا، وَهَذَا الشُّعُورُ هُوَ الَّذِي أَنْطَقَ آبْنُ
الرُّومِيِّ بِقَوْلِهِ:

أُعَانِقُهَا وَالنَّفْسُ بَعْدُ مَشُوقَةٌ إِلَيْهَا، وَهَلْ بَعْدَ الْعِنَاقِ تَدَانِي؟

وَأَلَيْسَ فَاها كَي تَزُولَ صَبَابَتِي فَيَشْتَدُّ مَا أَلْقَى مِنَ الْهَيْمَانِ

كَأَنَّ فُؤَادِي لَيْسَ يَشْفِي غَلِيلَهُ سِوَى أَنْ يَرَى الرُّوحَيْنِ تَمْتَرِجَانِ

فالحُبُّ البقائي، أو الرُّوجي، رَغْبَةٌ بالاستِحَالَةَ فِي الْوَلَدِ، وَالْحُبُّ الاستِغْلَائِي رَغْبَةٌ بالاستِحَالَةَ فِي الْعَاطِفَةِ فِي الذَّاتِ الْعَلِيَّةِ؛ فِي الرُّبَانِيَّةِ فِي اللَّهِ، وَالْحُبُّ الشَّهْوِي رَغْبَةٌ بالاستِحَالَةَ فِي الشَّهْوَةِ.

وَإِذَا كَانَتْ رَغْبَةُ الاستِحَالَةَ فِي كُلِّ الْوُجُودِ، ففِي طَبِيعَةِ الْوُجُودِ إِذَا طَبِيعَةُ الْحُبِّ، بَلِ الْبَقَاءِ لِحَظَاتٍ مُتَوَاصِلَةٍ مِنْ رَغْبَةِ الاستِحَالَةِ، وَاسْتِحَالَاتٍ بِالْفِعْلِ، فَإِذَا انْقَطَعَتْ تَقَلَّصَتْ أَشْبَابُ الْبَقَاءِ، وَذَهَبَ مُضْمَجَلًّا.

تَمَلَّكَ آيَنَ سَلَامٍ، فِي لِيَالِي الْقَصْرِ الْمَشْخُورِ، أَنْفِعَالَاتٍ حُبِّ شَهْوِي طَلَبَ مَعَهَا التَّمَادِي فِي دُنْيَا الشَّهَوَاتِ، وَامْتَلَأَ رَغْبَةً بِالتَّعَرُّفِ إِلَى كُلِّ فُنُونِهَا وَفُنُونِهَا، وَشَتَّى أَلْوَانِهَا.

فِي لَيْلَةٍ مَاتِعَةٍ مِنْ لِيَالِي الْقَصْرِ الرَّاهِيَةِ الْعَبْقَةِ، أَذْنَاهُ مُعَاوِيَةُ مِنْهُ، وَعَاطَاهُ حَدِيثًا مُذَهَّبَ الْأَطْرَافِ، مُغْرِي الْبَدَوَاتِ، وَقَالَ لَهُ فِيمَا قَالَ:

هَلْ لَكَ زَوْجَةٌ؟

قَالَ: نَعَمْ... فَضَرَبَ يَدًا عَلَى يَدِهِ، وَأَصَابَ وَجْهَهُ بِبَعْضِ يَدِهِ، فَمَالَ عَلَى أَذُنِهِ عَمْرُو، وَقَدْ أَظْهَرَ أَنَّهُ اعْتَمَّ مِنْ إِيَابِيهِ، وَسَارَهُ:

يَا عَبْدَ اللَّهِ، إِنَّ الْمَلِكَ أَرَادَ أَنْ يُزَوِّجَكَ ابْنَتَهُ لِمَا عَرَفَ مِنْ شَرَفِكَ، «وَأَنْتَ تَعْرِفُ أَنَّ بَنَاتِ الْمُلُوكِ لَا تَدْخُلُ عَلَى ضَرَائِرَ».

فَقَالَ لِعَمْرُو: كَيْفَ الْحِيلَةُ؟

قَالَ لَهُ: إِذَا دَخَلْتَ غَدًا وَسَأَلْتَكَ، «فَقُلْ لَيْسَ لِي زَوْجَةٌ فَقَدْ طَلَّقْتُهَا»

وَأَشْهَدْتُ أبا هُرَيْرَةَ وأبا الدُّرْدَاءِ... بَاتَ لَيْلَتُهُ أَرْقًا، فَقَدْ اسْتَيْقَظْتُ ذِكْرَى أُرَيْبٍ
الْغَافِيَةِ فِي أَعْمَاقِ نَفْسِهِ قَوِيَّةً عَنِيفَةً، وَأَخَذَتْهُ طُيُوفُهَا الْبَادِيَةُ كَالْمَلَائِكِ فِي أَثْوَابِ
طَهَارَتِهَا...

فَرَّاحٌ يَتَمَتُّمٌ: أَنَا أَخُونُهَا. أَنَا؟ كَلَّا يَا مَلَاحِي! لَنْ أَفْعَلَ مِنْ أَجْلِ شَهَوَاتِ
رَعْنَاءٍ تَذُوبُ لَذَائِهَا سَرِيعًا، وَتَبْقَى آلَمُهَا مُسْتَطِيرَةً مُسْتَفْجِلَةً... وَإِذَا بِهِ يَبْدُو
مُبْتَسِمًا، فَقَدْ بَارَكَهُ طَيْفُهَا، وَلَكِنْ لَا يَلْبِثُ حَتَّى تَسْتَجِيشَ بِهِ شَهَوَاتُ مَوَارَةِ، تُرْبِيهِ
الدُّنْيَا وَالسَّعَادَةَ، بَلْ وَالْخُلْدَ فِي حُدُودِهَا، وَتُطْلِعُ لَهُ رُؤُوسَ فُتُونِهَا، فَيَسْتَرْخِي وَهُوَ
يَرَى السُّلْطَانَ وَالْجَاةَ وَكِبْرِيَاءَ الْحُكْمِ تَغْنُو أَمَامَ قَدَمَيْهِ، إِذَا اسْتَجَابَ إِلَى مُعَاوِيَةَ،
وَرَضِي مِنْهُ بِالْأَقْتِرَانِ إِلَى آئِنَتِهِ... وَتَمَتَّمَ:

حَسْبُ أُرَيْبٍ بِكُرْنَا خَالِدٌ، وَأَنَا إِذَا طَلَّقْتُهَا فَلَمْ أَفَارِقْهَا وَإِلَى الْأَبَدِ، فَصِلَةٌ
بَيْنَنَا أَبَدًا وَلَيْدُنَا الْعَزِيزُ... وَصَمَتَ قَلِيلًا، وَعَادَ يُنَاجِي نَفْسَهُ:

وَأَنَا إِذَا فَعَلْتُ، أَلَسْتُ أَخُونُ خَالِدًا أَيْضًا فَوْقَ خِيَانَتِي أُمِّهِ؟ أَلَسْتُ أَكُونُ قَدْ
دَفَعْتُهِ إِلَى الْحَقْدِ عَلَيَّ؟ وَكَيْفَ أَطِيقُ هَذَا، وَلَوْ فِي النَّصُورِ وَالْخِيَالِ؟ إِنَّنِي لَا أَطِيقُ...
وَبَدَا لَهُ طَيْفٌ وَلَدِيهِ خَالِدٍ فِي طُفُولَتِهِ السَّادِجَةِ بِالْحُبِّ، كَأَنَّهُ يَزُجُو أَنْ لَا يَفْعَلَ،
وَسَاوَرَتْهُ عَاطِفَةٌ قَلْبِهِ مُسَاوَرَةً، فَصَرَخَ مَعَهَا:

لا. لا. لَنْ أَفْعَلَ... وَاسْتَعْرَقَ فِي لَحْظَةٍ تَهْوِي أَنْكَشَفَتْ لَهَا فِيهَا زَوَايا الْمَجْهُولِ
مِنْ الْمُسْتَقْبَلِ، ثُمَّ اسْتَفَاقَ وَعَلَى لِسَانِهِ:

أَلَيْسَ فِي هَذَا التَّسْوُدِ الشَّامِخِ مَا يَخْدِمُ وَلَدِي فِي مُسْتَقْبَلِ أَمْرِهِ؟ فَلَا شَكَّ فِي
أَنَّهُ يَغْفِرُ لِي خِيَانَتِي، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ أُرَيْبَ تَغْفِرُهَا لِي أَيْضًا. فَأَصْبَحَ وَقَدْ عَزَمَ
عَلَى الْخِيَانَةِ يُعْلَلُ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ لَمْ يَخُنْهَا خِيَانَةً قَلْبٍ وَلِذَلِكَ هُوَ لَنْ يَنْسَاهَا، وَحَمَلَ
الْهَوَاءَ قُبْلَةَ وَدَاعٍ مِنْ بَعِيدٍ، فَهَذَا آخِرُ الْعَهْدِ بِأُرَيْبٍ...

وَتَعَرَّضَتْ لَهُ أَطْيَافٌ رَاقِصَةٌ مِنْ بَدَوَاتِ الْأَطْمَاعِ الْكُبْرَى، فَسَارَ فِي بَهْجَتِهَا
كَأَنَّهُ يَجْنَحُ طَائِرًا، وَكَانَ يَجْتَهِدُ أَلَّا يَذْكُرَ شَيْئًا، يَجْتَهِدُ أَنْ يَشْعُرَ أَنَّهُ مَخْلُوقُ الْيَوْمِ،
وَلَيْسَ لَهُ عَهْدٌ سَابِقٌ بِالْوُجُودِ.

سَارَ غَيْرَ مُثْقَلٍ بِأَيَّةٍ ذِكْرَى مِنَ التَّارِيخِ، وَأَيَّةٍ فِكْرَةٍ تَتَّصِلُ بِمَاضِيهِ، إِنَّهُ وَلِيدٌ
مُصَادَفَةٌ جَدِيدَةٍ، وَوَلِيدٌ بَهْجَةٍ جَدِيدَةٍ، يُقْبَلُ عَلَيْهَا بِمَا تَشَاءُ مِنْ بَهْجَاتٍ، فَكَانَ مِنْهُ
مَا أَشَارَ عَلَيْهِ بِهِ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ لِأَبِي الدَّرْدَاءِ وَأَبِي هُرَيْرَةَ:

«أَدْخُلَا عَلَى ابْنَتِي فَأُعْلِمَاهَا بِالْأَمْرِ عَلَى وَجْهِهِ... فَظَاهَرَتْ لَدَيْهِمَا
بِالْاهْتِمَامِ وَالشُّرُورِ، وَصَرَفَتْهُمَا لِتَسْأَلِ عَنْ دَخِيلَةَ أُمِّهِ «وَأَنْتِ عَلَى ابْنِ سَلَامٍ».

وَلَكِنْ ابْنُ سَلَامٍ شَعَرَ، فَوَزَّ طَلَاقَهُ أَرْثِيْبَ، أَنَّ مُعَاوِيَةَ لَمْ يَغْدُ لَهُ كَمَا كَانَ،
بَلْ عَدَا يَلْقَاهُ بِقُتُورِ نَفْسٍ، وَأَنْكِمَاشٍ تَرْجِيْبٍ، فَأَوْجَسَ سَرًّا «وَأَسْرَعَ إِلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ
وَصَاحِيهِ يَسْتَحِجُّهُمَا» فَاتِيَا ابْنَةَ مُعَاوِيَةَ، فَقَالَتْ:

«إِنِّهَا سَأَلَتْ عَنْهُ فَوَجَدَتْهُ غَيْرَ مُوَافِقٍ لِمَا تُرِيدُ... فَلَمَّا بَلَغَاهُ جُنَّ جُنُونُهُ،
وَأَسْقَطَ فِي يَدَيْهِ، وَعَلِمَ أَنَّهُ ذَهَبَ صَبِيحَةً خِدْعَةً لَعِيْمَةً لَيْسَ يَذْرِى غَايَتَهَا.

إِنْقَلَبَ إِلَى الدَّارِ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلزُّوْلَةِ، فَوَجَدَهَا تَعُجُّ بِالْأَشْبَاحِ الْمُخِيفَةِ، وَتَزْأُرُ
فِي مِثْلِ تَجَاوِبِ الذُّنَابِ، فَاسْتَطِيرَ دُغْرًا، وَمَشَى فِي أَنْفَاسِهِ هَلَعٌ نَكِيرٌ، فَفَرَّ يَغْدُو إِلَى
الْحَلَاءِ وَقَدْ أَنْطَبَعَتِ الْأَشْبَاحُ فِي عَيْنَيْهِ، وَالتَفَّتِ الْأَصْوَاتُ تَمُورٌ فِي أُذُنَيْهِ. فَرَاخَ
يُغْمِضُ عَيْنَيْهِ وَكَفَّاهُ عَلَى أُذُنَيْهِ يَجْرِي، إِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ لَا يَرَى وَلَا يَسْمَعَ، يُرِيدُ غَفْوَةً فِي
الدُّهُولِ وَلَا هَذِهِ الْيَقْظَةَ الْمَجْنُونَةِ. وَمَا اسْتَرْخَتْ كَفَّاهُ عَنْ أُذُنَيْهِ حَتَّى اسْتَعْوَى بِهِ
صَوْتٌ:

خَائِنٌ! خَائِنٌ! وَعَلَى يَدَيْكَ دِمَاءُ الْجَرِيْمَةِ، تَمْشِي عَلَيْهَا أَرْوَاحُ صَحَايَا ثَلَاثٍ:
قَلْبُ زَوْجَةٍ هِيَ تِمْنَالُ الْإِخْلَاصِ فِي الْحُبِّ، وَقَلْبُ غُلَامٍ هُوَ تِمْنَالُ طُفُولَةِ الْأَحْلَامِ

البريقَة البيضاء، والثَّالِثَة هِيَ قَلْبُكَ أَنْتَ...

بَعْدَ ذَلِكَ أَصْحَى يُنْطَلِقُ كَالَّذِي فَارَ فِي خَيَالِهِ جُنُونٌ، يُثْقَلُ الْوَاقِعَةُ، وَيَبُثُّ الشَّكَاةَ، وَيَنْشُرُ الطُّعْنَ نَثْرًا دُونَ رَهْبَةٍ أَوْ وَغْيٍ. وَتَسَامَعُ النَّاسُ بِالْحَبَرِ، وَعَلَّقُوا عَلَيْهِ بِأَشْمِئَزَائِهِ وَنُفُورِهِ، وَبَاتَ الْكَثِيرُ يُنْظَرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فِي شِفَاوِهِ مَقْلُوبَةٍ وَتَنَكُّرٍ، «وَهَكَذَا ذَاغَ أَمْرُهُ وَشَاعَ، وَتَنَاقَلَهُ النَّاسُ إِلَى الْأُمُصَارِ، وَتَحَدَّثُوا بِهِ فِي الْأَسْمَارِ». وَرَزَّوْا كَثِيرًا لَمَّا آتَاهُ إِلَيْهِ حَالُهُ، فَكُنْتُ لَا تَسْمَعُ فِي كُلِّ مَكَانٍ إِلَّا مَنْ يَقُولُ:

أَتَبْلُغُ الْقِحَّةَ بِهَذِهِ الْعِصَابَةِ حَدَّ التَّأْمِرِ بِسَعَادَةِ أُسْرَةٍ هَائِقَةٍ، تَمْرُخُ فِي حُبِّ وَتَسْرُخُ فِي وَارِفِ إِخْلَاصٍ، أَمَّا يَسْرُهَا يَوْمٌ، أَمَّا تَحُلُو لَهَا حَيَاةً، إِلَّا إِذَا وَلَعَتْ فِي دَمٍ أَوْ عَبَثَتْ بِكَرَامَةٍ، لَقَدْ عَدَّوْا أَقْدَارَ أَنْفُسِهِمْ، فَلَا يُرَوْنَ إِلَّا رَاقِصِينَ عَلَى الْأَشْلَاءِ، لَا هِينَ بِالْجَمَاجِمِ.

وَتَنَاهَتْ بِعَبْدِ اللَّهِ الْحَالَ إِلَى حَيِّزَةِ يَائِسَةٍ وَذُحُولِ شَقِيٍّ يَائِسٍ، ثَلَاجِقُهُ طُيُوفٌ وَتَتَنَكَّرُ لَهُ أَشْبَاحٌ، وَتَتَفَوَّرُ مِنْ حَوْلِهِ الْأَلَامُ، وَكَانَ لَا يَفْتَأُ يَقُولُ، يُنَاجِي نَفْسَهُ:

لَوَدِدْتُ أَنِّي أَفُوُّ إِلَى أَرِينَبَ، وَلَكِنْ هَيْهَاتَ! أَنَا الَّذِي نَكَبْتُهَا وَأَشَقَيْتُهَا، أَأَزِيدُهَا شَقَاءً يَوْجِهِي الَّذِي غَدَا يَمُتَالِ الْخِيَانَةَ الرَّوْجِيَّةَ عَلَى أَقْبَحِ صُورِهَا؟ فَلَا تَجْرُعْ آلَامَ قَلْبِي وَغُصَصَ ضَمِيرِي وَمَرَارَتِي وَحِيدًا مُنْعَزِلًا كَيْفَ أَعْتَذِرُ إِلَيْهَا؟ كَيْفَ أَسْتَغْفِرُ وَلَيْدِي الصَّغِيرَ؟...

رُحْمَاكَ رَبِّي وَحَنَانِيكَ! أَبْقِ اللَّهُمَّ عَلَى قَلْبِي لَا يَتَمَزَّعْ!

*

ظَلْتُ أَرِينَبَ، مُنْذُ غَادَرَهَا زَوْجُهَا الْحَبِيبَ، لَا تَشِيْعُ عَلَى شَفَتَيْهَا إِلَّا آتِسَامَةٌ مُتَمَاوِنَةٌ إِذَا أَلَحَّتْ عَلَيْهَا أَحَادِيثُ وَصِيفَاتُهَا بِالْإِتْسَامِ.

وَكَانَ الْإِكْتِابُ يَتَرَاتِدُهَا، يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، فِي إِحْسَاسٍ يُلِجُّ عَلَيْهَا بِهِوْلٍ

غامِضٍ تَشْعُرُ بِهِ فِي أَعْمَاقِهَا يُنْذِرُ بِالْوَيْلِ.

وَكَانَ لَهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ جَلْسَةٌ، تَارَةً عِنْدَ مَقْعَدِ أَصْطَبَاحِهَا فِي أَفْيَاءِ الْبَوَارِي
الْمُحَيَّمَاتِ، وَتَارَةً فِي شُرْفَةِ الْمَسَاءِ تُودِّعُ التَّهَارَ، وَتَسْتَقْبِلُ كَوَاكِبَ اللَّيْلِ تَبْشُّهَا نَجْوَاهَا
وَزَفَرَاتِهَا، وَتَتَوَلَّاهُ فِي وَقْفَةٍ إِلَى ذَوْبِ الشَّفَقِ الَّذِي كَأَنَّهُ ذَوْبُ قَلْبِهَا.

وَفِي يَوْمٍ، عَلَى عَادَتِهَا وَهِيَ فِي شُرْفَةِ الْمَسَاءِ، رَأَتْ عِنْدَ أَقْصَى الصُّحْرَاءِ،
الَّتِي تَسْتَرْخِي مُتَكَيِّفَةً عَلَى عَتَبَةِ دَارِهَا وَفِي فِنَائِهَا، قَافِلَةً كَأَنَّهَا مُقْبِلَةٌ مِنْ جَانِبِ
الشَّمَامِ، فَلَبِثَتْ تَنْشُدُ فِيهَا أَمَلَهَا، وَإِنْ لَمْ تَطْمَخْ بِهِ فَلَا أَقْلَ مِنْ أَنْ تَرُسَمَ هَذِهِ الْقَافِلَةُ
فِي نَفْسِهَا رُسُومًا مُبْهَمَةً، إِلَّا أَنَّهَا مُفْرِحَةٌ أَيْضًا، تَتَنَفَّسُ فِي فُؤَادِهَا بِنَدَى رَوِيِّ.
مَرَّتِ الْقَافِلَةُ تَحُبُّ تَحْتَ شُرُفِهَا، وَكَانَ حَادِي الْإِبِلِ يُشْجِي الرُّكْبَ بِصَوْتِهِ
الْعَذْبِ النُّعْمَاتِ:

أَرَيْنِبْ لَيْتَنِي وَسَدْتُ قَبْرًا وَلَمْ أَفْعَلْ، فَفِي الْأَحْشَاءِ نَارُ
«نَدِمْتُ نَدَامَةً الْكُسْعِيِّ لَمَّا عَدْتُ مِتِّي مُطْلَقَةً نُوَارُ»
يَطِيفُ عَلَى فُؤَادِي رُوحُ آهِ وَذَوْبُ أَسَى، وَفِي كَيْدِي أَنْفَاطُ
أَرَيْنِبْ، أَنْتِ ذِكْرِي مِنْ نَعِيمٍ وَمِنْ طَهْرٍ، وَمِنْ عَبَقِ يُنَارُ
أَرَيْنِبْ، هَلْ تَرِفُ عَلَيَّ دُنْيَا مِنْ الْأَحْلَامِ، هَلْ تُؤَبِّ يُعَارُ؟
ذَكَرْتُ وَفِي فُؤَادِي نَوْحُ بَاكِ هَوَانَا، وَالضَّمِيرُ بِهِ أَوَارُ
وَهَلْ قَدَّرَ يُطَالِعُنَا بِفَجْرِ وَيَمْرُخُ فِي مَسَارِجِهِ النَّهَارُ
فَتَسْقَدُ، وَالْأَصِيلُ لَهُ أَفْتِرَارُ وَنَشَى، وَالْعُدُوُّ لَهُ آزْدِهَارُ

فَسَقَطَتْ عَلَى نَفْسِهَا هَلْكَى. وَلَمْ تَكُ إِلَّا أَيَّامٌ مِنْ حُلُولِ الرُّكْبِ حَتَّى شَاعَ
خَبَرُ عَبْدِ اللَّهِ فِي الْعِرَاقِ، وَتَنَاهَى إِلَى سَمْعِهَا، فَلَمْ تُعُدْ تَعِي. وَكَانَتْ لَا تَرَى إِلَّا

مَوْلَاهُ حَتَّى عَنْ وَحِيدِهَا الْمَفْدَى. وَكَانَتْ لَا تَرَى إِلَّا مُعْتَنِقَةً لَهُ، تَشُدُّهُ إِلَيْهَا مُدْلَهَةً،
كَأَنَّهَا تَطْلُبُ فِيهِ رِيًّا، وَلَكِنَّهَا ظَلَّتْ ظِلْمًا، وَظَلَّتْ كَأَنَّهَا لَا هِنَةَ تَطْلُبُ النَّدَى
وَالرَّيَّ.

لَمْ تُطِيقْ بَقَاءً فِي الْعِرَاقِ بَغْدُ، فَقَدِ اسْوَدَّتْ نَوَاحِيهِ فِي نَوَاحِي نَفْسِهَا،
فَانْطَلَقَتْ بِحَشَمِهَا وَذَوِيهَا إِلَى الْمَدِينَةِ، تَطْلُبُ فِيهَا دُنْيَا جَدِيدَةً، تُغْرِى خَيَالَهَا فِي
أَنَّهَا أَصْبَحَتْ مَخْلُوقًا جَدِيدًا آخِضَرُ فِي نَفْسِهِ الْمَاضِي، وَالذُّكْرِيَّاتِ. رَثَتْ لَهَا نِسَاءُ
الْمَدِينَةِ، وَذَهَبْنَ يَوَاسِيَتَهَا بِكُلِّ مَا عِنْدَ الْمَوَاةِ مِنْ خِصْبٍ عَاطِفَةٍ، وَالنِّسَاءِ يُحْسِنْنَ،
بِالْمَاسِي بَنُوعٍ خَاصٍّ، مُكَبَّرَةً ذَاتِ مُبَالَغَاتٍ، وَفِي شُعُورِهِنَّ شُيُوعٌ، فَهِنَّ يُحْسِنْنَ
بِأَنْفُسِهِنَّ فِي كُلِّ مَأْسَاةٍ تَقَعُ، وَيَجِدْنَ قُلُوبَهُنَّ فِي التَّكْبَاتِ، وَهَذَا الشُّيُوعُ فِي
الشُّعُورِ جَعَلَهُنَّ يَشْعُرْنَ بِأَحْدَاثِ الْآلَامِ قَبْلَ وَقُوعِهَا، وَجَعَلَهُنَّ أَصْدَقَ تَطْلُعًا،
وَأَرْهَفَ حِسًّا بِالْجَانِحَاتِ الصَّاعِدَاتِ مِنْ أَعْمَاقِ الْمَجْهُولِ، وَالْغَارِبَاتِ الْهَابِطَاتِ
إِلَى أَعْمَاقِهِ.

فَتَجَاوَزَتْ الْمَدِينَةَ بِمَأْسَاةٍ أُرِينَبَ، عَلَى مَا أَضَافَ إِلَيْهَا النِّسَاءُ مِنْ رُوحِهِنَّ
الْآسِيَةِ، فَكَانَتْ لِادِّعَةِ الْوَقْعِ، وَقِيْدَةِ الْأَثَرِ، شَائِكَةً فِي نَوَاحِي الضَّمِيرِ...

أَرْسَلَ مُعَاوِيَةَ أَبَا الدَّرْدَاءِ وَأَبَا هُرَيْرَةَ، رَسُولَيْنِ مِنْ قَبِيلِهِ، يَخْطُبَانِ أُرِينَبَ عَلَى
أَيْمِهِ يَزِيدَ، فَذَهَبَا إِلَى الْعِرَاقِ، فَلَبَّغَهُمَا أَنَّهَا أَنْتَقَلَتْ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَتَنَّتَا رَوَاجِلَهُمَا إِلَيْهَا.

وَكَانَ الْحُسَيْنُ، إِذْ ذَاكَ، قَبَسَ الْهِدَايَةِ، وَمِشْكَاتِ الطُّهْرِ، وَتَمَوَّجَ الْأَخْلَاقِ
الْفَاضِلَةِ، وَقِبْلَةَ الْأَنْظَارِ، وَكَانَ إِلَى ذَلِكَ، مُفْرَعُ الْهَارِبِينَ مِنْ وَجْهِ الظُّلْمِ، وَفِي
رِحَابِهِ يَنْتَصِفُ مَهْضُومُو الْحُقُوقِ الضُّعَفَاءُ، فَمَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَيُحْسِنُ فِي أَعْمَاقِهِ أَنَّ
وَاجِبًا عَلَيْهِ أَنْ يَخْشَعَ بِالْمَثُولِ بَيْنَ يَدَيْهِ، بَلْ يَشْعُرُونَ، فَوْقَ ذَلِكَ، أَنَّهُ رَأْسُ
الْوَاجِبَاتِ. فَلَمْ يَجِدْ كُلُّ مَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ وَصَاحِبِهِ، حَيْثَمَا هَبَطَا الْمَدِينَةَ، بُدْأَ مِنْ أَنْ
يَبْدَأَ بِزِيَارَتِهِ قَبْلَ أَيِّ وَاجِبٍ آخَرَ، مَهْمَا سَمَتْ بِهِ قِيَمَتُهُ، فَلَمَّا مَثَلَا بَيْنَ يَدَيْهِ يُقَدِّمَانِ

إليه أنواع الاحترام بمناسبة قدوميهما، أنس إليهما وقابلتهما بحفاوته التي تعودها الناس منه، على اختلاف منازلهم، وكانت فيه خليقة وطبيعة.

لكنه أحس، مع ذلك، أن في مقدميهما المفاجيء حدثاً هاماً، فقال لهما:
الأمير قد مثما؟

قالا: نعم.

قال: وما هو؟ فما كتماه أن معاوية وجههما في خطبة أرينب على أبنيه يزيد. فابتسم الحسين الحسين أبى سامة من قد أدرك كل شيء، ومن قد فهم غاية المناورة وبالعفة المداورة التي بات معاوية يحبك خيوطها، وينسجها كالعنكبوت حول فريسته... ونعى إلى نفسه «خدعه معاوية حتى طلق امرأته، ولما أرادها لأبيه. فبئس من استوعاه الله أمر عباديه، ومكنه في بلاده، وأشركه في سلطانيه، يطلب أمراً بخدعة من جعل الله إليه أمره... وواصل: لن تهتأ لي حياة إلا بإعادة مياه حياتيهما إلى مجراها، ولن تفر عيناى وأشد، إلا إذا قوت عيناها بالعودة وسعداء، ففي سعادة قلبين مخلصين يخلصان بالحب، ويخفقان بالعاطفة البريقة سر سعادتي. فعلي أن أهدم على معاوية أحاييله، وأصيده بشباكه. أف للغاشمين الذين يرقصون على الأشلاء، ويتيسمون في دموع الناس ويتششون كما لو بها يغتسلون؟ لقد استغوا فبات أبى سلام طعماً في جبالته.

فقال الحسين لهما: لقد «كنت أردت نكاحها، وقصدت الإرسال إليها، فأخطأ علي وعليه، وأعطياها من المهر مثل ما بذل عن أبنيه ولتخيرة»...

استأذناها بالدخول، وبعد أن استوى بهما مقعدهما، قال أبو الدرداء:

أي بُنية! إنك لم ترالي شابة في غفوان الشباب وميعة النشاط، وأنا بك جد صنين أن تذهبي نهياً للحواطر، وتذهب نضارتك شعاعاً في اكتياب. وإذا

سَاءَ لِكَ مِنْ آتَيْنِ سَلَامٍ مَا لَيْسَ مِنَ الْوَفَاءِ وَمَا لَمْ تَكُونِي بِهِ جَدِيرَةً، فَعَسَى أَنْ يَكُونَ لَكَ فِي سِوَاهُ بَدَلٌ خَيْرٌ.

قَالَتْ: مَعَاذَ اللَّهِ يَا أَبَتِ، فَقَدْ خَبَرْتُ الرِّجَالَ وَبَلَّوْتُ عَاطِفَةً قُلُوبِهِمْ فَمَا حَمِدْتُهَا، وَبَحَسْبِي فَتَايَ أَزْعَاهُ.

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: تَمَنَيْتُ لَوْ كُنْتُ لِكَ، وَفَعَلْتُ مَا يُشِيرُ بِهِ أَبُو الدَّرْدَاءِ... فَابْتَسَمَتْ وَهِيَ لَا تَنْتَظِرُ مِنْ مِثْلِهِ مَذَاعِبَةً، وَوَاصَلَ: وَهَلْ مِثْلُ أَبِي الدَّرْدَاءِ يُرَدُّ وَيُخْتَلَفُ عَلَيْهِ... وَلَمْ يَزَلْ بِهَا، وَتَعَرَّضَتْ لَهَا خِيَانَةً عَبْدِ اللَّهِ فَمَالَتْ إِلَى التَّكَايَةِ، وَرَغِبَتْ بِالْإِنْتِقَامِ.

فَقَالَتْ: وَبَعْدُ... فَعَرَفَا بِذَلِكَ إِجَابَتَهَا.

فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: أَرَادَكَ لِنَفْسِهِ «أَمِيرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَآبُنُ مَلِكِهَا، وَوَلِيُّ عَهْدِهِ وَالْمَلِكُ مِنْ بَعْدِهِ يَزِيدُ بُنًى مُعَاوِيَةَ. وَكَذَلِكَ أَرَادَكَ الْحُسَيْنُ آبُنُ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ، وَسَيِّدُ سَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَقَدْ جِئْنَاكَ خَاطِبَتَيْنِ عَلَيْهِمَا، فَأَخْتَارِي أَيُّهُمَا شِئْتَ...» وَهِيَ مَا سَمِعَتْ أَسْمَ مُعَاوِيَةَ وَيَزِيدَ حَتَّى وَجَمَتْ، وَكَظَمَتْ بُرْكَانَ حَفِظَتِيهَا، وَهَلْ هَدَمَ سَعَادَتَهَا، وَهَنَاءَةً مَا كَانَتْ فِيهِ إِلَّا هَذَانِ وَعِصَابَتُهُمَا؟ وَهِيَ الَّتِي طَالَمَا حَدَرَتْ شَقِيقَ قَلْبِهَا مِنْ شَبَابِكِهِمَا، وَوَدَّتْ لَوْ آغْتَرَلَ عَمَلُهُمَا، فَهَلْ تُلْقِي نَفْسَهَا، بِكُلِّ اخْتِيَارٍ وَطَوَاعِيَةٍ، فِي قَبْضَتَيْهِمَا الْقَاسِيَةِ الرَّهْبِيَّةِ، فَتُغْتَصَرَ لَا لَا! إِنِّي لَسْتُ فَاعِلَةً وَلَوْ أَوْطَأَنِي يَزِيدُ الدِّيَابِجَ وَأَحَاطَنِي بِمِثْلِ زَعْبِ النُّعَامِ!

لَيْتَ شِعْرِي! كَيْفَ أَزْضِي بِهِ، وَهَلْ آجَتَوَيْتُ الْحَيَاةَ إِلَّا بِسَبِيلٍ مِنْهُمَا؟ وَهَلْ فَرَزْتُ وَتَشَرَّدْتُ إِلَّا عَنْهُمَا؟ لَوَدِدْتُ أَنْ أُعِيشَ فِي دُنْيَا لَا تَعْرِفُ عِصَابَتَهُمَا أَوْ لَا يَغْرِقُونَهَا. وَطَالَ بِهَا الصُّمْتُ وَهِيَ فِي مَعْرِضِ خَوَاطِرِهَا، فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ:

عَلَامَ عَوْلَتْ؟ وَأَيُّهُمَا آخَرَتْ؟ فَقَدْ خَيَّلَ لِي صَمْتُكَ أَنَّكَ غَدَوْتَ دُمْنَةً لَا

تَنْطِقِينَ... فَأَنْقَطَعَتْ سِلْسِلَةُ خَوَاطِرِهَا، وَكَرِهَتْ رَدَّ وَسِيلَتَيْهَا، فَقَالَتْ:

وَمَنْ تَخْتَارُ أَنْتِ؟

قَالَ: الْأَمْرُ إِلَيْكَ.

فَقَالَتْ، مُخْرِجَةً لَهُ وَعَلِمَتْ أَنَّهُ لَنْ يُفْضَلَ يَرِيدَ بِحَالٍ: لَوْ أَنَّ «هَذَا الْأَمْرَ جَاءَنِي وَأَنْتَ غَائِبٌ، لَأَشْخَصْتُ فِيهِ الرُّسْلَ إِلَيْكَ وَاتَّبَعْتُ فِيهِ رَأْيَكَ، فَيْكَفَ وَأَنْتَ الرُّسْلُ. فَقَدْ قَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ»، فَأَخْتَرْتُ لِي أَرْضَاهُمَا.

فَقَالَ: أَيُّ بُنْيَةٍ إِنْ «أَبْنَى رَسُولُ اللَّهِ أَحَبَّ إِلَيَّ وَأَرْضَى عِنْدِي، وَاللَّهُ أَغْلَمُ بِخَيْرِهِمَا إِلَيْكَ»... فَأَتْبَعْتُ أَبُو هُرَيْرَةَ يَقُولُ:

نعم. نعم. وأنا والله «لَا أَقْدُمُ أَحَدًا عَلَى صَاحِبٍ قَبْلَهُ رَسُولُ اللَّهِ»، فَيَا لِيُغْنِيَنَّكَ بِهَذَا الْقَمِّ وَهَاتَيْنِ الشَّفَتَيْنِ لَيْتَنِي كُنْتُ أُرِييبُ، إِذَا لَسَالُ لُعَابِي وَتَلَمَّظُ... فَقَالَتْ وَهِيَ تَضْحَكُ مِنْ قَوْلِهِ:

قَدْ أَخْتَرْتُهُ.. فَتَزَوَّجَهَا الْحُسَيْنُ وَسَاقَ لَهَا مَهْرًا عَظِيمًا، وَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاوِيَةَ فَتَعَاظَمَهُ، وَلَا مَهْمَا أَشَدَّ لَوْمٍ، وَقَرَّعَهُمَا أَعْنَفَ تَقْرِيعٍ، وَلَكِنَّهُ آتَقَلَّبَ مَعَ ذَلِكَ يُرَدِّدُ: «إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا».

كَانَ جُهْدُ الْحُسَيْنِ، بَعْدَ ذَلِكَ مَعَهَا، أَنَّهُ يُوَاسِيهَا، وَإِذَا ذَكَرَتْ أَبْنَ سَلَامٍ وَمَا سَمِعَتْهُ خِيَانَةً زَوْجِيَّةً، أَثْنَى عَلَيْهِ وَهَوَّنَ فِعْلَتَهُ، وَأَفْهَمَهَا إِيَّاهَا عَلَى غَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي رَاحَتْ تَفْهَمُهَا عَلَيْهِ، وَأَبَانَ لَهَا أَنَّ الْحَادِثَ إِنْ كَانَ فِيهِ مَا هُوَ عَظِيمٌ نَكِيرٌ، فَلَمَّا هُوَ إِقْدَامٌ مِنْ هَيَأَ لَهُمَا أَسْبَابُ الشَّقَاءِ. ثُمَّ أَلَمَ تَقُولِي فِي بَعْضِ كَلَامِكَ إِنَّهُ طِفْلٌ، فَلَا عَجَبَ إِذَا اخْتَبَرُوا فِيهِ عَقْلَهُ، وَاسْتَبَدُّوا بِهِوَاهُ. فَإِذَا هِيَ تَنْظُرُ إِلَى مَا أَفْتَرَفَ أَبْنَى سَلَامٍ مِنْ أَفْقٍ جَدِيدٍ، وَإِذَا هِيَ تَرَى فِيهِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ إِلَّا صَحِيَّةً أَغْرَاضٍ وَأَهْوَاءٍ وَشَهَوَاتٍ مِثْلَهَا، وَإِذَا بِهَا تُدْرِكُ أَنَّ مِنْ وَاجِبِهَا أَنْ تُوَاسِيَهُ جُهْدَهَا، وَقَدْ بَاتَ شَقِيئًا. فَبَدَأَتْ تَحِيْرُ

إليه، وبدأت تُعاوِدُها ذِكْرُها في رَغِيبةِ قَلْبٍ، وكانَ الحُسَيْنُ يُحِسُّ هذا منها، فيفيضُ
بِشْراً وتَتَنَصَّرُ تقاسيمُ وَجْهِه بِشاشةٍ وإِشْراقاً، فقد نَجَحَ وأذْنى قَلْباً باتَ نفوراً، مِنْ
قَلْبٍ باتَ وقد تَشَطَّرَ وَيَلَّأَ وثُبوراً.

*

أما عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ فقد ظَلَّ في الشَّامِ يَومي الهَيْعَةَ الحَاكِمَةَ بِكُلِّ سَناءٍ
وعارٍ، وَيَطْعُنُ فيها أبلَغَ ما وَسِعَهُ الطَّعْنُ، وهو لا يُيالي غَضَباً ولا رِضىً، إِنَّهُ مُفْجَوْعٌ
مُوتورٌ.

فأَطْرَحَهُ مُعاوِيَةُ لِمَكَانٍ هذا الطَّعْنِ والتَّغْرِيزِ بالشُّنَيْعِ، وَعَزَلَهُ عن إِمارةِ
العِراقِ، وَقَطَعَ عَنْهُ رِوافِدَهُ، فَقَلَّ ما في يَدَيْهِ قَلَّةً باتَ مَعَهَا مُعْديماً، وَعَدَا مَثَلاً
للبُؤْسِ الحَيِّ والشَّقَاءِ الشَّاخِصِ.

وَتَحَتَّ إلْحاحِ البُؤْسِ عَلَيْهِ، تَذَكَّرَ أَنَّهُ كانَ قَدِ اسْتَوْدَعَ أَرِيْبَ مَلاً عَظِيماً،
وتَذَكَّرَ أَنَّها أَضْحَتْ في عِصْمَةِ الحُسَيْنِ، وهو لَنْ يَدَعَ لها سَبِيلاً لِلانْتِقَامِ «فَتَجَحَّدَهُ
إِياهُ لَطافِها مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ»، فانتَقَلَ إلى المَدِينَةِ وَلَقِيَ الحُسَيْنَ وَذَكَرَ له ذَلِكَ، وهو
في سَكَلِ الصُّحْبَةِ الشَّقِيَّةِ، والفَرِيسَةِ الطَّرِيقَةِ التي لَمْ تَزَلْ آثارُ أَثِيابِ السَّبْعِ بارِزَةً
فيها، راسِمةً أَنْكَرَ آياتِ وَخِشْيَتِها، فَزُتِيَ لِمَواهُ، وَرَقَّ له كَثِيراً وَواساهُ كَثِيراً. فَدَخَلَ
الحُسَيْنُ عَلَيْها وَحَضَّها على رَدِّ مالِهِ إِلَيْهِ، فَقالَتْ:

ها هو بِطاعِيهِ لَمْ أَمْسِسْهُ... وَقَصَدَ حُسَيْنٌ أَنْ يُدْخِلَهُ عَلَيْها بِشَقائِهِ، فلا بُدَّ
أَنْ تَتَلَقَّاهُ بِشَفَقَتِها وَحِنايَها دونَ غِلْظَةٍ أو جَفْوَةٍ. وكذلكَ كانَ، فَتَلَقَّيا وَاسْتَصْبِرا
طَوِيلاً في دُهورٍ وَوُجُومٍ، وَغَفَلاً عَنِ وُجُودِ الحُسَيْنِ بِقُرْبِهِما، فَتَوافَقَتِ نَظَرَاتُهُما
ناطِقَةً بِالْحُبِّ والدُّمْعَةِ طافِئَةً، يُحَيِّلُ لِمَنْ رَأَها أَنَّ مِنْ وَراءِ عَيْنَيْهِما قَلْبَيْنِ يُطْلانِ،
وَقَدْ تَدانِيا كَثِيراً حَتَّى رَسَما دائِرَةً تَدورُ فيها لَحْظَةُ حُبٍّ نَشوى.

وكانت عينا الحسين تشعان بالشور؛ وأخذ طريقه إلى الهيكل وقد أنصرف
عنهما زوجين، كني يشتعل عليه الحراب من جديد، إنه جد مغتبط الروح.

*

حطت فراشة بيضاء كأنها الزهرة على كتف غصن يمس، وكانت ناعمة
تلهو بأغاني سعادتها...

فتبصر بها عنكبوت صغير، ود لو يزوي بهناءتها شهوات نفسه الحزى...
وما لبث حتى جاء قوم العناكب يادرو، وراح ينسج شباكه من حولها...
وإذ ذاك حوّم بلبل غريد كان ينشر بألحانه في الأزواج نشوات منوعات،
وحط حيث أنتصبت أشراك المأساة...

فتقد القمر نقدة، ومضى يغرد تغريداً كان مغناه: «ومكروا ومكر الله، والله
خير الماكرين...».

»

ظن «الصغير» أن القوة هي كل شيء، وفوق كل شيء...
وظن «الكبير» أن الحيلة هي كل شيء، وفوق كل شيء...
ولكن حين وقع الحق في شخص الإنسان الكامل، «بطل ما كانوا يعملون،
فغلبوا هتالك وأنقلبوا صاغرين»!...

* * *

تقوى

كَانَ يَوْمًا أَرْدَهَتْ فِيهِ دَمَشْقُ بِكُلِّ أَفَانِيْنِهَا، وَبَرَزَتْ فِيهِ بِكُلِّ قُتُونِهَا، هَذَا
الْيَوْمُ الَّذِي أَطْلُ مَعَهُ الرِّبْعُ فِي آيْتَسَامَةِ الْأَزْهَارِ وَعَبَقِي آيْتَسَامَتِهَا، مُرْصَعًا بِخُيُوطِ
الشَّمْسِ الْمُقَنَّنَةِ يَقْنَاعٍ مِنَ الْمُزْنِ الرِّقِيقِ الشَّفَافِ.
كَانَ عَادَةً، عِنْدَ نَاسِهَا، اسْتِقْبَالُ الرَّبِيعِ بِأَشْيَاءِ الْأَنْسِ وَالْحَقَاوِرِ، وَبِمَا تُوحِيهِ
الْمُنْتَعَةُ الْمُسْتَبْشِرَةُ، فَكَانَ يُخَيَّلُ لِلْمُشَاهِدِ أَنَّهُمْ تَشَوَّاهُ حَتَّى الزَّمَانِ فِي وُجُودِهِمْ، ثُمَّ لَمْ
يَذْكُرُوا إِلَّا مَا هُمْ فِيهِ مِنْ أَسْبَابِ اللُّهُوَ الْعَابِثِ الْبَرِيِّ، فَيَقْبَلُونَ عَلَيْهِ بِلَهْفَةِ الطَّامِسِ
عَلَى الْيَنْبُوعِ، وَيَنْطَلِقُونَ فِي مَدَى كُلِّ مَعْنَى نَضِيرٍ، وَيَنْتَشِرُونَ أَنْتِثَارَ الطَّيْرِ فِي كُلِّ
فَضَاءٍ.

فَمِنْ هُنَا تَنْبَعُ ضَحِكَاتٌ، وَمِنْ هُنَاكَ تَنْطَلِقُ رَفْرَقَاتٌ مِنْ غَنَنِ الطُّفُولَةِ،
وَمِنْ هَذَا الْوَجْهِ جَمْعٌ يَخْلُمُونَ فِي أَنْسٍ وَمُنْتَعَةٍ شُرُودٍ، وَعَلَى ذَلِكَ الْوَجْهِ قَوْمٌ يَنْعَمُونَ
فِي مِثْلِ وَثْبِ الطُّبَاءِ وَخَطَرَاتِ الْوُعُولِ، وَتَلَفَّعَتِ الْآفَاقُ، فِي حِسِّ هَوْلَاءِ اللَّاهِمِينَ،
بِكَلَلٍ مِنْ أَلْقَى فَرْحَةٍ كَثِيرٍ.

وَكَانَ هَذَا الْيَوْمُ كَأَنَّهُ، فِي حِسِّ الْفَلَكَ، سَاعَةً مِنْ لَاوَعِي الزَّمَنِ، يَسْبِيحُ مِنْهَا
فِي غُرْبَدَةٍ حَالِمَةٍ أَوْ أَحْلَامٍ مُعْرَبَدَةٍ. وَعَزِيزٌ عَلَى الْحَيِّ الشَّاعِرِ، أَنْ تَطْيِفَ بِهِ هَذِهِ
السَّاعَةُ مِنْ لَاوَعِي الزَّمَانِ، وَلَا يَغْرَقَ مَعَهَا فِي خِصَمِّ النَّسِيَانِ مِنْ قُبُودِ الْوَعْيِ
وَالْفِكْرِ.

في هذا اليوم كَانَ مُعَاوِيَةُ فِي قَصْرِهِ الْمَشِيدِ، وَفِي الْجَنَاحِ الْغَارِقِ بِالْمُتَعِ، يَقْطِفُ مَعَ جَمْعٍ مِنْ حَاشِيَتَيْهِ زَنْبَقَةً زَهْوِ الْيَوْمِ. وَكَانَ بُدَيْخُ مَوْلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ يُؤْنِسُهُمْ بِطَرَائِفِ أَخْبَارِهِ وَمُلَحِ نَوَادِرِهِ، فَأَنْتَهَى بِهِ الْحَدِيثَ إِلَى أَخْبَارِ صَابِقَةِ الْإِغْرِيْقِ الْحَرَائِيْنِ، وَعَجَائِبِ مَا شَاهَدَ بَيْنَهُمْ، وَكَانَ فِيمَا قَالَ:

كَأَنَّ نِسَاءَهُمْ خُلِقْنَ مِنْ طَبِيعَةِ الْجَمَالِ، إِنْ لَمْ تَكُنْ فِكْرُهُ الْجَمَالِ صِغَتْ مِنْ طَبِيعَتِهِنَّ، بَلْ لَعَلَّهُنَّ فِي بَحْرِ الْجَمَالِ لَآلِيُهُ. فَقَدْ آفَتْنَ فِيهِنَّ إِبْدَاعُ الْخَلْقِ حَدًّا أُبْرَزَهُنَّ مَثَلًا نَاطِقَةً بِالْفَنِّ... فَأَيُّهُ تَقَاطِيعَ فِي أَيِّ وَجْهِ؟... وَدَارَ بِهِ نَظَرُهُ كَالَّذِي تَذَكَّرُ صَبَابَةَ قَدِيمَةٍ طَبَعَ عَلَيْهَا الْإِخْفَاقُ، فَأَرْسَلَ آهَةً طَوِيلَةً أَخْتَنَقَتْ فِي حَلْقِهِ قَبْلَ نِهَآيَتِهَا...

قَالَ بَعْضُ مَنْ حَضَرَ: لَكَآَنَّ لَكَ بَيْنَهُنَّ ذِكْرَى طَرِيقَةً يَمَوْقِعُهَا عَلَى قَلْبِكَ، وَإِنْ قَدَّمَ بِهَا الْعَهْدُ... فَرَاغَ يُحَاوِلُ الْإِخْفَاءَ عَلَى سَتَى مَذَاهِبِهِ وَأَسَالِيْبِهِ، وَلَكِنْ كَانَ فِي عَيْتِيهِ مَا يُفْصِحُ بِكُلِّ خَبَرٍ قَلْبِهِ، فَقَدْ عَدَدْنَا تُغْفِيَانِ تَحْتَ هَبَاءَةِ كَثِيفَةٍ مِنَ الدُّهُولِ، حَتَّى لَيْطُنَ النَّاطِلِ إِلَى مُقْلَتِيهِ أَتَهُمَا جَمَدَتَا فِي غَيْرِ حَيَاةٍ، لَوْلَا بَصِيصُ رَفِيعِ الْخُيُوطِ كَانَتَا تُرْسِلَانِيهِ قَلْقًا، عَلَى أَنَّهُ مَالٌ يَتَخَافُ فِيمَا تَمَوَّهَتْ بِهِ عَيْنَاهُ مِنْ دَمْعٍ رَقِيقٍ، لَمَّا يُؤْذَنُ لَهُ فَيَتَحَدَّرُ.

وَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى تَرْسُلِهِمْ وَتَبَشُّطِهِمْ، أَسْتَأْذَنَ الْحَاجِبُ، وَأَعْلَمَ الْمَلِكَ أَنَّ كَبِيرَ النَّحَّاسِينَ أَتَى بِجَارِيَةٍ فَائِقَةٍ «يَوُدُّ عَرْضَهَا» فَقَدْ كَانَ مُتَعَارِفًا أَنَّهُ يَبْدَأُ بِالْقَصْرِ، فَيَعْرِضُ عَلَيْهِ مَا يَهْبِطُ بِهِ مِنَ الْإِمَاءِ وَالْعِلْمَانِ، فَأَذِنَ الْمَلِكُ، وَأُجْرِيتْ «مَرَاسِيمُ» الدُّخُولِ.

وَكَانَ عَجَبُ الْحُضُورِ كَبِيرًا حَيْثَمَا مَثَلَتْ بَيْنَهُمْ، فَهِيَ تَتَمَتَّعُ بِأَكْبَرِ قِسْطٍ مِنْ جَمَالِ الرُّؤْيَى فَوْقَ الْخَوَالِبِ مِنَ الْقَسَمَاتِ، حَتَّى لَقَدْ كَانَ يَتَرَاى لِلْكَثِيرِينَ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يُصَيِّرُونَ مَنْظَرًا مِنْ جَمَالِ فَنِّ خَيَالِيٍّ، يَجِيءُ مِنْ دُونِهِ كُلُّ مَا فِي طَاقَةِ الْحَيَاةِ

مِنْ قُرِّ الْجَمَالِ.

هَبَطْتُ عَلَى جَمْعِهِمْ هُبُوطَ الْبِرْعَةِ عَلَى جَمَاعَةِ الطَّيْرِ فِي الْغَابِ مَعَ ظَلَامِ
الْمَسَاءِ. فَأَهْتَزَّتْ أَغْصَانُهُمْ كَالْأَوْتَارِ، وَنَطَقَتْ بِلَحْنِ الْحَنِينِ الْمَوَاجِ، فَحَامَتْ فِي
مَدَى بَدَوَاتِ هَذَا الْإِنْدَاعِ. كَانَتْ عَلَى أَغْصَانِهِمْ صَدْمَةٌ جَمَالٍ فَعَلْتُ فِيهَا مِثْلَمَا
تَفْعَلُ صَدْمَةُ الصُّوْرِ، أَوْ النَّعَمِ، الَّتِي يَتَجَاوَبُ مَعَهَا فَضَاءُ النَّفْسِ الْخَلَاءِ بِنَوْعِ
أَهْتِزَّازِهَا، فَتَمِيدُ أَوْ تَذْهَلُ، وَالصَّدْمَةُ الشُّعُورِيَّةُ كُلَّمَا كَانَتْ أَشَدَّ تَمَكُّنًا مِنَ الْأَغْصَابِ
كَانَتْ أَكْثَرَ تَأْثِيرًا، وَأَدْوَمَ أَمْدًا.

وهذه الفتاة الكاعب تَرَكَتْ فِيهِمْ أَثْرًا أَتَّخَذُوا حَادًا لَمْ يَزَلْ يَتَزَايَدُ، حَتَّى بَاتُوا
مِنْهَا مِثْلَ النَّحَالِ، وَقَدْ عَرَضَ لَهَا مِصْبَاحُ كَثِيرِ التَّوَقُّدِ وَالْأَلْقِي فِي لِسَانِ الشُّعَاعِ.
وَكَانَ فِي هَذَا الدُّهُولِ الَّذِي عَرَاهُمْ، مَا جَعَلَ أَحَدًا لَا يُفْطِنُ إِلَى مَا اسْتَبَدَّ
بِإِدْيَاحِ مِنْ أَضْطِرَابٍ، وَمَا تَمَلَّكَهُ مِنْ تَلَهُّفٍ، كَمَا لَمْ يُفْطِنْ أَحَدٌ أَيْضًا إِلَى مَا
سَاوَرَهَا مِنْ خَلَجَاتٍ غَنِيَّةٍ كَظَمَتْهَا، فَعَرَبَدَتْ عَلَى قِمَمِ مُقْلَتَيْهَا نَاطِقَةً بِاللُّحْظِ
الْوَثَابِ. كَانَ لِإِنَاظِرِ أَنْ يَقْدَرَ أَنَّ بُدِيحًا أَكْثَرُهُمْ أَخَذًا بِهَا لِأَنَّهُ كَانَ أَكْثَرَ تَذَوُّقًا
لِلْجَمَالِ، وَأَمَّا أَنْ يَقْدَرَ أَنَّهَا بِالذَّاتِ نَفْسُ فَايْتِنِيهِ الَّتِي اخْتَفَطَ بِهَا ذِكْرِي نَدِيَّةً
بِالْغَرَامِ، وَعَرَضَتْ لِنَفْسِهِ مُنْذُ هُنَيْيَةِ فِي بَعْضِ الْحَدِيثِ، فَهَذَا مَا لَمْ يَكُنْ يَقَعُ فِي
مَذْهَبِ الْخَاطِرِ الْمَوْسَلِ.

لَقَدْ قَطَعَ هَذَاهُ وَجُحُومِ الْإِنْجِدَابِ، مُعَاوِيَةً بِقَوْلِهِ مُخَاطِبًا كَبِيرَ النُّحَاسِينَ: لَسْتُ
مَا أَذْهَشْتُنَا حُورَاؤُكَ، فَمِنْ أَيْنَ هِيَ؟ وَمَا أَسْمُهَا؟

قَالَ الرَّجُلُ: «إِسْمُهَا هَوَى»... فَانْبَعَثَ بُشْرُ بْنُ أَرْطَاةَ أَنْبِعَاثًا يَقُولُ:

«هِيَ وَاللَّهِ كَأَسْمِهَا هَوَى»، تَخْفِضُ مِنْهُ وَتَرْفَعُ، وَتُطِيلُ بِهِ وَتُقْصِرُ، وَتَنْشُرُ
مِنْهُ وَتَطْوِي.

قال عمرو بن العاص: وماذا يكون الهوى إن لم تكنه؟ وكان بُدِيح قد
ضبطَ أَرشِيَّةَ قلبه الفائر بالذكرى والحُبِّ، والآلامِ والبغْدِ والقُربِ، أو القُربِ الذي
كانَ في مَعْنَاهُ نُقْطَةُ العُورِ في البغْدِ السَّحِيحِ. شَعَرَ الآنَ فقط أَنَّها نَأَتْ عنه وإلى
الأبدِ، أما عَرِضَتْ على المَلِكِ ونالَتْ آسْتِخْسانَهُ وخطِيتْ بِإِعْجَابِهِ، فهو لا مَحَالَةَ
سَيَصُفُّهَا إلى جُمْلَةِ وَصَائِفِ القَصْرِ وَوَلَائِدِهِ، فكانَ في حِسِّ نَفْسِهِ كأنَّه يَعْصُ
على جانبِ قلبِهِ يَمْضَعُهُ.

كيفَ لم يَبْتَعِثْهُ القَدَرُ إلى الخُرُوجِ مُنْذُ هُنَيْهَةٍ وَتَلَقَّاهَا عَرَضاً، فقدَ كانَ
يَحُولُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الدُّخُولِ وَيَحْطِي بِهَا لِنَفْسِهِ، وهو الَّذِي ظَلَّ يَتَمَنَّى حَيَاتَهُ لَحْظَةً
لِقَاءِ مِنْهَا. لقدَ مَدَّهُ القَدَرُ بِسَاعَةٍ لِقَاءِ عَفْوَاً، ولكنَّ فيها مَرَارَةَ التَّكَايَةِ والتَّلَوِيحِ
الْيَائِسِ، فَفَاضَتْ نَفْسُهُ حَسَرَاتٍ، يَبْدُ أَنَّهُ ظَلَّ يُعَالِجُ مَشَاعِرَهُ، وَيَحْتَمِي وَرَاءَ بَرَايِقِ
صَفِيْقَةٍ مِنَ التَّجَلُّدِ، فقال:

مثلاً هي براعمُ الأزهارِ كانتْ حُفّاً للجمالِ والعَبِيرِ في الزَّهْرَةِ، فَلِلْعَوَاطِفِ
الحَيَّةِ حِقَاقٌ أو براعمُ، تَتَفَتَّقُ عَنْ زَهْرَةِ جَمَالٍ أَيْضاً، وعن زَهْرَةِ هَوَى أحياناً، وعن
زَهْرَاتٍ مَعَانٍ أُخْرَى أَيْضاً.

وهذه الغادَةُ كما أراكم تُحْشَوْنَ - بُوعْمَةُ الهَوَى في دُنْيَا القَلْبِ الشَّاعِرِ -
تَتَنَفَّسُ بِأَرْبَاجِهِ مَعَ السَّحْرِ النَّدِيِّ كما تَتَنَفَّسُ الْوُرُودُ. وفي حِسِّي أَنَّ الأزهارَ
تُعَبِّرُ عَنِ العَوَاطِفِ الْمُجْتَمِعَةِ في قَلْبِ الطَّبِيعَةِ الصَّامِتَةِ، كما تُعَبِّرُ هذه الغانياتُ عَنِ
العَوَاطِفِ الْمُجْتَمِعَةِ في صَمِيرِ الطَّبِيعَةِ الحَيَّةِ، وَقَلْبِ الْإِنْسَانِ.

وفي غَايِرِ أَيْامِي، مَعَ نَزْوَةٍ مِنْ نَزَوَاتِ شَبَابِ القَلْبِ، أَحَدْتُ هَوَى وَأَحَدْتُ
فيه بهذا المَعْنَى شِعْراً:

يا وَزْدَةَ في رِياضِ الحُبِّ يانِعَةً تُرْجِي الهَوَى، كُلُّما مَرَّ الهوا فيها
هَيَّا أَنشُرِي عِطْرَكَ الغاني الَّذِي آمْتَرَجْتُ بِهِ الدُّمُوعَ، وَرَوَّئُهُ مَاقِيهَا

فَسِرُّ عِطْرِكَ هَذَا، أَذْمَعُ سَكَبَتْ عَلَى مَجْدُورِكَ فِي نَجْوَى لَبَالِيهَا
ثُمَّ اسْتَحَالَتْ عَبِيرًا مِنْ طَهَارَتِهَا فَتَوَهَّى بِالْهَوَى مَا شَفَتْ تَنْوِيهَا
فَأَنْتِ ذِكْرِي مُجِبٌّ طَالَمَا آخَتَبَسْتُ أَنْفَاسُهُ، ثُمَّ خَانَتْهُ خَوَافِيهَا
كَمْ مِنْ صَرِيحِ هَوَى، قَدْ عَاجَ مُنْتَجِيًا إِلَى ظِلَالِكَ شَافَتْهُ مَعَانِيهَا
فَرَاخَ يَنْظِمُ آهَاتٍ مُقَطَّعَةً وَرَاخَ يَنْثُرُ مَعْنَى مِنْ مَعَانِيهَا
حَتَّى أَنْتَهَى، فِي خِصَمِّ الدَّهْرِ مِثْلَ صَدَى وَأَنْتِ ذِكْرِي هَوَاهُ بِتِ تَحْيِيهَا^(١)

وَكَانَ بُدَيْخُ يُنْشِدُهَا بِصَوْتِ زَافِرِ الرِّتَاتِ، خَافِتِ الْمَقَاطِعِ وَالْكَلِمَاتِ، وَبَوَاجِيهِ
سَاهِمِ النَّظَرَاتِ بَادِي الدُّهُولِ، حَتَّى لَقَدْ خُيِّلَ لَكَثِيرٍ مِمَّنْ خَضَرَ أَنَّهُ اسْتَحَالَ صَدَى،
كَمَا رَاخَ يُنْشِدُ وَيَقُولُ.

فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: لَكَأَنِّي بِكَ، يَا بُدَيْخُ، أَخَذْتُ بِهَا هَوَى جَدِيدًا.
قَالَ بُدَيْخُ: بَلْ إِنَّمَا تَعَلَّقْتُ بِأَسْبَابِ هَوَى قَدِيمٍ، وَأَسْتَقِفُّ فِي قَلْبِي رَسِيْسُ
حُبِّ ضَاقَ بِهِ النَّسِيَانُ. وَأَنْقَطَعَ بِهِمْ عَارِضُ الْحَدِيثِ، فَعَادَ النَّحَاسُ إِلَى مَقَالِهِ:
وَهِيَ صَابِئَةُ الْمَنِيِّ وَالنُّجَارِ، تَرَفَّى إِلَيَّ أَنَّهَا أُعِدَّتْ لَتَكُونَ كَاهِنَةً فِي هَيْكَلِ
رَبَّةِ الْجَمَالِ عِنْدَهُمْ، وَالصَّابِئَةُ يَتَخَرَّوْنَ فِي مِثْلِهَا أَنْ تَكُونَ نَسَقًا فِي الْمَلَامِ
وَالْتَّقَاطِيعِ وَالشُّكْلِ مَعَ آلِهَتِهِمْ، لِيُبَرِّزَ لَهُمْ فِي الْمَوَاسِمِ وَالْأَعْيَادِ، وَكَأَنَّ رَبَّةَ الْجَمَالِ
بَرَزَتْ لَهُمْ أَوْ تَقَمَّصَتْهَا، فَانْتَهَتْ بِهَا صُرُوفُ الْأَقْدَارِ إِلَى حَيْثُ تَرَى.
وَالْعَجَبُ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - أَنَّهَا ذَاتُ فَلَسَفَةٍ فِي الْحَيَاةِ رَغِبَتْ بِهَا عَنْ مُتَعِ
الْحَيَاةِ، أَلْقَتْهَا فِي مِثْلِ الزُّهْدِ.

(١) من قصيدة لي في وردة كُنتُ غَرَسْتُهَا «أَيَّامَ زَمَانٍ»، كما يقولون، حين كانت لي دَارٌ وكانت لي
حديقة... كما هو الشأن في المقطعات الشعرية الأخرى المبثوثة في «قصيدة مع أزيب».

وَأَعْجَبَ مِنْ هَذَا أَنَّهَا سَكَنَتْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَطْمَأْنَنْتْ إِلَيْهِ فَأَعْتَنَقَتْهُ،
وَأَنْتَ فِي فَهْمِهِ بِالْعَجَبِ الْعُجَابِ...

قَالَ مُعَاوِيَةُ نَاشِطًا: كَيْفَ تَقُولُ؟

قَالَ: نَعَمْ هُوَ مَا أَقُولُ لَكَ... فَضَمَّهَا إِلَى قَصْرِهِ، وَقَدْ بَدَلَ فِيهَا «مِائَةَ أَلْفٍ
دِرْهَمٍ». وَوَصَلَ: لَقَدْ صَدَقَ وَاللَّهِ بُدَيْخٌ فِي مَا مَضَى يُحَدِّثُكُمْ بِهِ...
وَلَكِنْ لَمْ تَبْغِدِ الْوَصَائِفُ بِهَا، حَتَّى آسَتُوهُ وَكَانَ مُتَكِبًا، فَقَالَ:
«لِمَنْ تَصْلُحُ هَذِهِ الْجَارِيَةُ؟»

قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: مَنْ «سِوَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ تَصْلُحُ لَهُ؟» وَكَذَلِكَ «قَالَ
آخَرُ وَآخَرُ»، وَمُعَاوِيَةُ يَقُولُ لَا، وَيَبْتَسِمُ كَالَّذِي يُعَايِهِمْ.
وَبَعْدَ أَنْ أَخَذَ مِنْهُمْ الشُّؤْفُ مَا أَخَذَهُ، وَتَزَايَدَهُمُ التَّلَهُّفُ - وَالرَّاعِبُ يَكُونُ
أَمِلًا أَبَدًا - فَكَانَ أَكْثَرُهُمْ تَشَوُّقًا بُدَيْخَ، فَقَدْ عَرَضَ فِي خَاطِرِهِ أَنْ مُعَاوِيَةَ قَرَأَ قَلْبَهُ.
وَبَعْدَ أَنْ نَطَقَتِ التَّظَلُّةُ الْبَادِيَةَ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَيْضًا، وَبَعْدَ لَأَيٍّ، قَالَ لَهُمْ
مُعَاوِيَةُ:

إِنَّهَا بِرُوحِيَّتِهَا وَكَمَالِهَا لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِلْحُسَيْنِ، «فَإِنَّهُ أَحَقُّ بِهَا، لِمَا لَهُ مِنَ
الشَّرَفِ، وَلِمَا كَانَ قَدْ سَجَرَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ أَبِيهِ»... فَازْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِ الْحُضُورِ آثَارُ
مَشَاعِرَ مُخْتَلِفَةٍ مُتَنَاقِضَةٍ. أَمَّا بُدَيْخُ فَكَانَ مَحَلًّا لَأَنْوَاعِ شَتَّى مِنَ الشُّعُورِ، فَقَدْ
أَنْشَرَخَ وَأَكْتَأَبَ، وَطَرَبَ وَحَزَنَ، فِي دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْأَنْفِعَالِ. إِنَّهُ أَمَلَ أَنْ يَكُونَ
مَوْضِعًا لَشُقُوطِ هَذَا الثَّدْيِ، وَتَمَنَّى، وَهُوَ الظَّامِئُ بِالْهَوَى، أَنْ تَكُونَ رِيَّةُ هَذِهِ
الْغَادَةِ الَّتِي هِيَ غَادَةُ قَلْبِهِ، وَلَكِنْ خَابَ أَمَلُهُ فَأَكْتَأَبَ. يَتَذَكَّرُ أَنَّهُ مَشَى فِي حَوَاشِي هَذَا
الْاِكْتِئَابِ عِنْدَهُ أَنْشِرَاخُ، مَصْدَرُهُ أَنَّ الْحُسَيْنَ، وَهُوَ الْمُتَنَشِّي بِرَحِيقِ الْهَيْكَلِ
وَالْمُسْتَعْرِقُ فِي التَّأَمُّلِ الْإِلَهِيِّ، أَصْحَحْتُ صِنُوَ مَقَامِهِ بَيْنَ آلِ أَبِي طَالِبٍ، هُوَ يَتَشَهَّى

أَنْ تَكُونَ قَرِيبَةً مِنْهُ وَكَفَى، إِنَّهُ يُرِيدُهَا مُتَعَةً قَلْبٍ وَقَدْ سَقَطَ عَلَى أُمْنِيَّتِهِ مِنْهَا.

فَقَارَ فِي نَفْسِهِ يَنْبُوغُ بِشَرٍّ، ضَحِكَ مَعَهُ ضِحْكاً خَفِيفاً فِي الْخِيَالِ، وَزَادَ بِهِ حَتَّى أَنْفَجَرَ يَضْحَكُ كَالْمَعْرُودِ الْغَرْدِ، يَمَّا جَعَلَ الْحُضُورَ يَوْمُقُونَهُ بِأَسْتِغْرَابٍ، وَطَافَ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ: مَا بَالُ بُدَيْحٍ؟... وَلَكِنْ قَطَعَهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ:

إِنَّهَا سَتَكُونُ مُفَاجَأَةً لَذَّةِ الْوَقْعِ عَلَى الْحُسَيْنِ، لَا سِيَّمَا وَقَدْ كَانَتْ كَاهِنَةً فِي هَيْكَلِ رَبِّةِ الْجَمَالِ، وَهُوَ الْحَالِمْ الْهَائِمُ بِالْجَمَالِ الْمُفْعَمِ بِهِ ضَمِيرُ الْوُجُودِ.

بَعْدَمَا تَنَاوَلَتْهَا الْوَصَائِفُ بِالنَّظَرِ وَالْهَنْدَمَةِ مَعَ أَصْلُوبِ الْقَصْرِ، بَرَزَتْ كَالرَّبَّةِ الَّتِي تَحْلُمُ، وَالْبَحِيرَةُ تَصْطَفِقُ بِأَمْوَاجِهَا الرَّقِيقَةِ عِنْدَ الشَّاطِئِ.

كَانَتْ سَاحِرَةً اللَّفْتَةِ صَارِخَةً الْفِتْنَةِ، مُغْرِيةَ الْجَمَالِ، وَلَكِنهَا تُرَى، مَعَ ذَلِكَ، كَالْهَائِمَةِ مَعَ ضَمِيرِهَا. فَلَمْ تَكُنْ يَمُنْظَرُهَا تُشِيرُ أَصْدَاءُ الشَّهَوَاتِ، بَلْ تَنْشُرُ أَخْلَاماً نَشُوى مِنْ أَخْلَامِ الرُّوحِ، تُلْقِي النَّاطِلَ قَسْراً فِي مِثْلِ الْمِحْرَابِ الَّذِي يُشِيعُ فِي الْقَلْبِ مِثْلَ مَعْنَى صَلَاةٍ خَاشِعَةٍ.

وَهَذَا اللَّوْنُ مِنَ الْجَمَالِ غَيْرُ مُحَبَّبٍ إِلَّا لِلْهَائِمِينَ فِي دُنْيَا ضَمَائِرِهِمْ، وَأَمَّا الْآخَرُونَ الَّذِينَ يَهيمُونَ فِي دُنْيَا أَغْصَابِهِمْ وَيَنْطَلِقُونَ فِي مَدَى رُسُومِهَا، فَإِنَّهُمْ يَنْفِرُونَ مِنْ هَذَا الْجَمَالِ الَّذِي يُغْرِيهُمْ بِمَعْنَى مُبْهَمٍ لَا يَتَذَوَّقُونَهُ، فَيَطْعَمُونَ فِيهِ مَرَارَةً الْفَقْدِ، ثُمَّ لَا يُحَرِّكُ أَيْ وَتَرٍ مِنْ أَوْتَارِ قَيْثَارَةِ خِيَالِهِمْ الْمُرَكَّبَةِ تَرْكِيباً لَا تَنْطَلِقُ مَعَهُ بِمِثْلِ هَذَا الْجَمَالِ، أَوْ تَنْطَلِقُ بِنَعَمَاتٍ مُتَنَافِرَةٍ تُوحي بِالْمَرَارَةِ.

إِنَّ طَبِيعَةَ الْإِنْسَانِ الْمَعْنَوِيَّةَ مُرَكَّبَةً تَرْكِيباً نَعْمِيّاً (مُوسِيقِيّاً) لِأَنَّهُ مُتَنَاعِمٌ بِطَبِيعَةِ تَأْلِيفِهِ الْعُصْرِيِّ، وَهِيَ - عَلَى نَسَقِ أَوْتَارِهَا الْمُتَحَرِّكَةِ بِرِيشَةِ الْبَوَاعِثِ، إِذَا صَحَّ هَذَا التَّعْبِيرُ - مُتَنَوِّعَةٌ الْأَلْحَانِ وَالْإِيحَاءِ. فَمِنْهَا مَا يُوحِي بِالشَّهْوَةِ، وَمِنْهَا مَا يُغْري بِالتَّأَمُّلِ، وَمِنْهَا مَا يَعْجِشُ بِالْإِدْمَاءِ، وَمِنْهَا مَا يَمُورُ بِالْحَنَانِ وَالْحُبِّ، وَمِنْهَا مَا يَدْفَعُ إِلَى

الاستغلاء. إِنَّ اللَّذَّةَ، فِي حَقِيقَتِهَا، أَنْطِبَاعَاتٌ وَأَرْتِسَامَاتٌ، فَإِذَا مَرَّتْ بِالنَّفْسِ
نَمَازُجُهَا اسْتَجَابَتْ إِلَيْهَا، وَتَحَرَّكَتْ مَعَهَا حَرَكَةً أَنْسِجَامٍ لَادَّةٌ.

أَمَضَّتْ فِي الْقَصْرِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، كَانَتْ لَا تَفْتَأُ خِلَالَهَا تُفَكِّرُ فِي مُصَادَفَةِ هَذَا
اللقاءِ مَعَ بُدَيْحٍ، وَهِيَ الَّتِي بَاتَتْ فِي يَأْسٍ مِنْ لِقَائِهِ، وَقَدْ بَاعَدَتْ بَيْنَهُمَا سُبُوبٌ
وَأَزْمَانٌ.

وَدَهَبَتْ تُنَاجِي نَفْسَهَا: وَيَحْ بُدَيْحِ، إِنَّهُ لَمْ يَزَلْ فِي مِثْلِ بَقَظَةِ عَوَاطِفِهِ لَيْلَةً
لِقَائِنَا لِلْمَرَّةِ الْأُولَى، بَيْنَ أَرْوَاقِ هَيْكَلِ فِينُوسَ. وَيَحْ بُدَيْحِ! لَقَدْ كَابَدَ فِي سَبِيلِي كَثِيرًا،
وَتَجَرَّعَ أَمْرَ الْغُصَصِ وَالْآلَامِ مِنْ أَجْلِي، ثُمَّ تَنَاهَى بِهِ بُعَادٌ يَعْتَصِرُ عَلَيْهِ قَلْبُهُ، فَكَمْ ذَا
يُقَاسِي؟

يَا مَا أَلَذَّ وَقَفَّةُ أَنْتِظَارٍ، فِي لَحَظَاتِ تَوَلُّهِ وَتَلَهُّفٍ، كُنْتُ أَقِفُهَا عِنْدَ بَعْضِ
أَعِمَّةِ الْهَيْكَلِ، وَبُدَيْحٍ مُقْبِلٍ تَحْتَ رِداءِ اللَّيْلِ يُمْتِنِعُنِي بِنَفْسِهِ فِي جُلُوءِ قَلْبٍ مُغْرَمٍ،
أُضْفَتْ عَلَيْهَا خُلُوءُ الْأَحْلَامِ! يَا مَا أَقْدَسَ تِلْكَ الرِّعَاشَاتِ، وَأَعَذَّبَ وَقَفُهَا!!

إِنِّي لِأَذْكُرُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَقَدْ هَبَّتْ فِيهَا الْأَعَاصِيرُ، وَلَعِبَتْ فِي مَسَرِّحِهَا
العاصِفَةُ، وَكَانَتْ الْآفَاقُ تَزْأُرُ زَثِيرًا مُخِيفًا، وَالْغَمَامُ يَهْبِطُ مَعَ جُنْحِ الظُّلَامِ كَثِيفًا
كَثِيفًا، كَأَنَّهُ شَاءَ أَنْ يَطْمُرَ الْأَرْضَ بِمَا هُوَ مُنْزَرَعٌ فِيهَا مِنَ الْحَيَاةِ وَالْأَحْيَاءِ، وَكَانَتْ
الرِّمَالُ تَتَعَالَى وَتَتَعَانَقُ فِي شَكْلِ الْأَقْوَاسِ، وَدُعِرَتْ فِيهَا حَتَّى طُبُورُ اللَّيْلِ،
فَانْكَفَأَتْ مِنْكَمِشَّةً مُنْخَسِئَةً... فِي الْمَغَاوِرِ وَالْحَفَائِرِ، وَقَدْ أَمْسَكَتْ حَتَّى الرُّكُزَ
وَالْهَمْسَ مِنْ نَأْمَتِهَا.

وَإِنِّي لَتَمْتَنِيْتُ، وَأَنَا وَاقِفَةٌ عِنْدَ عَمُودِ الرُّوَاقِ الدَّاحِلِيِّ، أَنْ لَا يَأْتِيَنِي فِي لَيْلَةٍ
بُزُوكَانِ السَّمَاءِ. وَبَيْنَا أَنَا وَاجِفَةُ اللَّبِّ بِالتَّخَوُّفِ وَالتَّرْقُبِ، أُحْرِقُ قَلْبِي لِلرَّيَّةِ قُرْبَانًا
كِي تَحُوطَهُ وَتَرْعَاهُ، إِذَا هُوَ مُقْبِلٌ كَأَنَّمَا رَمَى بِهِ الْإِعْصَاؤُ فِي الْعَرَاءِ، وَتَمَحَّصَتْ عَنْهُ

العاصفة وَوَضَعَتْهُ فِي التِّيَّارِ الدَّائِرِ فِي جُنُونٍ.

أَسْرَعْتُ إِلَيْهِ أَغْتَنِفُهُ دُونَ الْهَيْكَلِ، وَهُوَ يُلْفُنِي كُثْلَةَ طُفُولَةٍ، حَذَرًا عَلَيَّ مِنْ طَيْشِ هَذَا اللَّيْلِ، وَفِي الْهَيْكَلِ آسْتَنِدُ إِلَى صَدْرِي كَالَّذِي خَرَجَ مِنَ الْمَعْرَكَةِ ظَافِرًا، يُجَدِّدُ حَيَاتَهُ فِي جِسِّ مَخْلُوقٍ جَدِيدٍ، إِنَّهُ خَرَجَ ظَافِرًا مِنَ مَعْرَكَةِ الْعَنَاصِرِ، وَقَدْ آسْتَدَارَتْ عَلَيْهِ بَضْرَاوَتُهَا. إِسْتَنَدَ إِلَى صَدْرِي وَأَطْمَأَنَّ كَأَنَّهُ يَجِدُ فِيهِ يَنْبُوعَ حَيَاةٍ، فَهُوَ يَسْتَمِذُّهُ بَعْضُ مَا آتَتْهُ الْعَاصِفَةُ، وَهُوَ يُصَارِعُ الْإِغْصَارَ.

قُلْتُ لَهُ، وَأَنَا أَدْعِدُّ جَبْهَتَهُ وَأَعْبْتُ بِشَعْرِهِ الْمُتَطَلِّلِ^(٢) الَّذِي كَمَنْتُ فِيهِ أَصَابِعُ الْعَاصِفَةِ: لِمَاذَا زُكُوتُكَ الْإِغْصَارَ إِلَى مِخْرَابِ حُبِّنَا؟ لَكَأَنَّكَ مِنْ عَدَمِ مُبَالَاتِكَ مُحِبِّ فَوْقَ بُرْكَانٍ... فَأَبْتَسَمَ وَأَخَذَ وَجْهِي بَيْنَ كَفَيْهِ يَقُولُ:

أَعْرِفُ أَنَّكَ تُصَلِّينَ فِي مِخْرَابِ الْحُبِّ وَلَا أَسْعَى إِلَيْكَ بِأَجْنَحَةِ الطَّيْرِ، كَيْ أُشَارِكَ تَوْنِمَةَ الْهَوَى وَتَوْتِيلَةَ الْهَيْامِ؟ إِنَّكَ لَتَقْسِينَ عَلَيَّ فِي الظَّنِّ بِي.

قُلْتُ: عَفْوُكَ! أَرَدْتُ أَنْ تَتَّخِذَ لِنَفْسِكَ مِخْرَابًا فِي الذِّكْرَى، وَلَا تَتَجَسَّسَ هَذِهِ الْأَخْطَارَ إِلَيَّ.

قَالَ: إِنَّ مِخْرَابَ الذِّكْرَى يُغْرِي بِالظَّمِّ فِي الْحُبِّ وَيُضَاعِفُ شُعُورَهُ، وَأَمَّا الرَّبِّيُّ فِي الْحُبِّ فَإِنَّمَا يَهْبِطُ فِي مِخْرَابِ هَذَا الصُّدْرِ الَّذِي يَمْرُخُ فِي فَضَائِهِ قَلْبٌ يَمْدُ بِنَدَى الْعَرَامِ.

إِلَيْهِ غَاذَةُ أَحْلَامِي! لَيْسَتْ الْعَاصِفَةُ الرَّعُوبُ هِيَ الَّتِي تَشْهَدِينَ فِي حَوَاشِي هَذَا اللَّيْلِ، وَإِنَّمَا هِيَ عَاصِفَةُ الْقَلْبِ وَقَدْ فَارَتْ فِيهِ فَائِزَةُ الْبَيْعِ، بَلْ يَلُكُ، بِجَنْبِ هَذِهِ، زَعْرَدَاتُ وَأَبْتِسَامَاتُ وَزَفَرَقَاتُ تُزِيلُهَا الطَّيْرُ مَعَ السَّحَرِ... قَسَمًا لَوْ حَالَتْ دُونَكَ أَرْضُ زُرْعَتْ فِيهَا كُلُّ الْبَرَاكِينِ، لَتَخَطَّيْتُهَا إِلَيْكَ مُغْتَبِطًا مَسْرُورًا.

(٢) نَعْنِي بِالْمُتَطَلِّلِ الْمُتَّخِذَ شَكْلَ الْأَطْلَالِ، وَتَقَعَلَ بِهِدَا الْمَعْنَى قِيَاسِي.

فَقُلْتُ مُعْتَرِضَةً: لَا تُبَالِغْ، فَإِنَّ هَذَا بَيْنَ الْبَشَرِ لَا يَكُونُ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ طِبَاعِ
الرَّيَّاتِ وَالْأَرْبَابِ... فَذَهَبَ ضَاحِكاً يَقْصُ عَلَيَّ قِصَّةَ ذَلِكَ الْعَاشِقِ الْكُرْدِيِّ الَّذِي
طَلَبَتْ مِنْهُ فَتَاةٌ هَوَاهُ وَرَدَّةَ حُمْرَاءٍ وَأُخْرَى صَفْرَاءَ، وَكَانَتْ حَدِيقَةُ الْوُرُودِ فِي يَقْظَةِ
حُرَّاسٍ أَشِدَّاءَ، وَفِي عَيْنِ أَسْوَدٍ غِضَابٍ، وَتَفْصِيلُ دُونِهَا نَهْرٌ يَعُجُّ بِالتَّيَّارَاتِ، فَانْطَلَقَ
الْعَاشِقُ فِي مَدَى رَغْبَتِهَا يَخْوِضُ النَّهْرَ، وَتَقَلَّبَ فِي حَدِيقَةِ الْوُرُودِ يَبْحَثُ عَنِ
الْوَرْدَةِ الْحُمْرَاءِ فَلَمْ يَجِدْهَا. فَعَادَ مُبَلَّلَ الثِّيَابِ يَقُولُ لَهَا مُبْتَهَجاً: لَقَدْ أَتَيْتُكَ
بِهِمَا... فَإِنَّهُ كَانَ يَحْمِلُ فِي يَدِهِ الْوَرْدَةَ الصَّفْرَاءَ، وَأَمَّا الْوَرْدَةُ الْحُمْرَاءُ فَكَانَ يَحْمِلُهَا
فِي صَدْرِهِ تُعْرَةُ فَوَارَةٍ بِالْدمَاءِ، فَقَدْ أَصَابَ سَهْمُ الْحُرَّاسِ قَلْبَهُ فَسَطَرَهُ...

قُلْتُ لَهُ مُفْجَعَةً: أَكُونُ ذَلِكَ حَقّاً؟

قَالَ: لَيْسَ هُوَ بَعِيداً عَنْكَ، أَلَا فَاثْمَتْنِي فِي الْعَاشِقِ الْكُرْدِيِّ. أَقُولُ لَكَ وَأَنَا
أُعْنِي مَا أَقُولُ، لَوْ تَحَدَّثْتَنِي كُلُّ أَرْبَابِ الْأُولَمِ كَمَا تَحَدَّثُ هِرْقَلٌ لِقَاوَمَتِهَا فِي سَبِيلِكَ
سَاحِراً بِقُوَّتِهَا... فَأَخَذْتُ عَلَيْهِ سَبِيلَ الْاسْتِمْرَارِ، وَقُلْتُ لَهُ:

يَحْقِي لَا «تُجَدِّفْ» عَلَى الْأَرْبَابِ، وَأَيْضاً فِي هَيْكَلِ رَبَّةِ الْجَمَالِ فِينُوسَ، إِنِّي
أَخَافُ عَلَيْكَ... فَانْقَلَبَ يَقْهَقُهُ قَائِلاً:

لِمَاذَا لَا تُفَكِّرِينَ أَنَّكَ أَنْتِ الرَّبَّةُ الْحَقِيقِيَّةُ، وَأَمَّا فِينُوسُ فَرَبَّةٌ خَيَالِيَّةٌ أَثِيرِيَّةٌ
فَقَدَتْ حَرَارَتَهَا، وَبِإِبْرَازِكَ كَاهِنَةً فِي هَيْكَلِهَا، يَمْدُونُ وُجُودَهَا الْبَارِدَ فِي الْخَيَالِ،
بِحَرَارَةِ أَنْتِ تَنْشُرِينَهَا وَتُورِّعِينَهَا. فَوَضَعْتُ يَدِي مُتَوَلِّهَةً عَلَى فَمِهِ أَقُولُ:

لَا لَا أُرِيدُ أَنْ أَسْمَعَ مِنْكَ تَجْدِيفاً. أَوْ لَقَدْ فَجَعْتَنِي، أَأَنْتِ أَيْضاً يَا بُدَيْحُ
تَتَكَلَّمُ بِ «الْهَرُوطَاتِ»؟...

لَقَدْ كُنْتُ فِي ذَلِكَ الْحِينِ مُؤْمِنَةً بِقُدْرَةِ الرَّيَّاتِ، وَأَنَا أَرْغَبُ عَلَى مَنْ أُحِبُّ
بأنَّ يَكُونُ مِثْلِي رَأياً وَإِيمَاناً، لَكِنِّي عَرَفْتُ، بَعْدَ ذَلِكَ، أَنَّ بُدَيْحاً كَانَ أَعَمَّقَ مِنِّي

معرفةً وأهدى تفكيراً.

لقد كنتُ مُفَعَّمَةً بالإيمان، فَصَوَّرَهُ لي حديثُهُ صورةً مُنْكَرَةً تُوحي بالشُّرِّ الكَرِيهِ، فَأَنْقَبَضْتُ عَنْهُ وَذُعِرْتُ مِنْهُ، وَبَالَغَ بِي هَذَا الدُّعْرُ فَكَرِهْتُهُ، وَغَدْتُ بَعْدَ ذَلِكَ أَتَحَاشَاهُ وَأَنْفِرُ مِنْهُ، أَوْدُ أَنْ لَا أَرَاهُ. وَكُنْتُ أَسْأَلُ نَفْسِي: أَيْكُونُ بُذِيحٌ مُجَدِّفاً وَهُوَ فِي نَفْسِي صَوْرَةٌ مِنْ مَلَائِكَةٍ؟ كَلَّا لَا أَوْدُ أَنْ أَخْنُقَ يَدَيَّ بُذِيحاً الْعَائِشَ فِي خَيَالِي، أَوْدُ أَلَّا تَتَشَوَّهَ صَوْرَتُهُ فِي نَفْسِي، وَأَنَا، إِذَا اجْتَمَعْتُ إِلَى بُذِيحٍ سَتَمَتُّ يَدُهُ إِلَى تَشْوِيهِ مَا اسْتَوَى فِي خَيَالِي عَنْهُ. وَلَكِنْ بُذِيحاً الْخَيَالِيِّ مُحَبَّبٌ إِلَيَّ الْحُبُّ كُلُّهُ، وَأَتَمَنَّى أَنْ أَظِلَّ مُتَمَتِّعَةً بِهِ، مُنْتَشِيَةً بِمِثَالِيَّتِهِ، وَمِثْلِي كَاهِنَةً رَاضَتْ نَفْسُهَا عَلَى الْأَخْلَامِ، إِنَّمَا تُحِبُّ فِي أَخْلَامِ الرُّوحِ دُونَ حُبِّ فِي أَخْلَامِ الْأَعْصَابِ، فَكَانَ طَبِيعِيًّا أَنْ كُنْتُ أَتَوَارَى كُلَّمَا تَعَرَّضَ لِي بَعْدَ ذَلِكَ. وَهَذَا مَا يَقَعُ إِذَا لَمْ يَكُنِ الْإِيمَانُ فِكْرَةً فِي النَّفْسِ، بَلْ كَانَ عُقْدَةً فِي الرُّوحِ؛ أَوْ أَرْمَةً فِي الْوِجْدَانِ. وَكُلَّمَا كَانَ إِيمَانُ الْمَرْءِ عُقْدَةً فِي الرُّوحِ تَكُونُ عَوَاطِفُهُ قَاصِرَةً عَلَى مَنْ يُشَارِكُهُ هَذَا الْإِيمَانُ دُونَ سِوَاهُ، بَلْ يَتَعَدَّى ذَلِكَ فَتُشَاوِرُهُ نَزَعَاتٌ يَتَحَرَّكُ مَعَهَا تَعَضُّبُهُ.

أَمَّا الْفِكْرُ الْمُجَرَّدُ فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُ تَعَضُّبًا، وَإِنَّمَا التَّعَضُّبُ فِي مَكَانِ الْوِجْدَانِ مِنَ النَّفْسِ، فَهِيَ، أَيُّ نَزَوَاتِ النَّفْسِ، تَتَحَكَّمُ بِالْعَوَاطِفِ وَتُكْسِبُهَا لَوْنَهَا. وَكُلَّمَا كَانَ الْفِكْرُ أَكْثَرَ ضَبِيقًا، وَالْوِجْدَانُ أَكْبَرَ عُقْدًا، فَهُنَاكَ يَوْجَدُ شَرُّ أَنْوَاعِ التَّعَضُّبِ، وَعِنْدَهُ يَسْتَضِيْقُ الْمَرْءُ حَتَّى يَوْجِدَ مَنْ لَا يُشَارِكُوهُ عَقِيدَةَ الْإِيمَانِ عَلَى لَوْنٍ مَا وَنَحْوِ مَا. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ هَذَا بَعْضٌ مِنْ طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي الْبَشَرِيِّ وَلَا أَقُولُ الْإِنْسَانَ، فَإِذَا كَانَ فِي الثَّدْيَيْنِ فِكْرَةُ إِيْمَانٍ فَهُنَاكَ تَدْبُرُ صَحِيحٌ عَلَى نَهْجِ الْإِنْسَانِيِّ، وَأَمَّا إِذَا كَانَ فِي الثَّدْيَيْنِ أَنْأَنِيَّةُ إِيْمَانٍ فَهُنَاكَ أخطَرُ شَكْلِ مِنْ أَشْكَالِ اللَّإِنْسَانِيَّةِ الْفُكْرَاءِ.

فَنَزَعَةُ الثَّدْيَيْنِ الصَّحِيحَةُ هِيَ الَّتِي تَجْعَلُنَا نَحْكُمُ الْإِيمَانُ بِالْفِكْرِ، دُونَ الْعَكْسِ الَّذِي يَتَوَلَّدُ مِنْ أَرْمَةِ نَفْسٍ وَيُولَدُ أَرْمَةُ نَفْسٍ وَحَيَاةٌ أَيْضًا. أَمَّا الْفِكْرُ فَلَيْسَ يَقْبَلُ

عُقْدَةً، بَلْ مِنْ وَظِيفَتِهِ أَنْ يَحُلَّ الْعُقْدَ فِي النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْحَيَاةِ وَالْوُجُودِ... وهو إذا قَبِلَ الْعُقْدَ أَحْيَانًا فَإِنَّمَا يَقْبَلُهَا فِي ضَرْبٍ مِنَ الْامْتِحَانِ، وَفِي ضَرْبٍ خَفِيَّةٍ مِنَ الْاِزْتِيَابِ، فَالْفِكْرُ يُرَادِفُ الْامْتِحَانَ أَوْ النَّقْدَ الْمُجَرَّدَ. وَتَقَدُّمُ الْإِنْسَانِ مَعْنَاهُ تَقَدُّمُهُ فِي الْفِكْرِ الَّذِي يُتَّبِعُ حُلَّ أَكْبَرِ مَقْدَارٍ مِنَ الْعُقْدِ. وَفِي ظَنِّي الْيَوْمَ أَنَّ تَقَدُّمَ الْفِكْرِ لَيْسَ مَعْنَاهُ الْقُدْرَةُ أَوْ الْغِنَى فِي التَّفَكُّيرِ، بَلْ مَعْنَاهُ الْكِفَاءَةُ عَلَى التَّفَكُّيرِ بِدُونِ أَغْصَابٍ، أَيْ بِتَجَرُّدٍ لِلْفِكْرِ، وَمِنْ ثَمَّ لَا تُحِبُّ أَوْ تُكْرَهُ وَفَقَّ مَا نَعْتَقِدُ وَنَهْوِي، وَلَا يَضُرُّ بِنَا الْقُرْبُ أَوْ الْبُعْدُ، بَلْ تَمَّحِي فِكْرَتُهُمَا ثُمَّ لَا تَتَصَرَّفُ بِعَوَاطِفِنَا تَبَعًا لِهَمَا.

لَيْتَنِي كُنْتُ أَغْرِفُ هَذَا مِنْ قَبْلُ، إِذَا لَمَّا جَفَوْتُهُ وَنَفَرْتُ مِنْهُ، وَظَلَّلْنَا فِي مُثْعَةٍ الْحُبِّ الْخَالِدِ... لَقَدْ رَأَى بُدَيْخٌ مِنِّي ذَلِكَ الْإِعْرَاضَ فَلَمْ يُطِيقِ الْحَيَاةَ وَاجْتَوَاهَا، فَذَهَبَ عَلَى وَجْهِهِ، لَا أَذْرِي أَتَيْنَ رَمَتْ بِهِ يَدُ الْأَقْدَارِ؟

وَلَقَدْ أَحْسَسْتُ وَاللَّهِ، بَعْدَ مَا فَقَدْتُهُ، بِالْأَسَى الْوَائِخِ الْأَسِيفِ، فَطَلَبْتُ السَّلَوةَ فِي الشُّرُودِ بِالْمَغْرِفَةِ، فَأَنْدَفَعْتُ إِلَى فِكْرِ جَدِيدٍ؛ وَهَجَرْتُ الْهَيْكَلَ وَأَبْتَدَأْتُ رِخْلَتِي وَرَاءَهُ مِنْ نُقْطَةٍ هَائِمَةٍ، فَأَنْتَهَتْ بِي قَرَايِنَةُ الرُّومِ إِلَى حَيْثُ مَكَانِي، وَكَانَ قَدْرًا مَايَعَا، فَقَدْ رَأَيْتُ بُدَيْخًا...

بَعْدَ مَقَامٍ قَصِيرٍ فِي الْبِلَاطِ «حُمِلْتُ إِلَى الْمَدِينَةِ مَشْفُوعَةً بِأَمْوَالٍ عَظِيمَةٍ وَهَدَايَا كَثِيرَةٍ مُتَنَوِّعَةٍ، وَمُحَاطَةً بِكُوكَبَةٍ مِنَ الْفُرْسَانِ، وَزُودَ الْمَلِكُ رَئِيسَ الرُّكْبِ كِتَابُهُ إِلَى الْحُسَيْنِ، جَاءَ فِيهِ:

إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ آسْتَرَى جَارِيَةً فَأَعْجَبَتْهُ فَأَتَرَكَ بِهَا».

أَدْخِلْتُ عَلَى الْحُسَيْنِ وَهُوَ مُنْصَرِفٌ إِلَى قُرَائِهِ، سَابِخُ فِي مَدَى تَأْمُلَاتِهِ يَقْرَأُ «وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ، قَالَ يَا بُشْرَايَ، هَذَا غُلَامٌ. وَأَسْرَوْهُ بِضَاعَةً. وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ».

وكانَ في الجوّ الَّذي يَكْتَنِفُ الحُسَيْنَ ما أَعَادَ إِلَيْهَا ذِكْرَى الهَيْكَلِ، وَنَقَلَهَا
إِلَى مِثْلِ المِحْرَابِ، وزَادَ بها هذا الشُّعُورُ، فَأَعْتَقَدَتْ يَقِيناً أَنَّهَا لَمْ تُعَدِّ فِي شَيْءٍ مِمَّا
يَتَّصِلُ بِدُنْيَا النَّاسِ، فَحَفَّتْهَا سَكِينَةٌ، وَلَفَّتْهَا هَذَاهُ رُوحٌ، وَغَرِقَتْ فِي خِصَمٍ بَعِيدِ
الْقَرَارِ. وَأَحْسَسَتْ أَنَّهَا مِثْلُ غِرْنِيكِ (طَيْرِ المَاءِ) تَتَرَجَّحُ بِهِ الْأَمْوَاجُ الحَالِمَاتُ، وَكَانَتْ
سَكْرَى بِمَا يَسْأَقُطُ إِلَى سَمْعِهَا مِنْ نَعَمَاتٍ مَسْحُورَةٍ، تَشْعُرُ بِهَا فِي مَدَى رُوحِهَا
عَذْبَةً نَدِيَّةً.

كَانَتْ لَهَا هَذَاهُ طَوِيلَةٌ لَمْ تُفِقْ مِنْهَا إِلَّا عَلَى صَوْتِ الحُسَيْنِ يَسْتَقْبِلُ رَئِيسَ
الرُّكْبِ، وَرَاحَ هَذَا يُخْبِرُهُ بِكُلِّ خَبَرِهَا، وَيَزُوي لَهُ كُلَّ مَا تَرَقَّى إِلَى سَمْعِهِ مِنْ
أَنْبَائِهَا. فَالْتَفَتَ الحُسَيْنُ إِلَيْهَا فِي آبِتْسَامَةٍ مُوَاسِيَةٍ يَقُولُ:

لَطَنِي بِكَ، وَأَنْتِ جَدِيدَةٌ عَهْدٍ بِالْأَغْتِرَابِ، أَنْتِ مَوْحِشَةُ النَّفْسِ، وَبِوَدِّي أَنْ
تَتَذَارَكَكِ حَالٌ تَأْنِسِينَ بِهَا وَتَطْمَعِيْنِينَ.

قَالَتْ لَهُ هَوَى: كُنْتُ خَلِيقَةً بِالْوَحْشَةِ فِي غَيْرِ مَكَائِكَ. وَلَكِنِّي، وَأَنَا فِيهِ،
فَإِنِّي جَدِيرَةٌ بِأَطْمِئْنَانٍ فِي النَّفْسِ وَالضَّمِيرِ...

شَاعَتْ عَلَى وَجْهِ الحُسَيْنِ آبِتْسَامَةٌ هَادِئَةٌ هَانِئَةٌ، وَقَالَ دَهْشاً: لَقَدْ سَبَقَ إِلَى
ظَنِّي أَنَّكَ لَا تُجِيدِينَ الْعَرَبِيَّةَ عَلَى نَسَقٍ مَا أَسْمَعُ، وَلَكِنْ أَمَّا وَأَنْتِ مِثْلُ أَصِيلَةٍ فِي
اللِّسَانِ، فَلَنْ تَكُونِي غَرِيبَةً عَنْ حَيَاةِ بَيْعَتِنَا الْعَرَبِيَّةِ، إِنْ لَمْ تَتَذَوَّقِيهَا مِثْلَ أَصِيلَةٍ فِيهَا
أَيْضاً...

فَابْتَسَمَتْ فِي اسْتِخْيَاءٍ وَإِعْضَاءٍ وَقَالَتْ: بَلْ يَا مَوْلَايَ - لِأَجْسٍ فِي
كَتِفِكَ أَتِي عَرَبِيَّةٌ صَلِيبِيَّةٌ، عَرِيقَةُ الْهَوَى وَالْقَلْبِ فِي مَوَاقِعِ رَغْبَائِهَا وَمُيُولِهَا، وَلَقَدْ
حَبَّبَ إِلَيَّ لِسَانَ الْعَرَبِ أَنَّهُ يَتَمَتَّعُ بِأَكْبَرِ قِسْطٍ مِنْ وَحْيِ الطَّبِيعَةِ وَالْفِطْرَةِ، فِيهِ صُورٌ
وَأَصْدَاءٌ، وَمَنَاطِرٌ تَامَّةٌ صَادِقَةٌ أَنْتَزَعَتْ مِنَ الطَّبِيعَةِ مُبَاشَرَةً، وَشَكِبَتْ فِي قَوَالِبِ

الألفاظ بِدِقَّةٍ وَحَقِيقَةٍ، بَلْ لَقَدْ أَفْرَعَتِ الطَّبِيعَةُ أَشْيَاءَ ذَاتِيَّتِهَا فِي الْكَلِمَاتِ، كَأَنَّهَا طَلَبَتْ حَرَكَتَهَا الْحَيَّةَ فِي اللَّغَةِ.

وَفِي لِسَانِ الْعَرَبِ أَيْضاً مَشَاعِرُ وَأَحَاسِيسُ إِنْسَانِيَّةٌ وَحَيَوِيَّةٌ، لَمْ تَتَحَرَّفْ وَتَتَكَسَّرْ بِتَحَكُّمِ الْفِكْرِ وَآخِثِلَاقِهِ، وَبِعِبَارَةٍ أَصَحَّ تَشْوِيهِهِ. فَهَذَا اللَّسَانُ طَبِيعَةٌ وَحَيَاةٌ وَإِنْسَانِيَّةٌ فِي أَصْدَقِ أَلْوَانِهَا، وَمُفْرَدَاتُهُ كَلِمَاتُ الطَّبِيعَةِ أَوَّلُ مَا تَحَوَّكَتْ وَنَطَقَتْ، فَقَدْ تَصَيَّدَهَا الْعَرَبِيُّ وَأَنْتَحَتَهَا، وَهُوَ بَعْدُ يَتَوَجَّهُ بِالْقَرِيحَةِ النَّقِيَّةِ، دُونَ آلِتَوَاءَاتِ الْفِكْرِ وَالتَّيَفَافِيَةِ، فَهِيَ أَنْتَى مَا تَكُونُ لُغَةٌ فِي مَذْهَبِ التَّعْبِيرِ.

وَلَقَدْ عَمَدْتُ إِلَى كَهْفٍ رُوحِي فَوَجَدْتُهُ قَائِماً حَالِكاً، وَرَأَيْتُ مِضْبَاحَ فِكْرِي خَائِباً، وَهُوَ إِذَا تَوَقَّدَ وَشَعَّ، فَلَا يُضِيءُ كَهْفَ رُوحِي، وَأُظْلِمُ مِنْهُ فِي دَيْجُورٍ، فَقَدْ حِيلَ بَيْنَهُمَا بِشَدُودٍ كَثِيفَةٍ صَفِيقَةٍ، لَكِنِّي وَجَدْتُ دِينَكُمُ الْجَدِيدَ قَدْ حَاوَلَ، وَنَجَحَ إِلَى أَكْبَرِ حَدٍّ، فِي رَفْعِ هَذِهِ الشَّدُودِ الْقَائِمَةِ فِي دُرُوبِ النَّفْسِ، وَأَذَكَى شُعْلَةَ الْفِكْرِ، فَاتَّصَلَ مَا بَيْنَ الْفِكْرِ وَالرُّوحِ بِالشُّعَاعِ وَبِثُّ مُتَالِّقَةِ الْمَعْنَى، فَسَكَنْتُ إِلَى دِينِكُمْ، وَطَعِمْتُهُ أَيْضاً فَتَعَشَّقْتُهُ، إِنَّهُ رَفَعَ الشَّدُودَ فِي دُرُوبِ رُوحِي، وَكَانَتْ هَائِمَةً مُتَخَبِّطَةً بَيْنَ سَدٍّ وَسَدٍّ، وَأُطْلَالٍ خُرَافَاتٍ وَأَسَاطِيرِ.

قَالَ: لِلَّهِ أَنتَ! أَكُنْتَ حَكِيمَةً أَمْ أَدِيبَةً؟ هَلْ «تُجِيدِينَ الْقُرْآنَ» تِلَاوَةً؟

قَالَتْ: نَعَمْ.

قَالَ: فَأَقْرَئِي عَلَيَّ، إِنَّ شِعْتِ... فَرَاخَتْ تَثْلُو «وَعِنْدَهُ مِفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَمَا تَنْشَقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا، وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ، وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ. وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ، وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ، ثُمَّ يَنْبَعُثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ، ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ. وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ

حَفَظَةً، حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا، وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ. ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ، أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ... وَكَانَتْ تَتَوَاجَدُ فِي تِلَاوَتِهَا تَوَاجَدَ مَنْ قَدْ أُخِذَ بِنَشْوَةِ مُفَعَّمَةٍ.

قَالَ لَهَا: يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّكَ أَكْثَرُ وَغِيًّا لِهَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْعَرَبِ أَنْفُسِهِمْ، لِمَا رَأَيْتُ عَلَيْكَ مِنْ سَبَحَاتِ الْحَشِيَّةِ.

قَالَتْ: يَوَدِّي أَنْ أَكُونَ عِنْدَ ظَنِّ مُوَلَايَ بِي. وَلِمَ لَا يَغْرُونِي مَا قَدْ عَرَانِي؟ وَأَنَا أَتْلُو هَذِهِ الْآيَاتِ الْقَوَارِعَ الَّتِي تَجْعَلُنِي فِي مُحِيطِ عِلْمِ اللَّهِ وَكَأَنِّي كُلُّ مَا فِي الْحُيْطِ أَوْ لَيْسَ غَيْرِي فِيهِ، عَلَى أَنَّنا مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ فِي مَسَرِّحِ نَقُومِ عَلَيْهِ بِأَدْوَارِنَا، وَلَسْنَا نَدْرِي أَمْحَسِنُونَ نَحْنُ فِي أَدْوَارِنَا أَمْ مُسَيِّمُونَ، ثُمَّ هَلْ هُنَاكَ أَنْقَى تَصْوِيرًا لِعَلَاقَةِ اللَّهِ الْمَسْبُوبَةِ فِي الْوُجُودِ، وَلِعَلَاقَةِ اللَّهِ الْأَدْبِيَّةِ بِالْإِنْسَانِ؟ أَمَا فِي كُلِّ هَذَا مَا يَبْعَثُ عَلَى الدَّهْشَةِ وَالْحَشْيَةِ جَمِيعًا؟ أَمَا فِيهِ مَا يُغْرِي الرُّوحَ بِلَحْظَةِ سَكِينَةٍ وَهَذَاهُ تَأْمُلُ؟

وَكَانَ الْحُسَيْنُ يُقَاطِعُهَا بِقَوْلِهِ: إِيهَذَا إِلَيْهِ أَيْ بُنْيَتُهُ، فَقَدْ أَحْسَنْتِ وَاللَّهِ!...

وَوَاصَلَتْ تَقُولُ: أَمَا يَجِدُ مُوَلَايَ فِي الْوُقُوفِ عِنْدَ هَذَا التَّعْبِيرِ «مِفْتَاحِ الْغَيْبِ» مَا يَبْعَثُ عَلَى التَّأْمُلِ الطَّوِيلِ، وَيَنْشُرُ فِي الْقَلْبِ وَجَمَّةَ تَفْكِيرٍ مَدِيدٍ؟ هَذَا التَّعْبِيرُ الَّذِي يَرْسُمُ الْغَيْبَ فِي الْخَيَالِ عَلَى هَيْئَةِ أَذْرَاجٍ قَامَتْ عَلَيْهَا الْأَغْلَاقُ، وَفِي كُلِّ أَشْيَاءِ الْوُجُودِ وَالطَّبِيعَةِ غَيْبٌ مَسْتَوْرٌ، أَوْ فَضَاءٌ وَدُنْيَا مِنْ عَالَمٍ غَيْبِيٍّ مَخْجُوبٍ، فَالْشَّيْءُ مِنَ الْوُجُودِ دَرَجٌ غَيْبِيٍّ يَنْسَبُخُ فِيهِ عَالَمٌ خَفِيٌّ مَدِيدٌ، وَعِنْدَ اللَّهِ مِفْتَاحُهُ، وَمَا مُحَاوَلَاتُنَا الْحَثِيَّةُ فِي آسْتِكْنَاهِهِ إِلَّا غَوْصٌ وَوُقُوفٌ عِنْدَ الشَّاطِئِ بِإِزَاءِ هَذَا الْمَجْهُولِ الْمُتَقَطِّرِ وَضُوحُهُ بِكَلِمَةِ «مِفْتَاحِ» الدَّائِرَةِ فِي حَرَكَتِهَا عَلَى الْأَغْلَاقِ.

قَالَ: لَقَدْ زِدْتُ عَلَى الْإِحْسَانِ، أَيْ بُنْيَتُهُ... وَأَضْفَى صُمُوتٌ طَوِيلٌ كَانَ

مَسْرَحَ خِوَاطِرِ شَتَّى، وَلَكِنَّ الْحُسَيْنَ قَطَعَهُ بِقَوْلِهِ:

أَلَا تَزْوِينَ «شَيْعاً مِنَ شَيْعِرِ الْعَرَبِ» وَأَذْبِهِمْ؟

قَالَ: بلى... وكانت لم تزل في إثارة من صوفيَّتها، فَأَنْشَدَتْهُ أَيْبَاتاً جَاءَ

بَيْنَهَا:

أَنْتَ نِعَمَ الْمَتَاعِ لَوْ كُنْتَ تَبْقَى غَيْرَ أَنْ لَا بَقَاءَ لِلْإِنْسَانِ

وَلَذَّاهَا الْإِنْشَادُ فِي هَذَا اللَّوْنِ الْمُبْطِنِ بِالرَّوْحِ وَلَقَاتِ الْإِشْرَاقِ، فَأَنْشَدَتْهُ شِعْراً
سَبَقَ لَهَا أَنَّهَا أَنْشَأَتْهُ مُعَبَّرَةً عَنْ شُعُورِ نَفْسِهَا «فِي مَجْلِسِ مُعَاوِيَةَ»، وَمَا قَدْ كَوَّنَتْهُ مِنْ
نَظَرَةٍ إِلَى الْحَيَاةِ وَقِيَمَتِهَا وَجُهْدِ الْحَيِّ فِيهَا:

رَأَيْتُ الْفَتَى يَمْضِي وَيَجْمَعُ بِجَهْدِهِ رَجَاءَ الْغِنَى، وَالْوَارِثُونَ قُعودُ

وَمَا لِلْفَتَى إِلَّا نَصِيبٌ مِنَ الثَّغَى إِذَا فَارَقَ الدُّنْيَا عَلَيْهِ يَعُودُ

فَلَمْ يَمْلِكِ الْحُسَيْنُ إِلَّا أَنْ يَتَوَاجَدَ، وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ فَاضَ فِي قَلْبِهِ يَنْبُوعُ حَنَانٍ،
تَنَدَّدَتْ مَعَهُ مُفْلَتَاهُ، وَتَبَلَّوْرَ فِيهِمَا مِثْلُ الدَّمْعِ، وَإِلَّا فَهُوَ عُصَارَةُ شُعُورٍ بَعَثَ الثَّقْوَى.
ثُمَّ قَالَ لَهَا: إِذْهَبِي «فَأَنْتِ حُرَّةٌ، وَمَا بَعَثَ بِهِ مُعَاوِيَةُ مَعَكَ فَهُوَ لَكَ»، عَلَى أَنَّكَ
عِنْدِي أَبَدًا مِثْلُ كَرِيمَةٍ عَزِيزَةِ الْمَكَانِ فِي هَوَى أَهْلِهَا...

وَمَا هُوَ حَتَّى أَقْبَلَ بُدَيْعَ يَسْتَأْذِنُ عَلَيْهِ، فَقَدْ أَوْفَدَهُ مَوْلَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ
إِلَى دَعْوَةِ الْحُسَيْنِ، وَلَكِنَّهُ مَا إِنْ مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَى مَهَابَةً قَلْبُهُ مَرَّةً أُخْرَى، يَتَدَلَّى
أَنَّهُ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ كَانَ أَغْنَفَ شُعُوراً بِهَا، فَقَدْ جَدَّدَتْ عَهْدَ هَوَاهُ فِي دِمَشْقَ، وَقَدْ
أَحَالَتْ قَلْبَهُ الَّذِي كَانَ كَثِيلِيٍّ تَنَاهَى فِي حُبِّ ضَامِرٍ قَدِيمٍ، إِلَى قَلْبٍ جَدِيدٍ حَيَاةٍ،
أَنْصَبَ فِيهِ جَدِيدُ حُبٍّ مَا فَصَلَ عَنْهُ أَمْسٌ وَعَدَدٌ. فَتَاهَتْ حُرُوفُ كَلِمَاتِهِ فِي قِيَمِهِ،
وَأَخْضِرَتْ مُضْطَرِبَةً عَلَى لِسَانِهِ، وَقَسَرَأَ وَجَمَ فِي دُحُولٍ طَالَ بِهِ مَدَاهُ...

وَتَدَارَكُهَا مِثْلُ شُعُورِهِ وَغُصَّةِ قَلْبِهِ فَأَنحَطَفَ لَوْنُهَا، وَالْحُسَيْنُ يَرَى فَأَطْرَقَ
إِطْرَاقَةً مَائِجَةً بِالْإِيحَاءِ. مَرَّ فِي خَاطِرِهِ مَعَهَا أَنَّ بُدَيْحًا يَنْتَهِي إِلَى مِثْلِ غُرْبَتِهَا، فَغَيْرُ
بَعِيدٍ أَنْ تَكُونَ ذَاتَ هَوًى بِهِ وَضَرَبَ الزَّمَانُ بَيْنَهُمَا، فَبَاعَدَهُمَا قَدَرٌ عَادَ فِي دَوْرَةِ
أُخْرَى يَضُّهُمَا... وَجَدِيذٌ بِي أَنْ أَكُونَ خَطَّ النِّهَايَةِ فِي دَوْرَةِ الْقَدَرِ الْمُبْهَمَةِ،
فَالْتَفَتَ إِلَى بُدَيْحٍ وَقَالَ:

كُنْتُ عَلَى أَهْبَةٍ أَنْ أَسْتَقْدِمَكَ إِلَيَّ يَا بُدَيْحُ، فَسَقَطْتُ مِنْ نَفْسِي عَلَى مَوْعِدٍ،
أَنْتَ عِنْدِي مِثْلُ كَرِيمٍ عَزِيزٍ، وَهِيَ عِنْدِي مِثْلُ... فَاسْتَحَفَّ بِبُدَيْحٍ عَاصِفُ فَرْحَةٍ
كُبْرَى، حَتَّى كَانَتْهُ دُفِعَ إِلَى الْخُلْدِ مِنْ نَافِذَةٍ، بَعْدَ أَنْ حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَابِ طَوِيلًا.
وَلَمْ يَزَلْ مُكَبِّبًا عَلَى يَدِ الْحُسَيْنِ يُقْبِلُهَا، فِي مَوْضِعٍ تَلَاقَى عَلَيْهِ ثَغْرَانِ: ثَغْرُهُ وَثَغْرُهَا.
وَكَانَ فِي مَنْظَرٍ وَضَعِيهِمَا مَا أَفْعَمَ قَلْبَ الْحُسَيْنِ بِغِبْطَةِ الرُّوحِ «فَفَاضَتْ مُقْلَتَاهُ»
بَدْمَعِ الشُّرُورِ، الشُّرُورِ غَيْرِ الْمَحْدُودِ. وَتَذَلَّ لَهُمَا «أَلْفَ دِينَارٍ، وَقَامَ إِلَى صَلَاتِهِ»
هَانِيءَ الْقَلْبِ رَيَّانَ، نَاعِمَ الصَّمِيرِ نَشْوَانَ...

*

جَاؤُوا يَفْتَنِيصُونَهُ بِغَانِيَةٍ مِنْ قُتُونِ الدُّنْيَا...
لَعَلَّهُمْ يَهَيِّطُونَ بِهِ إِلَى مِثْلِ خَضِيضِهِمْ وَرُغَامِهِمْ...
يَعِدُّ أَنَّهَا مَا آسَتْهُوَتْهُ، عَلَى أَنَّهُ قَدْ آسَتْهُوَاهَا...
فَقَدْ مَسَّهَا بِشُعْلَةٍ مِنَ الْإِشْرَاقِ، غَدَتْ بِهَا خَلْقًا آخَرَ...

*

وَجَدَّ قَلْبًا حَائِرًا يَنْحُثُ عَنْ قَلْبِ تَائِهِ...
وَكُلَّمَا أَوْشَكَ أَنْ يَلْتَقِيَا، يُضِيعَانِ الطَّرِيقَ مَرَّةً أُخْرَى...

فَكَانَ هُمُ أَنْ يَصْنَعَهُمَا سَعِيدَيْنِ.. فَضَمَّ قَلْبًا إِلَى قَلْبٍ، وَمَزَجَ نَفْسًا
بِنَفْسٍ!....

* * *

إشارة

أَفَاقَ مَنْ فِي الْبَلَاطِ الْأُمَوِيِّ، عَلَى حَرَكَاتٍ غَيْرِ عَادِيَّةٍ، أَمْتَارَتْ بِالنَّشَاطِ فِي تَجَمُّعَاتٍ تَشَاوِرِ هَامِسٍ، وَكَانَ جَوْهُ هَذَا التَّجْمُّعِ مَطْبُوعاً بِطَابَعِ الْاهْتِمَامِ وَالْجِدِّ، فَقَدْ أَرْمَعَ أُسَاطِينُهُ إِحْدَاثَ أَنْقِلَابٍ خَطِيرٍ يَمَسُّ الْقَاعِدَةَ الْأَسَاسِيَّةَ لِلْحُكْمِ، وَفَوْقَ ذَلِكَ أَرْمَعُوا عَلَى أَخْذِ الْعَرَبِ بِحُكُومَةِ الْفَرْدِ، بَعْدَ أَنْ رَاضُوهُمْ عَلَيْهَا أَمْدًا لَيْسَ بِالْقَصِيرِ، وَبِأَسَالِيبَ كُلِّهَا الْعُنْفُ وَالْاِغْتِسَافُ فِي فِتْرَةٍ طَالَتْ دَوَابَّتُهَا، فَكَانَتْ تَارِيخًا أَمْتَلًا بِشُهَدَاءِ الْحُرِّيَّةِ وَالشَّعْبِيَّةِ فِي مَذْهَبِ الْحُكْمِ.

وَكَانَ قَدْ سَبَقَ الْمَلِكُ وَوَجَّهَ دَعْوَةً عَامَّةً إِلَى أُمَرَاءِ الْأَمْصَارِ، فَاجْتَمَعُوا لَدَيْهِ يَنْتَظِرُونَ سَمَاعَ الْمَفَاجِئَةِ الَّتِي مِنْ شَأْنِ هَذَا الْاهْتِمَامِ أَنْ يَنْطَوِيَ عَلَيْهَا. وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ تَكَلَّمَ الْمُعِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ، وَكَانَتْ السُّنُّ قَدْ تَنَاهَتْ بِهِ، فَلَمْ يَكُنْ صَوْتُهُ يَبِينُ، فَقَالَ: تَعْرِفُونَ أَنَّكُمْ الشُّعُورُ دُونَ الدُّنَا عِنْدَ الْمَلِكِ، فَعَلَيْكُمْ يَعْتَمِدُ، وَأَنْتُمْ الْبِطَانَةُ الَّتِي عَلَيْهَا يَتَكَلَّمُ، فَمَصَالِحُكُمْ مُزْبِتَةٌ، وَأَمْرُكُمْ بِأَمْرِهِ مُتَّصِلٌ، وَقَدْ آتَتْهُ رَأْيُ الْمَلِكِ إِلَى أَمْرِ خَطِيرٍ أَحَبُّ أَنْ يُفَاوَضَكُمْ بِهِ، وَيَشْتَشِيرَكُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْتَرِمَهُ وَيَعْقِدَهُ... فَاشْرَأَبْتُ أَعْنَاقَهُمْ وَتَطَلَّعُوا فِي إِضْغَاءٍ مُوَهَّفٍ، وَوَاصَلَ الْمُعِيرَةَ:

رَأَى الْمَلِكُ أَنْ لَا يُتْرَكَ النَّاسُ، بَعْدَهُ، سُدِّي «كَالضُّأَنْ لَا رَاعِي لَهَا»، وَقَدْ اخْتَارَ أَبْنَهُ الرَّشِيدَ يَزِيدَ، وَمَنْ أَكْفَأُ بِأَعْيَاءِ هَذَا الْأَمْرِ مِنْهُ؟ وَزَمَاهُمْ بِنَظَرَةٍ فَاحِصَةٍ

مُتَحَدِّثَةٍ، وراحوا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَلَفَّهُمْ صَمْتُ طَوِيلٍ قَطَعَهُ زِيَادٌ بِقَوْلِهِ:

«إِنَّ عِلَاقَةَ أَمْرِ الْإِسْلَامِ وَضْمَانَهُ عَظِيمٌ، وَيَزِيدُ صَاحِبَ رِسَالَةٍ وَتَهَاوُنٍ، مَعَ مَا قَدْ أُولِعَ بِهِ مِنَ الصَّيْدِ، فَرَوَيْدَنَا بِالْأَمْرِ... فَأَقِمُّنَ أَنْ يَتِمَّ لَنَا مَا نُرِيدُ. وَلَا نَعْجَلْ، فَإِنَّ دَرَكَاً فِي تَأْخِيرٍ، خَيْرٌ مِنْ تَعْجِيلٍ عَاقِبَتُهُ الْفَوْتُ»، فَقَدَفَهُ الْمُغِيرَةَ بِنَظَرَةٍ شَزْرَةٍ صَاعِقَةٍ، وَقَالَ:

أَكُنْتُ تَنْظُرُ أَنَّ الْمَشُورَةَ هُنَا مَغْنَاهَا إِثْدَاءُ الرَّأْيِ؟ وَهَلْ نَحْنُ بِحَاجَةٍ إِلَى رَأْيِ أَمْعَالِكَ؟ إِنَّ الْمَشُورَةَ هُنَا مَغْنَاهَا السَّمَاعُ وَالتَّنْفِيدُ وَالطَّاعَةُ فَقَطْ حَسَبُ. فَهَبْ عُيَيْدُ بْنُ كَعْبٍ التَّمِيمِيَّ، وَكَانَ مُسْتَشَارَ زِيَادٍ، يَشْرُحُ كَلَامَهُ وَمَا قَصَدَ إِلَيْهِ، فَقَالَ:

نَعَمْ. هُوَ مَا تَقُولُ، فَلَيْسَ عَلَيْنَا إِلَّا السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ، وَزِيَادٌ «لَمْ يُرِدْ أَنْ يُفْسِدَ عَلَى الْمَلِكِ رَأْيَهُ وَبُمَقَّتْ إِلَيْهِ آبَتُهُ. وَلَئِنَّمَا قَصَدَ أَنْ يُخَوِّفَ يَزِيدَ مِنْ خِلَافِ النَّاسِ لِهِنَايَ يَتَقِمُونَهَا عَلَيْهِ، فَتُسْتَحْكِمُ لِلْمَلِكِ الْحُجَّةُ عَلَى النَّاسِ، وَيَسْهَلُ لَهُ مَا يُرِيدُ.

فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: نِعَمْ مَا قُلْتَ، وَنِعَمْ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ زِيَادٌ.

وَلَمْ يَكُنْ زَمَنٌ طَوِيلٌ حَتَّى أُعْلِنَ ذَلِكَ فِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ عَلَى النَّاسِ، وَكَانَ مُعَاوِيَةُ قَدْ حَفَلَ لَهُ، وَطَلَبَ الْوُفُودَ مِنْ كُلِّ الْأَمْصَارِ، «وَقَرَأَ عَلَى الْجُمُوعِ عَهْدَهُ، وَفِيهِ عَقْدُ الْوِلَايَةِ لِيَزِيدَ»، فَأُصِيبَ بَعْضُ بِمَثَلِ الدَّهُولِ، وَبَعْضُ بِمَثَلِ الطُّيُوشِ، وَكَانَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ صَنَائِعُ ذَهَبُوا يُطْرَبُونَ وَيُزَيَّنُونَ، «فَقَامَ الصُّبْحَاكُ بْنُ قَيْسٍ فَقَالَ:

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: إِنَّهُ لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ وَالٍ بَعْدَكَ، وَالْأَنْفُسُ يُغْدِي عَلَيْهَا وَبِرَاحٍ، وَإِنَّ اللَّهَ قَالَ: «كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ»، وَلَا تَذَرِي مَا يَخْتَلِفُ بِهِ الْعَصْرَانِ. وَيَزِيدُ آتَنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فِي مُحْسِنٍ مَغْدِينِهِ وَقَصِيدِ سِيرَتِهِ، مِنْ أَفْضَلِنَا جِلْماً وَأَحْكَمِنَا عِلْماً، فَوَلِّهِ عَهْدَكَ، وَاجْعَلْهُ لَنَا عِلْماً بَعْدَكَ. فَإِنَّا قَدْ بَلَوْنَا الْجَمَاعَةَ وَالْأُلُفَّةَ، فَوَجَدْنَاهَا أَحْقَنَ لِلدَّمَاءِ وَأَمَنَ لِلشُّبُلِ وَخَيْرَآ فِي الْعَاقِبَةِ وَالْآجِلَةِ».

وقال عمرو بن سعيد:

«أيها الناس: إن يزيد أمل تأملونه، وأجل تأمنونه، طويل الباع، رخب الذراع، إذا صرتم إلى عدله وسعكم، وإن طلبتم رفته أعناكم. جدع قارع، شويق فسبق، وموجد فمجد، وقورع فقرع. خلفاً من أمير المؤمنين، ولا خلف منه...»
فقال معاوية: إجلس، أبا أمية، فلقد أوسعت وأحسننت.

فقال الأحنف بن قيس: يا أمير المؤمنين: «أنت أعلم بيزيد في ليله ونهاره، وسره وعلايته، ومدخله ومخرجه، فإن كنت تعلمه لله رضى ولهذه الأمة، فلا تشاور الناس فيه، وإن كنت تعلم منه غير ذلك، فلا تزوده الدنيا وأنت تذهب إلى الآخرة». فأحس يزيد بن المصنف، فوثب مزعداً مبرقاً، وقال:

«أمير المؤمنين هذا» وأشار إلى معاوية «فإن هلك فهذا» وأشار إلى يزيد، «فمن أبى فهذا...» وأشار إلى السيف.

فقال معاوية: آجلس فإنك سيد الخطباء.

وقام المشكين الدارمي الشاعر، فأنشد:

إذا المنبر الغربي خلاه ربه فإن أمير المؤمنين يزيد
وتهياً معاوية، فدعا الناس إلى المباينة «فقال رجل: اللهم إني أعود بك من
شرو.

قال معاوية له: تعوذ من شر نفسك فإنه أشد عليك، وبايع.

فقال: إني أبايع وأنا كاره للبيعة.

قال له: بايع أيها الرجل، فإن الله يقول: فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ
اللهُ فِيهِ خَيْراً كثيراً».

وما هو إلا أن حمَلَ النَّاسَ على البيعة في الشَّامِ والعِراقِ، فَتَوَجَّهَ مُعَاوِيَةُ لِإِعْدَادِ الرَّأْيِ العامِّ في المَدِينَةِ مِنْ أَجْلِ البيعةِ. «فَكَتَبَ إِلَى مَرْوَانَ بْنِ الحَكَمِ، وَكَانَ عَامِلَهُ على المَدِينَةِ، أَنْ آذِخَ النَّاسَ عِنْدَكَ إِلَى بَيْعَةِ يَزِيدَ، فَإِنَّ أَهْلَ الشَّامِ والعِراقِ قد بَايَعُوا. فَخَطَبَهُمْ مَرْوَانٌ فَخَضَّهُمْ على الطَّاعَةِ وَحَذَّرَهُمُ الفِتْنَةَ، وَدَعَاهُمْ إِلَى بَيْعَةِ يَزِيدَ، وَقَالَ هِيَ سُنَّةُ أَبِي بَكْرٍ الهَادِيَةِ المَهْدِيَةِ».

فَكَانَ لِهَذِهِ الدَّعْوَةِ وَقَعُ النَّارِ في الهَشِيمِ، وَسَرَتْ بَيْنَ الجُمُوعِ نَأْمَاتُ اسْتِثْكَارٍ، وَأَصْوَاتُ تَسْخُطٍ، وَتَزَايِدَ بِهِمْ هَذَا الاسْتِثْكَارُ وَهَذَا التَّسْخُطُ، فَأَنذَفَعُوا يَطْعَنُونَ وَيُقْذِعُونَ فِي الطَّعْنِ، وَمَضَوْا يَنْشُرُونَ الاِخْتِجَاجَ نَثْرًا دُونَ رِعَايَةِ وَحَذَرٍ.

فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ: «مَا صَدَقْتَ، إِنَّ أَبَا بَكْرٍ تَرَكَ الْأَهْلَ والعَشِيرَةَ، وَبَايَعَ لِرَجُلٍ مِنْ بَنِي عَدِيٍّ رَضِيَ دِينَهُ وَأَمَانَتَهُ، وَأَخْتَارَهُ لَأُمَّةٍ مُحَمَّدٍ... وَتَرَادَا طَوِيلًا، وَانْتَقَلَ بِهِمَا التَّجَاوُزُ إِلَى التَّشَاوُشِ والمُهَاوِزَةِ مِنْ قِبَلِ مَرْوَانَ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّ «هَذَا الْمُتَكَلِّمَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ: «وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَهِ أَفْ لَكُمْ، أَتَعْدَانِي أَنْ أُخْرِجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي» فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: أَفِينَا تَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ؟»...

وَقَطَعَ الحُسَيْنُ عَلَيْهِمَا، إِذْ هَبَّ وَاقِفًا، وَعَلَى سِيَمَائِهِ مَشَتْ غَضَبَةٌ مَكْظُومَةٌ رَاحَتْ تَنْطَلِقُ، وَقَدْ وَجَدَتْ سَبِيلَهَا:

«إِلَى النَّارِ تَذْفَعُونَ النَّاسَ بَعْدَ العَارِ»، لَقَدْ حَمَلُوا أَطْمَاعَكُمْ مُتَبَرِّمِينَ، وَتَرَكَوْا لَكُمْ أَنْتِهَابَ الدُّنْيَا كَمَا شِئْتُمْ وَشَاءَ الهَوَى، وَلَكِنْ آخِلَوْا فِي أَفْوَاهِكُمْ المُسْتَوْخَمَ فَتَخَطَّيْتُمُ الدُّنْيَا إِلَى العَبَثِ بالدِّينِ، فَأَخْرِ بِنَا أَنْ تَذْفَعَ النَّارَ بِالنَّارِ.. وَمَا هُوَ حَتَّى هَبَّ النَّاسُ يُنْكَرُونَ وَلَايَةَ يَزِيدَ فِي مِثْلِ الزُّرْمِ الدَّامِي.

فَكَتَبَ مَرْوَانٌ إِلَى مُعَاوِيَةَ بِذَلِكَ ، فَأَقْبَلَ إِلَى المَدِينَةِ فِي أَلْفٍ، فَلَمَّا قَارَبَهَا تَلَقَّيْتُهُ

الْجُمُوعُ عِنْدَ مَا تَبَيَّهَا وَمَدَاخِلُهَا، وَمَا أَخَذَ نَظَرُهُ الْحُسَيْنَ حَتَّى قَالَ: مَوْحِبًا بِ «سَيِّدِ شَبَابِ الْمُسْلِمِينَ»، قَرَّبُوا دَابَّةً لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ. وَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ أَبِي بَكْرٍ، وَلِابْنِ الرُّبَيْرِ. ثُمَّ أَنْطَلَقَ بِهِمْ حَتَّى أَتَى مَكَّةَ فَقَضَى حُجَّهَ، وَلَمَّا أَرَادَ الشُّخُوصَ أَمَرَ بِأَتْقَالِهِ فَقُدِّمَتْ، وَأَمَرَ بِالْمُنْبَرِ فَقَرَّبَ مِنَ الْكَعْبَةِ، وَهُنَا بَدَأَ مُفَاجَأَتُهُ الْإِنْتِخَابِيَّةَ دُونَ تَقْيِيدِ بَعُوفٍ أَوْ قَانُونٍ، فَأَرْسَلَ إِلَى الْحُسَيْنِ وَغُضْبَتِيهِ، وَهَوَلاءِ لَمْ يَخَفَ عَلَيْهِمْ مَا يَفْتَلِحُ فِي نَفْسِهِ، فَاجْتَمَعُوا وَتَدَبَّرُوا الْأَمْرَ مِنْ كُلِّ وَجْهِهِ، وَتَرَكَوا الْمُرَادَّةَ وَالْمُدَارَهَةَ لِابْنِ الرُّبَيْرِ، فَأَقْبَلُوا عَلَى مُعَاوِيَةَ، فَوَحَّشَ بِهِمْ، وَقَالَ:

«قَدْ عَلِمْتُمْ نَظَرِي لَكُمْ وَتَعَطُّفِي عَلَيْكُمْ وَصِلَاتِي أَرْحَامَكُمْ، وَيَزِيدُ أُوْحُوكُمْ وَآبَنُ عَمَّكُمْ. وَلَئِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَقْدِمَهُ بِاسْمِ الْخِلَافَةِ، وَتَكُونُوا أَنْتُمْ الْأَمْرَيْنِ النَّاهِيَيْنِ بَيْنَ يَدَيْهِ». فَزَادَ ابْنُ الرُّبَيْرِ:

«عِنْدَنَا إِحْدَى ثَلَاثٍ، أَيُّهَا أَخَذْتُ فِيهِ لَكَ رَغْبَةً وَفِيهَا نِيَّازٌ، إِنْ شِئْتَ فَاصْنَعْ فِينَا مَا صَنَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ (ص)، قَبْضُهُ اللَّهُ وَلَمْ يَسْتَخْلِفْ، فَدَخَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَخْتَارَ النَّاسُ لِأَنْفُسِهِمْ. وَإِنْ شِئْتَ فَمَا صَنَعَ أَبُو بَكْرٍ: عَهْدَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ قَاصِيَةِ قُرَيْشٍ، وَتَرَكَ مِنْ وَلَدِهِ وَمِنْ رَهْطِهِ الْأَذْنَبِينَ مَنْ كَانَ لَهَا أَهْلًا. وَإِنْ شِئْتَ فَكَمَا صَنَعَ عُمَرُ: صَيَّرَهَا إِلَى سِتَّةِ نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ يَخْتَارُونَ رَجُلًا مِنْهُمْ، وَتَرَكَ وَلَدَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ، وَفِيهِمْ مَنْ لَوْ وَلِيَهَا لَكَانَ لَهَا أَهْلًا».

قَالَ مُعَاوِيَةُ: هَلْ غَيَّرَ هَذَا؟ قَالَ: لَا. ثُمَّ قَالَ لِلْآخَرِينَ: مَا عِنْدَكُمْ؟ قَالُوا: نَحْنُ عَلَى مَا قَالَ ابْنُ الرُّبَيْرِ. فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: إِنِّي أَتَقَدَّمُ إِلَيْكُمْ وَقَدْ أَغْدَرَ مَنْ أَنْذَرَ، «فَأَنَا قَائِمٌ فَقَائِلٌ مَقَالَةً، وَأُقْسِمُ بِاللَّهِ لَئِنْ رَدَّ عَلَيَّ رَجُلٌ مِنْكُمْ كَلِمَةً فِي مَقَامِي هَذَا، لَا تَرْجِعْ إِلَيَّ كَلِمَتُهُ حَتَّى يُضْرَبَ رَأْسُهُ»... وَأَمَرَ أَنْ يَقُومَ عَلَى رَأْسِ كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ رَجُلَانِ بِسَيْفَيْهِمَا، وَخَرَجَ وَأَخْرَجَهُمْ مَعَهُ حَتَّى رَقِيَ الْمُنْبَرِ، وَخَفَّ بِهِ أَهْلُ الشَّامِ، وَاجْتَمَعَ النَّاسُ.

فَقَالَ، بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ وَالشَّائِءِ عَلَيْهِ: «إِنَّا وَجَدْنَا أَحَادِيثَ النَّاسِ ذَاتَ عَوَارٍ، قَالُوا: إِنَّ حُسَيْنًا، وَأَبْنَ أَبِي بَكْرٍ، وَأَبْنَ عُمَرَ، وَأَبْنَ الزُّبَيْرِ لَمْ يُبَايَعُوا لِيَزِيدَ، وَهَؤُلَاءِ الرُّهْطُ سَادَةُ الْمُسْلِمِينَ وَخِيَارُهُمْ لَا نُبْرِئُ أَمْرًا دُونَهُمْ، وَلَا نَقْضِي أَمْرًا إِلَّا عَنْ مَشُورَتِهِمْ، وَإِنِّي دَعَوْتُهُمْ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ، فَبَايَعُوا وَسَلَّمُوا وَأَطَاعُوا»... ثُمَّ قُرِبَتْ رَوَاجِلُهُ فَرَكِبَ وَمَضَى إِلَى الشَّامِ، تَارِكًا النَّاسَ فِي دَهْشَةٍ الْمَفَاجَأَةِ يُنْظَرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، عَلَى أَنَّهُمْ أَنَهَالُوا أَحْيَرًا عَلَى الْحُسَيْنِ وَأَصْحَابِهِ يَشْتَبِهُونَهُمْ، فَأَجَابُوا: «كَأَدْنَا بِكُمْ وَكَأَدَكُمُ بِنَا».

كَذَلِكَ أَنْتَهَتْ الْمَفَاجَأَةُ الَّتِي حَبَكَهَا مُعَاوِيَةُ، وَطَلَعَ بِهَا عَلَى النَّاسِ، غَيْرِ عَابِيٍّ بِأَنَّهُ أَقَامَ وَلَايَةً وَلَدِهِ عَلَى الْبُرْكَانِ، وَوَضَعَ الْقُنْبُلَةَ فِي أُسُسِ الْبِنَاءِ.

فَإِنَّ الْحُسَيْنَ - الَّذِي شَهِدَ الْمَثَلَ الْأَعْلَى لِلْحُكْمِ أَزْمَانَ جَدِّهِ وَأَبِيهِ وَمَنْ بَيْنَهُمَا، وَتَقَلَّبَ فِي الثُّورَةِ عَلَى الْحُكْمِ الشَّاذِّ، وَخَاضَ مَعْمَعَةَ الْبَطْشَةِ الْكُبْرَى الَّتِي كَالَهَا وَالِدُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ تَأَشَّبَ عَلَيْهِ أَعْدَاءُ الشُّعْبِ وَخُصُومُ حُرِّيَّتِهِ، وَرَافَقَ حَرَكَةَ التَّطْهِيرِ الَّتِي بَدَلَتْ فِيهَا مِنْ قَلْبِهِ وَنَفْسِهِ - يَجِبُ أَنْ يَغْضَبَ، وَأَنْ يَتَنَمَّرَ، وَأَنْ يَتَدَفَّعَ مُتَلَطِّيًا، وَأَنْ يَثُورَ مُبَغِّثِرًا فَتَنَاءً.

فَإِنَّ الْبِنَاءَ عَلَى الْفَسَادِ تَزْمِيْمٌ لِلْفَسَادِ، وَأَضْطِنَاعٌ لِفَسَادٍ آخَرَ جَدِيدٍ. بَيِّنْدَ أَنَّهُ فِي صُورَتِهِ الْجَدِيدَةِ فَسَادٌ مُرَكَّبٌ، وَهُوَ أَغْقَدُ أَمْرًا، وَأَكْثَرُ حَيَوِيَّةً، وَأَطْوَلُ بَقَاءً وَنِضَالًا.

لِذَلِكَ كَانَ عَمَلُ الْمُصْلِحِينَ الْحَقِيقِيِّينَ هَذَا وَبِنَاءً، وَلِذَلِكَ كَانَ الشُّطْرُ الْأَوَّلُ دَائِمًا أَرْوَعَ وَأَشَقُّ وَأَقْدَسُ، فَهُوَ كِفَاحٌ وَتَضَحِيَّةٌ وَتَغْيِيدٌ.

وَبِهَذَا، وَلَهُ فَقَطْ، رَأَيْنَا الْحُسَيْنَ يُوَلِّي وَجْهَهُ قِبَلَ الثُّورَةِ، قَبْلَ الْإِنْتِشَاءِ وَالْخَلْقِ مِنْ جَدِيدٍ.

*

فَلَمَّا يَبْزُزُ الْأَسَدُ، إِلَّا عِنْدَمَا تَقْنَاوُحُ الْأَرْجَاءُ بِالْعَوَاصِفِ...
كَأَنَّهُ يَأْبَى عَلَيْهَا أَنْ تُبَدِّدَ أَمْنَ الْغَابِ وَشُكُونَ جَلَالِهِ...
وعندما آخَتَدَمَتْ عَوَاصِفُ الْأَهْوَاءِ، أَنْطَلَقَ أَسَدُ الْإِنْسَانِيَّةِ يَدْفَعُ الْعَادِيَاتِ
عَنِ الْإِنْسَانِ...

*

الْبُرُكَانُ نَذِيرٌ بِالْإِنْفِلَابِ...
وَكَانَ الْحُسَيْنُ بُرُكَانَ الْإِصْلَاحِ...
وَقَدْ مَضَى كُلُّ مُضْلِحٍ بِقَبَسٍ مِنْ ذَلِكَ الْبُرُكَانِ، يُزِيلُهُ مَنَاراً يَهْدِي فِي
الْحَلَكِ!...

* * *

الحمد لله

في صَبِيحَةِ يَوْمٍ مِنْ رَجَبِ سَنَةِ سِتِّينَ، أَفَاقَ النَّاسُ فِي الْمَدِينَةِ عَلَى أَصْوَاتِ
الْعِلْمَةِ، يَمْرُحُونَ فِي الْأَرْقَةِ، وَهُمْ يَتَنَاشِدُونَ مَقَالَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ هِلَالِ السَّلُولِيِّ:

إِصْبِرْ يَزِيدُ... فَقَدْ فَارَقْتَ ذَا مِقَّةٍ وَأَشْكُرُ جِبَاءَ الَّذِي بِالْمَلِكِ حَابَاكَ

لَا رُزْءَ أَعْظَمُ فِي الْأَقْوَامِ، قَدْ عَلِمُوا يَمَّا رُزِئْتَ، وَلَا عُفَى كَعُقْبَاكَ

فَأَذْرَكُوا أَنَّ مُعَاوِيَةَ قَدْ قَضَى، وَأَنَّ يَزِيدَ قَدْ خَلَفَهُ، فَانْقَلَبُوا وَبَعْضُهُمْ يُحْرِقُ
الْأُكُومَ، وَيَتَمَيَّزُ حَقَقًا، وَبَعْضُهُمْ يَشُدُّ غُضُونَهُ تَجَهُّمًا، وَيَدْعُ وَجْهَهُ يَتَمَدَّدُ وَيَتَقَلَّصُ
دَهْشَةً وَرُغْبًا. وَمَشَى الْخَبَرُ كَمَا يَمْشِي النَّعْيُ، حَتَّى أَنْتَهَى إِلَى الْحُسَيْنِ فَعَيْنَ عَلَيْهِ
حَتَّى الْإِعْمَاءِ، كَأَنَّ الْأَرْضَ دَارَتْ بِهِ دَوْرَتَهَا سَرِيعَةً سَرِيعَةً، وَأَلَمَ بِهِ إِطْرَاقُ عَنِيْفٍ،
كَأَنَّ مَزِيحًا مِنَ اللَّوْعَةِ الْمُرَّةِ، وَالْأَسَى الْحَادِّ، وَالتَّنْمِيرُ الْعَضُوبِ. عَلَى أَنَّهُ طَفِيقٌ يُنَاجِي
نَفْسَهُ، وَقَدْ تَبَدَّتْ لَهُ مَاضِيَاتُ الثُّبُوتِ وَدُنْيَا الْقُرْآنِ وَجَلَالُ الْعَدْلِ الْإِسْلَامِيِّ:

إِلَهِي! مَاذَا أَسْمَعُ؟ أَيَكُونُ يَزِيدُ خَلِيفَتَكَ فِي عِبَادِكَ، وَهُوَ مَنْ عَرَفْتَهُ صَارِمًا لَا
يَشْعُرُ بغيرِ وُجُودِهِ، أَوْ يَشْعُرُ بِوُجُودِ الْآخَرِينَ، وَلَكِنْ فِي مَذْهَبِ نَهْمِهِ الدَّامِي
الْمُقْتَرِسِ، مِثْلَمَا تَشْعُرُ الذَّنَابُ بِوُجُودِ فَرَائِسِهَا الَّذِي هُوَ مُبَالِغَةٌ فِي عَدَمِ الشُّعُورِ بِغَيْرِ
وُجُودِهَا فَقَطْ، إِنَّهُ يَشْعُرُ بِهِمْ شُعُورَ الْإِمْتِصَاصِ وَإِزْوَإِ نَهْمِ الذَّنَابِ، إِنَّ ظَنَائَتَهُ
تَطِيفُ بِهِمْ مُحَاوَلَةً لَوْ تُحِيلُهُمْ قَطْرَةً تُنْذِي بِهَا لُعَابَهَا.

أَيَكُونُ يَزِيدُ الْقَائِمَ عَلَى شَرِيعَةِ رَسُولِكَ؟ وَشَرِيعَتُهُ ذَوْبٌ رَحْمَةٍ فِي ذَوْبٍ
عَدَالَةٍ وَرَفَقٍ، وَهَيْهَاتَ أَنْ تَجِدَ مَكَانَهَا فِي غَيْرِ ضَمِيرٍ فِيهِ مِنْ مَعْنَاهَا، وَفِيهِ مِنْ
رُوحِهَا؛ وَإِلَّا فَهِيَ عَافِيَةٌ كَالطَّلَلِ، وَذَاوِيَّةٌ كَالْهَشِيمِ يَغْبُثُ بِهَا الْهَوَى، وَيَتَقَادَّزُهَا
مِثْلُ أَوْرَاقِ الْخَرِيفِ، فِي أَوْدِيَةِ الشَّهَوَاتِ، وَيَبْنِ الْمَغَاوِرِ وَالْكُهُوفِ الضَّاجَّةِ بِالْفُسُوقِ.

إِنَّ الشَّرِيعَةَ، كَكُلِّ تَعْلِيمٍ، كَائِنٌ يَزْدَوِجُ بِالْحَيَاةِ، فَيَنْفَعِلُ بِهَا لِيُحْيَا، وَيَفْعَلَ فِيهَا
لِتَوْقَى. فَإِذَا لَمْ يَتِمَّاسًا ظَلَّتِ الْحَيَاةُ جَامِخَةً فَاجِرَةً، وَظَلَّتِ الشَّرِيعَةُ مِثْلَ شَرَارَةٍ
مَخْرُوتَةٍ لَمْ تَنْقِدِخْ فِي قَمِ الْمِضْبَاحِ فَتُحْيَا بِهِ وَيَنْطِقُ بِهَا، صَادِعًا بِلِسَانِ الضَّيَاءِ،
وَمُغْلِنًا بِنِدَاءِ الثُّورِ.

إِنَّ شَرِيعَةَ رَسُولِكَ وَجَدَتْ حَيَاتَهَا فِي حَيَاتِهِ، وَاسْتَمَدَّتْ رُوحَهَا مِنْ رُوحِهِ،
فَقَرَّامَتْ بِالضَّيَاءِ إِلَى كُلِّ مَكَانٍ، وَطَبَعَتْ بِحَقِيقَتِهَا مَادَّةَ الزَّمَانِ، فَسَعِدْنَا حِينَا بَدُنَا
الْقُرْآنَ.

على أَنَّهُ عَادَ إِلَى اسْتِغْرَاقِهِ، وَكَانَ أَيْضًا عَمِيقًا، وَلَكِنْ لَمْ يَبْرَحْ حَتَّى سَاوَرَهُ
غَضَبٌ مَكْظُومٌ اسْتَعَلَّ فِي غَيْبَتِهِ، وَرَاحَ يُنَاجِي نَفْسَهُ فِي نَبْرَاتٍ حَادَّةٍ كَأَنَّهَا
تَلْتَهَبُ:

نعم. نعم. نحنُ بَايَعْنَا اللَّهَ عَلَى التَّقْوَى، وَلَنْ نُبَايِعَ إِلَّا عَلَيْهِا، أَوْ نَمُوتَ فِي
سَبِيلِهَا. أَلَا إِنَّهُ اخْتَارَنَا لِحَمْلِ أَمَانَتِهِ الْعُظْمَى، وَأَنْتَظَرُ مِنَّا الْوَفَاءَ وَالْإِقْدَاءَ بِكُلِّ
عَظِيمٍ. وَمَنْ نَذَرَ نَفْسَهُ لِلَّهِ فَقَدْ أَرْخَصَهَا لَهُ.

«إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ، يُقَاتِلُونَ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، وَمَنْ أَوْفَى
بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

إِنَّ السَّمَوَّالَ - وَهُوَ جَاهِلِيٌّ لَمْ يَتَأَنَسْ قَلْبُهُ بِالْإِشْرَاقِ - عَاهَدَ إِنْسَانًا،
وَاسْتَجَابَ حِينَ دَعَاهُ الْوَفَاءَ، وَكَانَ دَامِيًا.

إِسْتَجَابَ جَاهِلِيٌّ لِلشَّرَفِ، فَكَيْفَ لَا أَسْتَجِيبُ لِلإِيمَانِ؟ إِنِّي إِذَا لَنَكِلُ
خَوَارِ...
 «أَلَمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الْعَارِ...»

وَالْعَارُ خَيْرٌ مِنْ دُخُولِ النَّارِ...

وَاللَّهُ مِنْ هَذَا وَهَذَا، جَارِي...»

فَكَيْفَ إِذَا بِالْعَارِ وَالنَّارِ، أَجْمَعُهُمَا عَلَى نَفْسِي فِي دُنْيَا الظَّالِمِينَ!...
 وَيَمْنَمَا الْحُسَيْنُ فِي سَبْحَاتِهِ الْقُدْسِيَّةِ وَنَجْوَاهُ الْمَائِجَةِ بِرُوحِ الاضْطِفَاءِ، تَبَدَّى
 لِنَاطِرِيهِ، فِي وَجْهَةٍ قَلْبِهِ، أَطْيَافٌ يَسْتَمِلُهَا الرِّضَا، وَتَلْفَعُهَا نَشْوَةُ الاغْتِبَاطِ، وَهِيَ
 ثُبَارُكُهُ وَتَشْدُّ عَزْمَهُ، وَتُهَيِّبُ بِهِ إِلَى الْوَثْبَةِ، إِلَى الْوَثْبَةِ الْكُبْرَى، فَهَتَفَ مُسْتَبْشِرًا:
 رَبَّاهُ! مَاذَا أَرَى؟ إِنَّهَا أَطْيَافُ جَدِّي الْمُصْطَفَى، وَأَبِي الشَّهِيدِ، مِنْ وَرَائِهِمَا
 الْمَلَائِكُ، تَدْعُونِي إِلَى اللَّهِ، إِلَى التَّضْحِيَةِ الْعُظْمَى.

كَانَ الْكَبْشُ، فِي يَوْمٍ، فِدَاءَ نَبِيِّ «فِي حِكَايَةِ إِبْرَاهِيمَ وَأَبْنَيْهِ»...

وَلَكِنَّ النَّبِيَّ الْأَعْظَمَ، إِنَّمَا يَكُونُ لَهُ الْفِدَاءُ الْأَعْظَمُ...

وَحَبِيبٌ إِلَى نَفْسِي أَنْ أَكُونَ ذَلِكَ الْفِدَاءَ... «فِي حِكَايَةِ الْاِسْتِشْهَادِ يَوْمَ
 كَرْبَلَاءَ».

*

كَانَ الْحُسَيْنُ لَمْ يَزَلْ فِي نَجْوَاهُ، حِينَ «أَسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ، وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ، رَسُولُ
 الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ يَدْعُوهُ، وَكَانَ يَوْمَئِذٍ أَمِيرَ الْمَدِينَةِ. فَأَمَرَ الْحُسَيْنُ بِالْاِنْقِلَابِ إِلَيْهِ، وَقَامَ
 الْحُسَيْنُ، وَجَمَعَ بَعْضًا مِنْ غِلْمَانِهِ وَمَوَالِيهِ، وَأَمَرَهُمْ بِخَمْلِ السَّلَاحِ، فَانْتَهَى إِلَى
 الْوَلِيدِ، وَقَالَ لِأَصْحَابِهِ:

إِذَا دَخَلْتُ فَأَجْلِسُوا عَلَى الْبَابِ، وَإِنْ دَعَوْتُكُمْ أَوْ سَمِعْتُمْ صَوْتِي قَدْ عَلَا،
فَاقْتَحِمُوا عَلَيَّ بِأَجْمَعِكُمْ، وَإِلَّا فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُخْرِجَ إِلَيْكُمْ. فَدَخَلَ الْحُسَيْنُ عَلَى
الْوَلِيدِ - وَمَرَّوَانُ عِنْدَهُ - وَجَلَسَ، فَأَقْرَأَهُ الْوَلِيدُ الْكِتَابَ، وَنَعَى إِلَيْهِ مُعَاوِيَةَ، فَقَالَ
الْحُسَيْنُ:

إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. أَمَّا الْبَيْعَةُ فَإِنَّ مِثْلِي لَا يُعْطِي بَيْعَتَهُ سِرًّا، وَلَا أَرَاكَ
تَقْنَعُ بِهَا مِنِّي كَذَلِكَ... قَالَ: أَجَلٌ. قَالَ: فَإِذَا خَرَجْتَ إِلَى النَّاسِ فَدَعَوْتُهُمْ إِلَى
الْبَيْعَةِ دَعَوْتَنَا مَعَهُمْ، فَكَانَ الْأَمْرُ وَاحِدًا. فَقَالَ لَهُ الْوَلِيدُ: عَلَى أَسْمِ اللَّهِ، حَتَّى تَأْتِينَا
مَعَ جَمَاعَةِ النَّاسِ.

قَالَ مَرَّوَانُ لَمَّا وُلِّيَ: غَضَبْتَنِي وَاللَّهِ، لَا قَدَرْتَ مِنْهُ عَلَى مِثْلِهَا أَبَدًا، حَتَّى
تَكْثُرَ الْقَتْلَى بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ... وَكَانَ مَرَّوَانُ قَدْ أَشَارَ عَلَيْهِ أَنْ آتِئْتُ إِلَى الْحُسَيْنِ، فَإِنْ
بَايَعَ، وَإِلَّا فَأَضْرِبْ عُقْقَهُ.

قَالَ الْوَلِيدُ: وَيَحْكُ! أَتُشِيرُ عَلَيَّ بِقَتْلِ الْحُسَيْنِ؟ وَاللَّهِ إِنَّ الَّذِي يُحَاسِبُ بَدَمَ
الْحُسَيْنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَخَفِيفُ الْمِيزَانِ عِنْدَ اللَّهِ.

رُغِمَ مَا يَفْتَلِحُ فِي قَلْبِ الْحُسَيْنِ مِنْ عَاصِفٍ يَكَاذُ يَنْطَلِقُ، وَبُزُكَانٍ يَكَاذُ
يَشُورُ، أَبْدَى فِي هَذَا الْمَوْقِفِ الْحَرَجِ الدَّقِيقِ أَقْصَى مَا يُتَصَوَّرُ مِنْ ضَبْطِ الْأَعْصَابِ،
وَحُسْنِ الثَّأْتِي الْفَائِقِ فِي تَضْرِيفِ الْأُمُورِ، وَاللِّبَاقَةِ الْبَالِغَةِ فِي الْحِوَارِ السِّيَاسِيِّ.

خَرَجَ الْحُسَيْنُ مِنْ مَكَانِ الْوَلِيدِ مُزْمِعًا عَلَى خُطَّةٍ، وَإِنْ تَكُنْ رَهْبِيَّةً، خَفَقَ لَهَا
قَلْبُهُ، وَاسْتَجَابَ إِلَيْهَا بِكُلِّ مَشَاعِرِهِ، حَتَّى لَبَدَتْ عَلَى سِيَمَائِهِ وَجَرَتْ عَلَى لِسَانِهِ،
وَهُوَ قَاصِدٌ إِلَى مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ، فَقَدْ سَمِعَهُ أَبُو سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيُّ يَتَمَثَّلُ بِقَوْلِ يَزِيدَ بْنِ
رَبِيعَةَ بْنِ مُفَرِّغٍ:

لَا دَعَوْتُ السَّوَامَ فِي فَلَقِ الصُّبِّ حُجَّ مُغِيرًا، وَلَا دُعَيْتُ يَزِيدًا
يَوْمَ أُعْطِيَ مِنَ الْمَهَانَةِ ضَيْمًا وَالْمَنَايَا يَرُضْدُنَنِي أَنْ أَحِيدًا

وما هو حَتَّى هَبَطَ بِأَهْلِهِ مَكَّةَ لثَلَاثِ مَضَبِينَ مِنْ شَعْبَانَ سَنَةِ سِتِّينَ، وَلَبِثَ فِيهَا حَتَّى يَوْمِ التَّرْوِيَةِ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ...

*

فِي مَكَّةَ، حَيْثُ الذُّكْرِيَّاتُ الْمُلْهِمَاتُ الَّتِي تَصْفُرُ عَلَى كُلِّ مَكَانٍ مِنْ أَرْضِهَا وَسَمَايْهَا، وَعِنْدَ مُعْتَنَقِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، حَيْثُ يَقَعُ الْأَفَقُ الْمَكْلَلُ بِالْوَحْيِ، لَبِثَ الْحُسَيْنُ يَزْنُو، وَقَدْ ذَابَتْ فِي نَظَرَاتِهِ أَوْهَامُ النَّاسِ فِي الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ.

إِنَّ نَظَرَهُ آغْتَلَقَ بِالْأَبَدِ الْفَسِيحِ الَّذِي تَبْدُو الدُّنْيَا، بِكُلِّ أَشْيَائِهَا مِنْ آفَاقِهِ، صَدَفَةً حَقِيرَةً فِي لُجِّ الْفَنَاءِ.

وَقَدْ رَأَى هُنَاكَ أَنَّ الْأَحْيَاءَ يَعِيشُونَ فِي عَالَمٍ أَعْمَالِهِمْ عَلَى حَقَائِقِهَا، وَالْأَعْمَالُ فِيهِ لَيْسَتْ مَاتِي فَقَطْ تَتَقَضَّى مَعَ أَنْهَا وَجِينَهَا، بَلْ هِيَ مَوَالِيدُ يَخْيَاهَا الْمَرْءُ فِي خَلَاوَتِهَا وَمَرَارَتِهَا، وَفِي نُورِهَا وَظِلَامِهَا. وَالْمَرْءُ هُنَاكَ لَا يُحْسِنُ بِالْأَلَمِ أَوْ اللَّذَّةِ، وَالْفُتُوحِ أَوْ الْجَمَالِ، إِحْسَاسًا مِثْلَمَا هُوَ شَأْنُ إِحْسَاسِ الْفَنَاءِ، بَلْ تَحْيَا فِيهِ كُلِّيَّاتُ هَذِهِ الْمَعَانِي حَيَاةَ جَوْهَرِهَا.

وَكَانَتْ تِلْكَ الذُّكْرِيَّاتُ الْخَالِدَاتُ لَا تَفْتَأُ تَتَنَادَى بِهِ إِلَى آسْتِغْنَاكِ الْجِهَادِ، آسْتِغْنَاكِ الْجِهَادِ الْأَوَّلِ الَّذِي بَدَأَهُ جَدُّهُ الْمُصْطَفَى، مُكَافِحًا وَحِيدًا وَبَطْلًا فَرِيدًا، حَتَّى أَمَالَ دُنْيَا وَأَثَبَتْ دُنْيَا، وَمَا قَعَدَ بِهِ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ إِلَبَّ، وَهُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَدْعُو إِلَى سَبِيلِ الرَّبِّ.

إِنَّ كَلِمَةَ اللَّهِ فِي فَمِ الْإِنْسَانِ تَنْتَشِيرُ مِثْلَ شُعَلَاتِ.

تُحْرِقُ فِي مَدَاهَا كُلُّ مَا لَيْسَ مِنْهَا.

فَإِذَا لَهَا عَلَى الْأَرْضِ ضِيَاءٌ، كَمَا لَهَا فِي السَّمَاءِ ضِيَاءٌ.

«اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ».

كَانَتْ تَمْوُ بِه هَذِهِ التَّصَوُّرَاتِ، وَقَدْ مَسَحَهَا جَوْ مَكَّةَ بِمَا فِيهِ مِنْ أَقْدَاسٍ
وَذِكْرِيَّاتٍ عَزَمَ لَا يُقْفَهَرُ، فَهَبَّ نَاشِطاً فِي مِثْلِ الزَّئِيرِ الَّذِي يُبَادِرُ الانْطِلَاقَ، غَيْرَ
ثَابِتٍ أَمَامَ نَاطِرِيهِ إِلَّا «وَلَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ».

وَأُسْوَتِي بِهِ، أَنْ أَجَالِدَ جِلَادَهُ، وَأَنْ أُنَافِخَ مُتَافِحَتَهُ، وَأَنْ أَنْتَهِيَ لِعَايَتِهِ.

أَلَا إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ عَلَّ البَغْيِ والْبَاغِي، وَدَكَ دُنْيَا الْأَوْتَانِ بِمَا فِيهَا، وَإِنَّ الْبَاغِي
الْيَوْمَ يُحَاوِلُ الانْفِلَاتَ، وَأَوْتَانُ الْآلِهَةِ اسْتَوْلَذَتْ أَوْتَانُ النَّاسِ. فَكَيْفَ أَتَلَبُّ دُونَ أَنْ
أُغْلَ ذَاكَ، وَأُعْتَصِرَ هَذَا، وَمَا أَبَالِي أَكَانَتْ فِيهِ مَيِّتِي أَمْ كَانَتْ فِيهِ أُمِّيَّتِي...

وَأَنَّ مُحَمَّدًا أُخْرِجَ مُهَاجِراً يَدْعُو إِلَى اللَّهِ فِي مُبَالَعَةِ الْغُيُونِ وَالْأَرْصَادِ، فَكَيْفَ
لَا أَخْرُجُ دَاعِياً إِلَيْهِ غَيْرَ مُبَالٍ بِالْحَيَاةِ، وَلَا مُكْتَرِبٍ بِالْمَوْتِ فِي سَبِيلِهِ؟

وَلَسْتُ أَبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِماً عَلَى أَيْ جَنْبٍ كَانَ فِي اللَّهِ مَضْرَعِي

وَكَفَى بَعْمَلِي عِنْدَ اللَّهِ رِضاً، أَنْ يَكُونَ الْهِجْرَةُ الثَّانِيَّةَ.

إِنَّ الْهِجْرَةَ الْأُولَى، هِجْرَةُ رَسُولِ اللَّهِ، كَانَتْ، وَغَايَتُهَا الْبِنَاءُ.

وَأَنَّ الْهِجْرَةَ الثَّانِيَّةَ، هِجْرَةُ سَبِيحِ رَسُولِ اللَّهِ، كَانَتْ، وَغَايَتُهَا الْحَافِظَةُ عَلَى
ذِيَالِكَ الْبِنَاءِ.

وَمَا هُوَ حَتَّى تَسَامَعَ النَّاسُ بِعَزَمِ الْحُسَيْنِ، وَمَا هُوَ حَتَّى مَشَى الْكَثِيرُونَ بَيْنَهُ
وَبَيْنَ غَايَتِهِ، يَوْعِبُونَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَفْعَلَ، وَيُثَبِّطُونَ مِنْهُ وَيُوْهِنُونَ مَا آسَتَوَى عَلَيْهِ
عَزْمُهُ. فَقَالَ آبُنُ عَبَّاسٍ، وَقَالَ آبُنُ الزُّبَيْرِ، وَبَدَّهَهُ هَذَا، وَثَنِي ذَاكَ، إِلَى كَثِيرٍ كَثِيرٍ،
وَكُلُّهُمْ قَوْمٌ عَشِيرٌ، وَقَحْزٌ قَبِيلٌ.

وَكَانَ الْحُسَيْنُ يَسْتَمِيعُ إِلَيْهِمْ وَكَأَنَّهُ بَطَلَ الْمَعْرَكَةِ الْمُنتَظَرِ، يَرَى فِي تَحَامِي

الْفُوسَانِ جُبْنًا أَكْبَرَ عَارًا، فَيَزِيدُهُ تَلْظِيًا وَحِمِيَّةً، وَفِي تَقَهُّقِرِ الشُّجْعَانِ خَوْرًا أَبْلَغَ غَوْرًا
وَأَعَمَّقَ أَثْرًا، فَيَرْقُدُهُ عَزْمًا وَيَضْطَئِدُهُ شَكِيمًا.

إِحْتِضَارُ نَسْرِ... فِي هَمْسِ كَالزَّئِيرِ

مَرَّ نَسْرٌ يُحَلِّقُ فَوْقَ الْآكَامِ، فَتَكْنُفَتْهُ بُعَاثُ النَّسْرِ- أَيِ ضِعَافِهَا - مِنْ كُلِّ
مَكَانٍ...

تُهِيبُ بِهِ أَنْ لَا يَمْضِيَ بَعِيدًا، فَهُنَاكَ صُقُورٌ تَعِيثُ فُسَادًا وَتَبْثُ رُغْبًا.
وَلَكِنَّ النَّسْرَ شَدَّ جَفْنَيْهِ طَوِيلًا، كَأَنَّهُ لَا يُصَدِّقُ أَنَّ هَذِهِ لَعَةُ نَسْرِ...
عَلَى أَنَّهُ مَضَى، وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّ النَّسْرَ شَيْءٌ فِي الْمَعْنَى، وَلَيْسَ شَيْئًا فِي
الشُّكْلِ...

فَإِذَا اسْتَحَالَ الْمَعْنَى شَكْلًا فَقَطْ، فَهُنَاكَ مُسَوِّخٌ لَا نُسُورًا...
ثُمَّ انْطَلَقَ يَهْوِي غَيْرَ مُبَالٍ بِمَا سَوْفَ يَغْتَرِضُهُ.

*

وَمَا هُوَ حَتَّى وَائِبَتْهُ جَمَاعَةُ الصُّقُورِ، فَنَالَ مِنْهَا كَثِيرًا وَنَالَتْ مِنْهُ مَقْتَلًا...
عَلَى أَنَّهُ كَانَ مُغْتَبِطًا أَيْضًا، فَقَدْ هَمَسَ فِي أَنْفَاسِ الْمُحْتَضِرِ...
سَوْفَ يَظَلُّ فِي الْأَجْيَالِ أَنَّهُ هُنَا يَرْقُدُ نَسْرٌ وَجَدَ حَقِيقَتَهُ...
وَهُنَاكَ تَحْيَا نُسُورٌ فَقَدَتْ حَقِيقَتَهَا...

إِنِّي أَقْضِي، وَيَقِى فِي ضَمِيرِ الْوُجُودِ أَنَّ اقْتِحَامَ الطَّرِيقِ، دَائِمًا فِي
الْإِمْكَانِ...

مُتَّ مَوْتَ هَذَا النَّسْرِ، عَيْنٌ فِي مُقْلَةِ الشَّمْسِ وَجَنَاحٌ لَهُ فِي الْآفَاقِ...

وَلَمْ تُمْتْ مَوْتَ الْبَهِيمِ عِنْدَ الشُّفُوحِ، لِيَتَظَلَّ عَلَى لِسَانِ الدُّهُورِ وَتَعَاقِبِ
الْعُصُورِ، أُسْطُورَةً تُزَوِّى...

*

إِنْطَلَقَ الْحُسَيْنُ مُودِّعاً الْكَعْبَةَ، بَيْتَ اللَّهِ، حَامِلاً رُوحَهَا يَبْنَ جَنْبَيْهِ، وَشُعَلَتِهَا
يَكِلُنَا يَدَيْهِ...

تَوَازَيْتُ الْمَلَائِكُ وَتَبَارَكُهَا، وَتَطْيِفُ بِهِ كَأَنَّهَا حَذِيرَةٌ عَلَيْهِ...
فَإِنَّهُ الْبَقِيَّةُ مِنْ لُزْثِ السَّمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ!...

*

رَغِياً لِيَذْكُرَكَ أبا عَبْدِ اللَّهِ، فَقَدْ أَحْسَسْتُ بِرُوحِ الْأَخْلَاقِ فِي رُوحِ الْوُجُودِ...
فَأَرَدْتُ الْحَيَاةَ دُنْيَا مِنْ الْأَخْلَاقِ وَالْفَضِيلَةِ وَالْحُبِّ...
وَأَرَادَهَا الْآخَرُونَ دُنْيَا مِنَ الشَّهَوَاتِ وَالرَّذِيلَةِ وَالْأَحْقَادِ...
أَرَدْتُهَا كَوْنًا مِنْ لَذَّةِ الرُّوحِ، وَلَوْ فِي شُعُورِ الْأَعْصَابِ بِالْأَلَمِ...
وَأَرَادُوهَا كَوْنًا مِنْ لَذَّةِ الْأَعْصَابِ، وَلَوْ فِي شُعُورِ الرُّوحِ بِالْأَلَمِ...
فَأَسْتَحَالَتِ الْآلَامُ الْكُبْرَى، فِي جِسِّ النَّاسِ، لَذَّةً كُبْرَى فِي جِسِّكَ!...

*

حَتَّى لَقَدْ شَعَرْتُ حِيَالَ الدَّمِ الْمَسْفُوحِ، أَنَّهُ شَفَقٌ مِنْ شُعَاعِ الرُّوحِ...
وَرَأَيْتُ، فِي حُمْرَةِ الدِّمَاءِ، لُؤْلُؤَةً جَمَالِ الْحُسَيْنِ...
وَلَا يَدْعُ، فَقَدْ يَمَّا قِيلَ الْمَثَلُ السَّائِرُ: «إِنَّ الْحُسَيْنَ أَحْمَرَ»...

* * *

مَنْبَهَةٌ... لهذه الطَّبعة (ز) - (ل)
 الفاتحة (م) - (س)
 مُقَدِّمَةٌ (ف) - (ث)

يوم المدينة (٢٥) يوم الميلاد (٦٧)
 يوم القرآن (٤١) مشاهد (٧٧)
 يوم الايمان الشامخ (٥٥) يوم الدولة (٨٩)
 دموع (٩٩)

من أيَّام العهد الراشدي

مع خليفة (١٠٩) في الثورة (١١٩)
 جهاد الشباب (١١٣) في الزوينة (١٣٩)
 إلتياح (١٦١)

من أيَّام الحسين السبط (ع)

في الهيكل (١٧٥) تقوى (٢٢٧)
 في وجه الظلم (١٨٣) استشارة (٢٤٥)
 مع أُرَيْنب (١٩٧) إلى الله (٢٥٣)

... فمُحَمَّدٌ لَمْ يَصْنَعْ أُمَّةَ بَيْرِ الْأُمَمِ، بَلْ صَنَعَ
أُمَّةً فِي عِدَادِ الرُّسُلِ إِلَى كُلِّ الْأُمَمِ، وَأَكْبَرُظِيَّتِي
أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَنْطَلِقُ فِي جِسْمِ الْعَالَمِ الْمُتَدَاعِي، كَمَا
تَنْطَلِقُ الْعَصَاةُ، وَفِيهَا الْحَرَارَةُ وَالْحَيَاةُ وَالْحَرَكَةُ.



9 782910 355005

ISBN: 2-910355-00-4